المركز القومى للترجمة

ول ديورانت

مباهج الفلسفة

الكتاب الثانى

ترجمة: أحمد فؤاد الأهوانى

تقديم: سعيد توفيق



ميراث الترجمة

1946

مباهج الفلسفة

الكتاب الثانى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1946
- مباهج الفلسفة: الجزء الثانى
- ول ديورانت
- أحمد فؤاد الأهوانى
- اللغة: الإنجليزية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:
Pleasures of Philosophy
(Part II)
by: Will Durant

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مباهج الفلسفة

الكتاب الثانى

تــــأليف : وول ديورانـــــــت
ترجمـــــة : أحمد فؤاد الأهــوانى
تقـــــديم : ســـــعيد توفيـــق

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ديورانت؛ ول
مباهج الفلسفة (الكتاب الثانى) / تأليف: ول ديورانت، ترجمة: أحمد فؤاد الأهوانى.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
٣٤٠ ص، ٢٤سم
١- الفلسفة
(أ) الأهوانى، أحمد فؤاد (مترجم)
(ب) العنوان ١٠٠

رقم الإيداع ١٥٤٨٨ / ٢٠١١
الترقيم الدولى: 978-977-704-729-6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

مباهج الفلسفة

الكتاب الثاني

تأليف

ول ديورانت

ترجمة

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

محتويات الكتاب الثانى

الجزء السادس

صفحة

فلسفة التاريخ

صفحة

الجزء السابع

الفلسفة السياسية

صفحة

الجزء الثامن

الدين : محاورة

الجزء التاسع

خاتمة

اعتراف

هذا الكتاب ، على الرغم من عنوانه الجديد المرح ، طبعة منقحة من كتاب « صروح الفلسفة Mansions of Philosophy » الذى طبع عام ١٩٢٩ ، ونفدت طبعته منذ عشر سنوات ، وتهافت الطلب عليه إلى الحد الذى يغتفر معه إصدار طبعة جديدة . وفى الكتاب صفحات تدل على أن تألقها كان منذ ربع قرن مضى ، وسوف يبتسم القارىء عند كثير من الأفكار التى تحويها . ومع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أكتب عن الماضى لا عن المستقبل . وهناك بعض صفحات تفيض بالعاطفة ، ولكنها لا تزال تعبر عن ذات نفسى أصدق تعبير ، وصفحات أخرى ساخرة أو متشائمة بغير حق ، وبخاصة فى الفصل الثامن عشر . وإذ كشفت أنى غير معصوم من الخطأ ، فقد ينبغى اليوم أن أكون أشد رفقاً بالزملاء والحكومات . وإنى لأعتقد أن فى الكتاب — على الرغم من هذه الأخطاء — صفات تعين على النجاة . لهذا السبب ألقيته مرة أخرى فى بحر المداد حتى يلتمس من هنا ومن هناك صحبة الأرواح المؤتلفة فى دولة العقل .

ول ديورانت

نيويورك فى ١٥ نوفمبر ١٩٥٢

الجزء السادس

فلســـفة التـــاريخ

الفصل الرابع عشر

معنى التـــــاريخ : ندوة

شخصيات المحـاورة

أناتول فرانس
فرانسوا مارى أروى دى ڤولتير
جاك بنين بوسويه
هنرى توماس باكل
توماس كارليل
فردريش راتزل
وليم جيمس
جابرييل تارد
شارل لويس دى سكوندا بارون دى منتسكيو
فردريش نيتشه
جورج ولهلم فردريش هيجل
لستر وارد
كارل ماركس
جوزيف آرثر كونت دى جوبينو
ماديسون جرانت
فيليب
اربيل
راوى الحوار

المنظر : حديقـة فى مملكة العقـل

١ ـــ مدخل فى بومانوك[١]

بينا كنا نمشى فى أحد وديان بومانوك أخذنا نتحدث بحماسة عن اعتقاد كروتشى بأن التاريخ لا ينبغى أن يدونه إلا الفلاسفة ، وأن الفلسفة لا يجب أن يكتبها إلا المؤرخون . وانتشت حواسنا بخضرة الأرض ، وظل الأشجار الكثيفة الظليل ، وصفاء ماء البحيرة ، وضوء الشفق الذهبى عند الغروب ، وكانت أفكارنا تسبح مع الكتب التى كنا نقرؤها ذلك الصيف بعد الأصيل .

---

(١) بومانوك Paumanok هو الاسم الهندى لجزيرة لونج أيلاند ، وهى التى استخدمها الشاعر الأمريكى والت هويتمان فى قصيدته « أوراق الحشائش » (المترجم) .

قالت آرييل : ما أعظم سروري مما نفعله الآن من دراسة التـاريخ . لقد أخذت أسأم منطقك ونظرية معرفتك وميتافيزيقاك ، التي انتزعت مني ما كنت أعرفه من قبل من حقائق بدلا من أن أتعلم منها حقائق جديدة .

فأجاب فيليب : ليس من الخير أن يسرف المرء في تحصيل كثير من الحقائق .

فقلت : لعل تلك الدراسات المملة جديرة بشيء من الاعتبار ، ولو لم تمنحنا أكثر من عادة التفكير الفلسفي : أعني عادة البحث في المسائل الكلية الكبرى ، وتطبيق النظرة الشاملة على أمورنا الصغيرة .

فقالت آرييل بابتسامة سمحة : أراك مغرماً بهـذه العبارة : « النظرة الشاملة » أليس كذلك ؟

فقلت : نعم أنا من أخلص الناس للنظرة الشاملة وأشدهم للتكامل حماسة ، لأني أريد رؤية الأشياء كُلاً .

فقال فيليب بحرارة : حسنا . ولكن هذا بالضبط ما لا يحفل المؤرخون بعمله ؛ إذ في إذهانهم بعض العقائد الدينية يرغبون في إثباتها ، أو برنامج حزب سياسي يودون إعلاء شأنه ، أو وهم وطني يريدون فرضه . فهم لا يجسرون على رؤية وطنهم ، أو حزبهم ، أو عقيدتهم ، في ضوء النظرة الشاملة . إن ثمانين في المائة من جميع التاريخ المدون أشبه بالكتابات الهيروغليفية ، فهو موجود لتمجيد جلائل أعمال الملوك والكهنة .

وتساءلت آرييل قائلة : وحتى مؤرخنا المحبوب جيبون يتحدث كثيراً عن الملوك . ألا تظن ذلك ؟

فقلت : أجل ؛ ومع ذلك فإنه يرسم لوحات عظيمة كلوحات ميخائيل أنجلو ، ويؤلف موسيقى كألحان باخ . لذلك لن أبيح لنفسي سماع كلمة تسيء إليه . هلا ذكرت وودرو ولسن الذى عرّف التاريخ بأنه « سياسة الماضي » — هذه سقطة أقدمها إليك ، كما لو كان في السياسة شيء تحفل الإنسانية بذكره .

قالت آريبل : لقد كانت الحكومة الصينية أكثر أمانة ، إذ ظلت مدى ستة وعشرين قرناً وإلى سنوات قليلة مضت تستأجر المؤرخين ليسجلوا لهـا فضائل وانتصارات الإمبراطورية ، ويزيفوا رذائلها وهزائمها .

فقال فيليب : هذا التاريخ المثالى يقدم لإذكاء الحماسة الوطنية بين تلاميذ المدارس ؛ ومع ذلك لم تكن الأمور فى الصين القديمة أسوأ منها فى أوربا الحديثة . حقاً قدم لنا العصر الوسيط والنهضة والتنوير تواريخ عن العالم ، ولكن القرن التاسع عشر اكتشف الوطنية ، وأفسد جميع المؤرخين تقريباً . فقد كان تريتشكى ، وفون سيبل ، وميشليه ، ومارتن ، وماكولى ، وجرين ، وبنكروفت ، وفسكه ، وطنيين أولا ومؤرخين بعد ذلك ، وطنهم هو وطن الله ، وسائر العالم فيما عداه مملوء بالأوغاد والمتبربرين . وليس ثمة فرق كبير بين مثل هؤلاء الكتاب وبين محترفى السياسة الذين كانوا يصفون شعب جوته بالهون ، وأهل شوبان بالبولاك ، وشعب اسبينوزا باليهود الخادعين ، وأهل ليوناردو بالإيطاليين الأوباش . أصدق وصف لهؤلاء المؤرخين أنهم صحفيون يعملون لحساب الساسة لتجنيد ضباط للجيش والبحرية .

عندئذ تساءلت آريبل قائلة : من ذلك الذى اقترح أن يكون إلغاء التاريخ لا المعاهدات أو التجارة أفضل طريق للسلام العالمى ؟ (١)

وتجاسرت فقلت : ولكن القرن العشرين ليس بأفضل من التاسع عشر . فلست أستسيغ هذا الأسلوب العصرى الذى يثبت أن جميع عظماء الرجال صغار ، وأن أهم صفاتهم الإسراف فى الحلف والكذب والشراب والحب . ولن أغفر لويلز أنه أنزل نابليون وقيصر إلى مستواه . فأنا متعلق بدينى الأخير ، وهو عبادة العظماء .

فقال فيليب : لست متفقاً وإياك ، فهؤلاء الكتاب للسير الذين يظهروننا على الجانب المعكوس من العبقرية ، أو يلتمسون فى قصيدة « الغراب » أو

The "Drifter" in the Nation, New York, Sept. 13, 1922. (١)

« مغامرات هكلبرى فن »[1] جميع عقد فرويد النفسية ، متحيزون كأى كاتب سيرة يطلى بأساويه وجه الشخصية . وعلينا أن نجمع بين هذين النوعين لنظفر بشيء من الحقيقة . وأقبح منهم أولئك المؤرخون من أساتذة الجامعات الذين يفنون أعمارهم فى إظهار عظمة الصغائر ، ويكتبون رسائل تشبه فى حذلقتها وعدم جدواها رسائل الدكتوراه فى الفلسفة . انظر إليهم وهم يتجولون فى المكتبات حيث يقبرون أنفسهم متخصصين فى الدقائق ، ويقفون أنفسهم فى صبر النمل على جمع الحقائق من أجل الحقائق . يدفنون أنفسهم فى الوثائق والإحصاءات ، ويبرهنون بجد ودأب على صدق الصغائر صدقاً لاشك فيه . إنهم يرون الأشجار ولا يحلمون أبداً برؤية الغابات . ولا يخطر ببالهم أن الماضى ميت ، إلا بمقدار ما يعيش ويؤثر فى أخلاق وغايات الناس اليوم ، وأنه لاقيمة للتاريخ إلا بمقدار ما ينير الحاضر ، ويعين على توجيه المستقبل . إنهم المدرسيون فى التاريخ ، أصدق إخوة لأولئك الإبستمولوجيين الذين تكرههم أشد الكراهية . إنهم أشبه بعلماء الحياة الذين يقتلون الحشرة ويحفظونها فى الكحول ويشرحونها على مهل ويقطعون جهازها الهضمى ، ثم يحسبون أنهم يدرسون علم الحياة . أو هم كالسنور الذى يختبىء فى جحره ، يعتكفون فى معامل علم النفس التجريبى ليبينوا بأقصى ما يمكن جمعه من المقاييس والرسوم البيانية ومعاملات التغير ما عرفه كل إنسان عن السلوك البشرى منذ آلاف السنين .

وابتسمت آرييل لحماسته وصاحت : فليسقطوا جميعاً .

واقترحت قائلا إنهم فى حاجة إلى نسمة من ريح الفلسفة تحيى فى أنفسهم الإحساس بالمجموع .

قالت آرييل : أجل ، إنى أود أن أرى التاريخ كما تسميه متكاملا ، وأود أن أعرف هل توجد فيه قوانين أو على الأقل دروس ، وهل التقدم شىء حقيقى أو ليس إلا وهماً لذيذاً من أوهام عصرنا ، وهل يستطيع الماضى هدايتنا

---

(١) قصيدة الغراب أفضل قصائد الشاعر الأمريكى إدجار ألان بو ، ومغامرات هكلبرى فن قصة لمارك توين (المترجم)

كلما ألقينا بأنفسنا فى أحضان المستقبل . لن أنسى عبارة قالها نابليون فى أواخر حياته : « إنى لأرجو أن يتعلم ابنى التاريخ لأنه الفلسفة الوحيدة » . إنى متأكدة أننا سنعرف من التاريخ إذا كتب كما ينبغى حقيقة الطبيعة البشرية معرفة أفضل من أى كتاب فى علم النفس والفلسفة فى العالم . إنى أود معرفة الرجال كما عرفهم عظماء الحكام ، دون إسراف أو تقصير .

فقلت : هذه عبارة بديعة يا آريل .

قال فيليب : حسناً ، لم لا نفعل كما يقول كروتشى فنجمع بين الفلسفة والتاريخ ؟ ففى عصرنا نوع من ضيق العقل وضآلته يجعلنا نزدرى ما تعودنا تسميته « فلسفة التاريخ » . وكما أن الخطط الواسعة بعيدة المدى تختفى من صناعة الحكم التى تقتصر على السياسة فقط ، كذلك تختفى تلك القبضة الفلسفية القديمة التى نجدها عند جيبون وفولتير من التاريخ المدون . الحق لقد أصبحت النظرة التركيبية بدعة قديمة .

فاعترضت قائلا : قد يكون هذا نتيجة حيطة بصيرة ، فالتاريخ الفلسفى يعانى من الأمراض التى تنتاب كل تأمل : إذ يعمم بسرعة سريعة ، ويجسم الفكرة ويغالى فى تصويرها ، ويصوغ فى قانون أو فى عبارة الماضى كله .

ولم نستطع تجاهل فيليب الذى قال : لولا الفلسفة لكان التاريخ مجرد نبش عن الوقائع ، يقيس الأمور بالبرجل والفرجار ، ويدس أنفه فى الماضى للماضى . ولولا التاريخ لأصبحت الفلسفة إبستمولوجيا ، أو قصراً يبنى فى الهواء ، لا يصلح للناس من أهل الابتكار . ثم أشار بيده نحو الشفق فى السماء وقال : التاريخ هو الأرض التى يجب أن تقف الفلسفة عليها وهى تنسج سائر ألوان المعرفة فى نسيج واحد لينير ويحسن طريق الحياة الإنسانية .

فقالت آريل : مرحى (برافو) فيليب .

ولم تكد تنهى كلامها حتى طلع النجم ، وقطع الهلال السماء كالسيف الأحدب اللامع . وكنا قد تسلقنا تلا صغيراً ، ووقفنا لحظة فى ذهول ، فلم نر قط القمر فى مثل هذا البياض ، أو السماء فى مثل هذه الزرقة . ثم خيل إلينا

أننا نسمع أصواتاً هادئة تحت أقدامنا . ومددنا أبصارنا من خلال الغسق فرأينا حديقة غناء واسعة الأطراف ، حسنة الزينة ، يخط وسطها جدول من الماء له خرير موسيقى متصل . وكان يجلس على الحشيش أو على مقاعد خشبية حول بركة من الرخام جماعة غريبة متباينة الزى من العظماء ، كانوا يلبسون أزياء تمثل عصوراً مختلفة انقضت ، ولكن بعض الوجوه كانت مألوفة لنا كما لوكنا نعرفهم منذ بدأت عقولنا تدرك .

وهمست آرييل : لا ريب أن هذا هو حبيبنا فولتير .

فقال فيليب — وهو عظيم التأثر : بحق حياتى ، إنه قرد فرنى[1] Ferney المقدس .

فقلت : وهذا هو حفيد حفيده أناتول فرانس ؛ إنه أقصر مما كنت أظن قامة . ثم أى وجه ..... إن نصف حكمة الدهور وسائر شفقتها تبدو فى عينيه .

وأخذنا نقلب النظر فى الواحد بعد الآخر ، فعرفنا كثيراً منهم . لمحت أسقفاً مهيباً يلبس شرائط متدلية تناسب رتبته ، يجلس جلسة المتفكر ، وقد عقد يديه فى حجره ، إنه بوسويه الواعظ الجرىء فى بلاط لويس الرابع عشر ، ومعلم لويس الذى لقب يوماً ما بالملك المحبوب . وكان يجلس بالقرب من فولتير نبيل فرنسى ، فى زى عصر الإقطاع فيما أظن ، وخيل إلىّ أنه مونتينى . وثمة رجل فى الأربعين مستغرق فى التفكير كان يبدو كالصور التى رأيتها عن باكل مؤرخ الحضارة .

وهمس فيليب يقول : يا إلهى . . . . هذا معلمى القديم ليستر وارد .

وذكرنى رجل ألمانى قبيح الخلقة جاد الهيئة بهيجل ، وبالقرب منه كان يجلس نيتشه بشاربه البارز وعينيه الوادعتين يلوك بين شفتيه حكماً قصيرة . وجلس فى ركن متواضع توماس كارليل حزيناً وحيداً لا يمكن أن تخطئه النظر ،

---

(١) يسمى فولتير فيلسوف فرنى لأنه قضى العشرين السنة الأخيرة من حياته فى قرية بالقرب من جنوا تعرف بهذا الاسم ، وكتب من هناك نقداته اللاذعة ضد الحكومة الفرنسية والكنيسة والنبلاء والقساوسة وسائر الطبقات (المترجم)

إنه رجل ضخم الجثة، غزير شعر الحاجبين ذو عينين كعيني جندي وقع في الأسر . وكان يقف إلى جانب البركة رجل طويل لطيف السمت عرفت فيه وليم جيمس ، فيه حيوية الأمريكي ومرح الفرنسي . وكان يقف أمامه وجهاً لوجه حتى تكاد لحيتهما تتلامسان وهما في مناقشة حامية كارل ماركس ، ولكنه قصير أسمر جاد . وكان مع هذه الحلقة أربعة لا أعرفهم : ألماني طويل القامة من أهل العلم ، ومحام أمريكي ، وقاض فرنسي ، ونبيل فرنسي .

وكان أناتول فرانس يتكلم بصوت كصوت الراهب ، ومرح يشبه مرح مسيو برجريه (١) Bergeret . فتقدمنا يلفنا الظلام الذي أخذ ينتشر سريعاً ، والتمسنا على مسمع منهم مقاعد فوق الحشيش ، وأنصتنا في صمت حتى لا يفوتنا من هذه المتعة الروحية شيء .

٢ — التفسير الديني للتاريخ

أناتول فرانس : إن أعظم كتبك يا عزيزي أرويه Arouet (٢) هو ذلك الذي يحمل عنوان : « رسالة في أخلاق الشعوب وروحها ووقائع التاريخ الرئيسية منذ شرلمان حتى لويس الثالث عشر » (٣) . لقد كان ذلك العنوان جديراً بهذه الدرة الثمينة الضخمة ، فقد أحدث انقلاباً عظيما في كتابة التاريخ .

ڤولتير : لم أكن الأول ، فقد مهد الأسقف بوسويه الطريق بكتابة مؤلفه المسمى التاريخ العام (٤) Histoire Universelle ، ولم يكن التاريخ قبل ذلك إلا مجرد حوليات chronicles . ولعل الأسقف يشرفنا فيتخيل أننا في بلاط لويس الرابع عشر ويلقي علينا عظة صغيرة في موضوع التاريخ .

بوسويه : إنكم أيها السادة مجمع من الشكاك ، وإني لأخشى أن تضحكوا

---

(١) مسيو برجريه هو الشخصية الرئيسية في قصص أناتول فرانس الأربعة (المترجم)

(٢) هو الاسم الأصلي لفولتير ، وفولتير هو تبديل حروف أرويه مع إضافة حرفين هما : ف ، ل V, L ، فشاع عنه واشتهر به (المترجم)

(٣) Essai sur les moeurs et l'esprit des nations et des principaux faits de l'histoire depuis Charlemagne jusqu'à Louis XIII — 1756

(٤) التاريخ العام ، سنة ١٦٨١ .

من رجل عجوز يعتقد فى الإله الأب ، وفى التاريخ أنه مظهر للعناية الإلهية . لقد رغبت فى تعليم ولى العهد Dauphin [1] معنى التاريخ ، فألفت له كتاباً يصلح أن يكون لجميع الأمم والعصور بمثابة خريطة العالم بالنسبة للقارات والبحار والدول . ذلك أنى رغبت فى بيان كل جزء فى صلته بالمجموع .

أناتول فرانس : لقد كان ذلك غرضاً بديعاً لو حقق لأصبح التاريخ فلسفة كاملة .

بوسويه : كان التاريخ فى نظرى دراما الإرادة الإلهية المقدسة ، وكل حادثة فيه هى درس من السماء تعلمه للإنسان . وقد حذرت لويس الخامس عشر من الثورات ، وأنها من تدبير الإله لتعلم الأمراء الخضوع .

أناتول فرانس : إنك تذكرنى يا عزيزى الأسقف ، وأرجو أن تغفر لى هذا القول ، ببرناردين الطيب تابع القديس بطرس حيث قال عن البطيخة : « إنها مقسمة من الخارج إلى أقسام لأن الطبيعة قصدت إلى ذلك كى تكون طعاماً للأسرة » . إنى أؤكد لك أن تلميذك الملكى انقلب نذلا لا يصلح لشىء ، فاتخذ محظيات كثيرة ، وأذل الفقراء ، ومع ذلك عاش حتى بلغ الشيخوخة . أما خليفته لويس السادس عشر فكان رجلا على تواضع واعتدال وفضيلة ، وبذل وسعه لخدمة وطنه والوقوف فى وجه الظلم والبؤس ، ولكنه أعدم بالمقصلة سنة ١٧٩٢ .

بوسويه : إن أعمال الرب فوق مداركنا ، ومع ذلك علينا أن نثق بالله .

أناتول فرانس : ومع ذلك فإن ما أعجبنى فى كتابك هو تفسيرك تفسير المستيقن لكثير من الغوامض ، مثل خلق حواء ، والمحن الشديدة التى نزلت بشعب الله المختار . إنى آسف حين أرى مقدار ما تبدد من العالم من معرفة ويقين ، ومقدار الأمور التى أصبحت غامضة وكانت من قبل واضحة . الحق أننا لن نعرف قط مقدار ما كنا نعرف مرة أخرى .

---

(١) الدوفين لقب ولى العهد ووريث العرش فى أسرة بوربون — ويعرف أكبر أبناء لويس الرابع عشر ، وولى العهد باسم الدوفين الأكبر Grand Dauphin ،وهو دوق دى بورجونى (المترجم)

باكل : لقد تأثرت بمعرفة الأسقف بالتأريخ ، إذ اكتشفت عنده التواريخ الصحيحة لمقتل هابيل ، والطوفان ، وبعثة إبراهيم[١]، ولم أستطع أن أجد في جميع مكتبتي أى شيء مؤكد عن هذه الأمور .

بوسويه : هذا شيء بسيط جداً يا بني . إني مؤمن بما جاء في الكتب المقدسة من وحي ، إذ لا معرفة بلا إيمان .

كارليل : هذا محتمل يا سيدى ، محتمل جداً .

أناتول فرانس : ومع ذلك يا صاحب الفضيلة فنحن ندين لك بالشيء الكثير . فقد أرجعت التاريخ لإرادة الله ، ولكنك علمت تلميذك الذى لم يكن يستحق تعليمك أن الإرادة الإلهية تنفذ فى الغالب بوساطة أسباب ثانوية وطبيعية ، واقترحت أنه يجب على المؤرخ بحث تلك الأسباب الثانوية التى حددت تتابع الحضارات وتقلب الدول . إن وضع مسألة التاريخ الفلسفى بهذا الوضوح يعد فضلا كبيراً ، وإن هى إلا خطوة واحدة لتلحق بخصمك اللامع فولتير .

ڤولتير : ولكنك تضيف إلى مرة أخرى شرفاً عظيما ، لأننا ننسى فضائل جيوفانو باتستا فيكو . إنى آسف لأنى لم أستطع زيارة إيطاليا فى شبابى وأتحدث إلى هذا الإيطالى العالم ؛ ولعل باكل يخبرنا شيئاً عنه .

باكل : إنه يقف فى منتصف الطريق ، فى الزمن وفى النظريات ، بينك وبين الأسقف ؛ فقد كان يعترف بوجود عناية إلهية قادرة وخيِّرة . ولكنه بعد أن قدم ذلك الاعتراف أمام المجمع المقدس شرع يبنى ما سماه « العلم الجديد Scienza Nuova »[٢] على أساس أرضىّ خالص ، وتساءل لم لا يكون ثمة علم للتاريخ كما يوجد فى الأمور الأخرى ورأى أنه قد يكون للمجتمعات الفاسدة التى يظهر أنها لا تخضع لقانون ، قوانين صادقة صدق قوانين نيوتن على أكثر الحركات انحرافاً .

أناتول فرانس : وا أسفاه على نيوتن المسكين ، لابد أن أخبره عن أينشتين . ولكن تفضل فأكمل يا سيدى .

---

(١) Buckle, H.T., Introduction to the History of Civilisation, vol. i, p. 570.

(٢) Principles of a New Science, 1725

باكل : لقد بدا لفيكو أن بعض الأحداث المنتظمة توجد بارزة فى التاريخ ، وذهب إلى أن جميع الثقافات تمر بمراحل ثلاث .

هيجل : مراحل ثلاث ؟ لقد كان من المهارة أن يسبقنى على هذا النحو .

باكل : المرحلة الأولى هى الهمجية savagery ، وتمتاز بوجود الشعور . ولا فكر فيها ، والمرحلة الثانية البربرية barbarism وفيها خلقت المعرفة المتخيلة أمثال هوميروس ودانتى ، وصنعت عصر الأبطال . والمرحلة الثالثة هى الحضارة وفيها تبدع المعرفة الفكرية العلم والقانون والدولة . وكان فيكو يعتقد أن الإمبراطورية الرومانية شيدت أشمخ الحضارات . وكما أن البرابرة تغلبوا عليها بتسليط القوة الغشوم والجموع الغفيرة ضد رفاهية منحلة وسكان يتناقص عددهم ، كذلك مصير كل ثقافة فى المستقبل أن ترتفع إلى مرتبة الفلسفة والشعر ، ثم يحطمها أقوام بدائيون لم يفسدهم الإحساس والفكر . ورأى فى السياسة تتابعا شبيهاً بذلك : فالبربرية تولد زعماء يصبحون طبقة أرستقراطية ، ثم يفضى استبداد الأرستقراطية وتطرفها إلى الثورة والديمقراطية ، وتجلب فوضى الديمقراطية العديمة القيادة البربرية مرة أخرى . إن شعار التاريخ "da capo" أى « التاريخ يعيد نفسه » .

أناتول فرانس : جميع الفلاسفة تعلوهم مسحة من الكآبة . ولقد قلت دائماً إن التفكير بلية عظمى ، وكان القدماء يعدون القوة على اختراق حجب المستقبل أفتك هبة يمكن أن تمنح للإنسان (١). وأنت نفسك يامسيو أرويه لم تكن مبتهجاً فى النتائج التى استخلصتها فى آخر تاريخك العظيم .

ڤولتير : لقد كنت أبحث فى مرحلة وحشية ، فتغلغلت فى المسرح الهائل للثورات التى شهدها العالم منذ أيام شرلمان . ترى إلى أى شىء كانت ترمى ؟ إنها كانت تتجه إلى الدمار وإلى فقدان ملايين الأرواح ، فقد كانت كل حادثة كبيرة كارثة عظيمة . لعل هذا التفسير يرجع إلى خطأ المصادر التى اعتمدت عليها ، إذ لم يكتب المؤرخون شيئاً عن أيام السلم والاستقرار ، ولم يرووا إلا أنواع

---

(١) M. Bergeret in Paris, p. 174.

الدمار والكوارث وبذلك لم يبد التاريخ لى إلا صورة للجريمة والبؤس . وكانت القوى المحركة للتاريخ هى الخرافات الباطلة ، والعادات البعيدة عن العقل ، والغزوات المفاجئة للقوة الغشوم . وقلما كنت أجد أثراً للعقل البشرى فى تسيير الحوادث ، بل على العكس كانت تبدو أصغر الأسباب وأتفهها هى صاحبة أعظم النتائج وأشدها أسى ، والعناية الإلهية الوحيدة التى وجدتها هى « الحظ » (١).

باكل : لم يكن تلميذك تيرجو Turgot متشائماً هذا التشاؤم . فأنت تذكر أنه استعرض فى المحاضرات المشهورة التى ألقاها فى السوربون عام ١٧٥٠ تاريخاً للحضارة ، وأعلن إيمانه بتقدم العقل البشرى .

ڤولتير : يسعدنى يا سيدى أن أسمعك تثنى عليه ، فقد كنت أحب ذلك الرجل ، وانفطر قلبى حين طرده الملك من وزارة المالية ، وخيل إلىّ منذ ذلك الوقت أننا فقدنا كل شىء . أما فكرة التقدم فقد كانت شائعة جداً فى عصرى ، وأثارت بوجه خاص صديقى الشاب الماركيز دى كوندورسيه فى الوقت الذى كانت الحضارة الفرنسية سائرة إلى الخراب . ولكن تيرجو كان على صواب ، فالتاريخ لا يمكن أن يطاق إلا حين يكون تسجيلا للحضارة . والفلاسفة وحدهم هم الذين يجب أن يكتبوا التاريخ ، لأنهم يعرفون كيف يميزون بين التافه والجليل فى المادة التى يشتغلون بها ، ويتجنبون التفصيلات التى لا تسفر عن شىء ، ومثلها من التاريخ مثل مهمات الجيش حمل ثقيل . إنهم سينظرون إلى الأمور نظرة واسعة . وليس تقدم التنوير العقلى والانتعاش المادى والسمو الأخلاقى مظاهر فى تاريخ الأمة فقط ، بل هى التى تكوّن ذلك التاريخ ، أما سائر الأمور الأخرى فليس لها قيمة تاريخية حقيقية ، اللهم إلا من جهة أنها تلقى ضوءاً على هذا التقدم الاقتصادى والعقلى والخلقى . من أجل ذلك كان غرضى من كتابة «رسالة فى الأخلاق» Essai sur les Moeurs الكشف عن تاريخ العقل البشرى . كنت أرغب فى معرفة الخطوات التى اجتازها الإنسان من البربرية إلى المدنية (٢) .

---

(١) Works of Voltaire, St. Hubert Guild, ed., vol. XVI, p. 133.

(٢) Pellissier, G., Voltaire Philosophe, p. 213 ; Morley, J., Voltaire, pp. 215, 223 ; Buckle, op. cit., vol. i, p. 580.

أناتول فرانس : لقد وصفت بالضبط ، أيها المعلم ، التاريخ المثالى . إنى لمعجب بالحيل الذى أمكن أن ينتج كتابك « رسالة فى الأخلاق »، و « روح الشرائع » لمنتسكيو ، والمجلدات البليغة لجيبون . فأنتم جميعاً قد حررتم التاريخ من اللاهوت ، وألقيتم به فى أيدى الفلسفة والعلم . وحين أتأمل كيف أن جنسنا المكون من قردة متفلسفين قد ارتقى أربع مرات صوب الحكمة والمدنية— حين أعود بالذكر إلى عصر سقراط ، وعصر هوراس ، وعصر رابليه ، وعصرك أنت يا سيدى الذى يجب أن يسمى دائماً باسمك — أتعزى بعض الشيء عن الحروب والجرائم وألوان البؤس والمظالم الموجودة فى التاريخ .

الحق أن ما يسوّغ وجود الجنس البشرى هو مافيه من عظماء .

٣ — التفسير الجغرافى للتاريخ

باكل : إنى مسرور يا سيدى أنك ذكرت منتسكيو ، لأننا إلى هذا الوقت لم نتحدث إلا عن منهج كتابة التاريخ ، ولم ننظر فى الأسباب التى يجب أن نعزو إليها عظمة الدول وتدهورها . فبعد أن انتقلنا بمركز التاريخ من السماء إلى الأرض ، ومن الملوك إلى الإنسانية ، ومن الحرب إلى الحضارة ، بقى أن نسأل عن العوامل التى تحدد التاريخ . أهى ، كما بدا من ملاحظتك الأخيرة ، عبقرية عظماء الرجال ؟ — أو قوة المعرفة المتجمعة ؟ — أو اختراعات العلماء ورجال الصناعة ؟ — أو دماء الأجناس الراقية ؟ — أو ظروف الإنتاج والتوزيع الاقتصاديين ؟ — أو خصائص الجو ، والأرض ، والظروف الجغرافية ؟ إن منتسكيو هو الخليق بأن يكون أول الباحثين عن الأسباب النوعية لعظمة الدول وانهيارها .

منتسكيو : ما أكرمك حين ذكرتنى . وإنى لأخشى يا مستر باكل أن يذكرنى أهل وطنك أكثر مما يذكرنى أهل بلدى . وحتى ڤولتير الذى كان يمكن أن يكون عظيم الكرم لم يعن كثيراً بكتبى .

ڤولتير : من العسير علىّ ياسيدى حتى اليوم أن أغتفر لك إشراق «الخطابات الفارسية Lettres Persanes» ، وسعة اطلاع «روح الشرائع L'Esprit des Lois»

منتسكيو : إنى لأعرف أن العظماء يتصرفون دائماً بعضهم إزاء بعض كالصغار. وقد وصف المعاصرون لى أول وثانى مؤلفاتى ــ « الخطابات الفارسية» و« نظرات فى أسباب عظمة الرومان وتأخرهم » بأنهما : «عظمة منتسكيو وتأخره» . كانوا يحبون السخرية أكثر من الفلسفة . وقد دعوت فونتنيل وهلفتيوس وغيرهما من الأصــدقاء المثقفين إلى لابريد La Brède حيث كنت أعيش لنستمع إلى بعض فصول « روح الشرائع » ذلك الكتاب الذى عكفت على تأليفه فى عشرين عاماً . وكانوا مجمعين على نصيحتى بألا أطبع الكتاب.. جملة القول لقد كنت ذائع الصيت فى إنجلترا .

باكل : إنى أعد « روح الشرائع » أعظم إنتاج أدبى فرنسى فى القرن الثامن عشر . فأنت أول من بيّن ألا حساب للشخصيات فى التاريخ ، وأن الأحداث المنعزلة ــ حتى المعارك العظيمة مثل فيليبى وأكتيوم ــ ليست هى أسباب نهضة الدول وسقوطها . لقد علمتنا أن عظماء الأفراد ، والأحداث العظمى ليست إلا رموزاً ونتائج لعمليات شاسعة وباقية ، وأن بعض هــذه العمليات يبلغ من البعد عن التأثير الشخصى مبلغ شكل الأرض أوحرارة الجو .

منتسكيو : فى القرن الرابع قبل المسيح كتب أبقراط كتاباً اسمه : «الأهوية والمياه والأماكن » تكلم فيه بإيجاز عن أثر البيئة الجغرافية فى تكوين السكان الطبيعى ، وتكوين الدول القانونى . وقد أرجع أرسطو نجاح الإغريق ، بل وامتيازهم العقلى ، إلى مناخهم « المتوسط » ــ ولو أنى لا أظن أننا يجب أن نستعمل هذا الاصطلاح فى وصف جو أثينا .

أناتول فرانس : هناك شخص آخر يا سيدى ممن سبقوك فى هذا الميدان ، وهو بودان Bodin ، الذى كتب فى القرن السادس عشر عن العلاقات بين الجغرافيا وبين الشجاعة ، والذكاء ، والخصال ، والأخلاق . وحتى العذارى يختلفن باختلاف خطوط العرض .

منتسكيو : لا ريب أنه من الخطأ افتراض أننى أود إرجاع التاريخ للجغرافيا ، فقد ثبت أن ثمة أسباباً متعددة تحدد الحوادث بتعدد الدول ، ففى بعضها تؤثر القوانين ، وفى بعضها الآخر الدين ، وفى بعضها الثالث التقاليد

والأخلاق ، وفى غيرها أيضاً الطبيعة والمناخ ، وهذان يتحكمان فقط فى الهمج ، على حين حكمت التقاليد الصينيين ، والقوانين اليابانيين ، والأخلاق أهل إسبرطة . أما مبادىء الحكم وبساطة العوائد القديمة فقد صاغت لعدة أجيال أخلاق الرومان(١) .

باكل : ولكن ما أثار اهتمامى فى كتابك يا سيدى أكثر من أى شىء آخر هو مناقشتك العلاقة بين المناخ والتاريخ .

منتسكيو : أعترف أن الموضوع أثار اهتمامى كذلك ، وأعتقد أن الفوارق فى الخلق والمزاج التى تؤثر أثراً عظيما فى مصير الشعوب يرجع شطر كبير منها إلى أثر المناخ ، ففى المناطق الباردة مثلا يميل الناس إلى النشاط على حين أنهم يميلون فى المناطق الاستوائية إلى الكسل . وهذا شىء بديهى ، ومع ذلك فانظر كم أثمر من نتائج . ويعتقد الهندوس أن السكون والعدم هما أساس جميع الأشياء ، والغاية المثلى التى تنتهى إليها ، ولذلك يعدون عدم الحركة أكمل جميع الأحوال وغاية آمالهم . وعندهم أن الكسل هو الخير الأسمى ، ويكوّن فى نظرهم جوهر الجنة بالذات ، أما الحرارة على العكس فهى العنصر الأساسى فى تصورهم للنار . وأصبح الكسل فى كل مكان نتيجة لهذا النظر القديم دليلا على منزلة عالية ، حتى إن أولئك الذين لا يعملون يعتبرون أنفسهم سادة الذين يعملون . ويترك كثير من الناس فى بقاع كثيرة أظافرهم تطول وتنمو حتى يظهر لكل امرىء أنهم لا يعملون (٢) .

أناتول فرانس : لقد كانت الكعوب العالية فى فرنسا تحقق الغرض نفسه عندنا ، إلى أن أدى التمسك بالزهو على مرّ الزمن إلى شيوعها .

منتسكيو : ولماذا يبدو أن الشعوب الجنوبية مقدور عليها شعباً بعد شعب أن تغزوها القبائل الشمالية ، إلا أن يكون ذلك بسبب أن الشمال يبعث القوة والجنوب يثير الأعصاب ؟ فالعبيد يجيئون من الجنوب ، والسادة من الشمال . وقد خضعت آسيا لبرابرة الشمال إحدى عشرة مرة .

---

(١) Spirit of Laws, vol. i, p. 294.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ ، ٢٩٦ .

ڤولتير : لعلك تعرف يا سيدى أن لفظة « عبد » Slave مشتقة من لفظة « سلاف » Slav ، وهذا يرجع إلى الزمن الذى كانت الكنيسة المقدسة تنهى عن استعباد المسيحيين . ولم يكن السلاف قد تحولوا إلى المسيحية بعد ، وكان من الممكن أسرهم وبيعهم بضمير مستريح ، ومن هذا الباب جاء أن تلك اللفظة التى كانت تدل على المجد أصبحت تفيد العبودية . وقد يمكن أن يستثنى هؤلاء العبيد الشماليون من قاعدتك ، ولكنه ليس استثناء أساسياً .

منتسكيو : شكراً لك على تصحيح خطئى ؛ ولكنى أفهم يا مستر باكل أنك أنت نفسك قد درست صلة المناخ بالتاريخ دراسة مستفيضة .

باكل : لم أكن أستطيع التوسع فى الدرس يا سيدى ، لأنى حينما ولدت كنت بين الحياة والموت ، وظللت طول عهد الطفولة واهناً لا أستطيع مشاركة غيرى من الأطفال فى اللعب ، ولم أعرف خلال الأربعين عاماً التى عشتها يوماً يخلو من المرض والألم ، وأصبت بضعف البصر حتى إن والدتى التى لم تكن تحفل بمواهب العصر ، علمتنى شغل الإبرة بدلا من القراءة ، ولم أعرف الأبجدية حتى سن الثامنة .

كارليل : صه ، صه ، أيها الرجل ، فكلنا يعرف أنك كنت فى الأربعين أعلم قزم فى إنجلترا . وأخبرنى هكسلى أنك لا تستطيع حمل رأسك مرفوعاً ، من كثرة ما كانت تحمله ، فكنت تعرف اللغات الفرنسية والألمانية والدنماركية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، والهولاندية ، والوالية ، والفلمنكية ، والسويدية ، والأيسلاندية ، والفريزية ، والمايورية ، والروسية ، والعبرية ، واللاتينية والإغريقية ، وكنت تكتب الإنجليزية . وسمعت داروين يقول فى أحد مجالسه عن تطور القردة إن أسلوبك أروع ما قرأ على الإطلاق . لست أدرى ، ولكن هوامشك أعجبتنى .

باكل : كنت أحلم بكتابة تاريخ كامل للحضارة فى إنجلترا ، إلا أنى بعد عشرين عاماً من العمل فيه لم أكتب إلا المقدمة التى استوعبت أربعة مجلدات . ثم ماتت أمى ولم أستطع أن أكتب شيئاً بعد ذلك . ولعلى لو كنت رجلا قوياً لاستطعت أن أتم شيئاً .

منتسكيو : ألا تخبرنا عن نتائجك ؟

باكل : لابد أنك تعرف يا سيدى أن الاقتصادى البلجيكى كويتليه Quetelet بيّن انتظاماً إحصائياً مدهشاً فى هــذه الأعمال الإرادية فى الظاهر مثل الزواج ، وفى أمور عرضية تعد من التوافه مثل وضع رسائل بدون عنوان فى صناديق البريد . وقد استخلصت من هذه الإحصاءات وغيرها مما يماثلها أن السلوك البشرى ولو أنه يبدو حراً حين ننظر إليه بالتفصيل ، إلا أنه يتضح حين ننظر إليه فى الجملة محدوداً بقوى تخرج عن إرادة الفرد . فى الخضم العظيم للأمور الإنسانية ليس للخصائص الفردية حساب ، وليس للمؤرخ أن يشتغل بها . وليس التقدم ثمرة عظماء الأفراد ، بل نتيجة تجمع المعرفة وانتقالها . وقد لاحظت أنه لا يوجد تقدم فى الأخلاق ، ولا تحسن من عصر إلى آخر فى دوافع الإنسان ومشاعره ، بل العلم الطبيعى وحده هو الذى ينمو ، وهو الذى يغير رويداً رويداً من وجه الأرض (١).

منتسكيو : هذه نتيجة معقولة جداً ، وقد سمعت ذات مرة فونتنيل العجوز يقول شيئاً شديد الشبه بهذا (٢) .

باكل : إنى مهتم مثلك يا سيدى بأثر الجغرافيا فى التاريخ . فقد أثر المناخ والطعام والأرض والمظهر العام للطبيعة فى حياة كل جنس من الأجناس. وغلبت عظمة المناظر الطبيعية فى الهند على عقل الهندوس وشجاعتهم ، وجنحت بهم نحو الخرافة والعبادة . أما مناظر أوربا الأكثر بساطة فلم تبعث فى الناس الخوف ، ويسرت نمو ميلهم إلى السيطرة على الطبيعة بدلا من عبادتها (٣) .

أناتول فرانس : من الواضح أنك لم تعبر قط المحيط الأطلسى يا مستر باكل . ويوجد بين المتبربرين الذين يسكنون الآن شمال أمريكا تقدم لم يسبق من قبل فى العلم الطبيعى والتطبيقى يسير جنباً إلى جنب مع جنوح شديد للتقوى . كان يجب أن تهتم بالأمريكان يا مستر باكل .

---

(١) Buckle, vol. i, p. 593

(٢) Nordau, M., Interpretation of History, p. 286.

(٣) Buckle, vol. I, pp. 29, 47.

باكل : لم أجد عندى فسحة من الوقت ، كما لم تشجعنى كثيراً تقارير المستر ديكنز . ومع ذلك فقد درست تاريخ أمريكا بعناية ، واكتشفت فى فى نصف الكرة الأرضية الغربى مزيجاً خاصاً من الظروف الجغرافية . ففى شمال المكسيك يمتاز الشاطىء الغربى بحرارة خالية من الرطوبة ، والشاطىء الشرقى برطوبة تخلو من الحرارة . ولذلك انحصرت الحضارة الأمريكية قبل كولومبس بوجه خاص فى المكسيك ووسط أمريكا ، إذ فى هذا الشريط الضيق من الأرض فقط وجدت فى النصف الغربى من الكرة الأرضية تلك الوحدة بين الرطوبة والحرارة الضرورية للنبات والحيوان والإنسان . وفيما بعد أخذت هجرة الأوربيين وإدخال المخترعات والإكثار منها تقلل من اعتماد الإنسان على الظروف الطبيعية [١]

منتسكيو : أتقصر التأويل الجغرافى إذن على المراحل الأولى فى تاريخ الشعوب ؟

باكل : كلما ازدادت سيطرة الإنسان على البيئة فقدت الظروف الموضوعية والطبيعية قوتها أكثر فأكثر على تحديد الحوادث [٢] .

وليم جيمس : يسرنى أن أسمعك تقول ذلك أيها الرجل الشيخ ، فلقد تضايقت بعض الشىء خشية أن تردنا جميعا لخطوط الطول والعرض . ولكن سيلذ لك أن تعلم أن التفسير الجغرافى للتاريخ قد طبق حتى على الدول المتقدمة بوساطة الهر فردريك راتزل الذى كان ينصت فى تواضع لهذه المناقشة .

باكل : إنى شغف لسماع أحدث المباحث تقدما .

راتزل : إن الفيلسوف الأمريكى العظيم يغالى فى أهميتى ، لأن بحثى لم يكن إلا جزءاً صغيراً من الدراسة الجغرافية فى زمانى ، ولقد كان ريتر ، وكول ، وبيشل ، وريكلوس Réclus أساتذة هـــذا الميدان . بل فى وطنك أنت يا مستر جيمس قام الأستاذ هنتنجتون بأروع المباحث .

باكل : أخبرنا يا مستر راتزل عما وجدته .

راتزل : يمكن أن نعدل بعض الشىء النتائج التى انتهيت إليها وكذلك

---

(١) المرجع السابق ص ٦٩ ، ٧١

(٢) المرجع السابق ص ٣٣

ما انتهى إليه منتسكيو بصدد المناخ ، إذ لا ترجع صعوبة الحياة فى المناطق الإستوائية إلى الحرارة بمقدار ما ترجع إلى المخاطر ، كالزلازل والأوبئة والزوابع والوحوش والحشرات . أما فى البلاد نصف الاستوائية فالحرارة نافعة ، إذ تؤدى إلى المعيشة خارج الدور ، وإلى الحياة الاجتماعية ، وإلى رغبة جنسية قوية وما يتبع ذلك من ميل إلى الفن والثقافة . أما فى الشمال الأكثر برودة فإن الدأب على الصناعة والانغماس فى العمل للطبقة الغالبة — إذا حق لى هذا التعبير — ولذة النشاط والعمل والكسب ، كل ذلك يفضى إلى نمو العلم أكثر من الفن ، وإلى الثراء لا الفراغ . هذا إلى أن الحياة داخل الدور تقود إلى ضرب من التحفظ البعيد عن الروح الاجتماعية ، كما يثمر التنافس النشيط نوعاً من الفردية الشديدة .

ماركس : سأبين لكم فيما بعد أن سائر هذه النتائج التى تعزونها للمناخ هى ثمرة التغيرات الاقتصادية .

باكل : فلتمض يا أستاذ فى حديثك ، حتى لو كنت لا تحب إنجلترا كثيراً .

راتزل : قد يحدد المناخ القوام أو السحنة ، ويقرر كثير من الباحثين أن الأمريكان آخذون فى اكتساب بشرة نحاسية اللون أشبه بالهنود الذين حلوا محلهم . وقد بيّن الأستاذ بوس Boas أن مناخ أمريكا يتجه — بصرف النظر عن اختلاط الزواج — إلى تقصير قامة نسل المهاجرين الطوال ، وإطالة قامة المنحدرين من المهاجرين القصار . على حين أنّ (بغير اختلاط الزواج أيضاً) تباين هيئة المهاجرين ينتهى إلى التوحد كلما قلّت الهجرة . أما البروفسور هنتنجدون متابعا مباحث الأمير كروبتكن . . . .

أناتول فرانس : هذا القديس الفوضوى ، لقد عرفته حق المعرفة .

راتزل : لقد بيّن البروفسور هنتنجدون أن كمية المطر قد تقرر مصير الأمة . فأحواض البحيرات الجافة تكشف عن أسرار الهجرات الشاسعة ، وتنتقل المواسم دوريا فى آسيا من المطر إلى الجفاف ، وتنتعش الحضارات وتموت .

وليم جيمس : لاريب أنها مهمة لطيفة إذا أمكن تتبع الهجرات الكبرى

والغزوات والامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، وإرجاعها آخر الأمر إلى ظهور دورات خاصة فى بقع الشمس .

راتزل : كل شىء ممكن . انظر إلى تأثير الأنهار : فالنيل والكنج ، والهوانجهو واليانج تسى ، والدجلة والفرات ، والتيبر والبو والدانوب والإلب ، والسين والتاميز ، والهدسون وسانت لورانس ، والأوهيو والمسيسيبى ، لقد قامت على شواطئها الخصبة مهد جميع الحضارات تقريباً . ثم الدانوب — آه أيها السادة لو استطاع أن يتكلم الدانوب الأزرق ، فكم من قصة يرويها عن آلاف الشعوب المتباينة التى تبعت مع مياهه من آسيا الحدبة الميتة إلى حقول أوربا التى كانت عندئذ قليلة السكان . ولو كانت أنهار روسيا تجرى نحو الشمال لا الجنوب أفتظن أن روسيا كانت تتطلع هذا التطلع إلى القسطنطينية ، تحارب من أجلها حرباً إثر حرب ؟ ثم لأن أنهار روسيا تصب فى البحر الأسود وبحر قزوين ، خلق الدنيبر منها أمة بيزنطية ، وجعل نهر الفولجا منها أمة أسيوية . وظلت روسيا كذلك حتى أنشأ بطرس مدينة سانت بطرسبرج ، وفتح النيڤا Neva للملاحة فاتجهت روسيا غرباً وأخذت تصبح جزءاً من أوربا (١) .

باكل : هذا شىء بديع للغاية أيها الأستاذ ، فلتمض فى حديثك .

راتزل : انظر إلى الدور الذى لعبته الشواطىء فى التاريخ ، فقد ربط البحر الأبيض المتوسط عدداً من الحضارات إلى مياهه إلى أن قاد المحيط الأطلسى أوربا إلى أمريكا وغيّر جميع طرق التجارة .

هيجل : لقد لاحظت فى كتابى « فلسفة التاريخ » ، الذى لم يذكره أحد حتى الآن ، أن تاريخ القدماء لا يمكن أن يفهم بغير البحر الأبيض ، إذ يكون ذلك أشبه بروما أو أثينا فى القديم بدون الساحة (فورم Forum) التى كانت تتجمع فيها سائر حياة المدينة (٢)

راتزل : إنى أذكر هذه الفقرة جيداً ، يا هر دكتور . فالشاطىء الممتاز

---

(١) Semple, E.C., Influence of Geographic Environment, p. 348.

(٢) Hegel, G.F.W., Philosophy of History, p. 87.

وبجانبه آلاف الجزر هيأ لليونان طريقاً مائياً لفارس وللشرق ، وجعلها محور التجارة فى البحر الأبيض . كما أن انخفاض نسبة الساحل إلى مساحة الأرض أخر تقدم الثروة فى آسيا لما كان له من أثر فى إعاقة التبادل . وفى أفريقا الآن ظرف شبيه بذلك . بل إن الولايات المتحدة لاتساع رقعة أرضها بين المحيطين قد كان يمكن أن تبقى دولة متأخرة لولا أن السكك الحديدية قربت جميع المناطق الداخلية من البحر .

أناتول فرانس : فى أثناء الحرب الكبرى ، يا دكتور ، حاربت روسيا من أجل ميناء على البلطيق ، وألمانيا للحصول على مصب الرين ، وفرنسا لتضع يدها على الرين كله ، والنمسا لتستولى على تريستا وفيومى ، وانجلترا لتأخذ جميع العالم ، وأمريكا فى سبيل الديمقراطية . ومع ذلك فأنا أميل إلى الظن أنك تغالى فى قيمة الدور الذى تلعبه الجغرافيا . إن ما فعلته يا سيدى الفاضل هو أنك جمعت بعض مظاهر الماضى التى تسمح بأن تندرج تحت الجغرافيا . ولكن ثمة مظاهر أخرى كثيرة لا تقل عنها أهمية ، وإنى لأخشى ألا تخضع حياة ومصائر الشعوب لقانونك . ذلك أن الدول العظمى تكاد تكون قد ظهرت فى كل مكان على وجه الأرض ، وكان لها مع اختلاف مناخها ارتفاعات وانخفاضات متشابهة من الازدهار والانحلال .

راتزل : لا تسيئوا فهمى أيها السادة . فليس قصدى تفسير كل شىء فى التاريخ بالجغرافيا ، بل كل ما فى الأمر أننى أفسر بعض ظواهره فقط .

وليم جيمس : إنك شديد التواضع يا دكتور . فقد كان أحد كبار الأساتذة الأمريكان : يقول « هنالك حركة فى التاريخ تبدأ قوية ثم تضعف فيما يتعلق بالأثر النسبى للبيئة الطبيعية » (١) .

باكل : يجب أن أقول إن هذا صحيح ، فالجغرافيا تقدم ظروفاً محددة ، ولكنها قلما تهب قوى حاسمة . إنها دائرة مسحورة تعمل القوى الأخرى داخلها على رفع الأمة إلى مصاف الزعامة أو خفضها إلى الفناء . مثال ذلك أن تغير

(١) Sumner, W.G., Folkways, p. 53.

تيار الخليج قد يجلب الخراب لإنجلترا ، ولكن ليس تيار الخليج هو الذى جعل إنجلترا عظيمة . فالعوامل المحددة فى جميع الحضارات الراقية هى عوامل اقتصادية أو عقلية .

ڤولتير : هذه نتيجة معقولة جداً . فقد كنت أقول دائماً إن الإنجليز قوم معقولون ، وهذه هى النقطة الوحيدة التى أتفق فيها مع منتسكيو .

نيتشه : لعلكما مخطئان أنتما الأثنان .

٤ — التفسير الجنسى للتاريخ

أناتول فرانس : لعله كان يجدر بك يا مستر باكل أن تقول إن العوامل المحددة هى إما اقتصادية أو عقلية أو جنسية racial . ففى زمانى كان عدد كبير من الباحثين يرجعون ارتفاع الأمم وسقوطها إلى الجنس ، وبهذا الطريق أمكن للأساتذة أن يصبحوا علماء ووطنيين فى آن واحد . أما الكونت جوبينو فهو استثناء من هذه القاعدة : إذ لم يكن أستاذاً ولا كان وطنياً .

جوبينو : عندما كنت يا سيدى فى العاشرة فقط من عمرك ، نشرت كتاباً بعنوان « تفاوت أجناس البشر » شرحت فيه اعتقادى بأن كل شىء فى طريق الاختراع الإنسانى كالعلم والفن والحضارة — أى كل ما كان عظيماوشريفاً ونافعاً على وجه الأرض — يشير إلى أصل واحد ، ويتفرع عن جذر واحد : هو الجنس التيوتونى ، وأكبر الظن أن هذا الفرع العظيم من الأسرة الإنسانية يرجع إلى أصل يختلف تمام الاختلاف عن الجنس الأصفر والأسود ، فقد نشأ عنه نسل خاص من الناس حكمت فروعه المختلفة كل منطقة متحضرة فى العالم(١). إنه الجنس الذى يفسر التاريخ ، أو كما يقول صديقى الشاب الهر نيتشه : تحتاج الزعامة إلى الدم لا العقل .

نيتشه : إنى معجب بك كثيراً ، أيها الكونت جوبينو ، ولكن لا شأن لى بخدعة الجنس ، لأنى وجدت دماء نقية فى كل جنس ، ولعلها أفضل فى عروق صاحب الجندول بالبندقية منها فى الأستاذ ببرلين(٢) .

Todd, A.J., Theories of Social Progress, p. 275. (١)

Salter, W., Nietzsche the Thinker, p. 469. (٢)

أناتول فرانس : لم يضق الإنجليز والألمان يا عزيزى الكونت بنظريتك . فهــذا البرفسور فريمان Freeman أسرع إلى اعتناقها ، واصطنعها البرفسور ترتشكى Treitschke جــدلا ، وسلم الدكتور برناردى بأن الألمان أعظم شعب متحضر عرفه التاريخ . أما المستر تشمبرلين الذى هجر انجلترا ليصبح ألمانياً ، فقد ألف كتاباً ضخماً سماه « أسس القرن التاسع عشر » أثبت فيه أن : « التاريخ الصحيح يبدأ من اللحظة التى قبض فيها الألمان بيد قوية على ميراث القدماء » . وإنى لأزعم أن الذين خلقوا ذلك الميراث لم يصنعوا التاريخ . وكان مستر تشمبرلين يعتقد أن العبقرية إذا ظهرت فى إنسان فهذا دليل على الدم التيوتونى ، وقد لفت نظره وجه دانتى لما فيه من ملامح جرمانية . وظن أنه سمع لهجة ألمانية لا شك فيها فى رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية . ومع أنه لم يكن متأكداً تمام التأكد من أن المسيح ألمانى إلا أنه كان على ثقة أن كل من يزعم أن المسيح كان يهودياً فهو إما جاهل أو مخادع (١). وطبق ريتشارد فاجنر هذه النظرية على الموسيقى . وبعد أن قاسى من الفقر خمسين عاماً اكتشف هذا البربرى العظيم أنه باصطناع التفسير التيوتونى للتاريخ والرجوع إلى تقوى طفولته قد يمكن إقناع الطبقة الأرستقراطية فى وطنه بدفع قوائم ديونه فى بايرويت Bayreuth (٢)

نيتشه : كنت أحبه كثيراً ؛ ولكنك على حق فقد كان مهرجا .

أناتول فرانس : هذا شأن كل عبقرى ، ولولا شىء من الدجل لمات العبقرى جوعاً ، وهو دجل لازم بوجه خاص فى البلاد الديمقراطية .

وليم جيمس : كان روح العصر « Zeitgeist » فى جانب نظرية الجنس فى أيامنا وكان جالتون يرد العبقرية للميراث ، وأخذ علم الأجنة يشن حملة يطالب بأطفال أرستقراطيين ، وأحيا ماكس موللر فقه اللغة بنظريته عن الجنس الآرى الذى جاء من الهند وحكم أوربا ، و« أثبت » فايسمان (أنهم

---

(١) In Todd, p. 276.

(٢) بايرويت مدينة فى سكسونيا عاش فيها فاجنر فى أواخر حياته ، وأنشأ فيها مسرحه للأوبرا (المترجم)

يثبتون كثيراً من الأمور فى العلم ــ لمدة يوم واحد) أن الجرثومة الحية Germ-plasm مختفية بإحكام فى بعض أعضاء الإنسان الداخلية ، وأنها محصنة ضد كل تأثير من البيئة . كان علماء الحياة يراهنون على الوراثة ، أما المؤرخون فيراهنون على الجنس .

أناتول فرانس : لعلكم لا تعلمون أيها السادة أن ماديسون جرانت الذى لم يكد يصل إلينا من نيويورك حجة فى هذا الموضوع . وقد رأيت وأنا كبير السن نسخة من كتابه « زوال الجنس العظيم » The Passing of the Great Race وظننت أنه يعنى الفرنسيين ، فلما تبين لى أنه يقصد الألمان والإنجليز انتهيت إلى أنه ليس من الضرورى أن أمضى فى القراءة لأعلم أنه مخطىء .

ڤولتير : أخبرنا عن آرائك يا مستر جرانت . ولا تنزعج إذا كان أناتول فرانس لا يوافقك عليها ، فهناك دائماً احتمال بسيط أننا نحن الفرنسيين مخطئون ، وأن بقية العالم على صواب .

جرانت : تختلف نظريتى عن نظرية تشمبرلين ، أو عن نظرية جوبينو . فأنا أرفض الجنس « التيوتونى » باعتبار أنه خليط من أجناس مختلفة لم تمتزج بعد لتكون وحدة . ولذلك أقصر حجتى على ما أسميه الجنس الشمالى Nordic ، الذى يظهر بوضوح فى أيامنا هذه فى أولئك الألمان المنحدرين من أصل بلطيقى ، وفى أولئك الإنجليز والأمريكان المنحدرين من نسل الأنجلوساكسون . غير أن هذه سلالات متنوعة حديثة ، أما الجنس فقديم قدم التاريخ . فالشماليون يظهر أولا أنهم السكايا Sacae الذين أدخلوا اللغة السنسكريتية إلى الهند ، وكانوا غزاة من البيض انحدروا من الشمال ، واخترعوا نظام الطبقات لتحريم التزاوج من غيرهم حتى لا يهبطوا بمستوى نوعهم . ولفظة « طبقـــة Caste » تعنى اللون ، ووظيفتها حيوية لا اقتصادية ، وغايتها حماية الدم لا احتكار الثروة .

ثم نجـــد بعد ذلك من الجنس الشمالى السيمريين Cimmerians[1] الذين تدفقوا من القوقاز إلى فارس ؛ والآخيين ، والفرجيين ، والدوريين الذين غزوا

(١) السيمرى قبيلة تزعم الخرافات أنها كانت تعيش فى ظلام دائم (المترجم)

آسيا الصغرى واليونان ؛ والأومبريين والأوسكان الذين اجتاحوا إيطاليا . وحيثما ذهبوا فهم رجال الحرب ، والمغامرين ، ورواد البحار ، وقرصان الشمال Vikings (١) ، والحكام ، والمديرين ، والمنظمين ، وهم مختلفون اختلافاً عظيما عن الأجناس الأوربية الأخرى — الجنس الألبي الهادئ المسالم ، وجنس البحر الأبيض الوجدانى ، ذى المزاج الحاد ، القلق ، والكسول (٢) . وهذا التباين أوضح فى إيطاليا ، فالإيطاليون الجنوبيون ، وهم من جنس البحر الأبيض ، منحدرون فى الغالب من أنواع العبيد من كل جنس ، وعلى الأخص من البلاد الجنوبية والشرقية حيث استوردهم الرومان أيام الإمبراطورية للعمل فى مزارعهم الواسعة . أما الإيطاليون الشماليون فهم من جنس أرقى لأنهم فى الأغلب من نسل الغزاة الألمان من زمان قيصر إلى شرلمان ، وهؤلاء القوم هم الذين أحدثوا النهضة فى فلورنسا ، ثم حملوها معهم إلى روما . لقد كان دانتى ، ورفائيل ، وتيتيان ، وميخائيل أنجلو ، وليوناردو دافنشى ، من الجنس الشمالى (٣) . أما فى اليونان فقد تزاوج الآخيون الشماليون بالسكان الذين انتصروا عليهم ، فأنتجوا الأثينيين اللامعين البارعين أصحاب عصر بركليس .

أناتول فرانس : لقد كان الآخيون فى غاية الإهمال حين تزاوجوا على ذلك النحو ، ألا تظن ذلك ؟

ڤولتير : لا تحفل به ، وامض فى حديثك فنظرياتك خلابة .

جرانت : وكان تزاوج الدوريين أقل ، وأصبحوا الإسبرطيين ، وهم جنس شمالى محارب حكم طبقة العبيد helots من البحر الأبيض . وكان أهل الطبقة الراقية فى الإغريق ذوى شعر أشقر ، أما الطبقات الدنيا فشعورهم سوداء . ويكاد جميع آلهة أوليمبوس يصورون شقراً ، ومن العسير أن نتخيل فناناً إغريقياً يرسم فينوس داكنة الشعر . وفى جميع صور الكنيسة اليوم يظهر جميع الملائكة شقرا ، بينما سكان المناطق الأدنى يصورون بلون شديد الدكنة . وتجد

---

(١) الڤيكنج قرصان من الشمال كان ينهب غرب أوربا فى العصر الوسيط (المترجم)

(٢) Grant, M., the Passing of the Great Race, pp. 155, 158.

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ ، ١٩١ .

فى كثير من الأقمشة المزركشة القــديمة صورة سيد « إيرل » أشقر الشعر ممتطياً صهوة جواد ، وإلى جانبه فلاح داكن الشعر يمسك باللجام . ولا يتردد أى فنان حين يصور الصلب فى أن يجعل اللصين داكنين بالتباين مع شقرة المسيح ؛ وفى هذا الأمر شيء أكثر من مجرد الاصطلاح ، لأن مثل هذا التقليد الذى يكاد يكون صحيحاً مما نجده عن المسيح يدل على صفاته الجسمية والخلقية الشمالية ، ومن المحتمل أن تكون إغريقية .

أناتول فرانس : من ســوء الحظ أن يكون المرء عظيما . فأنت تعيش على الكفاف طول حياتك ، ويصورونك بعد موتك فى كل صورة ما عدا صورتك الحقيقية ، ومع ذلك فلتمض فى حديثك ، ولندع المسيح للشماليين ما دام اليهود لا يريدونه .

جرانت : لقد انهزمت اليونان أمام مقدونيا حين امتزج الجنس الإغريقى بالكثير من الزواج المختلط ، أما المقدونيون فكانوا شماليين خاصاً ، وانتصروا على فارس كذلك عندما ضعف الفرس بسبب اختلاط دمائهم بأجناس أسيوية غير شمالية . ولن نشهد الشماليين منتصرين مرة أخرى إلا فى عصر الغزوات الكبيرة ، فقد شقوا طريقهم إلى البلطيق ، وسكنوا اسكنديناوه وانتشروا من هناك فى شتى الجهات ،وخرجوا فى مئات من الغزوات باسم القوط ،والاستروقوط وفيزيقوط ، والكيموى ، والكيمبرى ، والغال ، والتيوتون ، والسويفى ، والفندال ، والسكسون ، والآنجلز ، والجوطس ، والفريزيان ، والدنماركيين ، واللومبارديين ، والفرنجة ، والنورمانيين ، والفارانجيين . ولا تكاد توجد دولة فى أوربا لم يعث فيها هؤلاء البواسل فساداً ، ولا يزالون يحكمونها حتى اليوم . وكانت روما أول مدينة قهرت ، وكان الدوقات العظام فى عصر النهضة من الجنس الشمالى . وغزيت بلاد الغال أكثر من مرة . وكان الفرنجة من التيوتون الشماليين ، وهم الذين أعطوا فرنسا اسمها الألمانى . وكان شرلمان امبراطوراً ألمانياً ، واتخذ عاصمة مدينة آخن ، واصطنع اللغة الألمانية لغة رسمية فى بلاطه ، وظلت أوربا حتى حرب الثلاثين خاضعة لألمانيا . وإذا نظرنا إلى الفروسية ، والفتوة ، والإقطاع ، والتميز بين الطبقات ، والاعتزاز بالجنس ، والتمسك بالشرف

الشخصى وشرف الأسرة ، والمبارزة ، وجدنا أنها عادات وخلال شمالية . هذا الجنس المتفوق نفسه هو الذى انتصر على فرنسا وصقلية وانجلترا . وهو الذى غزا باسم الورنجيين Varangians روسيا وأخضع وحكم أهلهـا حتى سنة ١٩١٧ . وهذا الجنس نفسه هو الذى استعمر أمريكا وأستراليا ونيوزيلند . وهو بعينه الذى فتح أبواب الهند والصين للتجارة الأوربية ، ووضع مراكز الحراسة فى كل ميناء أسيوى كبير . وهذا الصنف من الرجال هو الذى يتسلق الجبال ، ويتخذ من الألب ملاعب ، ويذهب فى رحلات لا جدوى منها إلى القطبين (١) .

إنى لآسف أن يكون هذا الجنس السيد آخذاً فى الزوال ، فقد فقد مركزه فى فرنسا عام ١٧٨٩ ، أو كما قال كاميل ديمولان لسامعيه فى المقاهى إن الثورة كانت انبعاث السلالة الفرنسية الأصلية (الفرنسيين الألبيين ، كما يقال) ضد الحكام التيوتون الذين تغلبوا عليهم بقيادة كلوفس وشرلمان ، وظلوا محتفظين بالنظام الإقطاعى ما يزيد على ألف عام . وقد استنزفت حروب الشماليين الانتحارية الصليبية ، وحرب الثلاثين ، وحروب نابليون ، والحرب العظمى ، الجنس الشمالى فى كل مكان . ويبدو أن الجنس الشمالى فى انجلترا وألمانيا مقضى عليه بالفناء لضعف نسبة المواليد . أما فى روسيا فقد سقطوا أمام المتبربرين بقيادة مغولى ويهودى . وهم يفقدون بسرعة فى أمريكا القوة والنفوذ بسبب الهجرة من جنوب أوربا ، وارتفاع نسبة المواليد بين منافسيهم ، والنفوذ الديمقراطى العددى ، وسلطة الجماهير (٢) .

أناتول فرانس : هذا كلام جيد يا سيدى ، كلام جيد .

جرانت : ونتيجة ذلك تدهور الثقافة ، وهبوط مستوى القيم والذوق فى انجلترا وأمريكا على السواء . فالأغانى والموسيقى والرقصات والتمثيليات والساسة وكل ما يسود الآن يأتى من حثالة القوم . وكنت أظن منذ بضع سنين أن الرقابة الدقيقة على الهجرة ، والقضاء التام على التزاوج بين الجنس الشمالى وغيره من

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٦ ، ١٦٥ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ .

الأجناس قد ينقذ الجنس العظيم فى أمريكا ، ولكن الأوان قد فات ، فالفوارق فى نسبة المواليد سوف تكمل المهمة التى قامت بها الهجرة والتزاوج ، ولن تأتى سنة ٢٠٠٠ حتى تكون قوة الشماليين قد انهارت فى كل مكان ، وتختفى معهم حضارة أوربا وأمريكا فى بربرية جديدة تنبع من أسفل .

أناتول فرانس : هذه صورة للمستقبل بشعة . ولكن الفرنسيين من الجنس الألبى ، والإيطاليين ، والنمساويين ، والروس ، سيتخلفون ، وفى هذا عزاء لأنفسنا . ومن الواضح أنه ليس فى نية الروس أن يتركوا الديمقراطية تهلكهم . الحق ما أعظم شر أولئك الإنجليز الشماليين حين اخترعوا سلطان الأعداد ! ولكن قل لى يا سيدى : أتعتقد حقاً أن هؤلاء الشماليين يمثل تلك البراعة ؟ فقد كانوا من عظام المحاربين ، والقرصان ، وقطاع الطرق ، وجماع الضرائب ؛ ولكن أتعد هذه حضارة ؟

جرانت : لقد نظموا دول أوربا الحديثة وجعلوا حضارتنا ممكنة .

نيتشه : إذا كانوا قد نظموا دول أوربا الحديثة فالدعوى ضدهم شديدة جداً . فمن الأفضل ألا تكون هذه الدول قد نشأت أصلا ، وعندئذ كان من الممكن أن يحكم البابوات أوربا الموحدة ، وأن تزدهر الكنيسة وهى آمنة ، كما حدث فى عصر النهضة فى إيطاليا ، نحو الفن والحرية ، وأن تكون الطبقات المتعلمة حرة كما هى حالها فى باريس وفيينا اليوم ، أو فى روما تحت ظل ليو العاشر ، بينما يتلقى الشعب عزاء الأسرار المقدسة ؟

جرانت : إنك لوثنىٌّ يا سيدى .

نيتشه : بكل تأكيد. كيف أكون غير ذلك وقد تعلمت اللغة الإغريقية ؟

أناتول فرانس : لقد عقد منذ أيام فريق من أصحابنا اجتماعاً صوتوا فيه كما يفعل الأمريكيون لاختيار أعظمنا فى هذا العالم الذى طالت فيه حياتنا زمناً وأعتقد أنى أستطيع تذكر المرشحين . كان هناك شكسبير بالطبع ، فلن يجرؤ أحد أن يغفله ، ولو أنى واثق أن مستر شو سيشرح لكم ذات يوم أمر ذلك

الشقشاق الكبير[1] . وكان هناك بيتهوفن المجنون ، وميخائيل أنجلو صاحب تمثال موسى . ثم المسيح ، وهو شاب محبوب حقاً إذا عرفته . وكان أفلاطون تمثل الفلاسفة ، وليونار دو الفنانين . ولم أسمح لهم بإغفال ڤولتير ، وأصر نيتشه على ترشيح نابليون ، وألح علينا براندس فى قبول قيصر . وأردت أن يكون العاشر رابليه ، ولكن المنتخبين بما تتميز به الجمعيات من غباء اختاروا داروين بدلا منه . ما رأيك فى هذه القائمة يا مستر جرانت ؟

جرانت : لا بأس بها .

أناتول فرانس : لم يكن ينبغى أن تجيب قبل أن تنظر إلى أى حد تسىء هذه القائمة إلى قومك الشماليين ، ففيها ثلاثة أسماء من عشرة ، والباقى من اليهود والإغريق واللاتين . وهذا يجعلنى أستنتج أن الشماليين فى الفنون والآداب والفلسفة والدين وفى أمور العقل والقلب لم يبرزوا بروزهم فى صناعة قتل أحدهم الآخر ، والسطو على جيرانهم ، وجبى الضرائب .

جرانت : إنك تجعلنى شديد القلق يا سيدى ، وسأعيد الكرة عندما يصل بروسون Brousson

أناتول فرانس : سوف أشترى له تذكرة عودة .

جرانت : ومع ذلك ، فقد تكون على صواب بعض الشىء ، فجنس البحر المتوسط مع أنه أضعف فى قوته البدنية من كلا الجنسين الشمالى والألبى فهو فى أكبر الظن أرقى منهما فى الأمور العقلية ، وامتيازه فى ميدان الفن ليس موضع شك . وقد جاءت الثقافة فيما يختص بأوربا الحديثة من الجنوب لامن الشمال ، ويتصل عالم البحر الأبيض القديم بهذا الجنس الذى خلق حضارة قدماء المصريين الطويلة الأمد ، وإمبراطورية كريت المينوية المشرقة ، وإمبراطورية إترووريا الغامضة (سلف روما ومعلمتها) ، والمدن والمستعمرات اليونانية المنتشرة على سواحل البحر الأبيض والأسود ، وقوة فينيقيا البحرية والتجارية ومستعمرتها

(١) فى الأصل Bombasto Furioso ، نسبة إلى شخصية هى بطل رواية وليم بارنس رودس ، وكان البطل قائداً لجيش ملك الحبشة ، وكان القائد مغروراً شقشاقا ، وقتل الملك . . . الخ (المترجم)

ذات البأس قرطاجنة . وإلى هذا الجنس أيضاً يرجع الفضل الأكبر فى حضارة أوربا القديمة (١) .

أناتول فرانس : إن ما تسلم به عظيم جداً ، ولن ألح عليك فى امتياز الأثينيين فى كل شىء ما عدا الحرب ، وهم الذين كانوا ثمرة التزاوج بين الجنس الشمالى وجنس البحر الأبيض ، على الإسبرطيين الذين كانوا كما تقول شماليين خلص . ولكنى سأسألك فقط أن تتأمل اسكندناوة التى أنتجت إبسن العظيم وجائزة نوبل (نعم ، ما أعظم فضلهما علىّ) (٢) . وازن بين ما ساهم به هؤلاء الشماليون « الخلص » فى الحضارة ، وبين فن وأدب وعلم وفلسفة أولئك الإيطاليين فى عصر النهضة الذين — إذا كان لى أن أصدقك — كانوا ثمرة التزاوج. ألا تقول بناء على ذلك أن تزاوج الشماليين بغير الشماليين ينتج أعظم الثمرات ؟

جرانت : فى بعض الأحيان .

نيتشه : ولكن ما الجنس ؟

جرانت : الجنس شىء لا يمكن تعريفه كأى شىء آخر بيِّن بنفسه . إنه على وجه التقريب جماعة من الناس من أصل متشابه ، ولجلدهم — أو لغالبية أفراد هذه الجماعة — لون خاص ، وكذلك لون الشعر ، وشكل الرأس ، وهيئة البدن .

أناتول فرانس : عندما كنت فى إنجلترا أخبرنى المستر هيلير بللوك (٣) عن رجل اكتشف أنه من نسل الشماليين ولكن هيئة رأسه وقوامه ولونه وشعره من الجنس الألبى . وأكد لى أن امرأة معينة كان لها خمسة بنين ، اثنان منهم من جنس البحر الأبيض ، وواحد ألبى ، وواحد شمالى ، وخامس خليط من الأجناس الثلاثة . وقد توجد الأجناس الثلاثة فى انجلترا ، ولكن مستر بللوك أشار أنه ربما كانت السيدة قد سافرت (٤) .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٤٧ — ١٤٨ ، ١٩٨ .

(٢) نال أناتول فرانس جائزة نوبل عام ١٩٢١ (المترجم) .

(٣) Hilaire Belloc ، كاتب انجليزى ، ولد فى فرنسا ، له كتب عن الرحلات والتاريخ والسير والخرافات والمقالات (المترجم) .

(٤) Langdon-Davies, J., The New Age of Faith, p. 244.

جرانت : سأسلم أنه لا يوجد جنس نقىّ ، وأن فى كل فرد دماء أصول كثيرة . ولكن مما لاريب فيه أن الأرستقراطية الإنجليزية أنقى نشأة من الأمريكان الذين جاءوا من « الدم المختلط » الموجود اليوم فى الولايات المتحدة .

باكل : إنى أفهم أن الإنجليز ثمرة اختلاط الكلت Celts ، والرومان ، والانجليز Angles ، والسكسون ، والجوت Jutes ، والدناركيين Danes ، والنورمنديين Normans ...

جرانت : ولكن معظم هؤلاء كانوا فروعاً للجنس الشمالى ، وهم فى النهاية من جنس واحد .

راتزل : أتسمحون لى أيها السادة باقتحام المناقشة ؟ لقد درست الموضوع بعناية وانتهيت إلى أن الأجناس الثلاثة الأوربية فروع لجماعة واحدة أصلية جاءت من الشرق ، وكانت فى بدايتها تشبه الجنس الألبى ، ولكنها حين انتشرت شمالا وجنوباً تشكلت إلى جنسين مختلفين : «شمالى» وجنس « البحر الأبيض » نتيجة ظروف جغرافية واقتصادية (١) . وتنشأ فوارق الجنس من فوارق البيئة ، ولذلك من العسير أن يقال إن عامل الجنس هو العامل الحاسم فى التاريخ . وسرعان ما تكتسب الشعوب الشمالية مميزات الشعوب الجنوبية حين يعيشون عدة أجيال فى المناطق الحارة . ويميل سكان الجبال فى جميع أنحاء العالم إلى الطول بصرف النظر عن جنسهم . وقد لاحظت أن أولئك الألمان الذين طالت معيشتهم فى جنوب البرازيل قد فقدوا قوتهم « الشمالية » ، وهم يشبهون الإنجليز فى جنوب أفريقا فيجلسون تحت شجرة ويستأجرون رجلا ملوناً ليشتغل لهم (٢) . إن المميزات الجنسية هى على مر الزمن ثمرة البيئة الجغرافية (٣) .

---

(١) انظر Ripley, W.Z., The Races of Europe.

(٢) Inge, Dean R.W., Outspoken Essays, Second Series, p. 225.

(٣) زعم الدكتور دافنبورت Davenport فى بحث قرأه فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٨ باجتماع الأكاديمية الوطنية للعلوم ، أنه أثبت وجود فوارق أصلية بين البيض والسود ، ولكن تقريره لم يقدم التأكيدات الكافية على أن النتائج لم تكن متأثرة بفوارق فى التدريب العقلى وفى الفرص .

٥ — التفسير الاقتصادى للتاريخ

ماركس : لا تتسرع هكذا يا هر راتزل . لماذا « البيئة الجغرافية » فقط ؟ لم لا تحدد القامة بالغذاء كما تحدد بالمناخ أو الجنس ؟ إنى مندهش أن تمتد هذه المناقشة إلى هذا الحد دون ذكر للتفسير الاقتصادى للتاريخ .

ڤولتير : (مخاطباً أناتول فرانس) من هذا الشخص ذو اللحية الكالحة كأنها لحية إله ؟

أناتول فرانس : (مجيباً ڤولتير) إنه سقراط المتاريس[١] ، كارل ماركس . لقد كتب كتاباً شنيعاً يثبت فيه أن القوى يستغل الضعيف .

ڤولتير : هذا كشف جديد جداً . ألا يخبرنا كيف يمنع ذلك ؟

أناتول فرانس : على الضعفاء أن ينهضوا فى قوة ويخلعوا الأقوياء .

ڤولتير (مخاطباً ماركس) : ما هى نظريتك يا سيدى ؟

ماركس : لن تجد أبسط منها ، فالعامل الأساسى فى التاريخ هو فى كل زمان العامل الاقتصادى : طريقة الإنتاج والتوزيع ، تقسيم الثروة واستهلاكها ، علاقة صاحب العمل بالعامل ، حرب الطبقات بين الأغنياء والفقراء ؛ فهذه الأمور تحدد على مرّ الزمن كل مظهر آخر للحياة ، سواء أكان مظهراً دينياً أم خلقياً أم فلسفياً أم علمياً أم أدبياً أم فنياً . إن مجموع علاقات الإنتاج تكون البناء الاقتصادى للمجتمع ، وهذا البناء هو الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه البنيان القانونى والسياسى ، وتقابله الصور المحدودة للوعى الاجتماعى[٢] .

ڤولتير : هذا كلام شديد التجريد صدع رأسى . ولعل سيدى يقدم لنا بعض التوضيحات .

ماركس : حسناً جداً ، سأستعرض سائر تاريخ الإنسانية من خلال نظريتى .

أناتول فرانس : أعتقد أنك ستذكر قصتى عن الملك والمؤرخين .

---

(١) هذه استعارة فرنسية كناية عن الشعب الذى كان يقيم المتاريس فى الشوارع ضد الطغاة من الحكام (المترجم) .

(٢) Marx, K., Critique of Political Economy, preface.

ماركس : أول كل شيء ، أنا لا أقسم التاريخ إلى قديم ومتوسط وحديث ، فهذا تقسيم من العصر الوسيط . بل أقسم تاريخ الإنسان إلى مرحلة الصيد والرعي ، ومرحلة الزراعة والصناعة اليدوية ، ومرحلة الصناعة والآلات . إن الأحداث العظيمة ليست سياسية بل اقتصادية ؛ ليست هي موقعة ماراتون ، أو مقتل قيصر ، أو الثورة الفرنسية ، بل الثورة الزراعية — أي الانتقال من الصيد إلى الفلاحة — والثورة الصناعية ، أي الانتقال من الصناعة المنزلية إلى نظام الصناعة في المصنع .

ڤولتير : معنى ذلك أن صور الفقر والثراء تتغير من زمن إلى آخر .

ماركس : ليس هذا فقط ، فالظروف الاقتصادية تحدد قيام الإمبراطوريات وسقوطها ، أما الظروف السياسية والأخلاقية والاجتماعية فليس لها إلا مدخل بسيط ، لأن انحلال الأخلاق ، والرفاهية ، والتهذيب — هذه كلها ليست أسباباً بل نتائج . وفي أساس كل شيء توجد طبيعة الأرض : أهي صالحة للزراعة أم للصيد والرعي فقط ؟ أتحتوى على معادن مفيدة ؟ لقد أصبحت مصر قوية بسبب ما فيها من حديد ، وبريطانيا قديماً بسبب ما فيها من صفيح ، وبريطانيا حديثاً لما فيها من حديد وفحم . ولقد أخذت أثينا في الضعف حين نضبت مناجم الفضة فيها ، على حين قوّى ذهب مقدونيا فيليب والإسكندر . وقد حاربت روما قرطاجنة للاستيلاء على مناجم الفضة في أسبانيا ، وانهارت عندما فقدت أرضها خصوبتها .

أناتول فرانس : أنا لا أعرف شيئاً عن التاريخ إلا المبرقشات عديمة الجدوى في الأدب والفلسفة . ولكني أستطيع أن أؤيدك يا سيدي معتمداً على الحروب التي وقعت في زماني ، فقد نشبت كلها من أجل الموارد الطبيعية ، أو أسواق التجارة في أرض أجنبية .

ماركس : شكراً لك . إنك تتحدث عن المنافسة التجارية ، فهذه أيضاً تلعب دوراً عظيماً في التاريخ . لماذا حارب الإغريق حرب طروادة ؟ أذلك لجمال امرأة مستهترة ؟ كلا ؛ لو فرضنا أن هيلين وُجِدت حقاً فإنما هي أسطورة تحجب الاعتبارات الاقتصادية ، فقد كان الإغريق يتحرقون شوقاً لطرد منافسيهم

من الفينيقيين وحلفائهم من المدينة التى كانت تشرف على الطريق المائى إلى آسيا . وحتى أجممنون عرف كيف ينتحل عبارات تسوّغ مسلكه .

وليم جيمس : إذن لم يؤد وجه هيلين إلى إنزال ألف سفينة ؟

ماركس : لا فيما أعلم . . وأنت تعرف بالطبع أن الأسطول البحرى الذى شيده ثمستوكليس ضد إجزرسيس كان أساس قوة أثينا التجارية فى القرن الخامس قبل المسيح ، وأن أموال حلف ديلوس جعلت أثينا من الثراء بحيث زينت الأكروبوليس بالمعابد ، فكان الذهب المسروق هو الذى صنع ذلك الفن الكامل . إن أغلب عصور الفن العظيمة جاءت عقب تكديس الثروة الوطنية . ولكن أثينا أخطأت فى التعويل على الغذاء المستورد ، وكل ما فعلته إسبرطة هو ضرب الحصار عليها ، فجاعت أثينا ، واستسلمت ، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة .

ثم انظر بهذه المناسبة كيف أدى استعباد العمال فى اليونان إلى الوقوف فى وجه الاختراعات الصناعية والتقدم ، وكيف أفضى استعباد المرأة إلى الحد من نمو الحب الطبيعى ، مما أدى إلى الشذوذ الجنسى الذى أثر على فن النحت الإغريقى . إن طريقة إنتاج الأشياء المادية تصوغ المظهر العام لأساليب الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية . ليس وعى الناس هو الذى يصوغ حياتهم ، بل على العكس حياتهم الاجتماعية هى التى تشكل وعيهم . ولقد يظن الفرد أنه هو الذى ابتدع أفكاره ، وأنظمته الفلسفية ، وآراءه الخلقية ، ومعتقداته الدينية ، وأهواءه الحزبية ، وأذواقه الفنية ، بالتفكير المنطقى البرىء عن التحزب ، دون أن يخطر بباله أبداً إلى أى مدى عميق تصوغ الظروف الاقتصادية القائمة وراء حياته كل فكرة من أفكاره .

منتسكيو : وكيف تطبق نظريتك على روما ؟

ماركس : لقد كانت روما فى أساسها جماعة تقوم على تسخير العبيد ، وكان السادة فى غاية الاستهتار والفساد . ولكن ماذا كانت نتيجة هذا كله ؟ اضطر الفلاحون بالتدريج إلى الإفلاس ، واشترى الأغنياء الأرض وجلبوا العبيد لزراعتها فكانوا يفلحونها بفتور وإهمال ، فخربت الأرض ، واضطرت

روما أن تستورد طعامها من الخارج . ومزقت ثورات العبيد أوصال البلاد ، وفي الوقت نفسه أخذت التجارة بين أوربا وآسيا يقل مرورها عن طريق روما وأخذت حركة التجارة تزداد عن طريق البوسفور ، فنمت القسطنطينية ، وتأخرت روما .

بوسويه : لا تستطيع أن تنكر أن الدين في أثناء العصر الوسيط هو الذى كان يسير حياة الناس ، لا الشئون الاقتصادية .

ماركس : ليست هذه إلا نظرة سطحية ؛ فقد نشأت قوّة الكنيسة من فقر الشعوب المحطمة أو المستعبدة المتطلعة إلى الراحة والأمل في الآخرة . واشتد ساعد الكنيسة على أنقاض الجهل والخرافات التى تسير مع الفقر جنباً إلى جنب ، وعلى التراجع من الحياة المدنية إلى المعيشة الريفية . وثبتت قواعد الكنيسة مع الهبات والوصايا ، والأملاك التى تشبه « منحة قسطنطين » ، والعشور والضرائب والإعانات البابوية ، وهذا كله أفضى إلى أن تكون ثلثا أرض أوربا المنزرعة من أملاك الكنيسة ، فكان ذلك هو الأساس الاقتصادى لقوتها . وهذه هى الحال في مظاهر العصر الوسيط الأخرى ، التى كان لها أسبابها الاقتصادية . وكانت الحروب الصليبية محاولة لاسترداد طريق تجارى من « الكفار » ؛ وكانت « النهضة » ثمرة تدفق الذهب الذى غمر شمال إيطاليا نتيجة تجدد التجارة بين أوربا والشرق عن طريق موانى شمال إيطاليا ؛ وظهر « الإصلاح الدينى » Reformation حين عزم أمراء ألمانيا على الاحتفاظ لأنفسهم بالمال الذى كان يذهب من جيوب الشعب للفاتيكان .

بوسويه : إنك على خطأ شديد يا سيدى .

ماركس : لم تظهر الثورة الفرنسية لفساد البوربون ، ولا لأنك ياڤولتير كتبت سخرياتك البارعة ، ولكنها قامت لأن طبقة اقتصادية جديدة هى الطبقة البورجوازية (المتوسطة) كانت آخذة في النهوض خلال ثلثمائة سنة إلى مستوى الطبقة الأرستقراطية من أصحاب الأرض ؛ وأخيراً لأن هذه الطبقة اكتسبت ثروة أكبر وقوة اقتصادية أعظم من ثروة وقوة أولئك السخفاء الأغنياء الذين كانوا يتسكعون في بلاط لويس السادس عشر . فالسلطان السياسى يُعقّب

القوة الاقتصادية إنْ قريباً أو بعيداً ، وليست الثورات الناجحة إلا مجرد توقيع سياسي لانتصارات اقتصادية سابقة . ويعتمد شكل الحكومة على توزيع الأرض ، كما قال هارنجتون(١) منذ سنوات كثيرة ، فإذا امتلك شخص واحد معظم الأرض قامت الملكية ، وإذا امتلكها قلة من الناس ظهرت الأرستقراطية ، وإذا امتلكها الشعب فهذه هي الديمقراطية .

جرانت : في هذا الكلام صواب كثير ، ولعل التفاوت في النسبة بين ملاك الأرض في الريف وبين سكان المدن الذين لا يملكون شيئاً سبب من أسباب انهيار الديمقراطية في أمريكا .

ماركس : لم كشفت أمريكا ؟ أذلك من أجل المسيحية ؟ كلا ، بل من أجل الذهب. ولماذا استخلصها الإنجليز من أيدي الأسبان والهولانديين والفرنسيين ؟ لأن الإنجليز كان عندهم المال الذي يبنون به الأساطيل المتفوقة . ولماذا ثارت المستعمرات على انجلترا ؟ لأنها لم ترغب في دفع ضرائب غير معقولة ؛ ولأنها أرادت أن تضع حداً لاستبداد الأرستقراط الإنجليز الذين كانوا يفرضون سلطانهم عليهم بحق منح الأراضي ؛ ولأنها أرادت أن تتجر بغير قيود سواء في النبيذ أو العبيد ؛ ولأنها رغبت في دفع ديونها بعملة مخفضة .

وليم جيمس : ما هذا ؟

ماركس : بكل تأكيد يا سيدي ، فأنت على علم بالمباحث التي كشف بها مواطنك الأستاذ بيرد Beard (٢) عن الأسباب الاقتصادية في الدستور الأمريكي وفي الديمقراطية الجيفرسونية ؟ أولم تقرأ ما قاله دانيل وبستر Webster

---

(١) جيمس هارنجتون Harrington كان معاصراً لكرومويل ، وصاحب مذهب سياسي يعتمد على الاقتصاد ، وكتب مدينة فاضلة (طوبيا) مشهورة اسمها أوسيانا Oceana وصدر الكتاب في لندن عام ١٦٥٦ (المترجم)

(٢) هو شارلس أوستن بيرد (١٨٧٤ – ١٩٤٨) مؤرخ أمريكي مشهور بآرائه الحرة وتفسيره للتاريخ الأمريكي على أساس اقتصادي ، وله كتاب بعنوان « التفسير الاقتصادي للدستور » صدر عام ١٩١٣ ، وآخر بعنوان « الأصول الاقتصادية للديمقراطية الجيفرسونية » صدر عام ١٩١٥ – ويشير في هذا الكتاب إلى جيفرسون ثالث رئيس جمهورية للولايات المتحدة (١٨٠١ – ١٨٠٩) وهو مؤسس الحزب الديمقراطي الذي فاز بالرياسة (المترجم) .

خطيب أمتكم العظيم : « كان أجدادنا فى نيوإنجلند على قدم المساواة فيما يختص بالملكية . وكان موقفهم يقتضى تجزئة الأراضى وتقسيمها ، و يمكن القول دون أن نعدو الصواب إن هذا العمل الضرورى ثبت شكل حكومتهم وهيئتها . إن القوانين الأساسية الخاصة بالملكية حددت صفة نظمهم السياسية .... فأشد الحكومات حرية لن يطول الرضا عنها إذا كانت وجهة القوانين تميل نحو خلق تجميع سريع للملكية فى يد عدد قليل من الناس ، وإلى جعل جمهرة السكان عاجزين ومعدمين . وفى مثل هذه الحالة لابد إما أن تثور القوة الشعبية على حقوق الملكية ، وإما أن يحدد نفوذ الملكية نشاط القوة الشعبية ويضبطها . فالاقتراع العام مثلا لا يمكن أن يعيش طويلا فى جماعة تتفاوت الملكية فيها تفاوتاً عظيما » (١) .

ڤولتير : هذا كلام بارع منكما أنتما الاثنان .

أناتول فرانس : وليس فيه إلا عيب واحد من وجهة نظر ماركس : ذلك هو الزعم غير الدقيق الذى قاله الخطيب المذكور من أن القوانين يمكن أن تخلق تغييرات فى توزيع الملكية ، فلو كان الأمر كذلك لما استقامت نظريتك يا سيدى . فأنت تعتقد أن النظم السياسية تحددها الظروف الاقتصادية ، وأن الثورات لا يمكن أن تنجح إلا إذا أيدتها جماعة فى يدها من قبل ميزان القوة الاقتصادية . أفلا تنقض الثورة الروسية رأيك ؟

ماركس : كلا قطعاً . بل سينقض رأيى الثورة . فالذى يحدث أن الشكل السياسى إما أن ينحنى رويداً رويدا أو ينهار أمام الواقع الاقتصادى : فالثورة الشعبية proletarian فى دولة من الفلاحين لابد أن تجلب ، إن حاضراً أو مستقبلا ، حكومة لعلها تحتفظ بصورة شعبية ولكنها فى أساسها آلة فى يد أولئك الذين يسيطرون على الأرض .

أناتول فرانس : إنى لأخشى أن يكون هؤلاء البلشفيك الشجعان قد انحرفوا عن الماركسية .

---

(١) Beard, C., The Economic Basis of Politics, p. 38.

ماركس : لقد كنت أقول دائماً إنى لست ماركسياً .

ڤولتير : ألا يبدو لك يا مسيو ماركس أن الدكتاتورية العسكرية تمكن فى بعض الأحيان أن تحسن الاحتفاظ بكيانها بأساليب شيطانية ولو أنها لا تمثل قوة اقتصادية كبيرة — كما كان الحال فى أيام الحرس البريتورى[1] .

ماركس : هذا لا يكون إلا لفترة قصيرة يا سيدى .

أناتول فرانس : لست أدرى أتعرف يا سيدى ما نسميه ، نحن المحدثين ، تحديد النسل ، وأعتقد أنك لا تمارس ذلك . الحق أن تحديد النسل يفيد الكنيسة الكاثوليكية فائدة عظمى ، لأن تلك الكنيسة بحكمتها القديمة تمنع تحديد النسل بين المؤمنين ، وتنتظر فى صبر أن يعيد انخفاض نسبة المواليد بين البروتستانت والفلاسفة شيئاً فشيئاً ألمانيا أولا ، ثم أمريكا ثانياً ، شعوباً كاثوليكية مرة أخرى . فإذا نجحت سياسة الكنيسة (وقد انتصرت ببصيرتها الصامتة فى كثير من المواقع) وإذا فسد الإصلاح الدينى ، بل وربما التنوير بسبب تحديد النسل ، أفلا تعد هذا من الحوادث العظيمة الأهمية ؟ ومع ذلك فمن العسير أن يدخل هذا تحت باب التفسير الاقتصادى للتاريخ . ولعلنا فى حاجة إلى تفسير حيوى للتاريخ ؟

ماركس : أنت مخطىء يا سيدى . ما هى أسباب تحديد النسل ؟ إنها أسباب اقتصادية : مستوى مرتفع من المعيشة ، وازدحام المدن بالسكان ، وقوانين للأرض كتلك التى تسود بلادك ، وهى قوانين ترغم الآباء على تقسيم أملاكهم بالتساوى بين أبنائهم .

جرانت : ولكنك سوف تسلم بكل تأكيد أن العوامل الجنسية كثيراً ما ترجح العوامل الاقتصادية .

ماركس : أبداً .

جرانت : وكيف يمكن بغير ذلك أن تفسر غزو أهل شمال أوربا لآسيا ؟

ماركس : بسبب سبقهم فى الثورة الصناعية . ثم راقب أهلك الشماليين كيف يخرجون من آسيا عندما تصبح الصين دولة صناعية .

---

(١) الحرس البريتورى هو الذى أنشأه الامبراطور أغسطس الرومانى ، وأصبح لذلك الحرس نفوذ كبير حتى جعل الأباطرة ألعوبة فى يده (المترجم) .

جرانت : كثيراً ما رأيت جماهير الشعب ، كإضراب العمال الأمريكيين ، أو الشعب الأمريكى كله فى انتخابات الرياسة ، ينقسم على أساس جنسى لا على أساس اقتصادى .

ماركس : يتحرك الأفراد والجماعات فى الغالب بدوافع غير اقتصادية.... جنسية racial ، دينية ، وطنية ، تناسلية sexual [1] ؛ ولكن هذه الأفراد والجماعات تسيرها أشخاص على وعى تام بالقيمة الاقتصادية . هل الساسة الذين يوفدون الجند للمعارك بالخطب الحماسية والموسيقى العسكرية بريئون البراءة كلها من الدافع الاقتصادى ؟ يقال إن كولومبس بحث عن الهند ليقدم إلى البابا مسيحيين جدداً ؛ وهذا محتمل جداً ، ولو أنه بعيد الاحتمال أن تدور مثل تلك الأفكار فى ذهن ذلك الرجل ؛ ولكن هل تظن أن فرديناند وإيزابلا ساعداه لمثل هذه الأسباب ؟ قد يتصرف الأفراد طبقاً لدوافع غير الدوافع الاقتصادية ، وقد يضحون بأنفسهم فى سبيل أبنائهم أو أهل بلدهم أو آلهتهم ، ولكن هذه الأعمال العابرة من البطولة أو الجنون ليس لها أهمية فى تحديد قيام الدول وسقوطها . إنى لا أطبق الحتمية الاقتصادية على الأفراد .

وليم جيمس : إنى مسرور أن أسمع ذلك . فقد درجت على الظن بأن القوى الأخلاقية كالنفور من استعباد الرقيق بقيادة ولبرفورس وجاريسون لها شيء من الصلة بالتاريخ ؛ ولست أشك فى أنك ستصحح فكرتى فى هذه المسألة.

ماركس: ليس ثمة قوى أخلاقية فى التاريخ ، فالعوامل الاقتصادية تكمن وراء كل حادثة عظيمة . إن جاريسون [2] لم يرفع علم الثورة ضد الاسترقاق بالمواعظ الخلقية . وحين حرر لنكولن العبيد كان ذلك إجراء حربياً القصد منه إضعاف الجنوب ، ولقد صرح بأنه لا يرى بأساً أن يتركهم عبيداً لو أدى ذلك

(١) درجنا فى اللغة العربية حديثاً على ترجمة لفظة Sex بقولنا « جنس » ، وأصبحنا ننسب إليها فنقول الدوافع الجنسية ، والكبت الجنسى ، والشذوذ الجنسى ، وهكذا . وهذه اللفظة ترجمة أيضاً للفظة race . فلما وردتا فى عبارة واحدة اضطررنا للتمييز بينهما (المترجم) .

(٢) وليم لويد جاريسون Garrison (١٨٠٥ - ١٨٧٩) زعيم أمريكى قاد حملة تحرير العبيد (المترجم) .

إلى السلم . فقد أراد الجنوب الانفصال عن الشمال لما أصابه من أضرار من جراء الضريبة ، وفقدانه كل أمل فى السيطرة على الكونجرس ، وأراد الشمال الاحتفاظ بالجنوب سوقاً للمصنوعات ومورداً للطعام والمواد الخام . كانت « المثل » فى كلا الجانبين عبارة عن أوراق التين (١) . فالمثل الأعلى فى كل حال حاجة مادية تسترها عبارات لفظية فى هيئة غاية أخلاقية .

أناتول فرانس : أتقول ذلك أيضاً عن المثل الاشتراكية ؟

ماركس : أجل .

أناتول فرانس : وا أسفاه .

٦ — التفسير النفسانى للتاريخ

هيجل : أظن يا سيدى أن آراءك انتهاك للحرمات ، وأنا حين أنظر فى سائر هذه النظريات بجملتها أجد فيها كل عامل سوى عامل العقل البشرى . إن من يسمعك يظن ألا قيمة للعقل والشجاعة فى هذا العالم ؛ وأنه ما دامت نفس الظروف الجغرافية والاقتصادية والجنسية تؤثر فى الأفراد ، وفى الدول أحياناً ، فكذلك لا فرق بين أن يكون الفرد عبقرياً أو مغفلا ، أو أن يكون المواطنون أذكياء أو جهلاء . لقد أغفلت نظريتك البطل .

ماركس : لا يوجد أبطال . فالفكر آلة الرغبة ، والرغبات فى الجماعات والأمم هى على الدوام رغبات اقتصادية . أو كما قال بسمارك : ليس ثمة أخلاق بين الأمم . والعظيم من الرجال كذلك ليس إلا آلة وبوقاً وعاملا للحركات الشعبية أو للقوى غير الشخصية . وإذا لم يكن أمره كذلك فهو متهور لا أثر له يمر به التاريخ دون أن يلحظه . والأفكار بالنسبة إلى التاريخ كالفكر بالنسبة للعمل الفردى ، وفى كلتا الحالتين ليست الفكرة هى السبب الحقيقى للنتيجة ، بل رغبة من الرغبات ليس الفرد فى حاجة لأن يشعر على الإطلاق بها . الحق أن سائر ثقافة

(١) استعارة فى اللغة الإنجليزية تطلق على من لا يكاد يستر ضميره ، لأنهم يتخذون من ورقة التين ستراً للأعضاء التناسلية فى التماثيل العارية (المترجم)

عصر من العصور تتصل بحياته الاقتصادية بمثل الصلة التى توجد بين الفكر والبدن ، فهى تأويل وتعبير لعمليات وقوى تعتمد عليها .

هيجل : إنى فى دهشة أن يتكلم ألمانى على هذا النحو . ومن الظاهر أن ألمانيا منذ تلك الأيام العظيمة أيام كانط ، وليسنج ، وهردر ، وجوته ، وشلر ، وبيتهوفن ، وأنا ، قد وضعت همها فى الصــناعة ، فهى تنتج الآن كيمائيين وميكانيكيين ولا تخرج فلاسفة وفنانين . وبذلك تفسر سائر العالم وجميع التاريخ فى هيئة آلات . إنى أود أن أسمع جوته يخبرك عما يراه فيما يختص بنظريتك . أو أسمع هردر Herder الذى هز مشاعرنا جميعاً سنة ١٧٨٧ بكتابه « أفكار عن فلسفة لتاريخ البشر »،وهو الذى كان يرى سائر التاريخ تثقيفاً للجنس البشرى .

أناتول فرانس : حدثنا عن رأيك الخاص فى التاريخ أيها الأستاذ . لقد كان اسمك عنــدما كنت صبياً ملء السمع فى بلدى ، وكان كوزان Cousin يقسم بك . إن شئت الحق لم يستطع أحد منا أن يتبين شيئاً مما كنت ترمى إليه . والآن ونحن هنا فى هذا الفردوس Elysian Fields [١] قد اجتمعنا وجهاً لوجه فالفرصة سانحة أخيراً كى نفهم هيجل .

هيجل : لقد لجأت يا سيدى إلى الإبهام حتى لا يفهمنى الحمقى ، فلم يكن من اليسير أن أكشف للجيل الذى أعيش فيه أن العقل لا يوجد فى هذا الكون إلا بمقدار ما نضعه فيه ، وأن الله ليس العلة الأولى بمقدار ما هو العلة الأخيرة . كان علىّ أن أتكلم بأسلوب يسمح بتأويل الأمور تأويلا حسناً حين أرى الجلاد مقبلا فى الطريق .

ڤولتير : إنى أفهمك يا سيدى ، إذ بعد موت فردريك [٢] أصبح التفكير فى ألمانيا غير مشروع .

هيجل : ولكن الحق يقال كانت فلسفتى بسيطة جداً . فالله هو المطلق Absolute

---

(١) الاليزيوم Elysium فى الميثولوجيا اليونانية هو مسكن السعداء من الناس ، ومنه أرض الاليزيوم ؛ أى فردوس شعراء اليونانيين (المترجم) .

(٢) يشير إلى فردريك الثانى الذى حكم ألمانيا من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦ ، ورفع شأن أمته ، واستدعى ڤولتير إلى بلاطه (المترجم) .

والمطلق هو المجموع الكلى لجميع الأشياء فى تطورها . الله هو العقل Reason ، والعقل هو ذلك النسيج وذلك البناء للقانون الطبيعى الذى تتحرك الحياة أو الروح Spirit فى داخله وتنمو . الله هو الروح ، والروح هى الحياة Life والتاريخ هو نمو الروح Development of Spirit ، أى إن التاريخ نمو الحياة . فى البدء تكون الحياة قوة غامضة لاتعى نفسها ، وعملية التاريخ انتقال «الروح» أو «الحياة» إلى الوعى الذاتى والحرية . والحرية جوهر الحياة كالجاذبية التى هى جوهر الماء . والتاريخ هو نمو الحرية ، وغايته أن تكون «الروح» (١) حرة حرية كاملة واعية .

ڤولتير : هذه يا مسيو هيجل هى حقاً لغة الثورة .

هيجل : بكل تأكيد ، فقد كنت أعنى ذلك . لقد رأيت التاريخ يمر فى مراحل ثلاث : الأولى المرحلة الشرقية التى لم يكن فيها إلا فرد واحد حر ؛ والثانية المرحلة اليونانية الرومانية التى كان فيها قلة من الأحرار ؛ والثالثة المرحلة الحديثة التى أصبحت فيها الروح واعية بحريتها التى تنظمها فى الدولة ، وبذلك تجعل جميع الناس أحراراً .

ماركس : إننا نحن أبناء ألمانيا الفتية لم نستطع أن نغفر لك إعلاءك من شأن بروسيا — وهى أشد دول أوربا رجعية ، ولكننا أبصرنا المعنى الحق فى ميتافيزيقاك ، وقدرنا جدلك . إن أذنىّ لا تزالان ترنان بصدى ذكرى «القضية ، ونقيضها ، والقضية التركيبية . thesis, antithesis, synthesis» وكان كراوس Krause يخبرنا أن : «العالم القديم هو القضية ، والعالم الحديث نقيضها ، وبولينيزيا القضية التركيبية» . أما نحن الطلبة فكانت تجرى على ألسنتنا صيغة أحسن : «الظمأ هو القضية ، والنبيذ نقيضها ، والقضية التركيبية على الأرض تحت المائدة» (٢) .

---

(١) الروح فى فلسفة هيجل ، والتى نجدها فى الترجمة الإنجليزية Spirit هى باللغة الألمانية Geist ، ولا يقصد بها المعروف عندنا من معنى الروح أو النفس ، بل هى صورة متطورة من الوعى الذى يكمن فى المجتمع ويكون علة تطوره وحياته . وهذا الوعى الذى يعبر عنه بالروح ثمرة التآلف بين وعى الفرد ووعى المجتمع (المترجم) .

(٢) Hegel, Philosophy of History, pp. 18-21.

(يشير المؤلف فى هذه القضية التركيبية أن الشخص يكون لعبت برأسه الخمر حتى وقع على الأرض — المترجم) .

هيجل : اضحك إذا شئت أنت الناشىء تحت جناحى الأيسر. ولكن انظر كيف أن سائر التاريخ ، كسائر الميتافيزيقا ، تسطع تحت أضواء جدلى ؟ إن كل عصر يطوى فى نفسه بعض المتناقضات الدقيقة تشبه بالضبط ما يوجد فى الرأسمالية عندكم ؛ ويساعد النمو على جعل هذا التناقض واضحاً وحاداً ، حتى ينتهى الأمر بالانقسام ، والحرب ، والثورة ، والانفجار ؛ ثم تلتئم العناصر المتقابلة كتلك الصبغيات التى بينها لنا باتيسون Bateson ذلك اليوم فى مكونات جديدة ، وهكذا يبدأ عصر جديد . ويعينك على التنبؤ بالمستقبل هذا القانون : « لن تحصل من مرحلة واحدة على نقيضها بل على المركب منها ومن نقيضها » . وعلى هذا النحو فإن الرأسمالية فى صراعها مع الاشتراكية لا تفضى إلى الاشتراكية بل إلى رأسمالية الدولة State capitalism : ذلك أن الثوار ينقلبون رأسماليين ، ويسمون أنفسهم الدولة ، ومع أن كثيراً من الناس يقاسون ، إلا أن الأمور تتقدم لتبلغ مرحلة أرقى .

ماركس : فإذا كان الأمر كذلك فلم لم ترحب بشباب الثوار فى زمانك باعتبارهم رسل المستقبل ؟ لم زعمت أن الحرية كانت موجودة فى بروسيا أكثر مما كانت فى اليونان قديماً ؟ لقد كنت تظن أن بروسيا تمثل أرقى حضارة عرفت فى التاريخ . وحيث كانت بروسيا ملكية ، وكنت لسانها الناطق ، فقد خلطت التاريخ لتبين أن الطغيان يوجد فى المرحلة الدنيا حيث لا يوجد إلا فرد واحد حر ؛ وأن الأرستقراطية أو الديمقراطية توجد فى المرحلة الثانية حيث يكون ثمة أقلية حرة ؛ وفى المرحلة العليا حيث يكون جميع الناس أحراراً توجد الملكية . يا إلهى ! ملكية ؟ لقد صنفت الشعوب وسميتها كما يفعل الصبى الذى يرتب طوابع البريد . لقد صغت القانون الذى يجعل عملية التطور تدفع الحضارة إلى الغرب أكثر فأكثر ، وتجعل الحضارة كلما كانت غربية كانت أرقى . ونتيجة ذلك أنك رفعت أشور على الصين ، وكان ينبغى أن تضع أمريكا فوق ألمانيا ، وكذلك آثرت أن تكون وطنياً .

هيجل : إذا كنت فى روما فافعل كما يفعل الرومان .

ماركس : كلا يا سيدى ؛ سواء أكنت فى روما أم فى غيرها ، فلا يوجد إلا حق واحد .

أناتول فرانس : إنك تتحدث يا سيدى كأنك تملك هذا الحق الذى لعله لا يوجد أصلا ، فلا تكن شديد الثقة إلى هذا الحد .

كارليل : أرجو أن تفسحوا صدركم لسماع كلمة من رجل شيخ . . . . لكم ما زلتم تغفلون العبقرية من التاريخ ، فلم نتقدم بعد حواركم كله عما كنا عليه من قبل . وعندى أن التاريخ العام ، تاريخ ما قام به الإنسان فى هذا العالم ، إنما هو فى أساسه تاريخ عظماء الرجال الذين أثروا فيه ، فقد كان هؤلاء العظماء قادة الناس ، وكانوا القدوة والنماذج ، وبمعنى أوسع المبدعين لسائر ما سعت جموع الشعب إلى عمله أو بلوغه . وكل ما نراه ماثلا محققاً فى هذا العالم هو ولا ريب ثمرة المادية الخارجية ، والتجسد والتحقيق العمليين للأفكار التى استقرت فى رءوس العظماء المرسلين إلى هذا العالم . فروح تاريخ العالم كله إنما هو بحق تاريخ هؤلاء الأبطال . فإذا تيسر لنا حسن البصر بهم فقد نستطيع أن ننفذ إلى لب تاريخ العالم (١) .

وليم جيمس : بخ ، بخ ، هذا كلام نادر فى جودته يا كارليل . ولقد حان الوقت الذى يجب علينا أن نبلغ فيه منبع « الأفكار » التى تحرك العالم .

هيجل : اهدءوا أيها السادة ، فالأفكار هى التى سميتها « روح العصر Zeitgeist » ، وجميع ألوان التفكير والشعور السائدة فى زمان ما تكون « روح العصر » ، وكل شىء فى التاريخ ثمرة لذلك (وقد سمعت أن الهر لامبرخت Lamprecht يعيد الكلام نفسه اليوم ، ولكنه يغطى سرقته بعبارة جديدة هى « النفس الاجتماعية Social psyche ») . لا يؤثر عظماء الرجال إلا حين يكونون آلات غير واعية لروح العصر . وإذا لم يكن الفذ من العظماء مؤتلفاً مع روح العصر ضاع ، ولعل الأولى به ألا يظهر إلى الوجود . إن العبقرى الذى يلقى الشهرة والنجاح قد لا يكون أعظم من أسلافه الذين وضعوا هم أيضاً لبناتهم فى البناء ، غير أن حسن حظ ذلك العبقرى أنه جاء آخرهم ، فلم يكد يضع حجره فى البناء حتى استقام العقد . وليس لمثل هؤلاء الأفراد وعى بـ « الفكرة Idea » العامة التى يبسطونها ، ولكنهم ينفذون ببصيرتهم إلى احتياجات زمانهم ،

---

(١) Carlyle, T., Heroes and Hero-Worship, p. 1.

فيعرفون ما تهيأ نضجه للنمو(١). فليس عظماء الرجال مبدعين ، بل شأنهم فى ذلك شأن القابلة التى تساعد الزمن على توليد ما هو موجود فى الرحم من قبل .

كارليل : لا أعرف شيئاً عن قابلاتك يا هر هيجل ، ولكنى أعرف أن التاريخ لولا كروموبل لتغير وجهه ؛ ولاختلف كذلك بدون فردريك ؛ ولم تكن البشرية لتغفر للثورة الفرنسية لولا ظهور نابليون . إن الكفر بالأبطال هو أقصى ما يمكن من الإلحاد .

نيتشه (كأنه يخاطب نفسه) : إن عبارة الأبطال بقية تخلفت عن عبادة الآلهة . ومع ذلك . . . ومع ذلك لم يعد أحد يعرف التبجيل ، فقد ماتت جميع الآلهة ، ونود الآن أن يحيا السوبرمان .

ڤولتير : أهو مجنون ؟

أناتول فرانس : إنه ملهم يا أستاذ .

وليم جيمس : ولكنى مهتم بهذه النظرية عن عظماء الرجال فى التاريخ . ما هى الأسباب التى تجعل المجتمعات تتغير من جيل إلى جيل والتى تجعل انجلترا تحت حكم الملكة حنة Anne مثلا مختلفة هذا الاختلاف الشديد عن انجلترا تحت حكم إليزابث ؟ يقول الهر ماركس إنه لا صلة للتغييرات بالأشخاص . وأنها مستقلة عن سلطة الأفراد . ولست أعتقد فى ذلك ، إذ أن الاختلاف يرجع إلى تجمع أثر الأفراد ، وأمثلتهم ، وقدرتهم على الابتكار ، وقراراتهم . كلا يا مستر ماركس . لا تؤثر الجماهير كثيراً فى التاريخ ، ولكنهم يتبعون قيادة الأفذاذ من الرجال . ففى جيل واحد قلب بسمارك ألمانيا الفلسفية إلى ألمانيا العسكرية والاستعمارية . وتلقى نابليون فرنسا جانحة إلى السلم بسبب الإنهاك والاشمئزاز ، فملأها بحمى السعى إلى المجد . وقد انساقت وراء مثاله واستسلمت لعبقريته . وكاد تيودور روزفلت يفعل مثل ذلك بالولايات المتحدة . إنى أتفق مع إمرسون فى قوله : « أوافق على قول منشيوس Mencius(٢) الصينى : الحكيم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) ويسمى منج تسى ، عاش فى القرن الرابع ق . م وشرح الكتب المقدسة وألف كتباً عن العالم (المترجم) .

هو معلم مائة عصر . فعندما يسمع المغفل سيرة لُو Loo يصبح ذكيا ، ويصبح المتردد حازماً » . وأعتقد أن صديقي مستر تارد يتفق معي ، لأن فكرتي الخاصة عن التاريخ لا تكمل إلا إذا أضفت إليها مذهبه في التقليد (١) .

تارد : نعم أيها الزميل العزيز ، إني متفق معك بكل تأكيد ، هناك في العالم عمالقة وأقزام ، والعمالقة فقط هم الذين يغيرون وجه الأشياء . وإذا فرضت وجود جميع الظروف الجغرافية والجنسية والاقتصادية التي تريدها ، فلا بد من وجود شخص يتقدم الصفوف في كل حادثة وفي كل تغيير . إن القزم من الرجال لن يبدأ بالابتكار ، فهو خائف وأكبر الظن أنه لا يحلم أبداً بوجود حاجة لأي شيء انهم إلا أنواع السلوك المتوارثة ، وتكفيه في ذلك العادات والتقاليد . أما العملاق من الرجال فإنه يشعر بالحاجة ، إنه « يفكر » ، فيتغير كل شيء . قد يخفق هذا العظيم ، ولكنه إذا نجح ، فإن قلة من الناس في النادر أيضاً تحاكيه . فإذا نجحوا تدفقت في المجتمع موجة من التقليد كالتيار الجارف . حدث أن تاجراً يابانياً واحداً حاكي طرق الغربيين وأفكارهم ، وقلده عشرة ، والآن يسير على منواله مائة ألف ، وبذلك تغيرت اليابان كلها . وأنا لماذا نشأت كاثوليكياً ؟ بالتقليد . ولماذا نشأت فرنسياً ؟ أعني لست رجلا يختلف عنك يا هر هيجل في الدم أو الجنس بل في العادات واللغة ، وفي أساليب الشعور والفكر ... بسبب التقليد . إن طريق التقليد هو على الجملة الشيء الوحيد الهام في التاريخ . وتقوم وراء العوامل الاقتصادية والجغرافية العملية الأساسية الحيوية وهي عملية الانتخاب الطبيعي للتغيرات الملائمة . فالعبقري هو المتغير variant ، وفكرته هي التغير variation ، و « روح العصر » والظروف الطبيعية هي البيئة التي تسمح للتغير أن ينجح . والتاريخ هو الحرب بين التفاهة mediocrity والعبقرية .

كارليل : إني أشكرك يا سيدي ، فقد أحسنت أي والله القول .

لستر وارد : لو سمحتم لي أيها السادة فثمة أمر واحد ينبغي أن يضاف ، هو أن التاريخ هو تاريخ الاختراعات العظيمة . إذ تقوم وراء التغيرات الاقتصادية تغيرات

(١) Barnes, H. E., The New History and the Social Sciences, p. 87 ; Emerson, Representative Men, p. 17.

ميكانيكية ، ويقوم وراء هذه التغيرات تقدم العلم الطبيعى ، ويقوم وراء هذا العلم التفكير المنعزل للفذ من الرجال . قد لا يكون عظماء الرجال علة الأحداث التى تصور عادة فى التاريخ ، كالحروب ، والانتخابات ، والهجرات ، وغير ذلك ، ولكنهم علة الاختراعات والاستكشافات التى تصوغ العالم صياغة جديدة ، وتغير كل جيل عن الجيل السابق . إن نمو المعرفة هو جوهر التاريخ .

باكل : إنك على حق ، إذ يجب أن يفسر التاريخ السياسى فى كل أمة بتاريخ تقدمها الفكرى .

وارد : كنت تود يا مسيو ڤولتير أن تعرف أى خطوات اتخذها الإنسان لينتقل من البربرية إلى المدنية . فاعلم أن ذلك بالاختراعات . وليس أهم الرجال فى تاريخ أمريكا هم الساسة ولا رؤساء الجمهورية ، بل المخترعون — فالتون Fulton [١] ، هويتنى Whitney [٢] ، مورس Morse [٣] ماكورميك McCormick[٤] ، إخوان رايت Wright Brothers [٥] ، إديسون Edison[٦] وستستمر آثار ما عمل هؤلاء الرجال قروناً طويلة بعد أن تنسى أسماء رؤساء الجمهورية . إنها الآلة البخارية التى صنعت القرن التاسع عشر ؛ وإنها الكهربا والكيميا والطائرة التى ستصنع القرن العشرين[٧] .

ماركس : إنى أسلم بقيام الاختراعات الجديدة وراء التغييرات الاقتصادية .

---

(١) فالتون (١٧٦٥–١٨١٥) مخترع أمريكى ومهندس .

(٢) هويتنى (١٧٦٥ – ١٨٢٥) مخترع أمريكى لمحالج القطن ، وسجل اختراعه عام ١٧٩٤ (المترجم) .

(٣) مورس (١٧٩١ – ١٨٧٢) مخترع أمريكى لشفرة الإشارات التلغرافية ، وتعرف باسمه حتى اليوم (المترجم) .

(٤) ماكورميك (١٨٠٩–١٨٨٤) مخترع آلة الحصاد .

(٥) الأخوان ولبور رايت (١٨٦٧ – ١٩١٢) وأورڤيل رايت (١٨٧١ – ١٩٤٨) من رواد الطيران الأمريكى ، وقد طارا لأول مرة بعد إجراء عدة تجارب على عمل محرك للطائرة فى عام ١٩٠٣ ، ثم استعمل بعد ذلك جيش الولايات المتحدة طائرتهما عام ١٩٠٩ ، وفى ذلك العام أسسا شركة رايت للطيران (المترجم) .

(٦) إديسون (١٨٤٧ – ١٩٣١) من أشهر المخترعين لأكثر من ألف اختراع حديث كالفونوغراف والسينما فانه اهتدى إلى عمل أول عرض للصور المتحركة عام ١٩١٣ (المترجم) .

(٧) بارنس ، المرجع السابق ، ص ١٨

ولكن أنواع التقدم الفنى ، بل والبحث العلمى ، مدينة للحاجات والمطالب الاقتصادية . إن حاجة صناعية فنية تكون حافزاً على العلم أكثر من عشر جامعات، وكل اختراع هو الخطوة الأخيرة فى طريق بحث طويل ، لأن الاختراع يتم بخطوات صغيرة قد تكون غير محسوسة فى بعض الأحيان ، وهو راجع على مر الزمن إلى الضروريات والحاجات الاقتصادية (١) .

أناتول فرانس : ترجع الاختراعات إلى حاجات حياتنا يا سيدى ، وليست الاحتياجات الاقتصادية إلا جزءاً منها ؛ فبعض الاختراعات ، وكثير من التاريخ ، يرجع إلى الحاجة إلى الحب وليس له أساس اقتصادى . حقاً إن الحب حين يلمس الاقتصاديات يشرع فى الموت . ولماذا طبقا لنظريتك كتب الناس الموسيقى ؟

ماركس : إنها فضل ، وعرض ، ونتاج فائض كقطران الفحم أو الصابون .

نيتشه : لو جرت الحياة بغير موسيقى لكان هذا خطأ .

أناتول فرانس : فلنقفل باب هذه المناقشة . نعم ، يا مسيو منتسكيو ، ويا مستر باكل ، ومستر راتزل ، نحن نعيش على ظهر الأرض ، وسنظل على الدوام مقيدين بها ، ولو أننا سوف نتخطى حدودها ، بل ونطير حتى فوق الهيمالايا بين حين وآخر . ولعل بعض الأجناس يا مستر جرانت مع حسن حظها فى الوقوع على بيئة طيبة تتفوق فى الجسم والدم بل وفى القدرة العقلية على غيرها من الأجناس . ولكن دع هذه الأجناس الفاضلة تتبادل المعيشة فى البيئة مع الأجناس الأدنى منها بضعة آلاف من السنين ، ثم انظر ماذا يحدث بعد ذلك . أما عن مسيو ماركس فلا أتوقع أن أقنعه بأنكم جميعاً على صواب ، كما أنه هو أيضاً على صواب لأنى أعرف أن ذلك لا يقنعه . ولكنك أنت يا أستاذ هيجل فإنك سترضى بقبول نظرية « الرجل العظيم » إذا قبل مسيو جيمس وتارد وكارليل نظريتك فى « روح العصر » باعتبار أنها البيئة العقلية التى تنتقى . جملة القول أنى أرى أننا سنحسن الاتفاق إذا ارتبنا فى أنفسنا بعض الشىء .

---

(١) انظر بارنس ، المرجع السابق ، فردريك إنجلز ص ٣٩٣ ، فى الهامش .

أما أنا فسأستمر فقط فى العناية بعظماء الرجال ، سواء أكانوا أسباب التاريخ أم لم يكونوا ، وإنى لأوثر وجود عشرة من أبطال الفكر الفرنسيين على سائر فرنسا بدونهم . ثم اذكروا حين تكتبون التاريخ أن الأحداث الجليلة تتحدث على ألسنة عظماء الرجال مهما تكن أسباب تلك الأحداث . لا تتناولوا جميع العباقرة من صفحات كتبكم ، وإنى لأؤكد لكم أن خرائطكم ورسومكم البيانية لن تمكننى من الشعور بالماضى كما أراه خلال عيون العباقرة ، كأن جميع الخيوط التى نسجت الماضى تتجمع فى عظماء الرجال وتلتحم فى وحدة لهدايتنا . كيف يمكن أن نفهم ألمانيا ونغفر لها بدون جيته ، أو إنجلترا بغير شكسبير ، أو فرنسا بغير ڤولتير ؟

ڤولتير : تعال ، فالوقت متأخر ، وحتى الخالدين يجب أن يناموا .

٧ ـــ التاريخ المركب

قال فيليب ، وقد صعدنا التل إلى الطريق الذى يفضى بنا إلى البيت : « إن الرجل الشيخ على صواب ، فجميع هذه النظريات فى التاريخ خرقاء حين تؤخذ منفصلة ، وليس لها معنى إلا حين تجتمع . لقد سئمت التحليل وأصبحت متلهفاً على التركيب » .

فاقترحت قائلا : « أحكم ما قيل الليلة إشارة ڤولتير ــ ومن الواضح أنها مسروقة من كروتشى ــ إن التاريخ لا يجب أن يكتبه إلا الفلاسفة ، لأنهم سينظرون إلى الأشياء نظرة واسعة » .

فاحتجت آرييل : « ولكنكما تنسيان أن التاريخ شىء كبير ، ولن تجد أحداً يمكن أن يطول عمره حتى يراه فى نظرة كلية ــ حتى لو عاش على غذاء نباتى » .

فقلت : « هذا حق ، فنحن فى حاجة إلى إخصائيين يمدون الفلاسفة بالمعلومات ــ فى التاريخ كما هو الحال فى العلم . ولكن فى كلتا الحالتين ينتهى الأمر إلى عبث مخرب إذا لم تجمع الوحدة بين أطراف هذين الجزأين الخاصين معاً . يجب أن تكون الفلسفة بالنسبة إلى التاريخ ما يجب أن تكون عليه بالنسبة إلى العلم ــ أى الربط الكلى » .

ثم مشينا صامتين بعض الوقت تملأنا نشوة الآلهة والنجوم . وخرج فيليب عن صمته قائلا :

« هذه المناقشة توحى بطريقة جديدة كل الجدة لكتابة التاريخ . فى العادة حين يكتب شخص عن « تاريخ الإغريق » مثلا ، فإنه يعنى تاريخ الحياة السياسية للإغريق — أو على أكثر تقدير الاقتصادية والسياسية ، ثم يأتى شخص آخر ويكتب تاريخ الصناعة والتجارة عند الإغريق ، كذلك العرض الاقتصادى الذى قام به زيمرن Zimmern . ويقدم لنا مؤلف آخر تاريخ الديانة الإغريقية ، وثالث الفلسفة اليونانية ، ورابع الأدب اليونانى ، وخامس حياة الإغريق الاجتماعية ، وسادس الفن اليونانى . ومن المنتظر منا ، نحن الطلاب ، أن نجمع أطراف هذه الأجزاء معاً ، وأن نكوّن صورة لسائر حياة الإغريق المعقدة . فمن المفروض أننا نعمل ما يعد مهمة أكبر مما يستطيع أعلم المؤرخين الاضطلاع بها . إن حياة الشعب تمزق إلى عدة أجزاء يعزل كل جزء منها عزلا صناعياً عن الأجزاء الأخرى ، ثم ندرسها فى قطاعات طولية بحيث لا ننظر إلا فى علاقات التتابع والزمان ، ضاربين صفحاً عن سائر العلاقات الخاصة بالأثر المتبادل ، بالصراع المشرق ، بالتعاون . فما أغرب هذه الطريقة فى وصف الماضى! ! »

قالت آربيل : « هذا تاريخ ممزق » .

فقلت شاكياً : « لقد فقد الفلاسفة الشجاعة فى الوقت الحاضر ، فهم يؤثرون المهام الصغيرة — إنهم يناقشون مثلا أكان أفلاطون يقصد هذا الرأى أم ذاك ؛ وهل الشمس فى السماء أو فى رءوسنا ؛ وهل البرتقالة ذات لون أصفر فى الظلام؟ إلى آخر ذلك . إنى أعتقد أنهم يخشون الكون منذ أن توقفت الكنيسة عن إخبارهم عما يجب عليهم التفكير فيه » .

فقال فيليب : « حسناً ، عندى فكرة جديدة . فالتاريخ كما هو مدون عبارة عن قطاعات طولية ، إذ يستعرض أحدنا موضوعاً واحداً كالسياسة أو الفلسفة أو العلم ويتتبع تحوله ونموه وغير ذلك خلال فترة طويلة من الزمن . سنسمى هذا التاريخ بالتاريخ الممزق ، كتسمية آربيل له . والآن ، ولماذا لا يكون عندنا إلى جانب هذا (ومع التسليم بالحاجة إلى هذه الدراسات الخاصة)

ضرب من القطاع العرضى للتاريخ ، يتناول فيه الباحث عصراً واحداً مثل عصر بركليس ، أو عصر ڤولتير ، ويحدد نفسه بقرن واحد ، وإذا وجب بجيل واحد ، حتى يجعل مهمته ممكنة ، ثم يشرع فى كتابة تاريخ سائر وجوه حياة الأمة فى تلك الفترة — الوجوه الاقتصادية ، والسياسية ، والحربية ، والعلمية ، والفلسفية ، والدينية ، والخلقية ، والأدبية ، والدراماتيكية ، والفنية ؟ إن ما يزعجنا هو أننا خاضعون إلى حد كبير لتأثير فكرة التطور ، فنظن أن كل شيء يجرى كأنه فى خط من التتابع والعلية . إننا نظن مثلا أن فلسفة أفلاطون نتيجة لفلسفة سقراط ، وأن فلسفة أفلاطون علة لفلسفة أرسطو ، وأن فلسفة اسبينوزا نتيجة لفلسفة ديكارت . ولكن ثمة علية عرضية أيضاً ، فليست الحوادث ثمرة الظروف السابقة فى ميدانها الخاص فقط ، بل نتيجة الظروف المحيطة بها فى ميادين أخرى. ولعل فلسفة أفلاطون لم تتأثر بسقراط بمقدار ما تأثرت بالتطور العام السياسى والثقافى فى عصره — كالخطب التى سمعها فى الساحة ، أو التمثيليات التى رآها فى الملعب ، أو التماثيل التى شهدها فى المعابد والميادين . ولعل أرسطو قد اصطبغ تفكيره بصحبة أصدقائه فى مقدونيا أكثر من أثر معامه فى الأكاديمية » .

فقالت آرييل : « حسن جداً يا فيليب ، لقد أحسنت الكلام » .

— « لا تسخرى منى ، يا آرييل ، فأنا جاد ، وأود أن أرى التاريخ مكتوباً ككل ، أريد أن أرى سائر نشاط الرجال والنساء فى عصر واحد وقد نسج فى وحدة ، وأن يبرز نشاطهم فى العلاقات بينهم ، واعتماد بعضهم على بعض ، وتأثيرهم المتبادل . أريد أن يعرض الماضى كما كان — كلا مجتمعا . خذ مثلا عصر نابليون ، وانظر إلى أى حد اعتمدت الظروف السياسية على الظروف الاقتصادية ، وكيف تقرر مصير حروب نابليون بالذهب الإنجليزى . وكيف اختفى روتشلد وراء ولنجتون . تأمل كيف عكس الأدب مظاهر العصر السياسية والدينية ، كما هى الحال فى شيللى ، وبيرون ، وشاتوبرياند . وكيف حاكت الفنون فى الثورة الفرنسية روما ، فذرع تالما Talma [1] خشبة المسرح

---

(١) فرنسوا جوزيف تالما (١٧٦٣ — ١٨٢٦) ممثل فرنسى مشهور أسس تياترو الثورة برعاية ديمولان ودانتون ، وكان نابليون من المعجبين به (المترجم) .

على طريقة روسكيوس Roscius [1] . وكيف اتخذت الموسيقى نغمة بطولة وإبداع ، وكيف يعكس بيتهوفن ، وفى بعض الأحيان عن وعى ، أهواء « الثورة » وعظمة نابليون . كان العصر كله واحداً لا فى فرنسا وحدها بل فى سائر أوربا إلى الغرب من روسيا . إنى أريد تاريخاً لذلك العصر يظهرنى على الماضى موحداً فى جميع مظاهره كما كان عليه عندما كان حياً ».

فقالت آرييل : « إنك تطلب شيئاً كثيراً ، فهذا مستحيل » .

فاقترحت قائلا : « قد يكون من الممكن دراسة جميع الموضوعات فى عصر واحد كما هو ممكن دراسة جميع العصر فى موضوع واحد . يجب أن يكون من المألوف كتابة تاريخ عصر ڤولتير كما كتبنا عن « الاضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية » ، أو « محاولة فى فهم الأخلاق » أو كتاب جروت Grote « تاريخ الإغريق » . لقد فعل سيموندس Symonds من بعض الوجوه يا فيليب ، ما تطلبه ، حين كتب مجلداته السبعة عن عصر النهضة » .

« أجل ، لقد كان ذلك رائعاً ، ولكنى أريد أن يدون كل عصر على هذا النحو . تأمل كم تكون فكرتنا عن التاريخ والحياة الإنسانية أفضل إذا ظفرنا بمثل هذه التآليف . بل أفضل من ذلك ، . . . تأمل كم نكون علماء أكمل إذا درسنا التاريخ بهذه الطريقة المركبة المحيطة . رحم الله أمثال جوته ، وليوناردو ، وأرسطو ، أرباب النظرية الكلية » .

وتساءلت آرييل : « لماذا لا تكتب أنت يا فيليب مثل هذا التاريخ ؟ إن المثال هو كل شىء . فإذا أمكن هذا العمل ، فاعمله » .

« إنى أحب أن أكتب تاريخ القرن التاسع عشر بهذه الطريقة ، قاصراً إياه فى حدود طاقتى على أوربا . ومع ذلك لن يتسع عمر شخص واحد لتحقيق هذا المشروع ، ولعل ثلاثتنا معاً يستطيعونه . أترغب فى التعاون معنا ؟ ما أعظم مأساة ذلك القرن ؟

(١) من ممثلى روما المشهورين ، وكان ذا صوت حسن ، وإلقاء بارع ، وحركة لطيفة (المترجم) .

الفصل الأول : عصر نابليون : الثورة ، حكومة الإدارة ، الانقلاب السياسى ، شاتوبرياند ، مدام دى ستال ، دافيد ، إنجرس ، جوته ، فشته ، هيجل ، بيتهوفن ، وردسورث ، كولردج ، سكوت ، شللى ، كيتس ، بيرون ، البابا بيوس السابع ، دى ميستر ، فالتون ، أوسترلتز ، نلسون ، ترافلجار ، همبولدت ، لافوازييه ، لابلاس ، لامارك ، الإسكندر الأول ، بوشكين ، ولنجتون ، ووترلو ، سانت هيلانة . ثم تنزل الستار .

الفصل الثانى : العصر الرومانتيكى : فشته ، شلنج ، نوفاليس ، شليجل ، دوروثيا مندلسون ، جان بول ، هوجو وهرنانى ، جوتييه ، بلزاك وستندال ، دى موسيه وجورج ساند ، كيفييه وسانت هيلير ، هرشل ولييل ، شوبنهور وكومت ، نيومان وحركة اكسفورد ، ستيفنسون والآلة البخارية ، كارليل وماكولى ، ترنر ودلاكروا ، فيبر ومندلسون ، شوبرت وشومان ، هينى وشوبان ، روبرت أوين وأصحاب المواثيق ، الاشتراكيون المثاليون ومحطمو الآلات ، روتشلد ولويس فيليب ، لويس بلان ولويس نابليون ، ١٨٤٨ والثورة فى كل مكان . وهنا يبلغ هذا الفصل الذروة .

الفصل الثالث : العصر الواقعى : نابليون الثالث ، جلادستون ، دزرائيلى ، بسمارك ، كافور ، طرق السكك الحديدية والمائية ، ديكنز وثاكرى ، تنيسون وبراونج ، جورج إليوت وآل برونتى ؛ وفوق ذلك كله دارون وسبنسر ، هكسلى وتندال والحرب مع الأساقفة ؛ رينان ، فلوبير ، زولا ، دى موباسان ، سان بيف وتين ، كورو وميليه ، لينباخ وكونستابل ، لست وفاجنر ، جوجول وهرزن ، باكونين ولاسال ، ماركس وإنجلز ، الدولية (الأنترناسيونال) ، مازينى ، جاريبالدى ، تحرير إيطاليا ، الحرب الفرنسية الألمانية ، سيدان والهزيمة ، الجمهورية الثالثة ومجلس الشعب Commune وقوع ١٠,٠٠٠ عامل صرعى بالرصاص فى شوارع باريس .

الفصل الرابع : العصر الإمبريالى : الاختراعات — الكهربا ، التليفون ، التلغراف ، الأسلاك ، اللاسلكى ، الصلب ، أشعة إكس ، باستير ، لستر ، مندل ، الصناعات الكبيرة ، النقابات ، الاتحادات ، الغزو الأوربى لآسيا .

الاستعمار ، المنافسة البحرية ، الجيوش المسلحة ، جامبتا ، سيزان ، ڤانجوخ . أناتول فرانس ديبوسي ، ماترلنك ، روسيتي ، هولمان هنت ، برن جونس ، سوينبرن ، أرنولد ، وايلد ، هاردى ، شو ، دستوفسكى ، تورجينيف ، تولستوى ، جوركى ، كروبتكين ، مسورجسكى ، تشايكوفسكى ، رمسكى كورساكوف ، جريج ، بجسورنسون ، إبسن ، فردى ، براهمس ، نيتشه ، براندس ، لوازى Loisy والمجددون ، ليو الثامن عشر وساره برنارد ، هو يمان ودانزيو ، جراى والقيصر ، بوانكاريه وإسفولسكى ، الأرشديوك ، سراجيفو ، ١٩١٤ ، الجنون والاحتراق . آه ، لو اجتمع هذا كله فى حكاية واحدة ، وصورة واحدة – هذه الفوضى الكبرى المعقدة العجيبة لحياة أوربا فى القرن التاسع عشر . » .

آرييل : « فلنفعل ذلك ، وسأقوم بالكتابة عن السيدات . متى نبدأ ؟ » .

فقال فيليب : « غداً » .

ثم أضافت آرييل : « ولكنّ ثمة أمراً واحداً يجعلنى غير راضية عن رؤيتنا لخالدين الليلة . فإنهم لم يخبرونا أيوجد تقدم فى التاريخ ، وهل يمكننا التنبؤ بالمستقبل » .

فقال فيليب : « حسناً ، لعلنا نلتقى بهم مرة أخرى » .

الفصل الخامس عشر

هل التقـــدم وهم ؟

١ ـــ التقدم فى شبابه

لم يخلف لنا الإغريق الذين يبدو أنهم مع سحر الزمن البعيد قد تقدموا أسرع من أى شعب آخر فى التاريخ أى مناقشة عن التقدم فى سائر ألوان كتاباتهم المتعـــددة . وثمة فقرة بديعة فى رواية أسخيلوس Aeschylus (١) المسماة : (برومثيوس ، ٤٥١ ـــ ٥١٥) يخبرنا فيها برومثيوس عن كشفه النار وكيف أدى ذلك إلى حضارة البشر ، ويقدم لنا فى خمسين بيتاً من الشعر خلاصـــة مراحل التقدم الثقافى ، قد تعدها بعض الولايات الأمريكية مسرفة فى عصريتها . وثمة إشارة عابرة إلى التقدم عند أوربيدس (المتوسلات Supplices ، ٢٠١ ـــ ٢١٨) . غير أننا لا نجد أى ذكر لهذه الفكرة عند زينوفون صاحب سقراط ، ولا عند أفلاطون . أما نزعة أرسطو المحافظة الباردة فإنها تخرج ضمنياً هذه الفكرة عن نطاق فلسفته . ذلك أن الإغريق كانوا يتصورون التاريخ فى أغلب الأمر كالحلقة المفرغة ، يتكرر ويعيد نفسه ، وليس ما انتهى إليه أرسطو من أن جميع الفنون والعلوم قد اخترعت وفقدت « عدداً لا يحصى من المرات » إلا توقيعاً على قيثارة الرأى القديم عن الموضوع منذ طاليس حتى مرقص أوريليوس . ونصح الرواقيون الناس ألا يتوقعوا من المستقبل شيئاً . بل لقـــد انغمس الأبيقوريون فى ملذاتهم فى كآبة ، ويبدو أنهم أحسوا ، مثل برادلى ، بأن : « هذا العالم أفضل العوالم الممكنة ، وكل شىء فيه هو شر ضرورى » (٢)

(١) أسخيلوس (٥٢٥ ـــ ٤٥٦) مؤسس الدراما الإغريقية ، ألف روايات كثيرة لم تبق منها إلا سبع عشرة (المترجم) .

(٢) Appearance and Reality, p. XIV.

وأعلن هيجسياس Hegesias القوريناثى أن الحياة لا قيمة لها ، ونصح بالانتحار ؛ ومع ذلك فلا ريب أنه عاش عمر شوبنهور[١] .

وأصبح من المتوقع أن يسود مذهب التشاؤم مدينة مثل أثينا فقدت حريتها ، ولكن هذا اليأس ذاته يتردد فى الرسائل اللاتينية فى كل مرحلة من مراحل التاريخ الرومانى . فيتحدث لوكريتيوس عن قوم يتقدمون خطوة خطوة pedetentim progredientes ومع ذلك فإنه يجيب عن سؤالنا الذى وضعناه على رأس هذا الفصل إجابة شديدة الاختصار قائلا : « جميع الأشياء هى هى دائماً eadem omnia semper » . أيمكن إذا عاد الشاعر والفيلسوف العظيم إلى الحياة مرة أخرى أن يستعمل اللفظة نفسها فى وصف حضارتنا المعاصرة ؟ لا ريب أنه يتأثر بالتضاعف الهائل لميكانيكياتنا وآلاتنا المسخرة لتحقيق كل رغبة . ولكنه فى أكبر الظن سيسأل بأسلوبه القاتم ، أيكون الرجال والنساء الذين يستخدمون هذه الآلات البديعة أرق حالا عقلياً وجسمياً وخلقياً من أولئك الأسلاف التعساء الذين كان عليهم أن يمشوا على أقدامهم . ولعله يسره أن يعلم بأن زوجة شابة قد قتلت زوجها بحديدة النافذة ، وسوف ينتهى إلى التسليم بأن الإنسانية قد اجتازت قروناً كثيرة لتكشف عن فائدة هذه الحدائد البديعة فى هذا الصدد . ومع ذلك فسوف يقترح بلا نزاع أن هذا الأمر خلاف على الوسائل لا الأغراض — وأن مهمة قتل الأزواج صناعة قديمة جداً . فكلما تغيرت الصور فالأمر واحد . وما الأمر لو كان تقدمنا كله تحسيناً فى الأساليب لا فى الأغراض ؟

أما الرأى عند غير لوكويتيوس من الرومان فهو أسوأ ؛ فهم لا يشكون فى المستقبل وحسب ، بل يمتدحون الماضى . كان هوراس يمتدح أعمال القدماء ؛ ونعى تاسيتوس وجوفينال على فساد عصرهما ؛ وعدل فرجيل عن الأخيلة اللطيفة التى كان يمتاز بها الأدب اللاتينى إلى أسلوبه الغنائى يصور به المنظر القاتم للتكرار الأزلى ، وهو دورة دائمة وتكرار لا هدف له للأحداث المتشابهة. وفى ذلك يقول :

---

(١) عاش شوبنهور من سنة ١٧٨٨ إلى ١٨٦٠ أى ٧٢ عاماً (المترجم) .

سيعود تيفيس Tiphys آخر (نبي قـديم) وآرجو[1] Argo أخرى يحملان الأبطال المحبوبين . وستقع حروب أخرى ، وسيذهب أخيل العظيم مرة ثانية إلى طروادة[2] . وستظل ساعة الزمان تدور وتصب الماضي الثابت في حاضر جديد فارغ ووهمي . فلا جديد تحت الشمس ، وكل شيء باطل وقبض ريح . وهذا مرقص أوريليوس ، بعد أن كاد يتم أسمى الحياة الإنسانية ؛ أي اجتماع السياسي والفيلسوف في شخص واحد ، يكتب قائلا :

« تهيم النفس العاقلة حول العالم كله وخلال الفضاء المحيط ، وتحلق إلى اللانهاية ، وتتأمل أنواع فساد الكون وميلاده من جديد ، فترى أن ازدهارنا لن يكون جديداً ، وأن أجدادنا لم يروا شيئاً أعظم مما قد رأيناه . ويمكن أن نقول إن الرجل في الأربعين من العمر إذا كان على قدر متوسط من الذكاء ، فقد رأى كل ما مضى وكل ما سيكون . فما أشد ما يجري العالم على نسق واحد »[3]

فما أسباب عداوة الإغريق أو نفورهم من فكرة التقدم ؟ أذلك يرجع ، كما يظن الأستاذ بيري ، لقصر تجربتهم التاريخية ، وهذا القصر نفسه هو السرعة التي بلغت فيها حضارتهم الأوج ثم ذبلت مرة ثانية ؟ أم أن ذلك يرجع إلى فقرهم النسبي في المدونات المكتوبة عن الماضي ، وما يترتب على ذلك من غياب النظرة الكلية التي كان يمكن أن تجعلهم يتحققون من مقدار تقدمهم ؟ فقد كان لهم أيضاً عصر وسيط ، وقد ارتقوا خلال ألف عام من البربرية إلى الفلسفة ؛ ولكن الكتابة لم تتدرج من تقييد (بوالص) الشحن إلى تسجيل ألوان الأدب إلا عند نهاية ذلك التدرج . فقد كانت رقائق الجلود Parchement[4] من الغلاء

(١) تحكي الأساطير اليونانية أن بلياس بن بوزيدون اغتصب عرش إيسون من أعمال تساليا ، فأخفى أصدقاء إيسون ابنه جيسون في الغابات حتى شب وأصبح قوياً بطلا ، ثم طالب بملك أبيه . وأقنعه بلياس بأن يأتي عملا من أعمال البطولة ، حتى يستحق العرش . فابتنى لذلك السفينة أرجو ، ومعناها السريعة ، وصحب معه من الأبطال هرقل وهيلاس وأورفيوس وغيرهم (المترجم) .

(٢) Fourth Eclogue, quoted by Bury, J.B., The Idea of Progress, p. 12.

(٣) Bury, p. 13.

(٤) البرشمان نسبة إلى مدينة برجام Pergame اليونانية حيث أنشيء فيها أول مصنع لدبغ جلود الأغنام الخاصة بالكتابة (المترجم) .

بحيث يصعب التفريط فيها بكتابة التاريخ المجرد . أو أن ذلك يرجع ، نعنى هذا الإغفال للتقدم ، إلى النمو المقيد للصناعة الإغريقية ، وإخفاق الإغريق فى التقدم المحسوس عن فنون الكريتيين الصناعية ، أو فى الإنتاج الكمى لوسائل الراحة المادية ، وهى أساس الاعتقاد الحديث فى التقدم ؟

وإذا نظرنا إلى العصر الوسيط وجدنا أن الفقر الماثل فى ألوان الترف هو الذى وقف فكرة التقدم ، على حين أن الأمل فى الآخرة أصبح محور الحياة . ويبدو أن الاعتقاد فى عالم آخر يتغير مباشرة مع الفقر فى هذا العالم ، وهو اعتقاد يحصل فى الفرد غالباً ، وفى الجماعة دائماً . فعندما تنمو الثروة تبتعد الآخرة عن مركز الاهتمام ، وتصبح فكرة ضئيلة لا معنى لها . ومع ذلك فقد سيطرت فكرة الآخرة ألف عام على عقول البشر .

ثم جاءت الثروة لغرب أوربا تحمل معها « النهضة » و « الثورة الصناعية » ، وكلما تضاعفت استبدلت بالأمل فى الآخرة فتنة التقدم . وقد جعل ذلك الحادث العظيم الفريد فى التاريخ الحديث — نعنى الكشف الكوبرنيقى لعدم أهمية الأرض من الناحية الفلكية — كثيراً من النفوس الرقيقة غير سعيدة . ولكن هذا الحادث الذى رد السماء الآخرة إلى مجرد سماء وفضاء أرغم روح الإنسان المرنة على تكوين إيمان فى جنة أرضية يعوض بها لنفسه عما فقدته . وكتب كامبانيلا ، ومور ، وبيكون مدناً فاضلة ، وأعلنوا اقتراب السعادة الكلية . وأخذت أوربا المحدثة الثراء تستورد ألوان الترف ، وتصدر الزهاد والقديسين . وصنعت التجارة المدن ، وشيدت المدن الجامعات ، وخرجت الجامعات العلم ، وأنتج العلم الصناعة ، وأفضت الصناعة إلى التقدم . وكتب جارجانتوا إلى بانتاجرويل [1] يقول : « جميع العالم مملوء بالعلماء ، والمدرسين المتعلمين ، والمكتبات الواسعة » . ويقول بيير دى لاراميه [2] Pierre de la Ramée : « فى قرن واحد — أى من ١٤٥٠ إلى ١٥٥٠ — شهدنا تقدماً فى الناس والمؤلفات أعظم مما شهده أجدادنا خلال

---

(١) جارجانتوا Gargantua وبانتاجرويل Pantagruel ، قصة كتبها رابليه عام ١٥٣٢ ، تصور فيها أن جارجانتوا يكتب إلى ابنه بانتاجرويل عن العلوم التى يجب عليه أن يتعلمها (المترجم) .

(٢) ١٥١٥ — ١٥٧٢ .

القرون الأربعة عشر السابقة جميعاً » . ولهذا الكلام وقع تهكمى معاصر ؛ إذ أى قرن لم يضع فوق هامته إكليلا عظيما من هذا النوع ؟ ولكن مثل هذه الثقة بالنفس كانت النغمة الأساسية فى عصر النهضة : فنحن نسمعها فى سطر من كتب فرانسيس بيكون تعزف على وتر الأوربيين الحساس ضد الروح الأسيوى.

ومن الواضح أن فكرة التقدم تمثل بالنسبة إلى الحضارة الصناعية والدنيوية ما كانت تمثله فكرة الأمل فى الآخرة بالنسبة للعالم المسيحى فى العصر الوسيط . إن أعز معتقدات المفكر الحديث ، وهى على رأس سائر الفلسفة الاجتماعية عندنا ، هى الاعتقاد فى التقدم والديمقراطية . ولو اضطررنا إلى هجر كلتا هاتين الفكرتين لتعرينا فكرياً وتخلفنا فى سخرية وراء أى جيل فى التاريخ .

٢ ـــ التقدم فى أوجه

لقيت فكرة التقدم أول تعبير محدود فى ذلك التفاؤل القوى الذى ساد فى القرن الثامن عشر . وشذ روسو عن الركب ، وفضل متوحشى أمريكا الذين لم تقع عينه عليهم ، على الباريسيين القساة الذين أرهقوا أعصابه . وظن أن التفكير ضرب من الانحلال ، وبشر بعصر ذهبى سالف يردد صدى جنة الفردوس وخطيئة الإنسان . حتى إذا أقبلنا على فولتير المندفع الجرىء استنشقنا أول نسمة من الهواء المنعش لعصر التنوير Enlightenment . ولم يتوهم « سيد العقل العظيم » أى أوهام باطلة عن الهنود ، إذ كان يعلم أن الإنسان أفضل فى ظل الحضارة منه فى حياة التوحش . وكان معترفاً بفضل الاستئناس البطىء والناقص للوحش البشرى ، وآثر باريس على جنة الفردوس .

أما تلميذاه تيرجو وكوندورسيه فهما اللذان جعلا فكرة التقدم الروح المحرك للعصور الحديثة . وفى عام ١٧٩٣ كان يختبىء نبيل فرنسى اسمه كوندورسيه (أو إن شئت الحق ، مارى جان انتوان نيقولاس كاريتات ، ماركيز دى كوندورسيه) من المقصلة (الجيلوتين) فى فندق (بنسيون) صغير فى ضواحى باريس . ذلك أن روبسبير النزيه المتعصب الدائم لمذهب روسو دعاه إلى التسليم كى يتخلص منه ، لأنه كان قد صوت ضد الحكم على الملك ، مثل توم بين Tom Paine . وهناك فى حجرة منعزلة ، بعيداً عن أى صديق ،

وبغير أى كتاب يستعين به . وفى مركز كان يمكن أن يدفع المرء إلى نظم أنشودة فى التشاؤم واليأس ، كتب كوندورسيه أعظم كتاب يمتاز بالتفاؤل دبجته يد إنسان ، وهو الكتاب المشهور فى التآليف الخاصة بالتقدم واسمه: تخطيط لصورة عن تقدم العقل البشرى Esquisse d'un tableau des progrès de l'esprit humain فلما فرغ كوندورسيه من كتابة هذه الرسالة العلوية العظيمة عن المستقبل المجيد للبشرية ، هرب من باريس إلى فندق بعيد فى الريف ، وهناك ألقى بجسمه المتعب فوق السرير ، وهو يظن نفسه آمناً ، واستغرق فى النوم . واستيقظ ليجد نفسه محوطاً برجال « الجندرمة » الذين قبضوا عليه باسم القانون . وفى صباح اليوم التالى وجدوه ميتاً على أرض الزنزانة فى سجن القرية ، ذلك أنه كان يحمل معه دائماً قنينة من السم ليتفادى المقصلة .

ويكفى أن تقرأ كتابه كى تتحقق أى جيل بعيـــد عن الوهم ، زاخر بالشك ، نعيش فيه . فهـذا رجل فقد – كما هو واضح – كل شىء ، وضحى بالمنزلة والمنصب والمال فى سبيل « الثورة » ، ثم أصبح فى تلك اللحظة مطارداً حتى الموت من أجلاف أسكرتهم القوة ، وقد كتب عليه أن يتحمل مرارة رؤية الثورة وهى أمل العالم تنتهى إلى الفوضى والإرهاب . ومع هذا كله فإن كتابه يمثل نهاية ما يبلغه أمل إنسان فى الإنسانية ، فلم يؤمن الناس هذا الإيمان بالإنسانية من قبل ، ولعلهم لن يؤمنوا بها مثل هذا الإيمان من بعد . انظر مثلا إلى البلاغة التى يكتب بها كوندورسيه عن موضوع الطباعة . إنه على يقين أنها السبيل إلى خلاص البشر وتحرير الإنسان . ولكن لم يخطر بباله ظهور الصحافة المثيرة . وهو فى ذلك يقول : «لقد ربطت الطبيعة برباط لا فكاك فيه بين نمو المعرفة ، وتقدم الحرية والفضيلة ، واحترام حقوق الإنسان الطبيعية » (١) ويقول فى موضع آخر إن الازدهار : « سيفتح الطريق أمام الناس للإنسانية والإحسان والعدل » . ثم يعلن بعد ذلك مذهباً من أشهر مذاهب عصر التنوير وأعظمه دلالة عليه فيقول : « لا توجد حدود ثابتة لتقدم الملكات الإنسانية ، لأن قبول الإنسان للكمال لا حد له على الإطلاق ، ولذلك فإن تقدم هذا الكمال وهو أعلى

(١) A Sketch of a Tableau of the Progress of the Human Spirit, English Translation, p. 15.

من أى قوة تعوقه ليس له حد آخر خلاف الزمن الذى تزول فيه الكرة الأرضية التى أسكنتنا الطبيعة على ظهرها » (١) .

ثم يرسم فى الختام صورة مغرية عن المستقبل ، وهو يقصد بها التعبير عن العصر الذى نعيش فيه . فكلما انتشرت المعرفة تناقصت العبودية سواء بين الطبقات أم بين الأمم . « ثم يأتى زمان لا تشرق الشمس فيه إلا على الأمم الحرة وحدها ، تلك التى لا تعترف بسيد آخر خلاف عقلها ، ولن يوجد فيها طغاة أو عبيد ، ولا كهنة وتوابعهم الأغبياء المنافقون ، اللهم إلا فى صفحة التاريخ وعلى خشبة المسرح »(٢) . سيضاعف العلم مدى سعة الحياة الإنسانية مثنى وثلاث ، فتتحرر المرأة من سلطان الرجل ، والعامل من سيطرة صاحب العمل ، والرعية من حكم الملك . ومن يدرى لعل البشرية تنسى الحرب . ثم يختم كلامه متحمساً :

« ما أبدع ما نسقت هذه النظرة إلى الجنس البشرى تنسيقاً يعزى الفيلسوف الذى يندب الأخطاء وأعمال الظلم الفاضحة والجرائم التى لا تزال الأرض تتدنس بها . إن تأمله لهذه الصورة مكافأة له عن جميع الجهود التى يبذلها فى العون على تقدم العقل وإرساء قواعد الحرية . ويحق له أن يعد هذه الجهود جزءاً من سلسلة القدر الأزلية التى تجرى فيها البشرية . وهو يرى فى هذا الإقناع البهاء الصحيح للفضيلة ، ولذة تحقيق مهمة باقية لن تفسدها صروف الزمان . . . هذا الشعور هو الملاذ الذى يطوى نفسه عليه ، ولا تستطيع ذكرى من يضطهدونه أن تتابعه إليه . إنه يجمع نفسه فى الخيال بمن استعاد حقوقه ، وتخلص من الاستبداد ، وسار بخطى سريعة فى طريق السعادة . إنه ينسى خطوبه ذاتها . . . فلا يعيش بَعْدُ فى الضيق والسعاية والحقد ، بل يصبح مرتبطاً بهذه الكائنات الأحكم والأسعد حظاً ، تلك التى ساهم بشغف شديد فى خلق ظروفها المرموقة » .

ألا ما أسخى هذا التفاؤل ، وما أشجع هذه المثالية ، وما أعمق هذه العاطفة نحو البشرية . ترى أيهما أحق منا بالازدراء : حماسة كوندورسيه الساذجة ، أم الإحجام الفكرى فى عصرنا الذى أصبح بعد تحقيق كثير من أحلامه لم يعد يجرؤ على الاضطلاع بما تبقى منها ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٩ . (٢) المرجع السابق ص ٢١٦ .

وتقوم خلف هذه الفلسفة الزاهية الثورة التجارية والثورة الصناعية ، حيث نجد عجائب جديدة تسمى الآلات القادرة على إنتاج الضروريات وبعض أدوات الترف فى الحياة بسرعة لم يسبق لها مثال ، وبكميات لم تكن تخطر بالبال . ولن يطول انتظار الناس إلا ريثما تصنع جميع الحاجيات المطلوبة حتى يتبدد الفقر . وظن بنتام ومل[1] الأكبر ، حول عام ١٨٣٠ ،أنه فى استطاعة إنجلترا فى ذلك الوقت القيام بالتعليم العام لجميع السكان : فلا يكاد القرن يشرف على النهاية حتى يحل التعليم العام جميع المشكلات الاجتماعية . وتصور كومت جميع التاريخ كتطور فى ثلاث مراحل تبدأ من المرحلة الدينية إلى الميتافيزيقية وتنتهى بالعلم . وبعث كتاب باكل « تاريخ الحضارة » (١٨٥٧) الأمل فى أن يقضى انتشار المعرفة على جميع الشرور . وتكلم داروين بعد ذلك بعامين قائلا : لقد اصطبغ العقل الحديث بصبغة النظر فى أمور الدنيا اصطباغاً شديداً ، ولم تحتل فكرة « طوبيا » مقبلة مكان جحيم دانتى فقط ، بل حلم روسو فى العودة إلى الماضى الذهبى . ووحد سبنسر بين التقدم والتطور ، وعدهما شيئاً لا مناص منه . وفى أثناء ذلك تدفقت الاختراعات الصادرة عن ذوى العقول اليقظة ، فنمت الثروات بشكل واضح ، وخيل إلى الناس أنه لا يوجد صعب أو مستحيل أمام العلم الذى تحرر فى النهاية من القيود الدينية . لقد تأمل الناس فى النجوم وعرفوا أسرارها ، وقبلوا فى شجاعة تحدى الطيور الأزلى فى طيرانها . فماذا عجز الإنسان عن فعله ؟ وماذا لم نتوقعه منه فى تلك الأيام الخالية من الشك قبل الحرب ؟

٣ — الدعوى ضد التقدم

ومع ذلك فقد ارتفعت أصوات تتساءل عن حقيقة التقدم أو قيمته ، حتى فى غمار تلك الثروة الهائلة ، والقوة النامية ، والسرعة المتزايدة ، مما تميزت به حضارة الغرب . ولقد قال مكيافللى وهو فى أوج ازدهار عصر النهضة : «كان عالم الإنسان فى جميع العصور واحداً ، يختلف حقيقة من أرض إلى أخرى ،

(١) جيمس مل Mill ولد ١٧٧٣ وتوفى ١٨٣٦ ؛ وابنه جون ستيوارت مل ولد ١٨٠٦ وتوفى ١٨٧٣ ، والابن أشهر ، وله مؤلفات فى المنطق وفى مذهب المنفعة (المترجم) .

ولكنه يتقدم على الدوام المظهر نفسه عن بعض المجتمعات المتدرجة نحو الازدهار وبعض المجتمعات الأخرى المنحدرة إلى الانحلال »[1]. وصور فونتنل Fontenelle في كتابه : « محاورات عن الموتى » (١٦٨٣) سقراط ومونتيني يتناقشان في مسألة التقدم ، وذلك في الجحيم فيما يظهر وهو مصير جميع الفلاسفة . وكان سقراط في شغف إلى سماع ما حققته البشرية من تقدم منذ أن تجرع السم القاتل . ولكنه حزن حين علم أن الناس لا يزالون في الأغلب متوحشين . وأكد له مونتيني أن العالم قد فسد ، فلم يعد هناك هذا الطراز القوى من الناس مثل بركليس ، وأرستيدس[2] وسقراط نفسه . فهز الفيلسوف الشيخ كتفيه وقال : « كنا في زماننا نبجل أجدادنا أكثر مما يستحقون ، واليوم يقدرنا الخلف أكثر مما نستحق . الحق ليس ثمة فارق بين أجدادنا وبين أنفسنا وبين خلفنا » . وعندئذ لخص فونتنل الموضوع تلخيصاً قوياً في هذه الكلمات : « القلب هو هو على الدوام ، والعقل يسعى إلى الكمال ، العواطف والفضائل والرذائل لا تتغير ، والمعرفة أبداً في ازدياد »[3] .

ولقد قال إيكرمان Eckermann[4] : « يبدو أن نمو الإنســانية أمر يرجع إلى آلاف السنين » فأجابه جيته : « من يدرى ؟ لعله يرجع إلى ملايين . ولكن دع الإنسانية ما شاءت أن تدوم ، فسيكون هناك على الدوام عقبات في طريقها ، وكذلك جميع أنواع الكوارث ، حتى تنمى قواها . سيصبح الناس أعظم مهارة وأوفر ذكاء ، ولكنهم لن يكونوا أفضل ، أو أسعد ، أو أعظم أثراً في العمل ، على الأقل لفترة محدودة . إنى لألمح زماناً مقبلا لا يعنى الله فيه بالجنس البشرى ، ويرى من اللازم أن يعيد الخلق ثانياً[5] » . وقال شوبنهور : « يجب أن يكون شعار التاريخ : ليس « هذا أو ذاك » eadem, sed aliter —

---

(١) انظر Bruy المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٢) ارستيدس Aristedes سياسى أثينى ، وقائد حربى عاش من ٥٣٠ إلى ٤٦٨ ق.م ، وكان يسمى العادل (المترجم) .

(٣) Nordau, Interpretation of History, p. 286 ; Bury, p. 99

(٤) يوحنا بطرس ايكرمان (١٧٩٢ – ١٨٥٤) كان صديقاً لجيته ومساعداً له ، وهو الذى أعانه فى نشر مؤلفاته النشرة الأخيرة . وله كتاب بعنوان « محادثات مع جيته » فى ثلاثة أجزاء يعد سجلا لأحاديث جيته اليومية مع إيكرمان .

(٥) Bury, p. 259.

وهى القضية ذاتها مع بعض الخلاف . وقال نيتشه : إن الإنسانية لا تتقدم ، وأكثر من ذلك أنها لاتوجد ؛ أو هى عبارة عن معمل فسيولوجى شاسع تجْرِى فيه الطبيعة التى لا تحفل بشىء تجاربها ، فتنجح بعض الأشياء فى كل عصر ، ولكن معظم الأشياء تفشل . هذه هى النتيجة التى تنتهى إليها الرومانتيكيةالألمانية .

وكان دزرائيلى من أوائل الذين أحسوا بالفرق بين التقدم الطبيعى والأخلاقى ، بين ازدياد القوة وبين تحسين الأغراض . وفى ذلك ينقل عنه دين إنج : «يتحدث الأوربى عن التقدم لأنه استطاع بمعونة بعض الاكتشافات القليلة أن يقيم مجتمعاً يحسب خطأ أن الراحة هى الحضارة » (١) . ويقول دزرائيلى : « ليست أوربا المستنيرة سعيدة ، فحياتها حمى تسميها تقدماً . . . تقدما إلى أى شى ؟ » (٢) . وتساءل رسكن (٣) ، وهو من أغنياء القوم ، عن التوحيد بين التقدم والثروة فقال : أهؤلاء الأغنياء من أصحاب محلات الأحذية والسفن نماذج للإنسانية أفضل من نماذج جونسون أو شكسبير أو شوسر ؟ لقد اعترف كارليل وتولستوى بالتقدم الهائل فى وسائل الإنسان لتحقيق أغراضه . ولكن أى نفع لهذه القوى التى لم يسبق لها مثيل ما دامت قاصرة على مضاعفة قدرة الناس على تحقيق أغراض تبلغ من التناقض والغباء والضرر الذى يبلغ حد الانتحار ما لم تبلغه قط من قبل .

لقد ذهب السير أرثر بلفور حول عام ١٨٩٠ ، وبطريقته الفكهة والهادمة ، إلى أن سلوك الإنسان ونظم المجتمع لاتقوم على الفكر الذى يتقدم ، بل على الشعور والغريزة الثابتين ثباتاً يكاد ألا يصيبهما أى تغيير منذ آلاف السنين ، ولن تتغيرا بعد آلاف السنين . وفى هذا كما كان يعتقد سر فشلنا فى تحويل معرفتنا النامية إلى سعادة أعظم أو سلام أدوم . بل إن ازدياد المعرفة

---

(١) Dean Inge, p. 179.

(٢) تنكريت Tancred ، الكتاب الثالث ، الفصل السابع – (تنكريت قصة كتبها دزرائيلى عام ١٨٤٧ ، حيث يتصور فيها تنكريت يهجر المجتمع فى لندن ويرحل إلى الشرق ، وفى البلاد المقدسة تحدث له تجربة صوتية تؤدى إلى إحياء الغرب – المترجم) .

(٣) جون رسكن (١٨١٩ – ١٩٠٠) مصور وأديب إنجليزى كان أبوه من أغنياء تجار الخمر فى لندن (المترجم) .

قد يكون علة من علل التشاؤم السائد فى زماننا . وقد جاء فى سفر الجامعة من كلامه : « الذى يزيد علماً يزيد حزناً (١) » . ويؤيده خليفته الحديث أناتول فرانس (إذا أخذنا بما يقوله السكرتيرون) : « الإنسان أشقى مخلوق على ظهر الأرض . ولقد قيل إن الإنسان سيد المخلوقات ؛ كلا يا صديقى ؛ الإنسان هو سيد العذاب » (٢)

وقد أدى النقد الاشتراكى للصناعة الحديثة إلى فساد إيماننا بالتقدم بعض الفساد ، ذلك أن السعى إلى حمل الناس على تبين مظالم الزمن الحاضر قد اصطبغ بصبغة تمجيد قناعة الماضى وما امتاز به من هدوء . فهذا رسكن ، وكارليل ، وموريس ، وكروبتكين قد رسموا للعصر الوسيط من الصور ما يجعل المرء يشتاق إلى أن يصبح عبداً مرتبطاً بالأرض وتابعاً لسيد يضاف إلى ملكه وزوجه. وفى أثناء ذلك كان نقد الأحرار للسياسة الحديثة يكشف عن الفساد والعجز فى كل ناحية من نواحى الحياة تقريباً فيدفعنا إلى الشك فى قدسية الديمقراطية التى ظلت قرناً من الزمان أقدس معبود لنا . ذلك أن تقدم الطباعة وسرعة انتشارها أدى فيما يبدو إلى الحط من قدر الممتازين من المفكرين أكثر من رفع المغمورين وانتصرت التفاهة mediocrity فى السياسة والدين والأدب بل وفى العلم. وأصبحت الأنثروبولوجيا عند أهل الشمال وإرادة الاعتقاد فى الفلسفة تنافسان علم التناسليات فى الزرائب وعلم النفس النمساوى ؛ وحلت الصحافة محل الأدب ، واتخذ « فن » الصور المتحركة الدراما ، ودفع التصوير الشمسى التصوير الزيتى من الواقعية إلى التكعيبية ، إلى المستقبلية Futurism (٣) ، إلى النقطية (٤) Pointillisme ، إلى غير ذلك من الانحرافات الجنونية . وأخذ النحت عند رودين يتوقف عن الحفر ليتبع النقش ، وفى القرن العشرين أخذت الموسيقى تنافس آنية الصينيين الدقيقة ومراوحهم .

---

(١) سفر الجامعة ابن داود – انظر ١ – ١٨ (المترجم) .

(٢) Brousson, p. 61.

(٣) المستقبلية futurism حركة فى الفن ظهرت بإيطاليا بعد الحرب الأولى ؛ وهى نزعة متطورة عن التكعيبية Cubism ، تعتمد على بعدين فقط فى الرسم (المترجم) .

(٤) النقطية مذهب ابتدعه الرسام جورج سيوارت الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، وكان يرسم على القماش (الكانفاس) (المترجم) .

ويرجع تزعزع إيمان هذا القرن فى التقدم إلى انحدار الفن ونشوب الحرب ؛ ذلك أن انتشار الصناعة وانحلال الأرستقراطية تعاونا على إفساد الأسلوب الفنى Artistic form . فعندما تفوقت الآلة على الصانع اليدوى ذهبت المهارة معه ، وعندما اضطرت الآلات إلى البحث عن أسواق واسعة لما تنتجه من سلع ، ولاءمت بين منتجاتها وبين حاجات الأغلبية من الناس وأذواقهم ، حلت النماذج الموحدة والكمية والشعبية محل النماذج البديعة والجمال . ولو أن الأرستقراطية بقيت منبعاً للأحكام الجمالية التى يتخذها سواد الناس ، فقد يمكن أن نفهم اتخاذ الصناعة والفن طريقاً للعيش فى سلام . ولكن كان على الديمقراطية أن تدفع ثمن السيادة الشعبية فى الفن والسياسة على السواء . فأصبح ذوق الملايين من أوساط الناس مرشد الصانع ، ومؤلف التمثيليات ، وكاتب السناريو ، والقصصى ، وأخيراً المصور والنحات ومهندس البناء . وأضحى الثمن والحجم معيار القيمة ، وحلت محل الجمال والصناعة الدقيقة بدع جديدة عجيبة كغاية للفن . وبعد أن فقد الفنانون الباعث إلى ذوق أرستقراطى تكوّن على مرّ الأجيال من ثقافة ممتازة ، لم يحفلوا بالتماس كمال التصور والتنفيذ ، بل أخذوا يهدفون إلى تحقيق تأثير مدهش يمكن أن يقال عنه بلا ريب إنه أصيل . وأصبح التصوير مَرَضِيًّا ، وتوقف البناء عن نموه البديع إزاء الاضطرار إلى تشييد الأبنية لبضع سنين لا لعدة قرون ، وهبطت الموسيقى إلى مستوى الأماكن المحتشدة بالناس وإلى المصانع تحاول إيجاد ألحان تلائم هذه المجتمعات العصبية المؤلفة من الجزارين المثقفين ، والخادمات المتحررات . وانحط النحت على الرغم من التخفف من الثياب ، والحصول على آلاف الدروس فى التشريح من المسارح . ولولا شيوع السيارات ووسائل التجميل لكان القرن العشرون فيما يبدو بشيراً بانطفاء شعلة الفن انطفاء تاماً .

ثم جاء « الجنون الأكبر » Great Madness ، واكتشف الناس كم كان رداء الحضارة رقيقاً ، وإلى أى حد كان أمنهم قلقاً ، وحريتهم مزعزعة الأركان. لقد قلّ عدد الحروب ، ولكنها ازدادت انتشاراً . أما العلم الذى كان عليه أن يكون سبيل التقدم ، فقد أصبح ملك الموت الذى بلغ من سرعة إصابته مقاتل الناس ما يجعل معارك العصر الوسيط أشبه بمباريات المدارس الرياضية . وألقى

الطيارون البواسل القنابل على النساء والأطفال . وشرح علماء الكيميا فضائل الغازات السامة . وتبددت جميع الصداقات الدولية التي قامت خلال قرن نقل المترجمون فيه الآداب ، وتعاون العلماء ، وتوثقت الصلات التجارية ، وتداخلت العلاقات المالية . ثم انعزلت أوربا إلى مئات من القوميات المتعادية . فلما وضعت الحرب أوزارها اتضح أن الغالب والمغلوب قد فقدا الأشياء التي تحاربا من أجلها ، وأن الإمبريالزم imperialism الجشع انتقـــل من بوتسدام إلى باريس ؛ وأن الدكتاتوريات العنيفة أخذت تحل محل الحكم المنظم والدستورى ، وأن الديمقراطية آخذة فى الانتشار والموت. وتبدد الأمل ، لأن الجيل الذى عاش خلال الحرب لم يعد يعتقد فى أى شىء . وطغت موجة من الاستخفاف والاستهزاء على جميع الناس ما عدا قلة قليلة من ذوى التجارب العميقة . واليوم أصبحت فكرة التقدم تبدو من أتفه الأفكار التى سخرت من شقاء الإنسان ، أو رفعته إلى مثالية باطلة وسخافة عظيمة .

٤ ــ اعتبارات صغيرة

قال ڤولتير : « إذا شئت أن تحاورنى فلتحدد ألفاظك. ماذا تعنى بـ «التقدم»؟ اعلم أن التعريفات الشخصية لن تصلح ، فليس لنا أن نفهم التقدم فى اصطلاح أمة واحدة ، أو دين واحد ، أو قانون أخلاقى واحد . فلو قلنا مثلا إن التقدم هو تزايد الشفقة Kindness فقد يزعج هذا أتباع فلسفة نيتشة الصغار . وليس لنا كذلك أن نعرف التقدم باصطلاحات السعادة ، لأن البلهاء أسعد من العباقرة ، وأولئك الذين نحترمهم أكثر من غيرهم ينشدون العظمة لا السعادة . أفيمكن أن نجد تعريفاً موضوعياً لهذا الاصطلاح ؟ ــ تعريفاً يصلح لأى فرد ، وأى جماعة ، بل وأى نوع ؟ فلنعرف التقدم مؤقتاً بأنه رقابة الحياة رقابة متزايدة على البيئة . ونعنى بالبيئة جميع الظروف التى تكوّن شروط تناسق الرغبات وتحقيقها . فالتقدم هو السيطرة على الفوضى بالعقل والغاية ، وعلى المادة بالصورة والإرادة .

وليس من الضرورى كى يكون الواقع واقعاً أن يكون متصلا ؛ فقد توجد « هضبات » فى الواقع ، وعصور مظلمة ، وتراجع مخيب للآمال . ولكن إذا كانت المرحلة الأخيرة هى أسمى المراحل ، فلنا أن نقول إن الإنسان يتقدم .

هذا وينبغي أن نتجنب التفكير المتسرع عند تقدير العصور والدول ، فلا ينبغي الموازنة بين دول في عهد شبابها وأخرى في زهرة نضوجها الثقافي ، ولا ينبغي كذلك أن نوازن بين أرذل الدول أو أفضلها في عصر ، وبين الممتازة أو المتأخرة في العصور السوالف . فإذا رأينا أن طراز العبقرية السائد في الدول الناشئة كأمريكا واستراليا يتجه إلى التنفيذ والارتياد والعلم أكثر من رسم الصور أو قرض الشعر ، ونحت التماثيل أو صوغ الألفاظ ، أدركنا من ذلك أن كل زمان ومكان يصبو إلى مزاج خاص من العبقرية ويحتاج إليه أكثر من غيره من الأزمنة والبقاع ، وأن نوع الثقافة المطلوب لا يتم إلا حين يعبّد القدماء له الطريق ويرفعون من سبيله العقبات . وإذا رأينا أن الحضارات تنشأ وتزول ، وأن الفناء مكتوب على جميع أعمال الإنسان ، فسوف نقر بأن الموت شيء لا فرار منه ، ونتعزى بأننا في أثناء حياتنا وحياة شعوبنا نرتفع قليلا قليلا إلى أعلى ، ونصبح أفضل بعض الشيء مما كنا عليه . وإذا رأينا أن الفلاسفة اليوم أدنى إلى الأقزام منهم إلى العمالقة أيام أفلاطون عريض الأكتاف ، وسقراط قوى البنية ، وأن النحاتين أضأل من دوناتيللو أو أنجلو ، وأن المصورين أقل في مستواهم من فلاسكويز ، وأن الشعراء والمؤلفين لا يذكرون إلى جانب شللي وباخ ؛ فليس لنا أن نيأس ، لأن هذه النجوم لم تسطع كلها في ليلة واحدة . صفوة القول تنحصر المشكلة التي نبحثها في هذا الأمر وهو : هل ارتفع متوسط قدرة الإنسان بين الناس جميعاً بحيث يبلغ اليوم ذروته أو لم يرتفع ؟

الحق أننا إذا نظرنا نظرة شاملة ووازنا بين حياتنا الحديثة على الرغم مما فيها من نقص وفوضى ، وبين جهل البدائيين وما عندهم من خرافات وقسوة وتوحش وأمراض ، ارتاحت أنفسنا بعض الشيء . وإذا كانت الطبقات الدنيا من الجنس البشري اليوم قد لا تختلف إلا قليلا عن مثل أولئك الأقوام ، فيوجد فوق هذه الطبقة الدنيا آلاف وملايين بلغوا من السمو العقلي والخلقي مبلغاً لا يمكن في أكبر الظن أن يتصوره عقل البدائي . قد نلوذ بالخيال أحياناً تحت ضغط الحياة المعقدة في المدينة فننعم ببساطة أيام التوحش الهادئة ، غير أننا حين نستيقظ من هذه اللحظات الرومانتيكية نعرف أن هذا الهرب رد فعل على أعمالنا الحاضرة ،

وأن هذا الشغف بالبربرية ككثير من آرائنا الناشئة إنما هو تعبير متعجل نشأ عن سوء الملاءمة لحياة الشباب ، وهو بعض الآلام المتخلفة فى الوقت الحاضر عن نضوج الفرد . ويبين البحث فى مثل هذه القبائل المتوحشة التى تعيش الآن ارتفاع نسبة الوفيات بين أطفالهم ، ونقص متوسط أعمارهم ، وبطء سرعتهم ، وقصر قامتهم ، وضعف إرادتهم ، وانتشار الأوبئة بينهم [1] . إن المتوحش المسالم صافى القلب ، وهو كالطبيعة لا تبتهج به إلا الحشرات والقاذورات .

ومع ذلك فقد يرد علينا المتوحش الحجة ويسأل كيف نستمتع بما عندنا من سياسة وحروب ، وهل نظن أنفسنا أسعد من القبائل التى يتردد صدى أسمائها العجيبة فى كتب الأنثروبولوجيا . سيسلم المؤمن بالتقدم أننا قطعنا أشواطاً كثيرة فى فن الحرب ، وأن ساستنا ، فيما عدا بعض الاستثناءات المزعجة ، لابد أنهم يمجدون الساحة الرومانية Roman Form فى أيام ميلون وكلوديوس — ولو أن مستر كولدج Mr. Coolidge امتاز على نيرون امتيازاً محسوساً. أما السعادة فلا أحد يمكن أن يعرف عنها شيئاً ، فهى سراب خادع يحطمه البحث ولا يخضع للقياس . ومن المفروض أن السعادة تعتمد على الصحة أولا ، وعلى الحب ثانياً ، وعلى الثروة ثالثاً . أما الثروة فقد قطعنا فى التقدم بها شوطاً عظيما يثقل على ضمير المفكرين . وأما الحب فنحاول التعويض عن فقدان أغواره بألوان من الابتكارات والتنويع لم يسبق لها مثيل . ثم إن آلاف وصْفات الغذاء والعقاقير التى نتناولها تهيء لنا الاعتقاد أن المرض يركبنا بالإضافة إلى بساطة الناس فى الأزمنة البسيطة . ولكن هذا وهم ، فنحن نظن أنه حيث يوجد أطباء كثيرون فلا بد أن الأمراض قد ازدادت عن ذى قبل . الحقيقة أن أوجاعنا لم تزد عما مضى ، ولكن كثر فى أيدينا المال الذى يسمح بعلاج الأمراض وتخفيف وقعها والتغلب عليها ، وهى تلك الأمراض التى كان البدائيون يموتون بها دون أن يعرفوا أسماءها الطبية .

وهناك معيار واحد للصحة ، ومن ثَمّ للسعادة بعض الشيء ، يصلح أن يكون موضوعياً ويعتمد عليه : إنه إحصاء الوفيات الذى تجريه شركات التأمين

---

(١) انظر Todd, p. 135

وهى التى تعلم أن عدم الدقة فى الحساب يكبدها خسائر أكثر لو عولت على الفلسفة . وبعض هذه الإحصاءات تمتد إلى ثلاثة قرون ، ففى جنيف مثلا يتضح أن متوسط العمر كان عشرين سنة عام ١٦٠٠ ، وأربعين عام ١٩٠٠ . وفى الولايات المتحدة كان متوسط العمر للبيض عام ١٩٢٠ ثلاثا وخمسين ، وفى عام ١٩٢٦ ستا وخمسين (١) . فإن صح هذا كان أمراً يصعب تصديقه . ومع ذلك فهناك تقارير مماثلة عن ألمانيا . هذا مكتب الإحصاءات فى برلين ينبىء بأن متوسط العمر فى ألمانيا كان عشرين فى ١٥٢٠ ، وثلاثين فى ١٧٥٠ ، وأربعين فى ١٨٧٠ ، وخمسين فى ١٩١٠ ، وستين فى ١٩٢٠ (٢) . فلو سلمنا بهذه الأرقام فلنا أن نستنتج ، مع استئذان المتشائمين ، بأن الحياة إذا كانت نعمة على الإطلاق فإننا نقطع فيها أشواطاً عظيمة من حيث الكم ونسعى إلى الاحتفاظ بها. وقد ناقش اللحادون (الحانوتية) أخيراً فى اجتماع سنوى المخاطر التى تهدد مهنتهم من زيادة تأخير الناس موعد لقائهم بالموت (٣) . وإذا كان البؤس قد أصاب اللحادين ، فالتقدم واقع لاريب فيه .

٥ — عرض عام للتاريخ

بعد أن أدلينا بهذه الآراء وما نراه من تعديلات فلنحاول أن نبصر مشكلة التقدم فى نظرة شاملة . وليس من اللازم أن نرفض نظرة المتشائم ، بل من واجبنا أن نضم حقائقه إذا استطعنا إلى حقائقنا . وإذا نظرنا إلى التاريخ نظرة شاملة رأينا أنه يشبه خطاً بيانياً يسجل ارتفاع الدول وسقوطها — شعوب وثقافات تختفى وكأنها فى فيلم هائل . ومع ذلك تبرز فى تلك الحركة غير المنتظمة للممالك ، وتلك الفوضى فى البشر ، بعض الحركات الكبرى تمثل ذروة تاريخ البشرية وجوهره ، وهى بعض أنواع من التقدم لا نفقدها متى بلغناها . لقد تدرج الإنسان خطوة خطوة من متوحش إلى عالم . وهذه هى مراحل النمو :

---

(١) Fisher, I., National Vitality, p. 624.

(٢) New York Times, Sept. 7, 1928.

(٣) انظر Sigfried, America comes of Age, p. 176 . وانظر تفصيلات عن تقدم الصحة المقالة القيمة التى كتبها C.—E. A. Winslow in Prof. Beard's splendid symposium, Whither Mankind? New York, 1928.

الأولى : **الكلام** – تأمل الكلام لا على أنه عمل ظهر بغتة ، ولا على أنه هبة من الآلهة ، بل على أنه نمو بطيء للتعبير المنطوق خلال قرون من الجهد ابتداء من نداء الحيوان للتسافد إلى أغاني الشعراء . ولولا الألفاظ ، أو الأسماء العامة التي تجعل الصور الخاصة قادرة على تمثيل النوع ، لتوقف التعميم في بدايته ، ولبقي العقل حيث نجده في الوحوش . لولا الألفاظ لاستحالت نشأة الفلسفة والشعر ، والتاريخ والنثر ، وما بلغ الفكر ما بلغته براعة أينشتين أو أناتول فرانس . لولا الألفاظ ما أصبح الرجل رجلا أو المرأة امرأة .

الثانية : **النار** – لأن النار جعلت الإنسان لا يعتمد على المناخ ، وهيأت له محيطاً أوسع على الأرض ، وجعلت الآلات التي يستعملها صلبة ومتينة ، ووهبته من الأطعمة آلافاً من الأشياء لم تكن تؤكل من قبل . ولا يقل عما ذكرناه أهمية أن النار جعلت الإنسان سيد الليل ، وأضفت على ساعات المساء والفجر حياة وبهاء . تصور حال الظلام قبل أن يبدده الإنسان . . . حتى الآن لا تزال مخاوف تلك الهوة البدائية تعيش في تقاليدنا ، ولعلها تسري في دمائنا . فعند كل غسق كانت تبرز مأساة : فيزحف الإنسان إلى كهفه عند غروب الشمس وهو يرتعد خوفاً ، أما الآن فنحن لا نزحف إلى كهوفنا إلا عند مطلع الشمس . ومع أنه من الحماقة أن نتجاهل الشمس ، إلا أنه من الخير أن نتحرر من مخاوفنا القديمة . فهذا الليل قد رشقته يد الإنسان بملايين من الأنجم الصناعية فأضاءت النفس البشرية وأضفت على الحياة الحديثة المرح والخفة . الحق لن نستطيع توفية الضوء حقه من الشكر .

الثالثة : **الانتصار على الحيوانات** – إن ذاكرتنا عظيمة النسيان وخيالنا شديد العجز ، مما لا يسمح لنا بتحقيق النعمة الحاصلة لنا من الأمن من الوحوش المفترسة الضخمة القريبة الشبه من الإنسان . أما الحيوانات الآن فإنها ألعوبة في أيدينا ، وهي طعامنا الذي لا مهرب لها منه . وقد أتى على الإنسان حين من الدهر كان يصاد كما يصيد ، وكانت كل خطوة يبتعد فيها عن الكهف أو الكوخ مغامرة ، وكان سلطانه على الأرض لا يزال محفوفاً بالمكارد . فهذه الحرب التي أحالت الكوكب إنسانياً هي ولا نزاع أكثر الأمور أهمية في تاريخ الإنسانية ،

وليست سائر الحروب الأخرى إلى جانبها إلا مشاجرات عائلية لا تفضى إلى شيء . وقد استمر ذلك الكفاح بين قوة البدن وسلطان العقل خلال سنين طويلة لا تعيها الذاكرة . حتى إذا انتصر الإنسان أخيراً فى تلك الحرب ، انتقلت ثمرة انتصاره ، نعنى أمنه على الأرض ، عبر آلاف من الأجيال ، مع هدايا أخرى كثيرة يقدمها لنا الماضى لتكون جزءاً من ميراثنا عند الميلاد . فما قيمة جميع انتكاساتنا المؤقتة ضد مثل هذا الصراع وهذا الظفر ؟

الرابعة : **الزراعة** — لم تكن الحضارة ميسورة فى مرحلة الصيد ، لأنها كانت تستدعى سكاناً دائمين وأسلوباً مستقراً فى الحياة . وقد نشأت الحضارة مع نشأة البيت والمدرسة ، ولم يظهر بيت ولم تقم مدرسة إلا حين حلت محاصيل الحقل محل حيوانات الغابة أو القطيع طعاماً للإنسان . فقد كان الصياد يقتنص ما يصيده بمشقة عظيمة ، على حين كانت المرأة التى يتركها فى الدار تستغل أرضاً أعظم ثمرة ، وقد هدد اشتغال الزوجة الصابرة على الفلاحة باستقلالها عن الزوج ، فآثر من أجل سيادته آخر الأمر أن يرغم نفسه على أعمال الزراعة. ولا ريب أن هذا الانتقال العظيم الذى يعد أعظم انتقال فى تاريخ البشرية قد استغرق قروناً طويلة ، حتى إذا تم فى نهاية الأمر بدأت الحضارة . وقد قال مريدث[1] Meredith إن المرأة هى آخر مخلوق يحضّره الرجل ، وفى هذا القول من الخطأ ما يوجد عادة فى الأمثال السائرة ، لأن الحضارة نشأت عن طريق أمرين أساسيين : البيت الذى طوّر تلك الاستعدادات الاجتماعية التى تكوّن الملاط النفسانى للمجتمع ، والزراعة التى أخذت بيد الإنسان من جولاته التى كان يهيم فيها صائداً وراعياً وقاتلا وجعلته يستقر فى مكان واحد فترة تبلغ من الطول ما يسمح له ببناء البيوت ، والمدارس ، والكنائس ، والكليات ، والجامعات ، والحضارة . ولكن المرأة هى التى وهبت الرجل الزراعة والبيت ، فاستأنست الرجل كما استأنست الماشية والخنازير ، فالرجل هو آخر حيوانات المرأة التى استأنستها ، ولعله آخر الكائنات التى ستحضّرها المرأة . وبعد فالمهمة لم تكد تبدأ : وتكفى نظرة واحدة إلى قائمة الطعام لتكشف لنا أننا لا نزال فى مرحلة الصيد.

---

(١) جورج مريدث (١٨٢٨ — ١٩٠٩) روائى إنجليزى وشاعر ، اشتهر بمعالجته للمشكلات الاجتماعية فى رواياته (المترجم) .

الخامسة : **التنظيم الاجتماعي** — ها هنا رجلان يتنازعان : أحدهما يطرح الآخر أرضاً ، ويقتله ، ثم يقول : إن الحي لابد أنه كان في جانب الحق ، وإن الميت كان في جانب الباطل . . . وهذا ضرب من البرهان لا يزال مقبولا في المنازعات الدولية . وهاهنا رجلان آخران يتنازعان ، فيقول أحدهما لصاحبه: « فلنترك التقاتل . . . فقد نصرع معاً . ولكن دعنا نحمل خلافنا إلى كبير القوم، ولنقبل حكمه » . لقد كان هذا التفكير لحظة حاسمة في تاريخ الإنسانية . فلو أن الجواب كان « لا » ، لاستمرت البربرية ، أما إذا كان الجواب « نعم » ، فقد شقت الحضارة لها طريقاً آخر في ضمير الإنسان ، هو إحلال النظام محل الفوضى ، والقضاء العادل مكان الوحشية ، والقانون بدلا من العنف والإكراه . وهذه أيضاً منحة لا نشعر بها لأننا ولدنا في حماية دائرتها السحرية ، دون أن نعرف ١ـأ قيمتها حتى نهيم في أقطار الأرض المنعزلة أو التي تسودها الفوضى . والله يعلم أن مؤتمراتنا وبرلماناتنا هي اختراعات مريبة ، وهي خلاصة التوسط في البلاد ، ولكننا نحاول على الرغم منها أن ننعم في الحياة والملك بأمن سنقدره حق قدره حين تنشب حرب أهلية أو ثورة فتردنا إلى الظروف البدائية . وازن بين السفر المأمون اليوم وبين الطرق التي كان يقطعها اللصوص في العصر الوسيط بأوربا . فلم يسبق في أي وقت من التاريخ أن ساد مثل هذا النظام وهذه الحرية مما نجده اليوم بانجلترا . . . وقد يوجدان ذات يوم بأمريكا ، عندما يتيسر إيجاد طريقة لافتتاح مكاتب للبلدية تشغل بالكُفاة والمحترمين . ومع ذلك فلا يجب أن نزعج كثيراً من الفساد السياسي أو سوء الإدارة في الديمقراطية . فالسياسة ليست الحياة ، بل تطعيما لها ؛ إذ يقوم وراء تمثيلياتها السوقية ذلك النظام التقليدي للمجتمع في الأسرة ، والمدرسة ، وفي هذه الآلاف من التأثيرات المنحرفة التي تحيل ما عندنا من فوضى وطنية إلى شيء من التعاون والخير . ونحن نشارك بغير وعي منا في تراث مجيد من النظام الاجتماعي شيدته لنا مئات من الأجيال أنفقت في التجارب وتجنب الأخطاء ، وجمع المعرفة ، ونقل الثروة .

السادسة : **الأخلاق** — وهنا ننفذ إلى قلب مشكلتنا — هل الناس أفضل في أخلاقهم مما كانوا ؟ إذا اعتبرنا العقل عنصراً من عناصر الأخلاق فقد تقدمنا :

ذلك أن مستوى الذكاء أعلى . وقد ازداد عدد ما يمكن أن نسميه بالعقول الراجحة زيادة كبيرة . أما فيما يختص بالخلق فأكبر الظن أننا تأخرنا ، إذ نمت براعة التفكير على حساب هدوء النفس . ونحن المفكرين نحس فى حضرة آبائنا إحساساً مضطرباً أننا على الرغم من امتيازنا عليهم فى كمية الأفكار التى نزحم بها رءوسنا ، وعلى الرغم من تحررنا من الأوهام اللذيذة التى لا تزال تجلب لهم العون والراحة فنحن أقل منهم فى الشجاعة الثابتة ، وفى الإخلاص للعمل والأهداف ، وفى بساطة قوة الشخصية .

أما إذا كانت الأخلاق تنطوى على الفضائل التى مجدتها شريعة المسيح ، فقد تقدمنا تقدماً محدوداً على الرغم من معيشة الناس عندنا فى المناجم والأحياء القذرة ، وما عندنا من فساد ديمقراطى ، وانغماس أهل المدن فى الدعارة .

ولكننا أصبحنا أرق نوعاً مما كنا : فنحن أقدر على الرحمة ، وعلى الكرم للأغراب عنا أو غير الموالين لنا حتى لو لم نكن نعرفهم . فى عام واحد (سنة ١٩٢٨) بلغ ما ساهمت به دولتنا فى الإحسان الخاص والبذل فى خير الإنسانية أكثر من ألفى مليون دولار . . . وهو نصف جميع المال المتداول فى أمريكا . إننا لانزال نشنق القتلة إذا حدث أننا قبضنا عليهم وحاكمناهم ، غير أن هذا القصاص التقليدى الذى يأخذ الحياة بالحياة لا يزال يقلق بالنا بعض الشيء ، وقد هبطت الجرائم التى نقضى فيها بالإعدام هبوطاً عظيما . كان الناس فى « مرى إنجلند » منذ مائتى عام يشنقون بحكم القانون إذا سرق أحدهم شلناً ، ولا تزال الأحكام قاسية على من لا يسرق الشيء الكثير . ومنذ مائة وأربعين عاماً كان المعدّنون فى اسكتلندا عبيداً بالوراثة ، وكان المجرمون فى فرنسا يعذبون قانوناً وعلانية حتى الموت ، وكان المدينون يسجنون فى إنجلترا مدى الحياة ، وكان ناس محترمون يغزون شواطىء أفريقية للحصول على العبيد (١) . وكانت سجوننا منذ

(١) انظر .Haldane, J. B., Possible Worlds, p. 302

وانظر Spengler, Decline of the West, pp., 110-111

حيث يقول : « بلغ عدد المحكوم عليهم بالإعدام للزندقة فى أثينا وحدها وفى أثناء سنوات الحرب البلوبونيزية عدة مئات» . وعلى القارىء الذى لا يزال يشك فى تقدمنا الأخلاقى أن يقرأ ما كتبه=

خمسين عاماً كهوفاً ملأى بالقاذورات والمخاوف ، ومعاهد يتخرج فيها صغار المجرمين ليصبحوا من كبار المجرمين . أما الآن فسجوننا عبارة عن أماكن يرتاح فيها القتلة الذين أدركهم التعب . ونحن لا نزال نستغل الطبقات الدنيا العاملة ، ولكننا نريح ضمائرنا بأعمال البر . ويسعى علم تحسين النسل أن يوازن بالانتخاب الصناعي بين الرحمة والإحسان وبين القسوة والإفناء للضعيف والعاجز مما كان في الزمن السابق أساس الانتخاب الطبيعي .

وقد يخيل إلينا أن العنف أصبح أكثر انتشاراً في العالم عما كان من قبل ، ولكن الواقع أن الصحف هي التي أصبحت أكثر انتشاراً ، فهناك مؤسسات كبيرة وقوية تذرع الأرض بحثاً عن الجرائم والفضائح التي تسرى عن القراء ما يلقونه من عناء الكتابة بالاختزال والاقتصار على زوجة واحدة . وهكذا تتجمع كل المساوىء والسياسات من القارات الخمس في صفحة واحدة لتفتح لنا الشهية عندما نتناول الإفطار . وننتهي من ذلك إلى أن نصف أهل الأرض يقتل النصف الآخر ، وأن نسبة عظيمة من هذا النصف الباقي مقدمة على الانتحار . ولكننا ننزل إلى الشوارع ، وندخل البيوت ، ونحضر الاجتماعات ونركب آلافاً من وسائل النقل فندهش حين لا نجد قتلة ولا منتحرين ، بل نجد أدباً صريحاً دمقراطياً ، ومروءة قلبية أكثر واقعية مما كان يصدر عن الناس من عبارات الشهامة ، وحين كان الرجال يستعبدون نساءهم ويستوثقون من عفتهن بأقفال من حديد عندما كانوا يحاربون من أجل المسيح في البلاد المقدسة .

وتمثل طريقتنا في الزواج على ما فيها من فوضى وميوعة تهذيباً بديعاً أفضل من الزواج بالأسر أو الشراء ، وما كانوا يسمونه « بحق السيد » . فالوحشية أقل بين الرجال والنساء والآباء والأبناء والمعلمين والتلاميذ مما تحمله أي جيل في الماضي . ويعد تحرير المرأة وصمودها أمام الرجل دليلا على رقة لم يسبق لها مثيل في الذكور الذين كانوا فيما مضى سفاكين للدماء . وازدهر الحب الذي كان مجهولا عند

= « لي Lea» عن محاكم التفتيش الأسبانية ، أو « تين Taine » عن الاضطهاد في حكم الملكة ماري (History of English Literature, pp., 255-6.) . قد نجعل الذكاء في بعض المجتمعات غير مشروع ، ولكننا لا نحكم عليه بالإعدام .

البدائيين ، أو لم يكن إلا إشباعاً لرغبة الجسد ، وأصبح حديقة تمتلىء بالغناء والعاطفة ، وارتفع فيها غرام الرجل بالمرأة وكأنه بخور يحترق فى قصائد الشعر ، على الرغم من امتداد جذور الحب فى ثنايا الحاجات الطبيعية . أما الشباب الذى تزعج أخطاؤه الآباء المكدودين أعظم إزعاج ، فإنه يكفر عن رذائله الصغيرة بهذا الشغف الفكرى وهذه الشجاعة الخلقية ،وهى أمور لن تقدرحق قدرها حتى تثمر التربية ثمارها وتنقى جو حياتنا العامة .

السابعة : **الآلات** – إننا نغنى الآن فى وجه الرومانتيكيين ، وخصوم الآلات من المفكرين ،وطلاب الرجوع إلى الحالة البدائية (القذارة ،والثعابين ، وبيوت العناكب ، والبق) أغنية الآلات والماكينات والمحركات ، التى استعبدت الإنسان ثم أخذت فى تحريره . لا يجب أن نخجل من ازدهارنا ؛ فمن الخير أن تصبح وسائل الراحة والإمكانيات التى كانت من قبل وقفاً على البارونات وأمثالهم مزية لجميع الناس ، فقد كان من اللازم نشر الفراغ – حتى إذا أسىء استعماله فى أول الأمر – قبل أن تتحقق الثقافة الواسعة . فهذه الاختراعات المتزايدة هى الأعضاء الجديدة التى نسيطر بها على البيئة المحيطة بنا . ولسنا فى حاجة إلىتنمية هذه الأعضاء على أبداننا كما ينبغى أن تفعل الحيوانات ، بلنصنعها ونستخدمها ثم نضعها جانباً لحين الحاجة إلى استخدامها مرة أخرى[1] . إننا نضع أذرعة هائلة تبنى فى شهر الأهرامات التى كانت تستنفد مليون رجل . ونصنع لأنفسنا عيوناً عظيمة تكشف عن النجوم الخفية فى السماء ، وأخرى صغيرة تنفذ إلى دقائق خلايا الحياة . إننا نتكلم إذا شئنا بأصوات هادئة تعبر القارات والبحار . إننا نتحرك على الأرض ونطير فى الهواء بحرية الآلهة الخالدين . ولو سلمنا بأن مجرد السرعة أمر لا قيمة له ، فإنها رمز للشجاعة البشرية والإرادة الثابتة ؛ وهذا هو أعظم معنى للطائرات فى نظرنا . فقد تحررنا فى النهاية بعد أن طال قيـــدنا بالأرض مثل برومثيوس[2] ،حتى أصبحنا الآن نواجه عيون الصقر فى كبدالسماء .

---

(١) برجسون .

(٢) فى الأساطير اليونانية أن برومثيوس سرق النار من السماء ووهبها للإنسان . فعاقبه زيوس بأن كبله بالسلاسل فى جبال القوقاز حيث كان الصقر يأكل كبده طول النهار ، وتعود الكبد إلى النمو ليلا . وأخيراً خلصه هرقل ، وذبح الصقر (المترجم) .

لا . . . لن تقهرنا هذه الآلات . أما هزيمتنا الحاضرة أمام الماكينات من حولنا فهي أمر مؤقت ، ووقفة في تقدمنا البصير نحو عالم لا عبودية فيه . وقد ارتفعت عن كواهلنا تلك الأعمال الدنيئة التي حقرت من شأن السيد والعامل على السواء ، ووضعت في عضلات الحديد والصلب التي لا تكل . ولن يمضي زمن طويل حتى يصب كل مسقط مائي وكل رياح طاقتها التي تجلب الخير في المصانع والبيوت ، ويخلص الإنسان إلى أعمال العقل . إن ما يحرر العبيد هو الاختراعات لا الثورات (١) .

الثامنة : **العلم** – لقد كان باكل على حق إلى حد كبير في قوله : إننا لا نتقدم إلا في المعرفة ، وتعتمد هذه المواهب الأخرى على التنوير البطيء للعقل. وهنا في مجال البحث النبيل الصامت ، وفي معارك المعامل قصة تصلح أن توازنه خداع السياسة وعبث الحرب البربرية . هنا نجد الإنسان في أحسن أحواله ، يرتفع سموًّا خلال الظلام والاضطهاد نحو النور . انظر إليه واقفاً على هذا الكوكب الصغير يقيس ، ويزن ، ويخلل الأبراج التي لا يراها ، ويتنبأ بدوران الأرض والشمس والقمر ، ويشاهد مولد الأكوان وفنائها . أو هنا تجد عالماً رياضياً يبدو غير عملي يتتبع قوانين جديدة معقدة أعظم التعقيد ، فينير الطريق لسلسلة لا نهاية لها من الاختراعات التي تزيد في قوة جنسه . وهنا نجد قنطرة تزن مائة ألف طن من الحديد معلقة بأربعة حبال من الصلب وتمتد بشجاعة من شاطىء إلى الآخر تحمل عدداً لا يحصى من المارة . لعمري إن هذا لشعر يبلغ في روعته أسمى ما كتبه شكسبير . أو تأمل هذا البناء الذي يشبه المدينة والذي يضرب عالياً في السماء ، تحميه شجاعة حسابنا من أي صدع ، ويتألق كحجر الماس في الليل . وهنا في علم الطبيعة نجد أبعاداً جديدة ، وعناصر جديدة ، وذرات جديدة ، وقوى جديدة . وهنا في الصخور نجد الحياة قد سطرت سيرتها ، وفي المعامل تعد البيولوجيا العالم العضوى للتغيير كما بدلت الفيزيقا المادة . ففي كل مكان تلقى هؤلاء الرجال المتواضعين يبحثون بغير مكافأة ، ومن العسير أن تفهم من أين

---

(١) لقد توقفت الصناعة في أمريكا عن الاعتماد على السواعد بما بلغه تنظيم العمل من كمال وباستخدام الآلات إلى درجة لا نتصورها في أوربا . انظر

Siegfried, America Comes of Age, p. 149.

ينبع إخلاصهم ويتغذى ، ومع أنهم سيموتون قبل أن يثمر الشجر الذى يزرعونه للإنسانية فإنهم سائرون فى طريقهم .

الحق أن هذا النصر الإنسانى على المادة لا يضارعه حتى الآن أى نصر آخر من جانب الإنسان على نفسه . وهنا نجد أن حجة التقدم لا تزال مضطربة ؛ ذلك أن علم النفس لم يكد يبدأ فى فهم السلوك الإنسانى والرغبة الإنسانية ، وسيطرته عليهما أقل . وهذا العلم مختلط بالتصوف والميتافيزيقا ، بالتحليل النفسانى والسلوكية [١] Behaviorism ، بالأساطير الخاصة بالغدد ، إلى أمراض أخرى خاصة بالبلوغ . هذا والمشاهدات الدقيقة والحالات المعدلة لا يقوم بها إلا علماء نفسانيون لا يسمع بهم أحد ، وفى بلادنا تحيل النزعة الديمقراطية إلى المبالغة كل علم إلى « بدعة عجيبة » . ولكن علم النفس سيعيش على الرغم من هذه الأمراض والأعاصير ، وسينضج كغيره من العلوم بما يتحمله من مسئوليات. ولو ظهر بيكون[٢] آخر يستعرض ميدانه ، ويوضح مناهجه وأهدافه الصحيحة ، ويبين « الثمرات والقوى » التى نحصل عليها — فأينا يجرؤ ، وهو يعلم مفاجآت التاريخ ومثابرة البشر ، على وضع حدود للأعمال التى يمكن أن تنشأ عن معرفتنا المطردة للعقل ؟ فقد بدأ الإنسان فى هذه الأيام يولى عن البيئة التى صنعها ، وأخذ يصنع نفسه صنعاً جديداً .

التاسعة : التربية — إننا ننقل الآن نقلا أحكم إلى الجيل المقبل التجارب التى تجمعت عن الماضى . فهذا الإنفاق العظيم فى المال والجهد لإعداد المدارس وتزويد جميع الناس بالتعليم أمر يكاد يكون ابتكاراً معاصراً ، ولعله أبرز ملامح هذا العصر . فقد كانت الجامعات فى الزمن الماضى ترفاً والقصد منها تعليم الذكور من الطبقة الفارغة Leisured class . وأصبحت الجامعات اليوم من الكثرة

---

(١) ليست السلوكية ذائعة لأنها منهج فى علم النفس بل لأنها فلسفة ميكانيكية ، عبارة عن سلسلة من الفروض الجريئة والجذابة عن الشعور والفكر . ومع ذلك فالسلوكية فى نظر نفسها علم موضوعى دقيق . ويعلن مؤسسها الألمعى — الفيلسوف على الرغم منه — أن الفلسفة قد ماتت . وفى هذا الكلام شىء من التناقض ، ويظهر أنه يؤيد ما يذهب إليه الدكتور واطسن من أن السلوكية تخلو من الشعور .

(٢) يشير المؤلف إلى فرانسيس بيكون الذى فتح باب العلم الحديث (المترجم) .

بحيث يتيسر لكل من ينقطع للدرس الحصول على إجازة الدكتوراه . حقاً لم نتفوق على عباقرة الماضي الممتازين ، ولكننا رفعنا مستوى المعرفة الإنسانية ومتوسط تلك المعرفة إلى درجة لم يسبق لها مثيل فى أى عصر من عصور التاريخ . لا تنظر الآن إلى أفلاطون ولا إلى أرسطو ، بل إلى المجلس الأثينى المتعصب المغفل القاسى ، إلى الشعب المتعصب وشعائره الأورفية ، وإلى النساء المنعزلات المستعبدات اللاتى لم يكن يستطعن الحصول على التعليم إلا إذا أصبحن محظيات .

ولو قيل إن العالم فى الوقت الحاضر لم يتغير بعد تغيراً تاماً مع انتشار هذه المدارس ، ومع تكاثر هذه الجامعات التى تعلم الجنسين معاً ، فلن يكون قائله إلا طفل غرير . الحق أن تجربة التعليم الكبرى فى النظرة الشاملة للتاريخ تأخذ فى البدء ، ولم تستنفد بعد الوقت الكافى لتثبت نجاحها ، ولا يمكن فى جيل واحد أن تمحو جهل وأوهام عشرة آلاف سنة . حقاً قد ينتصر الجهل المنتشر وتعصب الجمهور للعقائد على التعليم فى النهاية ، وليست هذه الخطوة من خطوات التطور مما يمكن وصفها بالثبات فى أعمال البشرية ، ومع ذلك فهناك نتائج طيبة تبدو للعيان . فلأمرٍ مّا كان التسامح وحرية الفكر أيسر ازدهاراً فى الولايات الشمالية عنهما فى الجنوبية إذا لم يكن ذلك بسبب قلة المال فى أيدى أهل الجنوب لبناء ما يكفى من المدارس (١) ؟ ومن يدرى لعل إيثارنا الوظائف البسيطة والرياسات المحدودة يرجع إلى أننا جيل نشأ من طبقات أثقلها عبء الحاجة الاقتصادية والاستغلال السياسى إلى حد لا يسمح بفسحة من الوقت لتعهد العقل بالرعاية ؟ ترى أى ثمار ناضجة نجنيها من التعليم حين يستمر كل منا فى المدرسة حتى العشرين فتسنح له الفرصة لتحصيل كنوز الجنس الفكرية ؟ أو تأمل مرة أخرى غريزة الحب الأبوى ، هذا الدافع العميق الموجود عند كل أب سوىّ ليرفع أبناءه فوق نفسه ، تجد فيه الدفعة البيولوجية للتقدم الإنسانى ، والقوة التى يجب أن نطمئن

(١) تزداد نسبة الأمية فى الولايات والأقاليم التى تفرض أو تقترح قوانين مضادة للتطور منها فى غيرها . مثال ذلك أنها تبلغ ٢٦٫٦ ٪ فى ماكون بولاية تنيسى موطن مؤلف قانون سكوبس (Scopes) ، ولكنها تبلغ فى تنيسى كلها Tennessee ٩ ٪ إجمالا (Scientific American, Sep., 1927) (سكوبس مدرس كان يعلم تعاليم داروين فى تنيسى ، فحوكم سنة ١٩٢٥ ، وكان للمحاكمة صدى كبير فى ذلك الحين – المترجم) .

إليها أكثر من أى تشريع أو أى نصيحة أخلاقية ، لأنها مفطورة فى صميم جبلة الإنسان . لقد امتدت فترة البلوغ ، بحيث نبدأ الآن أكثر عجزاً ، ولكننا ننمو أكثر كمالا صوب ذلك الإنسان الأعلى الذى يكافح للتخلص من أنفسنا المظلمة. صفوة القول نحن مادة الحضارة الخام .

إننا نبغض التربية لأنها لم تقدم إلينا فى شبابنا كما ينبغى أن تكون عليه . انظر إلى التربية لا على أنها تكديس كريه للحقائق والتواريخ ، بل على أنها صلة نبيلة بالعظماء . ولا على أنها إعداد الفرد « لكسب المعاش » ، بل على أنها تنمية ما فيه من قدرة كامنة لفهم العالم الذى يعيش فيه ، والتحكم فيه ، وتقديره . وفوق هذا كله انظر إلى التربية فى أكمل حدها : إنها الفن الذى ينقل أكمل نقل ما استطاع إلى ذلك سبيلا إلى أعظم عدد ممكن من الناس ذلك التراث الصناعى والفكرى والخلقى والفنى ، الذى يصوغ الجنس عن طريقه الفرد النامى ويسويه إنساناً . ولو سألت لماذا نتصرف كالبشر لوجدت آن العلة فى ذلك هى التربية . فنحن لا نكاد نولد بشراً ، إذ نخرج إلى العالم حيوانات ممسوخة وقذرة ، ثم « نصبح » بشراً ، فتلقى الإنسانية علينا خلال مئات من المسارب التى يصب فيها الماضى إلى الحاضر ذلك التراث العقلى والثقافى الذى يرفع حفظه وجمعه ونقله الإنسانية اليوم بكل ما فيها من نقائص وجهل إلى مستوى أعلى مما بلغه أى جيل من قبل .

العاشرة والأخيرة : **الكتابة والطباعة** — ومرة أخرى نجد خيالنا قاصراً عن حملنا على أجنحته حتى يرفعنا إلى الحد الذى نلتقط فيه نظرة شاملة ، فليس فى استطاعتنا تصور أو تذكر عصور الجهل الطويلة وعصور العجز والخوف التى سبقت ظهور الكتابة . ففى تلك القرون الحوالى لم يكن فى استطاعة الناس نقل حكمتهم التى حصلوها بالمشقة إلا بالألفاظ المنطوقة الصادرة من الآباء إلى الأبناء . فإذا غفل جيل أو ضل ، فقد وجب أن يرتقى الناس سلم المعرفة من جديد . أما الكتابة فقد خلعت على ثمرات العقول نوعاً جديداً من الدوام ، إذ حفظت آلافاً من السنين ، وعبر آلاف من السنوات فى الفقر والخرافة : الحكمة التى اهتدت إليها الفلسفة ، والجمال البادى فى الدراما والشعر . لقد ربطت الكتابة

بين الأجيال بالتراث المشترك ، وخلقت تلك المملكة المسماة دولة العقل حيث تجد العبقرية بفضل الكتابة أداة تستمد منها الحياة .

واليوم كما وحدت الكتابة الأجيال ، فقد أمكن للطباعة على الرغم من كثرة مباذلها أن توحد بين الحضارات . فلم يعد من الضرورى أن تختفى الحضارة قبل فناء كوكبنا الذى نعيش على ظهره . ستغير الحضارة من موطنها ، إذ لا نزاع فى أن الأرض فى كل أمة ستأبى فى النهاية أن تهب ثمارها لحرث عابث أو ميلك مهمل . ولا بد أن مناطق جديدة ستفتن مما فيها من أرض بكر الجهود المتطلعة للمعرفة فى كل جنس . ولكن الحضارة ليست شيئاً مادياً مرتبطة ارتباطاً لا فكاك فيه كعبيد الأرض قديماً ببقعة معينة من الأرض ، بل هى تراكم للمعرفة الفنية technical وخلق للثقافة . ولو أمكن نقل هذه المعرفة وهـــذه الثقافة إلى الأساس الاقتصادى الجديد فلن تموت الحضارة ، بل تتخذ لنفسها وطناً آخر . ولا شىء يستحق الخلود سوى الجمال والحكمة ، وليس من الضرورى فى نظر الحكيم أن تخلد بلده إلى الأبد ، فسترضى نفسه إذا انتقلت آثارها لتصبح جزءاً من مقتنيات الإنسانية .

لسنا فى حاجة إذن أن نقلق من أجل المستقبل . إن ما يشغل بالنا هو كثرة الحرب ، فنقع فريسة فى هذه الحالة العقلية لأمثال شبنجلر حين أعلن سقوط العالم الغربى . الحق أن هذا الترتيب المتعالم لمولد الحضارات وموتها فى دورات منظمة ، ترتيب دقيق أكثر مما ينبغى ، وأكبر الظن أن المستقبل سيعبث عبثاً شديداً بهذا اليأس المنتظر من الحساب الرياضى . فقد وقعت حروب فى قديم الزمان ، وهى حروب أسوأ من « حربنا [1] الكبرى » . وقد عاش الإنسان وعاشت الحضارة بعدها . ولم يكد يمضى خمسة عشر عاماً على موقعة واترلو حتى أنتجت فرنسا المنهزمة ، كما سنرى ، من العباقرة ما ملأ كل بيت فى باريس . ولم يسبق لتراثنا من الحضارة والثقافة أن كان مستتباً بهذا القدر ، ولا كان يمثل هذه الثروة . ونستطيع أن نسهم بنصيب قليل فى تنمية هذا التراث ونقله على ثقة منا أن الزمان سيبلى ما فيه من نفاية ، ويبقى ما يثبت أنه حق وقيم ليضىء أجيالا كثيرة .

(١) نلاحظ أن المؤلف كتب هذا الكتاب بعد الحرب العظمى التى نشبت من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ولم يتناول فى طبعته الثانية آثار الحرب الأخيرة الذرية (المترجم) .

الفصل السادس عشر
مصير الحضارة

١ — الاضطرابات العصبية بعد الحرب

كتب شوبنهور سنة ١٨١٨ كتابه « العالم كإرادة وفكرة » ، فكان أقوى هجوم وأشمله وجه إلى إيمان الإنسان بالتقدم والحضارة . وفى عام ١٨٢١ مات كيتس Keats بالسل واليأس بعد أن كتب شعراً رائعاً يفوح بعبير أوراق الخريف المتساقطة ، وقد بثه مأساة الأوهام المفقودة . وغرق شللى سنة ١٨٢٢ دون أن يبذل فى أكبر الظن أى جهد لإنقاذ نفسه ، وقد « عاش أمداً طويلا » كما قال قيصر ، ولم يحفل بأن يعمر حتى يشهد الهزيمة العامة للحرية فى أوربا . ومات بيرون عام ١٨٢٤ بالصرع راضياً بالاختفاء من عالم وصفه بذلك التهكم اللاذع فى « دون جوان » . ونشر دى موسيه سنة ١٨٣٥ « اعترافات طفل فى هذا القرن» وصف فيه عالماً منهاراً وشعباً بغير أمل . وفى عام ١٨٣٧ مات بوشكين فى روسيا وليوباردى فى إيطاليا بعد أن نظما التشاؤم شعراً منثوراً لم يرتفع إليه أى قلم من قبل . لقد امتزج اليأس بدماء ذلك الجيل .

ولم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى استرجعت حيوية أوربا مكانتها ، وعادت حركة الحياة والآداب تسير إلى الأمام . وأخذت الاختراعات ترسى قواعد الانتصارات الصناعية فى ذلك القرن ، وشرعت الآلات تحرر الإنسان ليستمتع بالفراغ ، وبدأت السكك الحديدية والبواخر توحد بين الأمم والثقافات مع تبادل السلع والأفكار من كل مكان . وقد شهد العقد نفسه ، الذى رأى النصر الثورى للدراما الحديثة « هرنانى » من قلم هوجو ، مولد إبسن فى ١٨٢٨ ، وبراعة بلزاك وستندال فى القصة ، وروعة هينى وهوجو فى الشعر الغنائى ، وسنت بيف وتين فى النقد ، كما نشر تنيسون وبراوننج الأجزاء الأولى من آثارهما ،

ونزل ديكنز وثاكرى إلى ميـــدان المنافسة ، وبدأ تورجنيف ودستوفسكى وتولستوى يظهرون فى روسيا . وفى ذلك الحين كان ديلاكرواه يحارب فى أول معركة ضد اللون البنى فى التصوير ، وكان تيرنر [١] يُغرق حتى انجلترا بأشعة الشمس . وكان داروين يجمع المادة لأروع أثر فى العلم الحديث ، وسبنسر يعد فلسفة جديدة ، وكان رينان يكتب « مستقبل العلم » شعلة تنير السبيل لعالم أكثر إشراقاً . صفوة القول كان البعث سارياً فى كل مكان .

وعلى هذا الأساس من الموت والحياة ، من التدمير والتجديد ، يجب أن نفهم تشاؤم مابعد الحرب فى عصرنا ، وأن نغفره ، فالنظرة الشاملة هى كل شىء.

ليس معنى ذلك أن الحرب العظمى هى العلة الوحيدة أو الأساسية لنظرتنا الفلسفية القاتمة . كل ما فى الأمر أنها أبرزت الأفكار والمشاعر التى كانت آخذة فى التجمع منذ نهاية القرن. فقد تصور كسندرا شبنجلر [٢] أروع كتبه وهو « انحطاط الغرب » وأبرزه سنة ١٩١٤ ، قبل نشوب نار العداوات . ولكن ألمانيا لم تعرف حتى ذاقت الهزيمة قدر الكتاب باعتبار أنه أعظم مساهمة فى ميدان الفلسفة منذ نيتشه (لو سئل أحد الفرنسيين لقال منذ برجسون) . ولم يكن للمستر منكن [٣] Menken أى هوى لعصره أو أى أمل فى المستقبل ، حتى إذا أسفرت الحرب عن وحشيتها — وأسوأ من ذلك فى أكبر الظن مهزلة السلام — قبله آلاف من شباب أمريكا على أنه الناطق بلسانهم عما يشعرون به من ألم نحو العالم Weltschmerz وعن احتقارهم للحضارة الآخذة فى الزوال . ولم يكن ممكن لأوربا أن تستمع ، إلا بعد أن أفاقت من هموم العالم عقب الحرب ، لترجمة كسرلنج الروحية لبوذا وكونفوشيوس ، أو تنصت فى مثل هـــذه الثورة الفاترة لجزمه الهادىء بأن : « الحضارة القديمة فى مخاض الزوال » [٤] . ولا يتفق دين إنج مع هيلير بللوك إلا فى اعتقاد واحد هو أن الحضارة محكوم عليها بالزوال [٥] .

---

(١) ترنر (١٧٧٥ — ١٨٥١) مصور إنجليزى اشتهر بالتلوين المائى وألوانه الزاهية (المترجم)

(٢) اسمه أوزفالد شبنجلر ، ولقبه المؤلف باسم كسندرا إشارة للمتنبئة الأغريقية (المترجم)

(٣) هنرى لويس منكن صحفى أمريكى وكاتب وناقد ولد عام ١٨٨٠ ، واتهم فى أثناء الحرب العظمى بأنه يمالىء الألمان حين يراسل الصحف من الميدان (المترجم) .

(٤) Keyserling, Count H., The World in the Making, P. 118 ; Europe, pp. 371, 378.

(٥) Outspoken Essays, pp. 265, 269.

وثمة عوامل كثيرة كانت تعد الغرب لهذا المزاج غير المألوف من الامتهان . وكان هنرى أدمز يبشر بتشاؤم عميق يستند إلى عدم تحول الطاقة و « انحطاطها degradation ». وأحسن ماديسون جرانت البرهنة على أن السـلالة « النوردية (الشمالية) Nordic » قد استنزفتها الحروب ، وأضـعفها التزاوج ، وتفوق عليها جنس البحر الأبيض المتوسط ، وأنزلتها من عرش الزعامة الطويلة الثورة فى آسيا ، والديمقراطية فى موطنه . ثم صبغ لوثروب ستودارد[١] Lothrop Stoddard هذه الآراء بصبغة شعبية فى كثير من المهارة وقليل من الحذر . وضم الأستاذ مكدوجل صوته إلى أصوات الرثاء الجارية . وفى أثناء ذلك أعلن الأستاذ فلندرز پترى عالم الآثار المصرية المشهور ، دون أن يستشير هؤلاء القضاة العظام ، أن امتزاج السلالات هو التمهيد الذى لا بد منه نحو حضارة جديدة . ولكنه رأى كذلك فى الامتزاج الجارى بين الشعوب انحلال الحضارة الأوربية ، وذهب إلى أن الثقافة قد بلغت أوجها حول سنة ١٨٠٠ ، وأنها أخذت فى الموت مع الثورة الفرنسية . ولا بد من انقضاء أربعة أو خمسة قرون قبل أن تنتج هذه البوتقة الإنسانية سلالة ثابتة وتعود بذلك دورة جديدة من الحضارة [٢] .

ويلتفت شبنجلر كذلك متأسفاً إلى الوراء نحو الأيام التى سبقت الدكتور جللوتن [٣] Guillotin ، دون أن يشعر كما شعر روسو بأسواط وندوب النظام الإقطاعى على ظهره . وفى ذلك يقول : « لتقدير كيان الغرب تعـد سنة ١٨٠٠ حداً فاصلا يميز من جهة بين الحياة التى تشعر بنفسها شعوراً كاملا مؤكداً ، وهى حياة كان نموها من الداخل فى تطور لا انقطاع فيه منذ طفولة الغوط حتى جوته ونابليون ، ومن جهة أخرى بين حياة مدننا الكبرى وهى حياة خريف صناعية لا أساس لها تتخذ أشكالا أبدعها العقل . . . أصبحت مهمتنا اليوم مهمة الحفظ والتهذيب والتشذيب والاختيار ، بدلا من الخلق الديناميكى العظيم ، والعناية بالتفصيلات مما كان يميز رياضة العصر الإسكندرى فى العصر

(١) كاتب أمريكى ولد ١٨٨٣ اختص بالسياسة الأوربية (المترجم) .

(٢) The Revolutions of Civilisation, p. 128.

(٣) الدكتور جيلوتن (١٧٣٨ — ١٨١٤) هو الذى أشار باستعمال المقصلة (الجيلوتين) سنة ١٧٨٩ فى الثورة الفرنسية (المترجم) .

الهلينستى المتأخر . وإذا لم يستطع أحدنا أن يدرك أن هذه النتائج لازمة وغير قابلة للتغيير فعليه أن يغفل من حسابه كل رغبة فى فهم التاريخ (١) .

فنحن مقضىٌّ علينا ، أو بحد عبارة هذا الألمانى العنيد ، نحن مقضى علينا بحكم الضرورة الميتافيزيقية ، ذلك أن شبنجلر ليس فيلسوفاً برجماتياً ، فهو لذلك لا يعرف أن الحياة قد يكون فيها من الأسباب ما لا يستطيع المنطق أن يفهمها .

٢ — فناء الأمم

ومع ذلك فقضية شبنجلر قوية إلى حد كبير ، فهى لا تعتمد فى أساسها على الميتافيزيقا التى يمكن دائماً نقضها بهزة من الكتفين ، بل تقوم على التاريخ الذى لا يمكن دحضه حين لا يكون كاذباً . التاريخ الذى نجد الفناء مسطراً على صفحته . التاريخ الذى يبدو أن قانونه الأسمى هو تلك القاعدة التى يحفظها صبية المدارس من أن لكل شىء إذا ما تم نقصان . هذه المناحة على الرجال والدول ، وهذه الجنازة التى تسير فى موكب من الأجناس والحكومات ، هى الصورة التى تتكشف لنا فى تفصيل قاس من بحوث المفكرين فى القرن التاسع عشر . فلم يسبق للناس من قبل أن نقبوا مثابرين هذا التنقيب الكامل فى الماضى كما فعلوا فى المائة السنة الأخيرة . . . نابشين حضارات ميتة ، كاشفين عن أجساد عباقرة منسيين متخيلين أنهم يخاطبون ملايين من الجماجم المحترمة كما كان يقول هملت : «وا أسفاه يايوريك (٢) المسكين » . لقد خلف لنا هذا القرن الذى امتاز بالتقدم والمؤرخين طعماً من الحقيقة البعيدة عن الوهم ، ورائحة من الانحلال ، كميراث لقرن الطائرات والمذياع والغازات السامة .

أى منظر من مناظر القضاء والقدر يكشفه التاريخ . هنا نجد مصر العزيزة تبنى على الرمال إمبراطورية أعظم دواماً من أى عالم آخر متأخر ، وتقيم هياكل أفخم من معابد أوربا ، وتحكم جميع شعوب البحر الأبيض ، وتضرب ظهور الملايين من العبيد بالسياط ، وتحنط أجساد كهنتها وأمرائها فى « منازل الخلود » .

---

(١) Decline of the West, pp. 38, 90, 353.

(٢) Yorick هو مضحك ملك دنمرك فى رواية هملت ؛ وكان شخصاً واسع الخيال ، وكان هملت يخاطب جمجمته (المترجم) .

أيتها العبارة المسكينة ! فلم يبق شيء من سائر ذلك الخاود سوى شعور بيضاء نابتة على عظام خاوية . بل إن الأهرامات لتحمل معنى الموت . وأنت تجد الرمال تهب من الصحراء فتغرق تلك « الملاعب » playhouses القائمة على الخرائات والمشيدة من الحجارة ، وعلى الحكومة أن تنفق كثيراً من المال كل عام لإزالة تلك الرمال . حتى إذا عاد السائح من رحلته بعد أن يمسح الحبات الثقيلة التى نفذت إلى مسام وجهه ، تعجب ماذا يحدث لو أن الحكومة توقفت عن بذل المال فى تلك الأنحاء قرناً أو قرنين من الزمان ، وتصور الرمال تغطى تلك الآثار طبقة فوق طبقة إلى أن يختفى أعلى حجر فى أعلى هرم ، ولا تبقى بعد ذلك أى علامة من علامات العظمة والاستعباد مما كان يدل على مصر . ولعل هذا السائح يستعيد قصيدة شللى الرائعة الجليلة المسماة « أزمندياس Ozymandias » :

أخبرنى يا عائداً من دولة الزمان الغابر
ماذا رأيت ؟ حجران كبيران فى القفر الهاجر
بالقرب منهما تمثال يغوص فى الرمال ويرقد
يعلوه عبوس وتجهم والأمر وفم جامد
بوركت أيها المثال أحسنت درك المشاعر
أبرزتها مطبوعة فى الميت المتحجر
بقلب شغوف ويد الفنان الساحر
عبارة فى قاعدة التمثال نور تسطع
« أنا أزمندياس ملك الملوك الأرفع
انظر إلى آثارى أيها الجبار واخشع »
ولم يبق جنب بقية الحطام العارى المعبر
إلا الرمال وحيدة مبسوطة على مد البصر

أو اذهب إلى اليونان ، واصعد التل الذى يفضى إلى البارثينون . ثم استعد فى صفحة خيالك كيف أشرف إكتينوس ومنسيكليس مدة تسعة أعوام على بناء ذلك الهيكل المتواضع الرائع ، البالغ أقصى حدود التناسب والفن ، وقد صيغ كل خط فيه فى انحناءة تكاد تشاكل حرارة الجسد البشرى وانثناءه . واذكر

فيدياس وتلاميذه وكيف ظلوا تسعة أعوام يحفرون فى الرخام العصى صوراً تتشكل فى الأفاريز . . . صور قوم يبلغ من روعتها أن الناظر إليها لا يملك إلا التسامى قليلا فى العقل والخلق . صور أرباب فيها من العظمة والصفاء بحيث لا يعتقد من ينظر إليها أن قدماء الآلهة كانوا يسيرون سيرة العدوان والاغتصاب . وقد ظل ذلك الهيكل عدة قرون يتوج الأكروبوليس ، تزهو ألوانه فى ضوء الشمس . وكم من أجيال ارتفعت بالنظر إليه ، شاعرة أن الناس هنا كانوا كالآلهة ، ولو بعض الوقت .

ثم نشبت الحرب عام ١٦٨٧ ، واستولى الأتراك على أثينا ، فاتخذوا من البارثينون مخزناً لبارودهم ، وأرسل أهل البندقية السفن الحربية إلى الميناء فى بيريه ، فخربت المدافع البارثينون . وحين تبلغ قمة ذلك التل الذى يشبه الحرم المقدس كى تقدم فريضتك الصغيرة على ذلك المذبح الغابر من الجمال والعقل ، فلن تشهد البارثينون فى تمامه ، إذ لم يبق منه إلا أجزاء من الأعمدة العظيمة فى انتظار زلزال يعيدها إلى استوائها . غير أن معظم البارثينون يقع تحت أقدامك ، فى ملايين من الشطوف من الحجر الأبيض اللامع المقطوع من جبل بنتاليكوس . حتى إذا انصرفت عن المكان عجبت : أهذا هو درس التاريخ — أن يبنى الإنسان آلافاً من السنين بشقاء يده وعرق جبينه كى يحطم الزمان المجنون الباطش كل ما يبنيه ؟ ذلك أن الزمان طويل الأمد ، والفن سريع الزوال ، وأروع الأشياء هى أسرعها إلى الفناء .

وذهب البارثينون ، واختفت اليونان ، وظهرت روما فتربعت على عرش الأرض كالمارد العظيم ولم يدر بخلد أحد أنها تهوى . ومع ذلك فقد حطمتها أمور غير حسية مثل نسبة المواليد وإجهاد التربة ، ولم يبق منها إلا ذكرى الحكام المستبدين لنحاكيهم . وذهبت كريت ، وأرض الميعاد ، وقرطاجنة ، وأشور ، وبابل ، وفارس — وأصبحت تلك الدول أشبه بالآلهة الذين فقدوا عبادهم ، أو بالمعابد التى يزورها السواح دون أن تسمع قط أى صلاة . لقد حل الموت بها جميعاً .

ثم ظهرت أوربا — إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا —

فخلفت حضارة بلغت من القوة حداً لم يعرفه التاريخ من قبل ، وشيدت كنائس تنافس البارثينون ، وأبدعت علوماً أعظم من علوم اليونان ، وعزفت موسيقى لم تحلم بها العهود الغابرة ، وحصلت معرفة وقوة ونقلتهما من جيل إلى جيل عما لم يسبق له مثيل . وإذا شبنجلر يظهر فيعلن لأوربا المفتونة بالحرب : « إنك ميتة . إنى لألمح فيك كل وصمة من وصمات الانحلال . فأنظمتك ، وديمقراطيتك ، وفسادك ، ومدنك الهائلة ، وعلمك ، وفنك ، واشتراكيتك ، وإلحادك ، وفلسفتك ، بل ورياضياتك ، هى بالضبط تلك التى ميزت عصور الأفول فى الدول الغابرة . ولن يمضى قرن آخر حتى تلتمس الحضارة لها مركزاً بعيداً عنك . هذا هو عصرك الإسكندرى » .

ثم تظهر أمريكا ، وتبنى حضارة على أساس أوسع مما رآه العالم من قبل ، وتهدف إلى بلوغ مراق أعظم مما بلغه العالم قبل ذلك . ولكن إذا كان لنا فى التاريخ أى ثقة ، وكان للماضى أى ضوء يلقيه على الحاضر فهذه الحضارة أيضا ، تلك التى نرفع عمدها بهذا الكد المحموم والعناية الملهوفة ، سوف تفنى ، وبعد آلاف من السنين ستجد الوحوش تتجول مرة أخرى فى الأرض التى نعمل فيها اليوم .

هذه هى الصورة التى يراها المؤرخ فى المستقبل كما رآها فى الماضى . فهو ينتهى إلى هذه النتيجة : وهى أن هناك حقيقة واحدة مؤكدة فى التاريخ ، هذه الحقيقة هى الانحلال ، كما أن ثمة أمراً واحداً مؤكداً فى الحياة ، وهو الموت .

٣ — الاقتصاد والحضارة

إنها صورة كئيبة . فهلم بنا نر إذا كانت صادقة .

ولكن ما الحضارة ؟ إنها مزيج مركب من الأمن والثقافة ، من النظام والحرية : أمن سياسى قائم على الأخلاق والقانون ، وأمن اقتصادى يستند إلى استمرار الإنتاج والتبادل . وثقافة تنبت من تسهيل المعرفة والعادات والفنون ونقلها من جيل إلى جيل . والحضارة شىء معقد مزعزع يعتمد على عشرات العوامل التى قد يحدد أى عامل منها العظمة أو التدهور . وسنبذل جهدنا فى تحليل هذه الشبكة المعقدة ، فندرس العوامل واحداً بعد الآخر .

والعوامل الاقتصادية أساسية ، فالأرض تأتى قبل الإنسان ؛ ومع أن الإنسان يعدل بيئته بمقدار ما تغيره البيئة ، فيجب أن توجد البيئة أولا . والعوامل المناخية تقييد واضح يحدد إمكان الانتفاع بالأرض ، فتناقص سقوط المطر بشكل غير محسوس على مرّ الأجيال قد يقضى على حضارة ما ، كما حدث فى أشور وبابل ، أو فى الثقافة البدائية التى اكتشفها أندروز فى منغوليا . فالأرض الخصبة تنشأ عن مناخ معتدل . ومع ذلك فليست خصوبة الأرض شيئاً لا غنى عنه ، لأن اليونان والرومان شيدتا فى الأغلب على صخور ومستنقعات ورمال . ثم جاء فرسان روما فانتصروا على اليونان . وكان إجهاد الأرض هو الذى هزم الرومان . وكان استغلال التجار للفلاحين ، وما تبع ذلك من حلول المستأجرين محل ملاك الأرض ، وما نجم عن ذلك من إهمال الزراعة ، ما مزق كيان روما ، كما هو آخذ فى إصابة أمريكا . وعلى العكس من ذلك فإن أرض الصين التى تظهر غير مجهدة — ولعل ذلك يرجع إلى طريقة تسميدها الممتازة ولكنها غير العلمية — تفسر استمرار عودة الحضارة والثقافة إلى تلك الأرض القديمة والتى لا تزال بكراً . وليس من الضرورى أن تسير الحضارة فى طريق الغرب ، بل فى اتجاه الحقول البكر . ولما كان الإنسان يبدأ مسيره من المناطق الحارة ، فإن طريق الدول العظمى يتجه فى الأغلب شمالا وجنوباً . ولعلها اليوم تسخر من كل القوانين وتعود مرة أخرى إلى الشرق . ولكننا نرى فى كل مكان أن زراعة الأرض تسبق تهذيب النفس وتكون شرطاً له .

وتنتج الأرض المعادن كما تنتج الطعام . وقد يكون الذهب والفضة والحديد والفحم فى بعض الأحوال أعظم لمصير الأمة خطراً من القمح والغلال . وانجلترا أعظم شاهد على ذلك . وقد ضعفت اليونان عند نضوب مناجم الفضة فى لوريوم ، وضعفت روما بنفاد مناجم فضتها فى آسبانيا . وستشرع انجلترا فى الفناء عندما ينقل الفحم إلى نيوكاسل . ولعل الصين تتزعم حضارة العالم حين تستغل ثروة مناجمها المدفونة فى باطن أرضها . وقد لاحظ بروكس آدامز انتقال الزعامة الاقتصادية من إنجلترا إلى ألمانيا بعد الاستيلاء على الألزاس واللورين (بما فيهما من فحم وحديد) عام ١٨٧١ ، ونهضة الصناعة الأمريكية وتفوقها عقب اكتشاف

مناجم الفحم فى بنسلفانيا سنة ١٨٩٧ . وفى ذلك الحين انقضت أوربا على الصين لاقتسام فحمها ، واستولت أمريكا على الفلبين لتقوية سياسة « الباب المفتوح » . فالفحم ملك ، والبترول هو وارثه الظاهر ، وقوة الكهربا هى المرشح للعرش (١) .

ويبلغ الوضع التجارى والقوة التجارية من الأهمية مبلغ أى عامل من هذه العوامل الاقتصادية فى الحضارة ، إذ ينبغى أن تخترق الدولة بعض الطرق التجارية الهامة ، ويجب أن تقدم مراكز تتجمع فيها الأعصاب التجارية العالمية إذا شاءت أن تتمتع بالتسهيلات لذلك التبادل الخاص بوسائل الراحة والثقافة مما يحرك همة الشعب ويدفعه إلى الإنتاج . وقد نهضت اليونان بسبب الاستيلاء على طروادة والسيطرة على بحر إيجة . وارتفع شأن روما بهزيمة قرطاجنة والتحكم فى البحر الأبيض . وظهر فى أسبانيا سرفانتس وڤلاسكويز (٢) لأنها تقع فى الطريق إلى العالم الجديد . وظهرت النهضة فى إيطاليا لأنها كانت محط التجارة بين أوربا والشرق . ونمت روسيا تدريجاً لأن الطرق البرية حلت محل الطرق البحرية بعد العصر الوسيط ، ولم تستطع أن تظفر بالسياسة أو الحرب بالسيادة على البحار الداخلية التى تصب فيها أنهارها . وأخذت روما تموت حين اتخذ قسطنطين القسطنطينية عاصمته ، وأصبحت بيزنطة القديمة المركز المتوسط بين الطرق الكبرى الوافدة من روسيا وألمانيا والنمسا إلى الشرق الأوسط . وشرعت إيطاليا يأفل نجمها عندما اكتشفت كولومبس أمريكا . وكان تغير الطرق التجارية هو الذى نقل قبل أى اعتبار آخر زعامة الحضـــارة من البحر الأبيض إلى دول الأطلنطى الشمالية . وقد يحول تبدل النقل من البحر إلى الجو مراكز الثقافة الكبرى إلى داخل البر ، وذلك على طول الخطوط الجوية الموصلة بين المحطات التجارية . ومن يدرى لعل الطريق من « برلين إلى بغداد » (٣) لا يصبح حلماً من الأحلام ،

---

(١) كتب المؤلف هذا المؤلف قبل تقدم المباحث الذرية والتفكير فى استخدام طاقتها فى الأغراض السلمية اليوم (المترجم) .

(٢) سرڤانتس Cervantes (١٥٤٧ – ١٦١٦) قصصى أسبانى اشتهر بقصـــة دون كيشوت التى نشر الجزء الأول منها عام ١٦٠٥ والثانى ١٦١٥ – أما ڤيلاسكويز Velasquez (١٥٩٩ – ١٦٦٠) فهو مصور أسبانى مشهور كان فى بلاط الملك فيليب الرابع (المترجم) .

(٣) نلاحظ مرة أخرى أن المؤلف كتب الطبعة الأولى منذ زمن طويل ، إذ لم يعد الطيران اليوم بين برلين وبغداد مشكلة ، وبذلك تحقق ما تخيله المؤلف منذ ربع قرن فقط (المترجم) .

وتزدهر أراضى روسيا القاحلة تحت سماء يملؤها الأزيز عندما تصبح الصين أعظم منافس وعميل للغرب .

وآخر العوامل الاقتصادية هى الصناعة التى لا يسمح لنا تاريخها القصير ببيان اتجاه أثرها بياناً يعتمد عليه . فالصناعة تجلب الثروة ، وتجمع عدداً عظيماً من السكان الذين يدفعون الضرائب فى حيز ضيق ، وتمول العدوان الاستعمارى imperialistic ، وتهيء للسيادة السياسية . ولكن هل تفتح الصناعة الطريق للحضارة ؟ فالصناعة تعظم الكم ، وتهمل الكيف ، والمهارة الفنية ، والاختلافات الفردية . لقد كانت كل صناعة ذات يوم فناً ، واليوم أصبح كل فن صناعة . كان الناس يستخدمون قديماً فى «الصناعات manufactures [(١)] » صناعاً يدويين handicraftsmen ، وصناعاً فنيين artisans ، أما الآن فهم مجرد « أيد hands » فهل تجعل الآلات الإنسان ميكانيكياً ، وتبعد عن النفس صقالها من الرقة الروحية والنمو الروحى ؟ فهذه انجلترا الصناعية لا تماثل بأى حال أدب عصر إليزابيث أو العلم الخالص أيام دارون ، أوالرسم فى العصر الزاهى الذى بزغ على يد رينولدز وأفل مع موت ترنر . وظهر عصر ألمانيا العظيم مع ظهور فردريك ، وكانط ، وجوته ، وبيتهوفن ، وانتهى ببسمارك وفون ملتكه ، بالدم والحديد والفحم . أما فرنسا فقد كانت الصناعة فيها أقل من انجلترا وألمانيا ، وحضارتها أعظم . ومع أن عوائد الفرنسيين قد انحطت عن أيام ڤولتير الرقيقة الزاهية فإن العبقرية الفرنسية قد تفتحت فى كل عقد منذ ڤولتير . والآن حيث إن فرنسا قد حصلت على فحم وحديد الألزاس واللورين فقد تهجر هى أيضاً الفن فى سبيل الصناعة .

كلا ، الحق إنها التجارة ، لا الصناعة ، التى حركت عصب الحياة والفكر وأنتجت العصور السامية من الثقافة الأوربية . ومع ذلك فالصناعة ناشئة ، ولا ينبيء الماضى (مع الاعتذار لشبنجلر) عن مستقبلها . ومن يدرى لعل الثروة التى تنميها بسرعة عظيمة تهبنا أخيراً فراغاً للتفكير ، ووقتاً نتعلم فيه مرة أخرى فن الحياة ؟

---

(١) يلاحظ أن اسم المصنع فى اللغة الإنجليزية عبارة عن الصناعة اليدوية "Manu" (المترجم)

٤ — علم الحياة والحضارة

إذا وُجدت البيئة فلا بد أن يضاف إليها لتحقيق أغراض الحضارة سكانٌ حبتهم الطبيعة بتلك المبادأة والقوة مما تحتاج إليه الحياة فى التغلب على البداوة وتذليل « الوسط milieu » للأغراض النامية . ولقـد رأينا فى نظرية الأستاذ بيترى أن الحضارة الجديدة تستمد أصلها من الامتزاج البطىء لشعوب كثيرة اجتمعت على غزو بيئة واحدة . ولهذا الامتزاج نفس التأثير المجدد للشباب ، كما هى الحال فى تزاوج البروتوزوا ، حيث يقوى كائنان حيان بعد فسادهما وعجزهما عن الاستمرار فى الحياة ، ويعود إليهما الخصب بتبادل مادة النواة . وفى ذلك يقول بيترى : « تبدأ فترة أعظم مقدرة بعد ثمانية قرون من الامتزاج تقريباً ، وتستمر أربعة قرون أو خمسة » (١) . وهكذا نجد أن امتزاج الغـال والفرنجة وغيرهما من القبائل أيام كلوفيس وشرلمان قد سبق بثمانية قرون أول ازدهار بديع للحضارة الفرنسية على يد رابليه ومونتينى . وكذلك كانت الحال فى اختلاط الانجلز Angles ، والسكسون ، والجوتز Jutes وغيرهم مما كان سبباً فى تكوين الشعب الإنجليزى ، وقد حدث ذلك الاختلاط قبل ظهور شكسبير وبيكون بثمانمائة عام .

وهناك دول أخرى قد لا يظهر فيها التأييد الموفق لقبول هذه النظرية ، ولكننا قد نفترض أن الامتزاج الجنسى يؤدى من حيث الحضارة إلى أثر سيىء مؤقتاً ، وإلى أثر حسن فى النهاية . ومن المحتمل أن يقضى تزاوج العروق على الصفات الخبيثة فترة من الزمان ، ولكنه يقوى الصفات الموروثة والأساسية للجسم والعقل . هذه العملية الخاصة بإعادة النشاط تجرى أسرع فى البيئات الجديدة ، لأن الهجرة تميل إلى اختيار أفراد باطنهم القوة وظاهرهم الضعف ، أفراد يملكون ثقافة وحيوية كثيرة ؛ ونحن نرى أن الحكمة من ذلك فى أمريكا واضحة : « ففوضى دمائنا » هى السبيل الممهد لشعب جديد ، واستقرار جديد للروح ، وحضارة جديدة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

ولكن ماذا نحن قائلون عن النظرية المضادة التى يذهب إليها جوبينو ونيتشه وتشمبرلين وجرانت ، من أن التزاوج بين شعوب متميزة يفضى إلى إفساد الأخلاق وانحلال الحضارة ؟ نقول فى الجواب بكل بساطة إن هؤلاء المفكرين اللامعين قد وضعوا الذنب قبل الرأس ، لأن الفساد هو الذى أدى إلى التزاوج . فقد ظهر انحلال روما قبل غزو البرابرة بزمن طويل ، وتمتد جذور ذلك الانحلال فى الترف المخنث أولا ، وإنهاك قوى السلالة الرومانية القديمة ثانياً. فكان التزاوج مع الألمان ثمرة استنزاف الجنس لا علة له .

أما الجانب القاتم فى نظرية بيترى فهو أن الجنس كالفرد له حدود تنتهى إليها حيويته الفسيولوجية ، ويجب أن يمر بالضرورة بمراحل الطفولة والبلوغ والفساد . ويذهب الأستاذ بيترى بهذه الصورة التى يفزع لها قلب كل باحث إلى أن هذه الدورة من حياة الجنس وموته لها عصور ذات أطوال متساوية فى جميع الأحوال عملياً . ولكن الحياة تنفذ خلال جميع التعميمات العظمى. فالأجناس التى تفلح الأرض من الواضح أنها قد تستنفد عصوراً أطول من تلك التى تقطع العصور بسرعة لاهثة فى حضارات المدن الصناعية .

ولعل هذا هو سر الإنهاك الذى أصاب السلالة الوطنية فى روما ، إذ فقدت صحتها حين اقتلعت جذورها من الأرض ، وأقامت من الخاصة التى كانت تمتاز بالرجولة مدينة من الأثرياء الفاسدين ، والعامة العاطلين. والمدن ضرورية للمدنية ، تتبين حتى فى كلمة « المدنية Civilisation[1] » ، ولكنها تحمل فى طياتها الكثير من بذور انحلال الجنس . فالحرف المستقرة ، والبيوت الضيقة ، والشوارع المزدحمة ، والملابس الأنيقة ، والأطعمة الدسمة ، وتيسير أسباب العدوى والانحلال ، كل ذلك يتعاون على إضعاف الصحة حتى حين تقلل وسائل الصحة العامة والطب الوقائى نسبة الوفيات بين الأطفال وتطيل الحياة . وقد حصدت الأوبئة نصف سكان الإمبراطورية الرومانية تحت حكم الأنطونين [2] Antonines ، فتركت روما

---

(١) Civis باللغة اللاتينية تعنى مدينة (المترجم) .

(٢) الانطونين اسم يطلق على سبع أباطرة حكموا روما من سنة ٩٦ إلى ١٩٢ ، وهم نيرفا ، تراجان ، ادريان ، أنطونين ، مرقص أوريليوس ، ڤيروس ، كومودوس (المترجم) .

عاجزة أمام جحافل الألمان . وأفنى « الموت الأسود » [١] كثيراً من سكان إنجلترا حتى قضى على الإقطاع . ومن يدرى لعل البكتريا التى تهاجمنا فى صبر شديد قد تنتصر علينا ، ذلك أن أعظم أعداء الإنسان لا يمكن أن يرى إلا بالميكروسكوب.

وهناك عامل آخر أهم من هذه العوامل أثراً فى حياة المدن على مصير الجنس وهو التحكم الإرادى فى النسل . ذلك أن الأسر تصبح أقل عدداً كلما عظم اتساع المدن التى تختار مواطنيها أقل فأقل بطريق التوالد ، وأكثر فأكثر بطريق الهجرة من الريف والدول الأجنبية ، فتنقرض السلالات القديمة ، ويحل محلها أقوام أكثر شباباً . وهكذا توالد الرومان من أجناس غير أصيلة فانقرضوا ، ولم ينتصر عليهم جنود الجرمان بمقدار ما غزتهم الأمهات الجرمانيات . ومما يبعث على الفكاهة أن نجد قيصراً العظيم يكافح لوضع حد لهذا النضوب فى أصل الجنس بمكافأة الرومان الذين ينجبون كثيراً من الأولاد ، ومكافحة العقم بالزهو ، وذلك بتحريم المرأة العقيم لبس المجوهرات . وفرض أوغسطس عقوبات جديدة على العزاب ؛ ورفع معونة الأمومة إلى ألف درهم لكل طفل . وذهب قسطنطين إلى حد تقديم معونة حكومية لجميع الأطفال الذين يعجز آباؤهم عن تربيتهم [٢] . وكانت نتائج ذلك مماثلة لحملة تيودور روزفلت على « انتحار الجنس » . . . أى لا شىء . ذلك أن نسبة المواليد ستستمر فى الهبوط حيثما تجد الأسر قليلة الأبناء مزية اقتصادية على الأسر كثيرة العدد . الحق أن هذه الأمور لا تخضع للفلسفة [٣] .

أيؤدى هذا الهبوط فى نسبة المواليد إلى تدهور حضارتنا ؟ لقد سمع كل منا المتنبئين بمستقبل النسل يشيرون بأيد وأصوات مرتعشة من الخوف إلى الطبقات المتعلمة فى أمريكا التى يقل عدد أبنائها نسبياً ، كما يعرف كل متعلم النكتة التى تقال عن المتخرجين فى جامعة هارفارد الذين ثبت بالإحصائيات أن لكل منهم ثلاثة أرباع بنت ؛ والمتخرجين فى جامعة فاسار وللواحد منهم جزء من ولد .

---

(١) الموت الأسود هو الطاعون (المترجم) .

(٢) Simkhovitch, V. : Toward the Understanding of Jesus, pp. 126-9 ; Montesquieu, The Spirit of Laws, vol. ii, p. 13.

(٣) لعل عقم المدينة من النعم اليوم حيث يقلل مضاعفة الآلات الحاجة إلى الأيدى العاملة ، فيطرح ملايين العمال بغير عمل كل عام .

وليست الشكوى من أن الطب والرحمة « قد قضيا على الانتخاب الطبيعى » غريبة عن علماء البيولوجيا[1]. والنتيجة الذائعة هى أن السلالة تتوالد من أسفل، وأن النصف غير الصالح هو الذى يكاد ينتج الجيل التالى، وأن التعليم ضائع بسبب عقم الذكاء.

وهاهنا بعض الحق ولو أنه ليس بيولوجيا. فمن الواضح أن مهمة المربى تتضاعف لأن معظم أطفال الغد يتعلمون على أيدى أغرار الوقت الحاضر. فالتعصب والاعتقاد فى الخرافات، وضيق التفكير والرجعية، لا تزال مستمرة ومتخذة حياة جديدة عن طريق عقول الجهال الخصبة. وليس هذا من وجهة نظر البيولوجى بالمصيبة المفزعة كما تبدو للمربى. لأن المكتسبات الفكرية لا تنتقل بوساطة الصبغيات. وحتى أبناء « الدكاترة » يجب أن يعلموا، وأن يمروا بمحنة الاعتقادات والمذاهب، ولا يستطيع أحد أن يعرف مقدار القوى والعبقرية الكامنة فى المتبرمين والعجزة من أطفال الفقراء. ومن الناحية البيولوجية، الحيوية الطبيعية أثمن من الميراث الفكرى. ومن الناحية الاجتماعية، قوة الخلق أثمن من العلم أو المال. ومن النادر أن يكون الفلاسفة أفضل الناس الذين يخرج الجنس من أصلابهم. وكان نيتشه يظن أن أفضل دماء ألمانيا هى تلك التى تجرى فى عروق الفلاحين. وكذلك الحال فيما يختص بنا[2]: ولعله من الخير أن تكون المادة الإنسانية المقدمة للمربين صادرة عن بيوت تسود فيها قوة قد تستمر مدى الحياة وتنافس الجهل الذى يمكن تبديده بالتعليم. إن أى متحيز لن يرى الحل فى زيادة نسبة المواليد بين الأغنياء، بل فى تقييدها عند الفقراء. ينبغى أن نجعل وسائل منع الحمل مشروعة. وعلينا أن نتحايل لمنع ذوى العاهات من النسل، ويجب أن ننشر وعياً خاصاً بالنسل لنقضى على قصر النظر الموجود فى الزواج. وفى أثناء ذلك يمكن أن نلائم بين أنفسنا وبين عقم الطبقة المفكرة، بأن نثق فى البيئة والتعليم أكثر من ثقتنا بالنسب الموروث كى ننقل الحضارة ونبسطها. ليست الوراثة إلا عاملا ضئيلا فى السمو بالجنس. فالتطور ليس اليوم بيولوجياً بل اجتماعياً. عليك أن تقدم لنا سلالات صحيحة الأبدان وستحقق المدارس — إذا كانت أفضل — بقية المهمة.

---

(١) McCollum, E.V., The Newer Knowledge of Nutrition, p. 149.

(٢) يقصد المؤلف أمريكا (المترجم).

٥ — علم الاجتماع والحضارة

فالتقدم إذن لا يعتمد على أساليب الانتخاب بمقدار ما يعتمد على متانة نظمنا، لأن التقدم يقوم على التربية ونظام الحكم أكثر مما يستند إلى قضاء القوىّ على الضعيف . وأعظم شكنا فى المستقبل لا ينصبّ على أنساب أسرة إدوارد أو الجوكز (١) Jukes بل على الحالة الحاضرة للأنظمة الاجتماعية التى نظمت وغذت قروناً طويلة نمو الإنسانية . مثال ذلك الكنيسة ، والأسرة ، والمدرسة ، والدولة : كيف يسير التقدم معها باعتبار أنها حَمَلَةُ الحضارة .

ولقد فقدت الكنيسة ، كما نعرف جميعاً ، شطراً عظيما من ذلك التأثير الذى جعلها قديماً سيدة أوربا ، والذى احتفظ بها حتى بعد انقساماتها المتكررة عاملا هاماً فى التربية والأخلاق ينافس أقوى الدول. واليوم لم يعد عندنا أمثال هلدبراند، أو كلفن ، أو ويسلى ، أو حتى بريجام يونج (٢) . ولست تجد شخصاً يزعم لنفسه الحديث عن ضمير الشعب يستطيع سياسة السلطان كما يسوسها رؤساء الحكومات والملوك . ومنذ أن حقق لوثر الإصلاح الدينى بمعونة أمراء الألمان ، استولت الدولة شيئاً فشيئاً على أملاك الكنيسة وسلطانها ، وتأثرت قيادة الكهنوت الروحية تأثراً ملحوظاً .

هذا الذوبان للعقائد ، وهذا الانهيار السريع للجزاءات الدينية الخاصة بالأخلاق ، يعد فى نظر بحاث التاريخ ظواهر فى غاية الأهمية لفهم الحاضر والبصر بالمستقبل . ولم يتدهور الاعتقاد الدينى منذ أن لعب قيصر دور « الكاهن الأعظم Pontifex Maximus » كما تدهور اليوم . ولم يسبق لقانون أخلاقى فى أى شعب أن تعرض للشدائد والتغييرات كتلك التى تصيب اليوم الشريعة المسيحية القديمة . أتستطيع الدولة أن تحتفظ بالنظام الاجتماعى بدون التعاون مع الكنيسة ؟ أتستطيع الأخلاق أن تعيش إذا قامت فقط على التربية وانفصلت عن العقائد السماوية ؟ هل المدرسة الحديثة بديل كاف عن الكنيسة والبيت ؟ هل تنشر علماً بغير حكمة ،

---

(١) دراسة عن جماعة من الأخوات عشن فى نيويورك فى القرن الثامن عشر ، وسرن فى طريق الإجرام ، وصدر الكتاب عام ١٨٧٧ (المترجم) .

(٢) جماعة من المصلحين الدينيين ظهروا فى أوقات مختلفة (المترجم) .

ومعرفة بدون فطنة ، ومهارة بغير ضمير ؟ هل الأولى أن تعلم المدرسة توافقاً سلبياً وآلياً مع البيئة بدلا من تربية حاسة الجمال والعناية بالخلق ؟

أما الدين فسوف نتحدث عنه فيما بعد . وأما الأسرة فقد رأينا من قبل مظاهر انحلالها . ولقد كانت الأسرة الأساس الأول فى كل حضارة عرفها التاريخ ؛ كانت الوحدة الاقتصادية والإنتاجية فى المجتمع التى تضم أطراف الأرض. وكانت الوحدة السياسية فى المجتمع بما كان للأب من سلطة تعتمد عليها الدولة كصورة مصغرة . وكانت الوحدة الثقافية ، فيها تنتقل الآداب والفنون ، ويربى النشء ، ويعلم الشباب . وكانت الوحدة الأخلاقية التى تهيىء عن طريق التعاون والتأديب تلك الميول الاجتماعية التى تعد الأساس النفسانى والملاط للمجتمع المتحضر . كانت الأسرة من جهات كثيرة أعظم أهمية من الدولة : فقد تنهار الحكومات ومع ذلك يقوم النظام إذا بقيت الأسرة متماسكة . ومن أجل ذلك خيل إلى علماء الاجتماع أن الأسرة إذا انحلت اختفت الحضارة نفسها .

ولكن الدولة اليوم تنمو أقوى وأقوى ، على حين تمتحن الأسرة بتحول خطر من مساكن إلى منازل ، ومن طفل يتعلق بأبيه إلى مجرد ربيب . حقاً لايزال الرجال يتصلون بالنساء ، وينسلون من وقت إلى آخر ، ولكن الصلة الجنسية ليست هى الزواج دائماً ، وليس الزواج هو الأبوة دائماً ، وليست الأبوة هى التربية غالباً . ذلك أن حرية الاتصال والانفصال تجعل عمر الزواج قصيرا ، وقضت الاختراعات على نصف الأبوة ، وأخذت المدرسة الطفل من أحضان أمه ، وسلبت الدولة سلطة الآباء . وأصبح المعلم والشرطى يبذلان وسعهما فى إعادة نظام البيت القديم . وفوق هذا كله ، حلت الصناعة محل الزراعة ، واتخذت الحرفة الفردية مكان العمل الجمعى فى الحقول . ويقوم اليوم صوت الفرد الانتخابى مكان الجماعة فى القرية ، والاجتماع فى المدينة ، والوحدة الزراعية ، وغير ذلك من صور النظم السياسية القائمة على تمثيل الأسر بوساطة رؤسائها . ولم يبق من نظام الأسرة القديم إلا منزل للنوم ، وعاطفة لا يعوّل عليها تصل بين الرجل والمرأة ، وبنين وبنات يجتمعون بمأوى شبابهم . لقد تركزت مسئولية النظام الاجتماعى كلها فى الدولة ، وأصبحت المسئولية واقعة عليها .

ولكن الدولة أهى من القوة ومن التمكن الاقتصادى والخلقى بحيث يمكن أن تتحمل وحدها جميع مسئولية حفظ وتنمية ونقل ذلك التراث الجنسى من المعرفة والفضيلةوالفن مما يكوّن لحمة الحضارة وسداها ؟ أم أن الدولة بما لها فى الوقت الحاضر من جهاز سياسى تقع آلياً فى أيدى أناس من الطبقةالثانية والثالثةء المعرفة عندهم لعنة ، والفن سرغامض ؟ لم كانت أكبر المدن فى أمريكا محكومة بأصغر رجالها ؟ ولماذا كانالطريق إلىالوظائف منحصراً فى «الهيئات organisations » الحالية من فنالسياسة والوطنية والضمير ؟ ولماذا انتشرت الرشوة والتزوير الانتخابى وابتزاز أموال الجماهير إلى الحد الذى أصبحت فيه أى دعاية صحفية عاجزة عن إثارة الامتعاض وتحريك الهمم إلى العمل ؟ لماذا كانت وظيفة الحكومة الرئيسية اليوم هى قمع الجرائم أو الحماية منها ، والإعداد للحرب فى الفترة الواقعة بين معاهدات السلم ؟ أهذا هوالنظام institution الذى يجب على الكنيسةوالأسرة التسليم له برعاية الحضارة ؟

ومرة أخرى نقول : إن فى الثروة العظيمة من الخطورة بمقدار ما فيها من المعونة للجماعة . لأن قدرات الناس ما دامت متفاوتة ، فإن الثروات تصبح متفاوتة أكثر فأكثر ،عندما تضاعف الاختراعاتوالنظام الآلى قوة ذوى العقول الموجهة والمدبرة . ثم تتسع الفجوة بين الطبقات ، ويجهد الجسم السياسىكالحال فى انقسام الخلية . وكلما تزايدت الثروة هدد الترف حيوية الجنس الجسمية والخلقية . فيقل التماس الناس تحقيق أغراضهم بعمل أيديهم ، ويزيد التماسهم لها فى إشباع لذات الجسد ، وتحل متعة التسلية محل بهجة الابتكار . ثم تنحط الرجولة ويزيد الإقبال على المسائل الجنسية ، وتكثر الأمراض العصبية ، وتظهر طائفة المحللين النفسانيين ، وينحل الخلق ، حتى إذا أصيبت الأمة بأزمة أصبحت فى ميزان القدر . أو كما صور الأمر منذ بضعة أعوام كاتب ناشىء فى كثير من الدقة وفى مزاج من الشاؤم الرزين ، فقال :

« التاريخ عملية للعود إلى البربرية . فالشعب الذى تقويه ظروف الحياة الطبيعية ، وتسوقه مطالب العيش المتزايدة ، يترك موطنه الأصلى ، ويتحرك نحو شعب أقل قوة ، ويغزوه ، ويزيحه من مكانه أو يمتصه . ثم سرعان ما تولد

عادات العزيمة والنشاط التي كانت تنمو في بيئة أقل قسوة فائضاً اقتصادياً . ثم يولد هذا الفائض طبقة فارغة leisured class تحتقر النشاط الجسدي وتنغمس في فنون الترف . ثم يولد الفراغ التأمل والنظر ، ويحلل التأمل العقائد وينخر عظام التقاليد ، وينمي حساسية البصر ، ويحطم عزيمة العمل . ويكتشف الفكر المغامر في متاهة من التحليل الفرد خلف المجتمع . وينحرف الفكر عن وظيفته الطبيعية وينعطف على نفسه فيكتشف النفس . ويضعف الإحساس بالفائدة المشتركة ومصلحة الدولة . فلا يوجد الآن مواطنون بل مجرد أفراد .

وإذا بشعب آخر بعيد يعيش مكافحاً بيئة قاسية ، يرى هنا غابات اقتلعت وطرقاً معبدة ، ومحاصيل وفيرة ، وترف الفراغ ، فيحلم ، ويطمح ، ويجازف ، ويتحد ، ويغزو . وهكذا دواليك » (١) .

٦ — استمرار الحضارة

هذه هي عوامل المشكلة ، وهذه هي الشكوك المتعلقة بمصيرنا . فماذا نحن قائلون الآن حين نواجه مسألة التاريخ الكبرى ؟

فلنضيق أطراف البحث : نحن لا نسأل هل يجب أن تفنى الأرض — والمفروض أنها ستفنى . ولا نسأل أتدوم الأمة أو الجنس أو النوع إلى الأبد — والمفروض أنها لن تدوم . ولكننا نسأل أيمكن للحضارة أن تحفظ إلى الأبد ، أم أنها مقضيٌ عليها بتكرار الفناء ؟ . ليست الحضارة شيئاً مادياً يرتبط ولابد ببقعة معينة من الأرض ، ولكنها مزيج غير محسوس من الأعمال الفنية والمبدعات الثقافية ، التي إذا أمكن نقلها إلى الموطن الجديد للقوة المادية ، حفظت الحضارة إلى حد كبير ، وعاشت حياة حقيقية فعالة منتشرة زمناً طويلا بعد فناء الدولة والجيش والساسة ورجال الأمن الذين سهروا على رفعها .

وفي ضوء هذا المعنى المحدود ليس من الصحيح أن الحضارات تموت ، بل الأمم والشعوب هي التي تموت . فالحضارة اليونانية لم تمت ، كل ما في الأمر أن الأرض التي كانت تغذي في الماضي هوميروس والإسكندر لم تعد خصبة بالعباقرة . فالحضارة اليونانية ليست هناك اليوم ، ولكنها تعيش في بلد آخر ، في ذلك العالم الروحي الذي هو ذكرى ذلك الجنس : فلايزال هوميروس ينشد سخط

(١) Philosophy and the Social Problem, p-7.

أخيل ، والإسكندر يزحف إلى نهر الكنج ؛ ويوقع هزيود الشاعر عظاته الريفية ، ويتوج بندار بأكاليل من أشعاره جبين الرياضيين ؛ ويشرع سولون ويتعلم ، ويصوغ كليستينس الديمقراطية ؛ ويستمع بركليس لأنكساجوراس ، ويجلس مع سقراط عند أقدام أسباسيا ؛ ويقذف أسخيلوس بتحدى بروميثيوس الأبدى للسماء ، ويستدر أوربيدس دموع المنتصرين وأهل طروادة الذين ذبحهم المنتصرون ؛ ويمشى أفلاطون بهدوء بين تلاميذه فى أكاديميته الخالدة حيث يستمع إليه اليوم مئات الألوف من الطلاب كل ساعة بشخصه الذى استحال ألفاظاً ؛ ويحمل ديوجينس مصباحه بصبر ، ويصنف أرسطو الكون ؛ ويخاطب زينون عبر القرون أوريليوس ، ويمشى أبيقور إلى جانب لوكريتيوس ؛ وتقرض سافو اللسبوسية الشعر مع أناكريون ، ويراقب أقليدس الإسكندرى أرشميدس وهو يرسم الأشكال الهندسية فى حصار سرقوسة . ليس هذا موتاً ، بل حياة الجنس وروحه ذاتهما.

إن الذاكرة لتتخطى مثل هذا الموت ، وذاكرة البشرية اليوم أوكد وأكمل من أى وقت مضى . لقد نقلت الكتابة ذاكرة الجنس نقلا ضعيفاً ، وتنقلها الطباعة نقلا أحسن ؛ وتستغل المدارس الذاكرة وتخزنها لجميع الناس . وفى كل يوم تبتكر وسائل عجيبة جديدة لمساعدتها ، مستخرجة صوتاً من القبور يغنى للأجيال ، لاقطة مناظر أو كلمات منذ اللحظة التى حصلت أو صدرت فيها ، وتحملها بعيداً ، عبر القارة ، كى تنعش ذكرى كثير من الناس بما نطقوا به من أقوال هامة .

أجل تموت الأمم . فالمناطق القديمة تصبح جدبة أو عقيمة ، فيلتقط الإنسان آلاته وفنونه وينتقل حاملا معه ذكرياته . وإذا كان التعليم يعمق ذكرياته ويوسعها ، فإن الحضارة تهاجر معه ، وكل ما فى الأمر أنها تغير موطنها ؛ ولا يحتاج الإنسان فى الأرض الجديدة أن يبدأ بداية جديدة كل الجدة ، ولا أن ينمو بغير معونة صديقة ، فوسائل المواصلات والانتقال تربطه بالأرض التى ولدته كأنها المشيمة التى تغذيه . وبذلك تقوم معونة الأبوة العظيمة التى تقدمها «الدولة الأم» للمستعمرات مقام المعونة الأبوية للشباب فى طفولة الإنسان: تحميه وتعلمه، تنقل إليه أسرار الأخلاق والحكمة والفن . الحضارات هى أجيال روح الجنس .

وحتى حين نكتب ونقرأ ، فالطباعة والتجارة والأسلاك وأمواج الأثير وأرباب الهواء الخفية توحد بين الشعوب والثقافات ، وتجعل العالم كله شيئاً واحداً ، وتحفظ للجميع ما يستطيع كل أمرىء أن يقدمه .

لم تعد الحضارة فى حاجة إلى الموت ، ولعلها ستعيش حتى بعد فناء الإنسان ، فتنتقل وترتفع إلى جنس أرقى .

٧ — المستقبل فى أمريكا

إذا شئنا أن نناقش الموضوع مناقشة أكثر وأخص فعلينا أن نفصل بين أوربا وآسيا وأمريكا ، وننظر إلى مطمع كل منها على حدة ، فنجد فوارق حتى فى داخل أوربا ؛ فالحظ يلتفت بوجوه متفاوتة إلى انجلترا والقارة ، إلى روسيا والغرب ، إلى تركيا فى شبابها الثانى وإيطاليا فى زهوها الجديد والمثير. وأكبر الظن أن مجارى المياه المتدفقة فى جبال الأبنين المعدة لتوليد القوى الكهربية ستزود إيطاليا بالثروة التى تنفق منها على « نهضة » أقل من عصر النهضة . والأرجح أن روسيا ستفلح فى تحويل عدد كاف من الفلاحين إلى معدنين ، وفنيين ، وعمال السكك الحديدية ، وصناع ، لاستخراج المعادن الغنية من باطن أرضها ، وإقامة نظام ثابت من الصناعة ، لتتبوأ مكانها بين « الدول العظمى » فى العالم [1] . ولابد أن تمكن صحة الفرد والمجتمع فى ألمانيا على الرغم من التعويضات المفروضة عليها من استعادة الزعامة التجارية التى كانت قد بلغتها عند نشوب الحرب [2] . وإذا لم يستطع ساسة إنجلترا البارعون أن يخدعوا القوانين الاقتصادية ، فستفقد أكثر فأكثر تجارتها الخارجية ، وتواجه أكثر فأكثر البطالة والفقر ، وتنفق حيويتها فى الانقسامات والفتن ، وتجد نفسها وقد وقف منها « الشرق » المتجدد الشباب موقف التسامح والتجاهل .

كلا ، من المستحيل أن ننظر إلى الحظوظ جملة ، فالمستقبل له أكثر من وجه للدول الكثيرة . وإذا وجب أن نذكر مصير القارات ، فمن اليسير القول

---

(١) نلاحظ مرة أخرى أن المؤلف كتب هذا الكلام منذ ربع قرن ، فكأنه كان يتنبأ بمصير روسيا الذى بلغته الآن من التصنيع والقوة (المترجم) .

(٢) المقصود حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ (المترجم) .

بأن الإنجليز والفرنسيين فى طريق الخسارة ، أن الألمان والروس فى سبيل الكسب. وأن أوربا تخسر ، وآسيا تكسب . وأن أمريكا فى شباب عمرها . حقاً التغير بطىء ، ومع ذلك فلن يسدل الستار على هذا القرن حتى تؤسس الصين نفسها دولة صناعية تضاهى أى دولة فى أوربا ، وحتى تنتقل أمريكا من النزعة التجارية إلى التعلق بالثقافة ، ومن حب الغنى إلى عشق الفن ، ومن السياسة إلى صناعة الحكم .

وليست النزعة التجارية ، كما ظن شبنجلر ، نذير الانحلال ، اللهم إلا بالنسبة للأرستقراطية الزراعية التى قد تحل الطبقة التجارية محلها . إنها فترة انتقال من التقاليد المستقرة فى العصر الزراعى إلى الثقافة الفعالة فى مدن مثل أثينا فى عصر بركليس ، أو روما زمان أغسطين ، أو فلورنسا أيام المديتشى ، وهى مدن تسود فيها التجارة والصناعة ، وقد تحررت منذ عهد طويل من سلطان أرستقراطية الأرض . فالريادة ، والتجارة ، والثقافة : هذه هى مراحل الحضارة السائرة نحو النضوج . وإذا نظرنا إلى هذه الثلاث مجتمعة فكل منها مغتفر ؛ لأن كلا منها ضرورى . فأول كل شىء يجب أن تقتلع الغابات ، وتبذر البذور ، وتستخرج المعادن والوقود ، وتبنى البيوت ، وتعبد الطرق ، وتدار ملايين من العجلات . ثم يجب أن يفيض فائض ، وفراغ ، قبل أن يتمهل الناس لقرض الشعر ، أو نحت التماثيل ، أو تأليف الموسيقى ، أو التفكير فى الفلسفة . فلنعش أولا Primum est vivere ، كما يقول المثـل اللاتينى . ومن الخير أن نخجل من ازدهار لم يتعلق بعد بالفن ، فهذا الخجل هو الباعث القوى الذى لعله قد ينقلنا من التعلق بالثروات إلى الحضارة . ولكننا لا يجب أن ننفخ فى هذا الشعور بالنقص الثقافى حتى يصبح مرضاً موهناً . ومن الخير أحياناً ألا نتأمل كنائس أوربا ومنتدياتها فقط ، بل مذابحها ، وفرقها الدينية والجنسية ، وأسلحتها وجيوشها . وألا نرى فى أمريكا تلك الثروة التى يحسدها عليها جميع الأوربيين والتى يطمع كل المفكرين فى اقتسامها ، بل سخاء أغنيائنا الذى لم يسبق له مثيل على التعليم ، وشغف شعبنا شغفاً لا يبارى بالمعرفة والآداب ، وتطلعه إلى كل باب يفضى إلى التراث الثقافى لجنسنا .

ولم يزر شبنجلر أمريكا قط ، فهو يكتب مستنداً إلى جدار قارة محمومة

ولعلها جرحت جروحاً مميتة بالحرب ؛ وهو لا يستطيع أن يرى فى أمريكا أن علامات الشباب وأخطاءهم تزيد على علامات الانحلال . ويعرف كل مثقف من النظر إلى التواريخ المماثلة أننا لا نزال فى شباب أمتنا : فلم يكد يمضى ثلثمائة عام على وفود الآباء الحجاج ، ومائة وخمسون عاماً منذ أن تأسست حكومتنا . ومن المضحك أن يتوقع أحدنا الفن أو الذوق من بلد غير ناضج ، كما أنك لا تتوقع أحكاماً صحيحة ميتافيزيقية أو سياسية من الشباب . ويجب أن يصاب النمو بأمراضه وأن يفاخر بخطاياه .

ولم يسبق لحضارة أن وجدت مثل هذه القاعدة الاقتصادية معدة لها : فيها مناخ محرك للهمم يوجد فيه كل الاختلافات المفيدة . وفيها أرض خصبة لا تزال قادرة على إنتاج أضعاف محصولها الحاضر حين تزرع وتروى علمياً . وفيها أرض تكاد تكون غنية بكل معدن ، وتفيض بزيت الوقود . وفيها سكك حديدية تنافس مثيلها فى العالم ، ولا تزال تتحسن كل يوم ، وفيها طرق مائية لم تستغل بسبب منافسة السكك الحديدية ، ولا تحتاج إلا ليد حرة تجعل منها طرقاً ليس لها مثيل . فيها مصانع كاملة العدة شامخة فى الجو بشكل أنيق . وفيها مخترعون أكثر تنظيما وأفضل إدارة من أى مكان فى الخارج . وفيها جوابون وطيارون يكتبون الملاحم والأغانى وهم فى الجو . وفيها أصحاب المال الذين يقدمون ذهبهم راجين الصناعات فى استغلاله . وأخيراً فيها حكومة اقترنت بالعلم وارتفع فيها فن الحكم . فماذا نحن فاعلون بهذه الثروة الطيبة كلها ؟

لعلها تفضى بنا إلى الخراب . ولنصارح أنفسنا مرة أخرى لخير أنفسنا : الثروة وحدها لا تجعل الأمة عظيمة . فقد يمكن أن تحطم الأسرة بدلا من بناء البيوت . ويمكن أن تفسد الحكومة بدلا من حماية الفنون . يمكن أن تسعى وراء القوة بدلا من الحكمة ، والفظاظة بدلا من الأدب ، والترف بدلا من الذوق . يمكن أن تقدم لنا روما الفاسدة كما تقدم لنا اليونان المبدعة . فأى هذين سيكون مصير أمريكا ؟

ما مصير « بيوتنا المتعددة اللغات » ؟ كان ماديسون جرانت على حق فى زعمه أن : « الحكومات الأوربية انتهزت الفرصة لتلقى على كاهل أمريكا المهملة

الغنية المضيافة نفايات سجونها وملاجئها » . وهذه إحدى المزاعم الضخمة التى تكون السر فى الأسلوب القوى . ونحن نتخلص من مثل هذه الأقوال بالموافقة على نصف ما فيها من حق . لقد كان بعض المهاجرين إلينا من الطبقة الأرستقراطية وكان البعض الآخر مجرمين . ولم تكن الفئتان متميزتين تماماً ، ومن المحتمل أنهما الآن قد انقلبتا . ثم إن البيئة والظروف تتلاعب كثيراً بالوراثة : فلا يمكن القول إذا كان اللصوص أو البارونات الذين وفدوا إلينا هم الذين خلفوا أبدع السلالات أو أسهموا أكثر من غيرهم فى تقدمنا .

لقد أخذ الأنجلوسكسون يفقدون سلطانهم القوى فى هذه البلاد ، فذهب نفوذهم القديم فى سياسة المدن وأخلاقها وفى الأساليب الأدبية . ولم يعن الأنجلوسكسون بتكثير النسل كغيرهم من منافسيهم ، إذ كانوا يرون أن صفاتهم جديرة بالاحتفاظ بقوتهم وهيبتهم . ولكن الزمن هزمهم وخلف لهم الغاية المفقودة . لقد ولى زمان السلالة المتسقة التى أنتجت عصر نيوإنجلند فى تاريخنا الثقافى . وستمر عشرات من السنين قبل أن يماثل المهاجرون المتأخرون أسلوب إمرسون ومادته ، أو لطافة البيت فى نيوإنجلند واحترامه . يجب أن تمر فترة غليظة من البدع واللهجات البربرية حتى تتبوأ السلالات المتقدمة شأنها ومكانتها . وفى النهاية سيبرز جنس جديد ، ولغة جديدة فى أكبر الظن ، وأدب جديد بكل تأكيد . إن أنواع البحر الأبيض العاطفية والفنية التى تمتزج الآن بالمتطهرين ذوى العزم والتوكل ستخلف لنا فى المستقبل عناصر الخلق والشعور التى نحتاج إليها . وستصب مئات أخرى من الشعوب حيويتها فى المجرى ، فيكون عندنا جنس غنى بخلاله التى وهبته أوربا إياها ليحكم ، جنس فيه هذا التركيب فى الوحدة مما يجب أن تتصف به الأمة ، إذا كان لها أن ترث حضارة العالم وتعمل على استمرارها .

لقد عادت إلينا البربرية عن طريق الهجرة والديمقراطية ، كما عادت البربرية إلى أوربا بالحرب والثورة . غير أنه فى حالتنا بدأت تظهر بوضوح حركة صاعدة نحو جنس جديد وثقافة جديدة . ولا يقع مصيرنا كما يذهب الماركسيون فى البيئة الاقتصادية والظروف وحدها ، بل فى أيدى قادتنا فى الصناعة والحكم والفكر . وعليهم أن يختاروا .

وقد يمكن للتشريع الحكيم أن يهبنا تلك الحرية الخاصة بالفكر والقول — شجاعة الرأى الأثينية parrhesia ، أو حرية مناقشة كل شيء — وهى ضماننا الوحيد ضد العودة إلى نفوذ روما البربرى . وقد يمكن للقيادة الحكيمة أن تصلح مساوىء نظام المصانع بتقليل عدد الساعات ، وإحلال قوة الكهربا النظيفة محل الفحم والقذارة ، ودفع الصناعة إلى الريف ، وتحسين الأبنية بجمال الهندسة وحسن المنظر من الخارج ، وبالأضواء والتعاون اللذين بعثا فيها البهجة من الداخل. وقد يمكن لتخطيط المدن الحكيم — بالإضافة إلى معونة المواصلات الجوية — أن ينثر الملايين من سكان مدننا فى الضواحى حيث الحقول والمياه الجارية ، فتستعيد البيوت نفوذها الأخلاقى ، وتنقذ صحة الأبدان والعقول المنهكة مما فى المدينة من ضوضاء وسرعة . وقد يمكن للإحسان الحكيم أن يفتح لنا طرقاً جديدة تسهل نقل وتنمية قيم الجنس الثقافية . زود مدارسنا وجامعاتنا بكل حاجياتها . ارفع رواتب المدرسين ابتداء من مدرس القرية إلى أعلى أستاذ فى كراسى الجامعات . حسن تجارب التربية بغير عائق أو خوف . امنح آلاف الجوائز ومئات الآلاف من الهبات الدراسية لتشجيع المنافسة والدراسة والابتكار . أعن العلم بسخاء فى مجال البحث ، وراقبه مراقبة دقيقة فى ميادين الصناعة والحرب. دع المؤسسات والشركات تترك الفنانين أحراراً فى تصميم معابد التجارة وهياكل التعليم ، وهى التى سوف يمتاز بها فن البناء فى عصرنا . دع عظماء المصلحين يرفعون الشعب بالتعاليم المعقولة ، والموسيقى الراقية التى تذاع كل مساء على أمواج الأثير .

* * *

فى الوقت الذى كنت أكتب فيه هذه السطور كانت موجات من الموسيقى الرائعة تتصاعد من غرفة الطابق الأول . فلنفتح الباب وندع هذه الأنغام تدخل. إنها المقطوعة الثانية من السمفونية السابعة . لا يمكن للسماء أن توقع أعذب من هذه الأنغام . ما هذه المعجزة التى تنقل الكلام الدفين من قلب رجل عظيم مات منذ أمد طويل ، عبر حواجز الزمان والمكان ، إلى ملايين الأنفس المترقبة لمسة العبقرية حتى تشفيها وتسمو بها ؟ إنها موسيقى رائعة ، اجتمعت فيها آلام آلاف من السنين ، وما فيها من شوق وحنان .

ثم تصمت الموسيقى . ويدق جرس التليفون : إنه صديق يرغب فى الحديث عن هذه القطعة الجميلة الغامضة التى عبرت السماوات لتملأ بيته البعيد ، هـذه الموسيقى الغريبة التى نظمها رجل قد مات ونسمعها فى جوف الليل باعثة التصفيق إلى أيد لا حصر لها . ولا تزال الحجرة تهتز بأصوات التصفيق . إننا لنرى المسرح Stadium — حيث عشرون ألف شخص فى المقاعـد ، فى سـواد وبياض أشبه بزهرة هائلة متفرعة . وفتيات يجلسن بحذر وغبطة على الأفاريز العاليـة . وشبان مشرقون نظيفون نشطون على استعداد أن يستوعبوا من الحضارة ما يمكن أن نقدمها لهم . وموسيقيون أنهكهم التوتر ولكنهم مع ذلك فى غبطة للصلة ببتهوفن . وفى السماء تلمع النجوم التى أشرقت على مسرح ديونيسوس ، وفى الشوارع تسمع تلك المشية الخاصة بليوناردو.

فلنتوجه بقلوبنا إلى الله شاكرين حامدين .

الجزء السابع

الفلسفة السياسية

الفصل السابع عشر

فى امتــــداح الحرية

١ — الشراب والحرية

إنها لأعجوبة لم تلحظ كما ينبغى ، وهى أن يمشى انتصار نزعة المحافظة فى سياسة العالم واقتصادياته إلى جانب انتصار نزعة الحرية فى الدين والأخلاق ، والعلم والفلسفة ، والأدب والفن . لقد انتخبنا حكامنا رجالا يمثلون باحترام أرباب الصناعة المستقرين . وأغفلنا إلى حين كل تفكير فى تجربة العلاقات بين السيد والمسود . لقد خلعنا ضرباً من الشعبية الغامضة على الموظفين الذين يعد الخجل فضيلتهم الوحيدة . على حين بلغ احتقارنا الثوار والمصلحين حداً جعلنا نقف عن اضطهادهم . وعواصم العالم وحكوماتها فى أيدى الحذر ، ولا يصيبها التغيير إلا فى ظلمة الليل فى الخفاء (١) .

ومع ذلك فمن العجيب أنه فى نفس الوقت الذى نبتعد فيه عن الحديث فى الميدان الرسمى ، توجد فى مدننا من الفوضى فى التجديد الخلقى والأدبى ، ومن الاطراح الشديد للإيمان والنظام القديمين ، ما يجعل رءوس الشيوخ تهتز فزعاً ، وأصابعهم تشير إلى فساد الإمبراطورية الرومانية . ويظن العلم أنه كسب المعركة مع القديم البالى ، ويسير فى نشوة ظفره مرحاً نحو دجماطيقية ميكانيكية تحسن إلى كل شىء ما عدا الحياة . أما الشباب فإنه سائر فى الطريق لأنه مغمور بالثروة والفرص ، ولأنه يثابر على الكتابة التى تملأ أنهار الصحف . وقد خرق الأدب كل قاعدة وكل سابقة ، وأصبح أعظم النقاد احتراماً يقرظ أفحش التجارب . ولم يعد أحد يجسر على الإعجاب بالأدب الكلاسيكى ، وأصبحت البدعة الجارية

---

(١) كتبت هذه الصفحات عام ١٩٢٧ .

أن تكون ثورياً فى الشعر والتصوير كما تصوت فى جانب التفاهة mediocrity والرجعية . واكتشف المسرح فجأة جمال شكل المرأة الإلهى . وانقطعت ملاهى الليل (الكباريهات) بذوق رفيع « للعرى الفنى » وأصبح . الكحول الذى كان ذات يوم ذا سمعة سيئة موضوع كل حديث ، ولازمة كل بيت أنيق . وهذه نظرة عجيبة تجمع بين الدولة ذات السلطان الكامل والفرد المتحرر .

كيف نفسر هذا الشذوذ المضحك ؟ هو من بعض الوجوه نتيجة ما عندنا من ثروة : فالغنى نفسه الذى يجعلنا محافظين بجبن فى السياسة هو الذى يجعلنا أحراراً فى الأخلاق بشجاعة . فعندما تمتلىء الجيوب بالمال يصبح من العسير على المرء أن يكون زاهداً ، كما من العسير أن يكون ثائراً . لم يمت مذهب التطهير Puritanism بفعل بروميد الزئبق ، بل قتله الذهب والفضة .

ومن بعض الوجوه الأخرى ينشأ الموقف من تناقض قلوبنا : فالنفس ذاتها تتعطش لرخصة الحرية وأمن النظام ، والعقل نفسه يحوم متردداً من القوة إلى الخوف بين الزهو فى حريته والثقة فى رجال الأمن . هناك لحظات نكون فيها فوضويين ، وأخرى مثالا للنظام . وفى أمريكا — أرض الأحرار وموطن الحرية — يسودنا بعض الخوف من الحرية . كان أجدادنا أحراراً فى السياسة ، وثابتى العزم فى الأخلاق . كانوا يحترمون الوصايا العشر ويتحدون الدولة . ولكننا الآن نؤله الدولة ، ونخرق الوصايا العشر . إننا من أنصار اللذة (إبيقوريون) فى الأخلاق ، ولا نخرج إلا نادراً على القانون . إننا عبيد فى السياسة ، وأحرار فقط فى تجرع الكؤوس .

ومما يلفت النظر أن الأمريكى إذا تحدث عن فساد الحرية أشار إلى معدته أكثر مما يشير إلى عقله . وقد اتفق اتحاد العمل الأمريكى على التهديد بالثورة منذ بضع سنين ، لا بسبب حرية الاتجار بل للمطالبة بتقييد المحلات التجارية . وتقتصر اليوم نزعة الحرية للأمريكى فى المدن الكبرى على جعل الشراب أول حاجات الرجال ، ورحابة العقل أول مطالب السيدات . ماذا يهم أن يحكم على مهاجر بولندى بالشنق أمام محكمة فى مساشوسيث لأنه أعلن شكه فى عقيدة قديمة ؟ أو أن يمنع الجند اجتماعاً سلمياً فى بنسلفانيا ؟ أو أن شيوخ رجال الدين

ماطفين مفازع الشيخوخة بلاهوت الطفولة يقدمون فى كل مكان عرائض يطلبونه فيها الحكم على البيولوجيا بمخالفته الدين ، وإبعاد داروين بالتشريع ؟ ما أهمية فقدان حرية التفكير إذا كانت حرية الشراب قائمة ؟ فلنشرب أولا ، ولنتفلسف ثانياً Primum est bibere, deinde philosophare ، كما يقول المثل اللاتيني .

ليس القانون هو الذى ينتزع منا حريتنا ، بل عدم استعمالنا عقولنا إيثاراً للسلامة . فالتعليم الموحد ، والقوة المطردة للإيحاء فى الجماهير المتزايدة العدد ، يسلبانا الشخصية والخلق واستقلال الفكر . وكلما نمت الجماهير اختفت الأفراد . ثم إن سهولة المواصلات تيسر المحاكاة والتمثل ، وسرعان ما نصبح جميعاً متشابهين . ومن الواضح أننا نجد لذة فى أن نصبح متماثلين ما أمكن ، فى ملبسنا ، وعاداتنا ، وأخلاقنا ، وفى تزيين داخل بيوتنا ، وفنادقنا ، وعقولنا . ومن يدرى . . . لعل حتى حريتنا الأخلاقية هى ضرب من المحاكاة . والويسكى كالصلة الجنسية منتشر ، إذ بدونه لا يحس المرء أنه رجل .

ومع ذلك فبعض الثورة أفضل من لا شىء . وأكبر الظن أن جرعتنا الصغيرة من الحرية ستمضى إلى النهاية وتجرؤ على اشتمال الفكر . ومن الخير أن يقاوم الناس بالقانون طبع النفوس على الأخلاق ؛ فأن تمنع المشروبات المنشطة والمواسية لأن بعض الناس يسيئون استعمالها ، يبين ضعف الحكومة التى لا تعرف كيف تسوس الحمقى إلا إذا جعلت الناس جميعاً حمقى . والحضـــارة بغير خمر مستحيلة . والحضارة بغير قيود مستحيلة ، ولا قيود حيث لا توجد حرية . ولقد قال منتسكيو : « إن الأمور التى يحرمها الشرف تزيد مراعاة تحريمها حين لا يتدخل القانون فى التحريم »[1] . ولو أننا أنفقنا نصف ما أنفقناه فى « حملة » الخماف على الدعاية إلى الاعتدال ، لأصبحنا الآن شعباً معتدلا .

ولنستمع الآن بعض الوقت لأولئك الذين كانوا يعتقدون فى كل حرية . فقد ينعشنا ويقوى نفوسنا أن ننسى لحظة قوانيننا المتعددة ، وأن نتمشى بعض الخطوات مع عباد الحرية .

---

(١) Spirit of Laws, Book iv, ch 2.

٢ — دين الحرية

يقول توماس بين :

« ليس الشطر الأكبر من ذلك النظام السائد بين البشرية ثمرة الحكومة ، بل ينشأ من أصول المجتمع والتكوين الطبيعي للناس . وقد تقدم النظام في وجوده على الحكومة ، وسيوجد حتى لو ألغى شكل الحكومة . ذلك أن اعتماد الناس بعضهم على بعض ، وتبادل المنافع بينهم ، وتوقف جميع أجزاء الجماعة المتحضرة بعضها على بعض ، تخلق تلك السلسلة العظيمة من الاتصال الذى يمسك أطرافها .. صفوة القول يكاد المجتمع أن يحقق لنفسه كل شيء يعزى للحكومة » (١) .

مَنْ ذلك الذى يكتب بشجاعة وبساطة غير معهودتين ؟ إنه توم بين الشجاع ، بطل ثورتين ، ومجدد قارتين . إنه ڤولتير الأمريكى ، والصوت الإنجليزى لذلك القرن الجرىء الذى ظفر لنفسه باسم « التنوير » . إذ فى ذلك العصر « عصر العقل » ، عندما أدى انتقال القوة الاقتصادية من الأرستقراطية المتعطلة إلى الطبقة المتوسطة العاملة إلى زعزعة كل عرف ، وكسر شوكة التقاليد ، وتخفيف قبضة الخرافات القديمة على البشرية ، وجد الفرد نفسه حراً بشكل لم يعهد له مثيل ، كما لو أن قبضة الماضى على الحاضر قد خفت إلى حين . وكانت أسرة البربون الهرمة تملك دون أن تحكم . ولما كانت الكنيسة موجودة فى مجتمع غلب عليه الشك وانحرف فيه حتى الأساقفة عن الطريق ، فقد كانت قوية فى القرى فقط ، ولا قوة لها فى العواصم . وانحل كل قانون ، وانتقدت كل قاعدة ، وانتهك كل معيار للفن أو ميزان للسلوك دون خوف أو ندم . إنه العصر الذى أعلن فيه روسو أن الدولة شر ، وأعلن جيفرسون أن أفضل حكومة ما قل حكمها . كان العصر عصر الفرد .

ومن المفروض أن الإنسان منذ بدء تاريخ البشرية قد تبرم بالقيود الاجتماعية ، وأن الإرادة على فطرتها الهمجية كانت ترى فى كل قانون عدوا . وفى ذلك يقول روسو :

---

(١) Thomas Paine, The Rights of Man, p. 152.

« القوانين نافعة دائماً لمن يملك ، مضرة لمن لا يملك . . . لقد منحت القوانين الضعيف أثقالا جديدة ، والقوى قوى جديدة ، وحطمت إلى غير رجعة الحرية الطبيعية ، وثبتت قانون الملكية والتفاوت ، وقلبت الاغتصاب البارع حقاً لا ينقض ، وأخضعت مستقبل الجنس كله تحت نير العمل والعبودية والبؤس ... لقد خُلق الناس أحراراً ، ولكنهم اليوم مكبلون فى الأغلال فى كل مكان » (1) .

ومن الجدير بالملاحظة اشتراك آراء البورجوازية الناشئة إلى حد كبير فى قرن الثورة فى ذلك الجوع والظمأ للحرية التى تولدت فى أكثر الفلسفات السياسية سذاجة وفتنة عن فوضى . فهذا آدم سميث مع أنه محترم كأى إنجليزى ، ذهب إلى أن ثروة الأمم تعتمد على حرية الفرد . وكان ميرابو « الأب » والفيزيقراط — الطبيعيون — Physiocrats يرغبون فى ترك الطبيعة وحدها تدبر أمر التجارة والصناعة . وتضاءلت الدولة عند هربرت سبنسر الذى ورث تقاليد الحرية من بنتام وستيوارت مل حتى كاد دورها يتلاشى ، ولم يحتفظ بها إلا «كحارس ليلى » لممتلكاته .

وقد غذى أصحاب النظريات السياسية بمنطق أعمى هذه الصيحة الصادرة عن الطبقة الوسطى للتحرر من جباية مكوس الإقطاع ، وتوارث الحكم ، وعنجهية الأرستقراطية . فإن صح أن الحرية كانت خيراً فى التجارة والصناعة ، فيجب أن تكون كذلك فى السياسة والأخلاق . وكان جودوين (2) Godwin واثقاً من أن الطبيعة البشرية بما فيها من فضيلة كامنة يمكن أن تحتفظ بما يكفى من نظام بغير قانون . دع جميع القوانين تلغى ، تجد أن البشرية تتقدم فى الفكر والخلق بما لم تتقدم به من قبل . ونظم شللى هذه الأفكار بعد عدول جودوين عن الاعتقاد فيها ، ومارس الحرية الجديدة مع ابنة جودوين دون اعتبار لحق الفيلسوف فى تغيير أخطائه مع الزمن . وجعل فشته الوطنى إرادة الفرد قاعدة الكون وذروته ،

---

(1) Discourse on the Origin of Inequality (1755), p. 95 ; Social Contract, p. 1.

(2) وليم جودوين (١٧٥٦ — ١٨٣٦) كاتب إنجليزى من أحرار الفكر طالب باطراح النظم القائمة فى الحكم والدين والأسرة . تأثر بروسو وأثر فى وردسورث وكولردج وشللى وبيرون . وتزوج شللى ابنته مارى بعد علاقة غرامية ، فكانت زوجته الثانية (المترجم) .

ورأى فى كل حقيقة خانقاً للعقل المنحصر فى ذاته والمنعزل عن الأشياء الخارجية الذوات الأخرى . وعزّى شترنر Stirner نفسه ، وقد حكم عليه أن يعلم فى إحدى مدارس البنات ، بأن تصور إنساناً أعلى — سوبرمان — قد تحرر من استبداد الدولة ، فقال : « ليس للدولة أى غرض سوى تقييد الفرد، وترويضه ، وإخضاعه لشيء عام . وهى لا تدوم إلا ما دام الفرد لا يعمل كل شيء على هواه . . . . . فعليك أن تستقيم وستتركك الدولة وشأنك »[١] . وتقدم نيتشه ، زاعما أنه لم يقرأ شترنر ، فتطور بنظرية « الذات وما لهـــا The Ego and His Own » حين قال على لسان زرادشت :

« لا يزال يوجد فى بعض الأمكنة شعوب . . . أما فيما يختص بنا فتوجد دول . . . وتسمى الدولة وحشاً من أجرأ جميع الوحوش ، وإنها لتكذب بجرأة وهذه هى الأكذوبة التى تنساب من فمها : « أنا الدولة ، فأنا الشعب ». ما أعجبها أكذوبة . فالعباقرة المبدعون هم الذين خلقوا الشعوب ، وسلطوا عليهم عقيدة واحدة ، وحباً واحداً . وبهذا خدموا الحياة . إن المفسدين هم الذين ينصبون الشراك للكثرة من الناس ويسمونهم الدولة ... ولكن الدولة كاذبة فى كل لسان فيما تقرره من الخير والشر . فكل ما تقوله تكذب فيه ، وكل ما تملكه قد سرقته ... وحيثما تزول الدولة يبدأ وجود الفرد الذى لا غنى عنـــه . . . حيثما تزول الدولة — انظر هناك ، إنى أدعو إخوتى . ألا تراه ، بشائر وأنوار الإنسان الأعلى؟ »[٢] .

هذا التطلع للحرية المطلقة يدل على نزعة عامة تستوقف النظر ، وعلى إلحاح غريب . كان من بين تلامذة سقراط الكلبيون الذين آثروا حياة الطبيعة على حكم القانون ، وأحبوا مثل أرستيبوس : « ألا يكونوا عبيداً أو أسياداً لأى إنسان ». وكان من بين الرواقيين الذين تخلصوا من الثروة والقيود جماعة أملوا فى جنة أرضية يشترك الناس فى جميع خيراتها ويتحررون من كل القيود . وكان من بين المسيحيين الأوائل من أنكر استعمال القوة لأى غرض ، وعاشت جماعات دينية صغيرة فى سلام وأخوة إلى أن زدادت الثروة . وعاد منكرو تعميد الطفولة[٣] فى عصر الإصلاح

(١) The Ego and His Own.
(٢) Thus spake Zarathustra, I, XI, pp. 61-5.
(٣) Anabaptists (المترجم)

الديني يبشرون بإنجيل الحرية ، وأرادوا أن يحققوا الجنة على هذه الأرض فألغوا الزواج. وفى الثورة الفرنسية أعلن مارا وبابيف شروق الحرية وغروب الدولة . وفى سنة ١٨٤٠ الثورية كتب برودون[1] Proudhon : « إن حكم الإنسان للإنسان فى أى صورة هو العبودية . والكمال الأعلى للمجتمع فى التوحيد بين النظام والفوضى ... وفى أى مجتمع يكون سلطان الإنسان على غيره متناسباً تناسباً عكسياً مع النمو الفكرى الذى وصل إليه ذلك المجتمع »[2] . وعرف تولستوى فى روسيا الثائرة الحكومة بأنها : «اتحاد الملاك لحماية أملاكهم من أولئك الذين يحتاجون إليها » (أو يرغبون فيها ، حسب تصحيح الملاك للعبارة) . وتنبأ باكونين ، بعد أن تخلى عن ثروته ومركزه الأرستقراطى ليلحق بالعدميين Nihilists ، بأن التعليم سينتشر بسرعة بحيث تصبح الدولة فى سنة ١٩٠٠ لا ضرورة لها ، ولا يخضع الناس إلا لقوانين الطبيعة . أما كروبتكين ، الأمير ، السيد المهذب ، الفوضوى ، فقد جاهد ليبين كيف أن الرجال والنساء فى « طوبيا » الحرية لا يحتاجون إلا إلى ساعة واحدة من العمل فى اليوم ، ونجح فى إثبات أن التعاون التلقائى بين الإنسان وأخيه كان الأساس فى كل تنظيم اجتماعى سليم ، وأن هذا التعاون أعظم قوة وسلامة من القهر غير الطبيعى للدولة . وعبر وليم موريس فى إنجلترا عن احترامه للحكومة بأن وصف مكاناً سعيداً يُستعمل فيه مجلس البرلمان مخزناً للسماد فى المدينة الفاضلة . وفى أمريكا حيث مبدأ حرية التجارة ، كان يبشر إمرسون باعتماد الرواد على أنفسهم ، فقال : « لا أقدس أى قانون سوى طبيعتى الخاصة » وقال : « الحق الوحيد ما كان مطابقاً لدستورى الخاص » . وتصور هويتمان وظيفة الحكومة إعداداً للوقت الذى يحكم فيه الناس أنفسهم . وأعلن ثورو مرحاً وهو يصنع أقلامه البديعة : « إنى أقبل من كل قلبى ذلك الشعار : أفضل حكومة ما قلّ حكمها ... وإذا مضينا بهذا الشعار إلى نهايته كان معناه ، وهذا ما أعتقده : أفضل حكومة ما لا حكم لها على الإطلاق . وعندما يعدُّ الناس لهذه الحكومة ستكون هى أفضل نوع يحصلون عليه » .

---

(١) برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥) فيلسوف فرنسى فوضوى . ومن أشهر كتبه «ما الملك ؟» صدر سنة ١٨٤٠ ، وبدأ بهذا الجواب « الملك سرقة » (المترجم) .

(٢) Eltzbacher, Eltsbacher P., Anarchism, p. 73.

٣ — الفوضوية

ماذا نحن قائلون عن هذا الدين الجرىء للحرية ؟ إلى أى حد يكون النظام الاجتماعى طبيعياً ؛ وإلى أى مدى يمكن أن يحتفظ بنفسه بغير سلطة القانون ؟ إلى أى حد الحرية ممكنة للإنسان ؟

وفى الأمور الإنسانية (وليأذن لنا سنتيانا باساءة استعمال إحدى عباراته) كل شىء صناعى له أصل طبيعى ، وكل شىء طبيعى له نمو صناعى . فالتعبير طبيعى ، واللغة صناعية . والدين طبيعى ، والكنيسة صناعية . والمجتمع طبيعى ، والدولة صناعية . وطاعة القانون ، كاللغة واللاهوت ، تنشأ عن طريق النقل الاجتماعى والكسب الفردى أكثر مما تنشأ عن طريق الدوافع المفطورة فى البشر . ومن ثم جاء الصراع الدائم داخل الذات بين رغبات القلب ، والخوف من رجال الأمن . ومن هنا جاءت اللذة التى يحسها الثائرون الظافرون فى خرق المحرمات الصناعية والثقيلة ، مع وجود شىء من التأييد الاجتماعى والحصانة النسبية . نحن فوضويون بالطبيعة ، ومواطنون بالإيحاء .

ومع أننا بيننا وبين أنفسنا همج بلا قوانين ، إلا أننا مهيئون بالطبيعة لضرب معقول تلقائى من النظام والانتظام . فالمجتمع أقدم من الإنسان ، وأقدم من الفقريات . فللوحيدة الخلايا مستعمراتها ، وفيها تقسيم للعمل بين خلايا التوليد وخلايا التغذى . ويرتفع النمل والنحل بهذا التخصص فى الوظيفة إلى الحد الذى يتميز فيه الكائن فسيولوجياً لمهمته الاجتماعية . وحتى الجوارح التى تعد أنيابها وجلودها ومخالبها بدائل فردية عن قوة وأمن النظام الاجتماعى ، فمن بينها تلك الكلاب الرقيقة العيون التى يمكن أن تكون أكثر ميلا إلى الاجتماع من التاجر ، وأعظم وفاء من المحرر الريفى . يقول داروين : « يقلب قردة همادرياس الأحجار لاكتشاف الحشرات ، وعندما تصيبُ حشرة كبيرة يلتف حولها أكبر عدد ممكن ويديرونها معاً ويشتركون فى الغنيمة . . . وعندما تحس الثيران البرية بالخطر فإنها تسوق الأبقار والعجول وسط القطيع ، على حين تدافع هى فى الخارج »(١)

---

(١) The Descent of Man, p. 114.

وإذا تعرضت الخيل للخطر قاربت بين رءوسها وجعلت أرجلها الخلفية إلى الوراء مكونة « نطاقاً صحياً » ، وكذلك يضع أهل الغال نساءهم فى الوسط حين يناجزون العدو (لا ريب أن نابليون كان فى ذهنه هذه الحماية ذاتها للعجزة عندما أصدر أمره فى معركة الأهرام : « الحمير والأساتذة فى الوسط » .) وأكبر الظن أن أصل المجتمع الحيوانى نشأ من مثل هذه الاتحادات للدفاع ، وعن طريقها تأسس ميراث من الدافع الاجتماعى للإنسانية .

أضف إلى هذه العشرة التلقائية التعاون المشكل للأسرة ، وهنا يلقى النظام الطبيعى الخالص بعض الاستحسان . يقول داروين : « يبـدو أن الغريزة الاجتماعية قد نمت من وجود الصغار فترة طويلة مع آبائها »[1] وبهذا المعنى تكون الأخوة فى الإنسان قديمة قدم التاريخ . وهى تبعث الحياة إلى آلاف من الجماعات السرية وأشكال الزمالة ، التى يصعب أن يعيش فيها الواحد وحشاً وقد ماتت نفسه دون أن يفزع مرات يحس بتضامنه الجسمانى مع الإنسانية . وإلى جانب هذه الأخوة الطبيعية تنتشر محبة أبوة تساعدنا على تبادل المعونة . والإيثار الذى جعله عصر التنوير فضيلة بمنظار مكبر[2] ، طبيعى كالصـلة الجنسية ، وعام كالأبوة . وقد تعجب كانط من وجود كثير من الرحمة فى العالم وقليل من العدالة ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الرحمة تعاطف تلقائى على حين ترتبط العدالة بالحكم والاستدلال . ومن أجل ذلك كانت النساء أقل بعض الشىء عدلا ، وأكثر أحياناً رحمة .

وأخيراً فإن المجتمع ذاته معتمداً على هذه الدعامات الغريزية والاقتصادية ينمى فى الفرد بعض العادات الاجتماعية التى تصبح من القوة كأى طبيعة ثانية ، ويكون حاجزاً من النظام يعتمد عليه أكثر مما يعتمد على القانون . وكلما طالت حياتنا أصبحنا أكثر ميلا إلى الاجتماع ، وأعظم قبولا لرأى جيراننا ، وأشد جنوحاً إلى التقليد والاحترام ، وأقوى صلة بالعرف والتقاليد ، وأقرب موافقة لتلك الحواجز المانعة للرغبة والتى تجعل الحضارة تعتمد على العادة أكثر مما تعتمد على القوة .

---

(١) The Descent of Man, p. 119.

(٢) حسب عبارة تين .

وتسعى كل سلطة نفسية منظمة إلى تكميل هذا الترويض للفرد وصبغه بالصبغة الاجتماعية . وتقدم الكنيسة إليه عند مولده عدداً كبيراً من النصائح يظل أثرها اللطيف باقياً حتى بعد انقضاء أساسها الدينى . حتى إذا ضعفت السلطة الأبوية والكهنوتية ، حلت أكثر فأكثر محلها سلطة المدرسة ، التى تزعم أنها تعد الفرد للانتصارات الاقتصادية والفنية . ولكنها تصوغه فى هدوء وبراعة كما نصح أرسطو « كى يلائم شكل الحكومة التى يعيش فى ظلها » . وهى تصب فى كيانه العادات والأخلاق الخاصة بجماعته . وتغطى باعتدال حقيقة التاريخ العارية بتمجيد ماضى الأمة ، فيصبح المواطن الوطنى مستعداً لحفز جيرانه لأى تضحية فى سبيل رفع قوة بلده . فإذا أخفقت المدرسة فى هذه المهمة الاجتماعية ، أو أفلت الفرد منها بتركه المدرسة عند سن البلوغ ، أتمت الصحافة العمل ؛ فقد تعاون الاختراع الآلى مع التجمع فى المدن على تقريب كل عقل من هذا الشىء المبتذل المسمى « الصحف » وتلك المذاهب الدقيقة المختبئة وراء السطور .

فإذا نظرنا إلى هذه القوى المشكلة جملة ، بدا الدافع إلى السلوك الحسن مما لا يمكن مقاومته ، حتى لقد يتساءل المرء بحق عن ضرورة القوانين المنظمة للأخلاق . والمجتمع إلى حد كبير هو الذى يوجد لا الفرد . وكما قال جمبلوفيتش : « إن الجزء الذى يفكر من الإنسان ليس هو الإنسان ، بل الطائفة الاجتماعية التى يعد جزءاً منها » . وحتى ضميره ليس إلا صوت سيده . ولقد قال نابليون ذلك النفسانى البارع : « الإنسان ثمرة البيئة الأخلاقية والبيئة الطبيعية على حد سواء » . وبالوراثة البيولوجية نرتبط بماضينا الحيوانى ، وبالوراثة الاجتماعية — عن طريق امتصاصنا بالمحاكاة والتعليم لتقاليد مجتمعنا وأخلاقه — نرتبط بماضينا الإنسانى . وقوى الاستقرار المتأصلة فى دوافعنا وعاداتنا تترك فى أنفسنا شطراً ضئيلا هو الذى يحتاج إلى الأخلاق غير الطبيعية من الدولة .

ولما كانت هذه التأثيرات المكونة تعمل عملها فى أرق سنوات عمرنا التى نكون فيها أكثر خضوعاً للإيحاء ، فقد يصعب علينا التغلب عليها إلا على حساب صراع قد يقضى على صحة عقولنا . فعندما نبتعد عن أخلاق بلادنا وعصرنا نصاب بحنين قاتل شديد إليها . وعندما نستقر فى الحياة فالأغلب أننا نعيش فى دياجير

الماضى . والقانعون من الناس هم عادة أولئك الذين يصطنعون بلا سؤال عادات وتقاليد وأخلاق ولغة وأسلوب جماعتهم فيصبحون ذرات غير متميزة فى الجمهور الاجتماعى ، ويستغرقون فى راحة مريحة من استسلام النفس الذى يبارى خضوع الحب . وكلما عظم المجتمع قوى الضغط على الفرد ليتخلى عن فرديته حتى فى تلك البدع الجديدة التى تبهج النفس القانعة ، إذ يشعر أنها ليست بدعاً على الحقيقة ، بل تغييرات محترمة تقوم على أساس قديم . والنتيجة الأخيرة هى أن عدداً كبيراً من السكان يكاد يصبح جسماً غير متحرك ، وتتغلب نزعة المجتمع الطبيعية إلى المحافظة على وطنية الدولة . ويصبح الفرد وقد صيغ فى صورة المجموع سهل القياد حسن السلوك بحيث تظهر أوامر القانون وعقوباته إسرافاً لا مسوغ له . ثم قد نقوى فى بعض اللحظات بأن ننحاز ونوقع بأسمائنا فى تحد إلى جانب مذهب أولئك الفوضيين المخوفين الذين ننفيهم أو نبعدهم أو نحكم عليهم أو نسجنهم أو نشنقهم .

٤ — صعوبات الحرية

فلنطمئن أنفسنا : فى هذه الفلسفة الخاصة بالحرية عيوب ، لأنها أولا لا تقدر عنف القوى حق قدره ، إذ أن نفس السلطة عديمة الرأفة هى التى تجعل الدولة تحكم بقوة أظهر وأكثر مباشرة وأعظم ألماً وفوضى إذا لم تكن هناك دولة على الإطلاق . والحضارة هى فى شطر منها إقامة النظام والعرف مما يضع حداً لاستغلال القوى للضعيف . إن تزعزع القانون الدولى يكشف عن التهديد بالعنف بين الأقوياء ، ولا تتمسك بالفضيلة إلا الدول الصغرى . انظر إلى ما قاله سقراط لأرستيبوس : « إذا كنت تظن من الأصوب حين تعيش بين الناس ألا تحكم أو تحكم ، فإنى أظن أنك سترى سريعاً كيف يتعلم الأقوياء معاملة الضعفاء معاملة العبيد » (١) . وكل اختراع يزيد القوى والماهر قوة يقبض بها على الخيب والمسوس والضعيف . وكل نمو فى تعقيد الحياة يوسع الهوة ويجعل المقاومة أصعب . وهذا شىء نقرره بمرارة ، ولكن المجتمع لا يقوم على المثل العليا بل على طبيعة الإنسان . أما مثله العليا فهى أشبه بمحاولة لإخفاء طبيعته عن نفسه وعن العالم .

---

(١) Xenophon, Memorabilia, Book ii, ch, 1, § 12.

هذا إلى أن الميول الاجتماعية التى يقوم عليها النظام الطبيعى أبعد عن التأصل فى قرارة أنفسنا من تلك الدوافع الفردية الخاصة بالتحصيل والجمع ، وبالعدوان والسيادة ، مما تقوم حياتنا الاقتصادية على أساسها . بل إن صيحة الحرية تصدر عن قلب يظمأ سراً إلى القوة ، وبسبب هذا الظمأ الموجود فى الإنسان المتوحش تحدد الحرية وتقيد . والضعيف إلى حد ما هو الذى يقص تحت ضغط آراء الأغلبية أطراف حرية الفرد خشية أن توسع القوة غير المقيدة الهوة بين نفسها وبين ذلك الخائر ، حتى لينفجر الكيان الاجتماعى بالثورة . وأول شرط للحرية هو تحديدها ، فالحياة ميزان من القوى المتداخلة كالأرض المعلقة فى الفضاء . والناس متفاوتون فى المقدرة والشجاعة إلى درجة أن انعدام القيود يؤدى إلى أن تتوالد اختلافاتهم الطبيعية ، وتتكاثر بطريق آلاف من الاختلافات الصناعية إلى ندوب للبشرية ثابتة لا أمل فى الشفاء منها . لقد أحب الفرنسيون نابليون ، لأنه على الرغم من طغيانه الشديد كان يفتح باب العمل لكل صاحب موهبة مهما يكن مولده ، ووهب الناس بكثرة لم يسبق لها مثيل تلك المساواة التى يحبها الحجولون من الناس أكثر مما يحبون الحرية .

نخلص من ذلك إلى أن عصور الحرية هى عصور انتقال ، هى فواصل جريئة بين عهود العرف والنظام . وهى تدوم عندما تتنافس مذاهب فى النظام نحو السيادة ، حتى إذا ظفر مذهب منها اختفت الحرية . ولست تجد أخطر على الحرية من ثورة ناجحة ، لأن أعظم مأساة تصيب المثل الأعلى هو تحقيقه .

ما العلة فى أنه حيثما ظهر فى التاريخ النظام التلقائى الذى لا يقوم إلا على العشرة الطبيعية بين الناس ، كما هى الحال فى المجتمعات البدائية ، أو فى كاليفورنيا حتى سنة ١٨٤٩ ، أو فى ألاسكا حتى سنة ١٨٩٠ ، لم يلبث أن ينتقل إلى النظام الصناعى والإلزامى للدولة ؟ إنه سؤال كبير لن يكفى جواب واحد لتوفيته . ولا ريب أن بعض السبب يرجع إلى انتقال وحدة الإنتاج والمجتمع من الأسرة إلى الفرد . ومن الواضح أن الأسرة تفقد وظائفها حتى فيما يختص بالعناية بالأطفال . ويتحول الاحترام البنوى والولاء الأخوى إلى وطنية تصبح هى العبادة الوحيدة للروح الحديثة . فإذا تجردت الأسرة من وظائفها أصبحت كالطبل الأجوف

ولايبقى فيها إلا أفراد بعيدون عنها ، مستقلون بعظمة فى عبودية مشتركة . ذلك أن العبودية تشبه الحرية شبهاً كبيراً عندما لا يُرى السيد أبداً .

وفى أثناء ذلك يؤدى تجمع الناس فى المدن إلى انحلال أخلاق الجيرة باعتبار أنها مصدر للنظام التلقائى . ويصبح كل دافع أنانى حراً فى حماية حشود الجماهير . أما حيث لا يزال النظام الطبيعى قوياً كما هى الحال فى الجماعات الريفية البسيطة ، فلابد من وجود بعض القانون ؛ وأما حيث يكون النظام الطبيعى ضعيفاً كالحال فى مدننا المنبسطة فإن التشريع ينمو ، وتحل الدولة محل المجتمع التلقائى كما تحل الشركات التجارية محل التاجر الصغير ، أو كما تحل شبكة السكك الحديدية محل عربة البريد التى كانت تتجول فى تلك الأيام الشاعرية الأولى . ذلك أن تعقيد الحياة المستمر فى النمو قد قيدنا إلى كلٍّ موحد توحيداً عظيماً ، وانتزع منا ذلك الاستقلال للأجزاء مما كان ميسوراً من قبل حين كانت كل أسرة مملكة تكفى ذاتها بذاتها اقتصادياً . ثم تفسد الحرية السياسية والصناعية للسبب نفسه الذى يزيد فيه الانحلال الخلقى : لأن الأسرة والكنيسة قد توقفتا عن أداء وظيفتهما أداء كاملا باعتبارهما مصدرين للنظام الاجتماعى ، ويفرض الإلزام التشريعى نفسه على الفجوات النامية فى الزواجر الطبيعية . وهكذا نجد أن الحرية قد هجرت الصناعة والدولة ، ولم يبق لها وجود إلا فى الحياة الجنسية .

ولو أن أدوات الإنتاج ظلت على بساطتها كما كانت أيام البداوة — جاروفاً وقطعة من الأرض — لما تضخمت الدولة ، فأصبحت غولا يخيف اليوم حياتنا الحقيرة ، إذ عندئذ كان يمكن لكل إنسان أن يمتلك آلاته ويتحكم فى ظروف حياته الأرضية ، وكانت حريته تكون قد احتفظت بمقوماتها الاقتصادية الضرورية ، ولم تكن الحرية السياسية قد أصبحت كالمساواة السياسية خدعة حقيرة . غير أن الاختراعات جعلت الآلات أكثر تعقيداً وأغلى ثمناً ، فميزت بين الناس وقدرتهم حسب قدرتهم على استعمال أو إدارة أو امتلاك الآلات الأدق والأكبر . وانتهى الأمر بشكل طبيعى جـــدا إلى تركيز ملاك الآلات فى بضعة نفر ، واختفى الاكتفاء الذاتى ، وأصبحت الحرية لفظة من عبارات الساسة ، وبقيةً من مخلفات الماضى تمجد كل عام كسائر أمواتنا الأعزاء .

فى كل جانب يجرفنا تيار من النمو تتبدد فيه الحريات القديمة والطبيعية . هذا إلى أن علاقاتنا الصناعية تبلغ من الأهمية الصحة الجماعة حداً لا يمكن أن تترك وحدها للرقابة الفردية . وهناك بعض الوظائف مثل النقل والمواصلات والشئون المالية تبلغ من السلطان حداً يجعلها بدون تقييد تشريعى تبتلع كل صناعة كأنها وحش مفترس عظيم . لذلك يحسن من كل وجه أن تخضع هذه العمليات لتنظيم الدولة ، مهما تكن عاجزة وحزبية وفاسدة كما هى حال أى دولة فى زماننا . ولعل جميع المسارب الرئيسية فى الحياة الاقتصادية يجب أن توجد وراء مثل هذه الرقابة الوطنية ، وأن ينزع كل شريان حيوى بين المنتج والمستهلك من السيطرة الفاتكة لأفراد محصنين غير مسئولين . أما الإنتاج نفسه فيجب أن يظل حراً (١) .

وعندما تستقبل جميع طرق التوزيع كل مستهلك على حد سواء ، يصبح الإنتاج والاستهلاك من الحرية بما يسمح به الطمع الإنسانى . فإذا شفيت الصناعة من التصلب الاقتصادى — بأن تحرر من الوسطاء العديدين الذين يضيقون شرايين التبادل ويصعبونها ، ويهددون أمننا فى أحسن أوقات ثروتنا — ازدهرت وترعرعت كالنبات الحر أو البذرة المتفتحة . وعندئذ يتحرر ملك الفرد المبتكر المدبر أكثر مما يتقيد ، وتجد الجمعيات التعاونية بعض الحماية من سيطرة السادة المعادين ملاك آلة التوزيع . وقد تصبح الحرية فى النهاية بعد أن تقلم أظافرها وتهذب أعمق وأغنى مما كانت من قبل .

٥ — الدولة الجيفرسونية

وهذا كله مما ذكرناه من قبل امتياز ينطوى على الحقد ، لأن المثل الأعلى الجيفرسونى للحكومة التى تحكم أقل ما يمكن لا يزال يستهوى القلب بسحره البسيط ، وكل قانون يضاف يدنس سلطة الروح . فالنظام سبيل إلى الحرية وليس غاية فى ذاته ، والحرية لاتقدر بثمن لأنها الوسط الحيوى للنمو . أو كما قال جوته الشيخ :

---

(١) يذهب نيتشه المعادى للاشتراكية إلى أبعد من ذلك فيقول : « يجب أن نأخذ جميع فروع النقل والتجارة التى تعين على تكديس الثروات الكبيرة — وبخاصة النقد فى السوق — من أيدى الأشخاص والشركات الشخصية ، وأن ننظر إلى أولئك الذين يمتلكون كثيراً ، كما ننظر إلى المعدمين ، باعتبار أنهم نماذج تحمل الخطر للجماعة » (Human All Too Human, vol. ii, p. 340).

« فى نهاية الأمر الشخصية وحدها هى التى يحسب لها حساب » . ولقد خلقت الدولة من أجل الإنسان ، لا الإنسان من أجل الدولة . وقد اخترعت الوراثة لحفظ الفروق ، ونشأت كل عادة على أنقاض عادة سابقة . والتطور يتغذى على التميز والتغير . ويحتاج النمو الاجتماعى إلى التجديد والتجربة كما يحتاج إلى النظام والقانون . ويسير التاريخ بطريق العبقرية والاختراع كما يسير عن طريق القوى غير الشخصية والجماهير الخالية من التفكير .

ولو سمحنا بتحديد حياتنا الاقتصادية فينبغى أن نحمى حرية العقل فى مقابل ذلك مائة مرة . فالحرية العقلية يجب على أقل تقدير أن تكون عزيزة علينا كحرية البدن بالنسبة للحيوان ، الذى يؤسر ويحبس فى قفص ، ولكنه لا يرضى أبداً بالأسر ، ويتحفز على الدوام مرتقباً طريقاً للحرية . وأكبر الظن — لأننا نحتمل رؤية مثل هؤلاء الأسارى المساكين ، وننظر دون ندم فى عيون غارت ورقت من شوقها إلى الحرية — أننا لسنا جديرين بالحرية التى كانت عند آبائنا فى لقائهم الحيوان على قدم المساواة ، وكانوا يقتلونه فى صراع عادل بدلا من أسره فى قفص للتفرج عليه فى أصائل يوم الأحد . ومع ذلك فنحن أنفسنا أسارى دون أن نشكو . فكيف يمكن أن نفهم شوق هذه الحيوانات المقيدة ؟

يقول مثل صينى فحواه أن الأمة إذا بدأت تكثر فيها القوانين ، انزلقت إلى طريق الشيخوخة ؟ . وكان قدماء التُوريين يقدمون كل صاحب اقتراح بقوانين جديدة فاشلة إلى حبل المشنقة ، جزاء وفاقاً لعدوانه على الحرية . ويقال إن المشرعين فى أمريكا يصدرون ما يقرب من ستة عشر ألف قانون كل سنة(١) ، وهذا إن صح كان دليلا على أننا أمة من اللصوص لا نحتاج إلى القوانين بل إلى التربية . وتعد جلسات الكونجرس فى الولايات المتحدة منبعاً للتوجس القومى عند الأغنياء والفقراء على السواء . ولعل التقدير المتزن الذى ظفر به الرئيس السابق(٢) كان راجعاً إلى أنه «ملك عاطل roi fainéant » يمكن الاعتماد عليه كملوك الإنجليز فى عمل لا شىء ، اللهم إلا تسلم مرتبه . وحتى ما أصدره من « حق الاعتراض » كان

---

(١) Pringle, H.F., Alfred E. Smith, p. 132.

(٢) هو كالفن كولدج Calvin Coolidge انتخب رئيساً ١٩٢٣ — ١٩٢٩ .

يقابل بالامتنان . ولكن ماذا كان يحدث لو أن القوانين التى وقفها كانت حسنة ؟ . .
القانون حتى لو كان حسناً قانون ، ولن يذرف أحد الدمع على دفنه .

فإنْ بدا ما سبق ذكره دليلا على أن أخلاقنا الجارية المجردة من القانون لا تبلغ من الشر كما يذهب بعضنا حين يخففون العبء الواقع على الضمائر برفع الناس إلى مرتبة الفضيلة ، فالفرض صحيح ؛ ذلك أن معظم لاأخلاقيتنا تتخذ صورة الأمانة ، فنحن الشيوخ كنا فى شبابنا المحصَّن المعدم متهاونين ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وكنا إذا ارتكبنا إثماً ارتكبناه فى غير ضجة ، وذهبنا إلى المحافل نحمل على وجوهنا قناع الصالحين . أما الجيل الناشىء فلم يبلغ مثل هذه البراعة فى الكتمان ، ويحب المفاخرة بذنوب أعظم من تلك التى يرتكبها . وخطاياه سطحية يمحو أثرها مرُّ الزمن . وستؤدى التجربة إلى نضج الناس بما يكفى أن يردهم إلى محبة الاعتدال والحياء مرة أخرى . وكيف نرد الشباب عن مجالس الشراب إلا بالامتناع عن تحريمها ؟ ماذا يهم أن يكون العُرْى منتشراً فترى الأجسام العارية فى يسر أكثر وخفية أقل من أيامنا المثقلة والمطوقة بالملابس ، حتى حلت المثيرات المبالغ فيها محل الأخيلة الجنسية المريضة ؟ ستهذب العادةُ فى رقة الشر بإماتة الحساسية ، ويجب أن تعود الملابس مرة أخرى حتى تولد تخيلات الشوق .

وليس للشيوخ حين يواجهون هذه النهضة الرائعة للشباب إلا أن يفكروا فى القوانين ، فتسمع صوت الوجلين الحاسدين يطالبون أعضاء المجلس الطاهر فى أمريكا بإنقاذ الأخلاق . ألأن بعض الفاسدين من تجار النساء كسبوا مالا حراماً بعرض أبدع ما خلق الله على خشبة المسرح ، يطلب المتبرمون أن تعطى لرجال الأمن سلطة مراجعة جميع أفلام السينما وروايات المسرح قبل عرضها على الجمهور ؟ مع أنَّ المفروض أنَّ فى سلطة البوليس من القوة ما يوقف التبذل بما هو موجود من تشريعات قائمة ، فلا حاجة بعد ذلك إلى فرض تحريمات بلا تمييز ، وفى الرأى العام إذا لم يضعف بالقوانين المتعجلة كفايةٌ فى الحد من الغلو ، وقد يكون أعظم تأثيراً (كما هى الحال فى الشراب) من أى قانون . ولو أننا لبسنا أزياء البيوريتان (المتزمتين) لعادت أمريكا أمة فى طور الريفية

والطفولة ، فى الوقت الذى أخذت تبدع فيه أدبها وتمثيلياتها وفنها الخاص. إنا لنؤثر حرية شارل الثانى على تزمت كرمويل .

ومن حسن حظنا أن تكون الحياة فى هذه الأمور فى جانب الشباب ، وأن يكون الشباب فى جانب الحياة . قد يُقْدم خلفاؤنا على الانتحار ، ويؤثرون لعب الكرة على التفكير فى نظرية المعرفة ، ويغفلون عن شكر الله قبل الشرب ، ومع ذلك فلا ينبغى أن تصرف هذه الانحرافات عيوننا عن رؤية الصحة البهيجة والنفس الصافية للشباب المعاصر . دع الفتية فى سعادتهم ، إذ لن يطول بهم الأمد حتى يطعنوا فى السن ، فيدفعهم ما أصاب الجسد من إنهاك إلى الفضيلة . ولو كانت الأخلاق قد أصيبت بانحلال مؤقت ، فسوف يهذب الفتيان أنفسهم مع نمو المعرفة والحكمة ، وعلينا فى النهاية — كما ذهب سقراط إلى ذلك — أن نُعَلِّم أكثر مما نحرم . وإذا أردنا أن نحسِّن أخلاق غيرنا من الناس فعلينا أن نحسن أخلاقنا أولا ، لأن صوت المثل يدوّى فلا تسمع معه أصوات المواعظ . وأفضل ما يمكن أن نفعله لصالح الجماعة ألا نقيدها بالقوانين ، بل أن نقوى أنفسنا بالتسامح والكرامة . والسيد المهذب لن يخضع لأخلاق أخرى خلاف ما تمليه عليه نفسه .

ولابد أن يأتى زمان يدرك الناس فيه أن أعلى وظائف الحكومة ليست التشريع ... بل التهذيب ، وليست سن القوانين ... بل بناء المدارس. فيرشد أعظم الحكام ويوحى كما يفعل أبرع المعلمين عن طريق التثقيف أكثر من النواهى والأوامر التى تدعو إلى العدوان (١) . سيكون شعار الحاكم : ملايين الجنيهات للتعليم ، ولا مليم واحد للإجبار . وستعود الدولة التى بدأت غزواً وسلباً من الرعاة النهابين للفلاحين المسالمين فتصبح كما كانت لفترة بسيطة تحت حكم الأنطونين قيادة عظماء الرجال لأمة عظيمة. وليس لنا أن نيأس من شعبنا إلى الحد الذى يجعلنا نعتقد أن مصير الحكومة سيقع فى أيدى الساسة إلى الأبد . ويوماً بعد يوم تنشأ ذخيرة من المعرفة ،

(١) كانت تجربة مستر هوفر كوزير للتجارة مثالية ، إذ استطاعت الهيئة التى يرأسها أن تضع النظام والاقتصاد موضع الفوضى والتلف . ولم يكن ذلك بالتشريع والجبر ، ولا حتى بالتنظيم ، بل بجمع المعلومات وتداول الرأى والاتفاق على العمل . وهذا لعمرى هو فن الحكم .

وجيلا بعد جيل ينمو تراث الثقافة ، وينتقل إلى عدد أعظم من البشر ، وعندئذ لن يصبر الناس على المهرجين الذين قاسينا منهم بصبر شديد وأمد طويل . وسيختار أبناء أبنائنا ، وقد ارتفعوا بعنايتنا ، حكامهم اختياراً أحكم مما فعلنا . لن يطلبوا مشرعين ، بل معلمين خلاقين . لن يخضعوا للتجنيد والتنظيم بل للمعرفة . لن يحققوا السلام والنظام بالعنف والقهر ، بل بتقدم الذكاء ونشره وتنظيمه .

الفصل الثامن عشر

هل أخفقت الديمقراطية ؟

١ — أصول الديمقراطية

لقد نشأت الديمقراطية — التي قال منتسكيو إن مبدأها هو الفضيلة — من المال والبارود . ذلك أن المدافع والبنادق دكت القلاع الإقطاعية ، وجعلت الفرسان المتعجرفين البارزين على خيولهم فريسة سهلة للمشاة ، وسوت بين السفلة والأشراف في ميدان القتال ، وأعادت لأول مرة منذ فيثاغورس بعض المنزلة للعدد . وقد سهل اختراع سك العملة ونظام الائتمان سبل التجارة وجمع الثروات ، فشيدت عند ملتقى الطرق التجارية مدن عاملة ، وعند الثغور التجارية مدن حرة بلغت من القوة ما يجعلها تخلع نير الضرائب الإقطاعية . وتولدت في مقابل أرستقراطية الأرض العاطلة طبقة متوسطة ميسورة نشطة ، أصبحت « سلطة ثالثة » طالبت بمركز سياسي يتناسب مع قوتها الاقتصادية المتزايدة .

وكان ڤولتير وروسو أجهر أبواق هذا التغيير ، فأذاعا في الشعب ذينكما الشعارين الثمينين : « الحرية والمساواة » ، فسارت الطبقة المتوسطة على نغمات هذا النشيد إلى ذروة السلطة السياسية . كانت الحرية تدل في الأصل على التحرر من الاستبداد الإقطاعي وضرائبه . وكانت المساواة في الأصل تدل على السماح باشتراك الطبقة المتوسطة مع الأرستقراطية ورجال الدين في سلطان الحكومة وغنائمها . ويخيل إلينا أن الإخاء كان في الأصل يدل على تمكن رجال المال والتجار والجزارين والخبازين من دخول «صالونات» الأرستقراطية ورجال الدين . ولم يكن من المفروض أن ينحرف الفهم بهذه الألفاظ الفخمة بحيث تشمل جميع البالغين من الرجال ، وأقل من ذلك جميع النساء ، فقد كان ينبغي على الزوجات

والعمال، ممن لم تكن لهم صفة أخرى غير الزوجية أو العمل، أن يفهموا أنهم ما كانوا مقصودين بهذه الإشارة . وقد رغب روسو ، وهو أبو النظرية الديمقراطية فى إبعاد جميع النساء وجميع المعدمين من السلطة السياسية ، ولم يدرجهم تحت لفظة « الشعب people » (١) . وفى الدستور الذى وضعه مجلس الثوار الفرنسى لم يدرج ثلاثة أخماس البالغين من الذكور فى قوائم الانتخاب . وفى قوانين ولايات مختلفة من جمهورية الولايات المتحدة كان ينص على نصاب مالى بالنسبة إلى حق الانتخاب حتى أيام الرئيس أندروجاكسون (٢) . فالديمقراطية إذن بمقتضى أصلها ، ولا تزال فى تطورها الجارى ، تدل على حكم الطبقة المتوسطة ، أى الحكومة التالية فى الأفضلية (٣) second best .

وقد ساهمت عوامل متعاونة مع هذا السبب الاقتصادى الأساسى ، ذلك أن الإصلاح الدينى البروتستانتى قد مهد الطريق لتلك الفردية الثائرة التى تختفى وراء الأخوة الديمقراطية للإنسان . هذا إلى أن العلماء والفلاسفة من كوبرنيق إلى دارون أهووا بمطارقهم يدقون رءوس الخرافات عن طريق الطباعة، فأدى ذلك إلى انهيار الاعتقاد السلبى والمنافق فى الآخرة ، وحلت محله ثقة ساذجة فى فردوس أرضى يشارك فيه جميع الناس أذكياء وأغبياء على السواء فى السعادة والسلطان . وقد علمت الثورة الصناعية الناس أن يحكم بعضهم على بعضهم الآخر فى على أساس القدرة الإنتاجية — التى قد تبدو فى أى طبقة — أكثر من النسب . ودفع الملوك ثمن التمسك بالحكم أن وقفوا من رجال الأعمال الأغنياء موقفاً أكثر تأدباً ، كما منحوا الطبقات الدنيا المشاركة فى الانتخاب إلى البرلمان قوة ومنزلة متزايدتين . ثم إن تنافس الجماعات صاحبة الامتياز دفع كل قلة منها إلى المطالبة بتوسيع حق الانتخاب أملا فى تأمين الاستمرار فى سلطانها عن هذا الطريق . حتى إذا خرج

---

(١) Beard, Economic Basis of Politics, p. 78.

(٢) أندروجاكسون (١٧٦٧ — ١٨٤٥) سابع رئيس للولايات المتحدة (١٨٢٩–١٨٣٧) (المترجم) .

(٣) يشير المؤلف إلى نوعى الحكومة اللذين ذهب إليهما أفلاطون ، فأفضل حكومة هى المدينة الفاضلة ، التى بسطها فى كتاب الجمهورية ، وهى حكومة الفرد الفيلسوف . ثم عدل عنها فى كتاب النواميس إلى أفضل حكومة ثانية ، وهى حكومة الطبقة الوسطى ، وعلى هذا الأساس اعتمد أرسطو (المترجم — وانظر كتاب تطور الفكر السياسى تأليف ساباين وترجمة حسن العروسى) .

السادة من الحكم ، دخـــل الشعب فى الحكم . وحين انتهى سلطان الرجال ابتدأ سلطان النساء ، فنحن اليوم جميعاً قد غاصت أقدامنا فى الوحل فأصبحنا فى مأزق جدير بخيال البارون مونشاوزن [1] Munchausen ، فمن يخرجنا من هـــذا المأزق وجميعنا قد وقع فيه ؟

وعلى حين كانت هذه الأسباب العامة تتفاعل فى أوربا ، مفضية فى انجلترا وفرنسا وألمانيا إلى ثورات ١٦٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٩١٨ ، وفى روسيا فى المرحلة الأولى إلى ثورة ١٩١٧ ، إذا بهذه العوامل تعضدها عوامل خاصة فتؤدى إلى نمو الديمقراطية الأمريكية . أما ثورتنا التى وقعت عام ١٧٧٦ ، والتى بعد عهدنا بها فلم نعد نعجب بها ، فلم تكن فقط ثورة مستعمرات على انجلترا ، بل أكبر الظن أنها كانت فى أساسها ثورة طبقة متوسطة على الأرستقراطية الوافدة . لقد كانت جزءاً وبضعة من تلك السلسلة الطويلة من الزلازل السياسية التى قوضت أركان العالم الغربى وغيرت وجهه ، وكسرت شوكة ملاك الأرض الأشراف وحطت بمنزلتهم ، وشيدت حكومات شعبية فى كل مكان .

وكما أن انتصار رجال المال على الأشراف Barons فى أوربا سهله ثورات الفلاحين ، وطمع الأجراء فى الأرض المتحررة من حقوق الإقطاع وعشوره ، كذلك عندنا فى الولايات المتحدة سهلت وفرة الأرض الحرة ظهور الطبقة الوسطى وأسرعت برفع شأنها . لقد وفدت الديمقراطية إلى أمريكا وفوداً طبيعياً ، لأن أمريكا بدأت بالمساواة والحرية . والديمقراطية الحقـــة ، كالشيوعية ، تميل إلى الظهور عند البدايات البسيطة للحضارة أكثر من مراحلها الأخيرة التى تمتـــاز بالتعقيد والترف والتميز . ولقد عجب دى توكفيل [2] من المساواة الاقتصادية التى شاهدها عندنا سنة ١٨٣٠ . فالأرض يمكن الحصول عليهـــا بطلب

---

(١) البارون مونشاوزن شخصية كتب رحلات خرافية ، وبطل عدة قصص صغيرة ، ساح فى البلاد ووقعت له وقائع غريبة (المترجم) .

(٢) هو الكونت شارل هنرى موريس دى توكفيل De Tocqueville (١٨٠٥–١٨٥٩) مؤرخ فرنسى مشهور بدراسته للطبيعة ، والديمقراطية ، وكان يهدف إلى ازدياد حكم الشعب مع الحد فى الوقت نفسه من ميوله الفاســدة . أشهر كتبه هو الديمقراطيـــة فى أمريـــكا ١٨٣٥ – ١٨٣٩ La Démocratie en Amérique (المترجم) .

من الكونجرس — وهو امتياز مقصور الآن على الاتحادات . كانت الديمقراطية حقيقة فعلية ، لأن المساواة السياسية كانت تعتمد على مساواة متقاربة فى الأملاك ، وعلى ملكية واسعة للأرض . فالناس الذين كانوا يقفون على أرضهم الخاصة ويتحكمون (فى الحدود الطبيعية) فى الظروف التى يعيشون فيها ، كانت لهم شخصية وخلق ، ويمكن تسميتهم ديمقراطيين ، لا على المعنى الضيق وهو مجرد الاقتراع كل أربع سنوات . مثل هؤلاء القوم هم الذين رفعوا جيفرسون إلى مرتبة الرياسة — جيفرسون الذى كان متمسكاً بالرأى مثل توماس بين[1] Thomas Paine ، ومحافظاً إلى الحد الذى يمكن أن يكون عليه أى رجل ، والذى أيد قيام ثورة كل تسعة عشر عاماً . مثـــل هؤلاء الرجال هم الذين هيأوا لإمرسون Emerson [2] أساس الفردية التى تعتمد على نفسها ، ولهويتمان Whitman [3] تمجيد الرجل العادى . مثل هؤلاء الرجال هم الذين خلعوا على اليانكى Yankee [4] ما اشتهر به فى أوربا من كياسة (شطارة) ، وفردية ، واستقلال فى الرأى — ذلك ما كان منذ زمن ، ولكن هذه أسطورة تبلغ اليوم من الغرابة فى نظر الباحث فى السياسة المعاصرة مبلغ استحالة انتخاب شخص مثل جيفرسون .

ثم تزاحمت عوامل ثانوية على المسرح . ولا نزاع فى أن حرية المنافسة أثناء الأيام الأولى من جمهوريتنا قدمت أساساً آخر للاستقلال والشخصية . ولعل نسبة مهرة العمال كانت أكبر مما هى الآن ، حيث تتدفق جموع الفلاحين من القارة الأوربية فيكونون الطبقة العاملة العاجزة فى مدننا . لم يكن الناس فى تلك الأيام الأولى مجرد « أيد » ، ذلك أن الفخر بالمهارة فى صناعة معينة عضد للخلق ،

---

(١) كان جيفرسون ثالث رؤساء جمهورية الولايات المتحدة (١٨٠١ — ١٨٠٩) وهو الذى كتب صيغة وثيقة الاستقلال ، وأسس الحزب الديمقراطى الجمهورى . أما توماس بين (١٧٣٧— ١٨٠٩) فهو كاتب إنجليزى سياسى كان من أنصار ثورة المستعمرات الأمريكية وكذلك الثورة الفرنسية ، وحث دائماً على الثورة والاستقلال بدلا من الإصلاح (المترجم) .

(٢) إمرسون (١٨٠٣ — ١٨٨٢) كاتب وشاعر أمريكى مجد الطبيعة والأخلاق والفردية المتطرفة . ويعدونه مؤسس الفلسفة الأمريكية (المترجم) .

(٣) هويتمان (١٨١٩ — ١٨٩٢) شاعر أمريكى امتاز بالفردية فى شعره وتمجيده الديمقراطية (المترجم) .

(٤) اسم يطلق على سكان الولايات المتحدة الشمالية . وكانت فى الأصل تدل على الشطارة أو المهارة فيقال : « حصان يانكى » أى حصان أصيل (المترجم) .

ودعامة تقف فى وجه ذلك التجريد بالحملة للفردية ، والذى يتم عن طريق التعليم الموحد والصحافة . وأيضاً فإن العزلة الريفية لأوائل المواطنين كانت تعزز إلى حد ما حريتهم وتغذى ديمقراطيتهم ، كما أعطتنا عزلتنا الدولية الحرية والأمن فى حدود بحارنا التى تحمينا . فهذه الظروف مع عشرات غيرها تعاونت كى تجعل الديمقراطية الأمريكية حقيقية .

٢ — فساد الديمقراطية

وقد انقضت جميع تلك الظروف ، وانتهى أمر العزلة الدولية مع انتشار التجارة والمواصلات ، واختراع الأسلحة المدمرة التى تسهل الغزو . وانقضت العزلة الشخصية بسبب الاعتماد المتزايد بين المنتج والموزع والمستهلك، وأصبحت المهارة اليدوية اليوم شذوذاً ، لأن الآلات مصنوعة لتسيير الآلات ، كما أن الإدارة العلمية تهبط بالمهارة إلى غباء الروتين غير الإنسانى . ولم تعد هناك أراض حرة ، وازدادت الملكية . وفسدت المنافسة الحرة ، التى قد توجد بعض الوقت فى ميادين جديدة مثل صناعة السيارات ، ولكنها تتجه فى كل مكان نحو الاحتكار . أما التاجر الذى كان ذات يوم مستقلا فقد وقع بين براثن الموزع الكبير : إنه يختفى ليدخل فى سلسلة الصيدليات ، وسلسلة محـلات السجائر ، وسلسلة البقالين ، وسلسلة محلات الحلوى ، وسلسلة المطاعم ، وسلسلة المسارح . . . . كل شىء أصبح حلقة فى السلسلة . حتى المحرر الذى يملك صحيفته الخاصة ويصوغ أكاذيبه على هواه أصبح اليوم عضواً أثرياً ، لأن آلافاً من الصحف فى عرض البلاد تروى الأكذوبة نفسها وبالطريقة ذاتها أحسن فأحسن كل يوم . وأصبحنا نجد أن نسبة تزداد قلة باستمرار من رجال الأعمال (وبينهم عدد يزداد باستمرار قلة من أصحاب البنوك والمديرين) هى التى تهيمن على حياة وأعمال نسبة من الناس تزداد على الدوام كثرة . إن طبقة أرستقراطية جديدة فى سبيلها إلى التكوين من الطبقة الوسطى التى كانت فيما مضى ثائرة . فلم تعد الحرية والإخاء والمساواة بعد الشعار الحبيب لرجال المال . وقد أصبحت الحرية الاقتصادية ، حتى فى الطبقات المتوسطة ، أندر وأضيق مما كانت عليه عاماً بعد عام . وجدير

بعالم أخذت تختفى منه حرية التنافس ، وتكافؤ الفرص ، والأخوة الاجتماعية ، أن تكون المساواة السياسية فيه وهماً ، وأن تصبح الديمقراطية حلماً .

وقد نشأ هذا كله لا (كما كنا نظن فى حرارة الشباب) من شذوذ الناس فى حياتهم ، بل من المصير المحتوم غير الشخصى للنمو الاقتصادى . ولا يمكن أن يتحرر الناس إلا حين يتكافأون فى القدرة والقوة تكافؤاً متقارباً ، ومع ذلك فإن مساواتهم تتحطم بما يظفرون به من حرية . هذا إلى أن التفاوت الموروث الذى لا يمكن تجنبه فى البأس والمقدرة يولد تفاوتاً اجتماعياً وصناعياً ، وتساعد الاختراعات والكشوفات على أن تجعــل البأس أعظم بأساً ، والوهن أشد وهناً . والمساواة علاقة غير مستقرة مثل كفتى الميزان الذى تريد أن تضبطه ، فهى تنقص بمقدار ما ينمو التنظيم والتعقيد ، لأن طبيعة التطور الاجتماعى ذاتها تستدعى تفاوتاً متزايداً من جهة أنها تخصص الوظائف ، وتميز بين القدرات ، وتجعل الناس متفاوتين فى المنزلة بالإضافة إلى المجتمع . وفى ذلك يقول تارد Tarde : « ليست المساواة إلا مرحلة انتقال بين نظامين ، كما أن الحرية ليست إلا طريقاً بين نظامين » . تأمل كيف تفوقت آلاف من الصور الاقتصادية والسياسية على المساواة الأصلية فى المستعمرات الأمريكية وقلبتها رأساً على عقب ، إلى درجة أن الهوة اليوم بين أكثر الناس وأقلهم حظاً فى أمريكا أعظم اتساعاً من أى يوم مضى منذ عهد روما فى ثروتها . وأى نفع للمساواة فى الانتخاب حين تكون القوة موزعة هذا التوزيع غير المتكافىء ، وحين ينبغى أن تخضع القرارات السياسية لملايين الدولارات أكثر مما تخضع لملايين الناس ؟

إن أعمق أساس لما يسود حياتنا السياسية من نفاق وفساد هو هذا الاختفاء للمساواة والحرية الاقتصاديتين . وهنا أيضاً نجد أسباباً أخرى تعاونت على هذا النفاق والفساد ، وتجاهل هذه الأسباب يجعل فهمنا للمشكلة مزعزعاً ناقصاً . ولنشرع فى ذكرها فى إيجاز لا يخل بالوضوح .

فهناك أولا النمو المطرد فى حجم الوحدة السياسية — أعنى التوسع الإقليمى للولايات الأمريكية — فكلما اتسعت أطراف الولاية State ، كلما كان احتفاظها

بالشخصية والديمقراطية أشد عسراً . أوكما قال ﻫ . ج ولز : « تموت الديمقراطية إذا ابتعدت خمسة أميال عن مضخة القرية » . فقد كان يعنى بذلك الديمقراطية فى دولة المدينة الإغريقية حيث كان فى استطاعة الناس أن يجتمعوا ، « وأن يصوت لنا بشخصه » حسب تعبير توم بين Tom Paine . ثم إن حكم عـــدد كبير من السكان أسهل من حكم العدد الصغير ، لأن قصورهم عن الحركة أعظم ، واتفاقهم على الألم أو اتحادهم فى العمل أصعب . وقد اتفق بركليس وكليون فى الرأى ، رغماً من اختلافهما فى كل شىء آخر ، على أن الديمقراطية غير ملائمة للإمبراطوريات .

وهناك — ثانياً — التعقيد المتزايد فى الحكومة ، وهو ثمرة طبيعية للتوسع فى الوحدة السياسية ، والتشابك المطرد فى العلاقات الاقتصادية للدولة . كانت الحكومة فى الزمن القـــديم تشمل الملك وندماءه ومحظياته ، أما اليوم فإنها إدارة شاســـعة ومكدسة تسعى للتوفيق بين آلاف الجماعات المتنازعة . وهى تحتاج من الذين يعملون بها ولو كانت أصغر الأعمال أن يشتغلوا كل الوقت . ومن المستحيل حكم الدول الحديثة بتلك الطريقة من الإدارة الشعبية فى مجالس القضاة ، أو بتلك القرارات السريعة التى كان تصدرها المجالس الشاسعة العدد الجاهلة ، التى منحت أثينا حرياتها وأسرعت بها إلى القبر . ومن الطبيعى جداً أن تنمو « الأجهزة machines » فى كل حزب ، وكل اتحاد ، وكل منظمة ، وكل برلمان . والديمقراطية هى القالب الذى تنمو فيه حكومة القلة ، لأن الناخبين مشغولون بأمر معاشهم اليومى ؛ فكيف يسايرون آلاف المشكلات التى تنشأ وتتغير فى أحزابهم أو اتحاداتهم أو كنائسهم ؟ لن يستطيع الناخب أن يجيب بفطنة عن الأسئلة التى تعرض عليه ؛ لأنه لا يعرف . والديمقراطية هى حكومة أولئك الذين لا يعرفون .

من أجل ذلك كانت الحرب أول كوارثها . وقد تنبأ دى توكفيل بأن على أمريكا أن تتخلى عن الديمقراطية فى اللحظة التى تشتبك فيها بسياسة أوربا وحروبها . ومن أقوال ماكولى : « كم من جيش انتصر تحت إمرة قائد سيىء ؛ ولكن لا يوجد أى جيش انتصر ووراءه مجتمع منقسم على نفسه فى جدل بينهما » . وتتجه اتحادات العمال إلى الأوليجارشية للسبب نفسه : فهى منظمات حربية تستهدف

الهجوم والدفاع . « إن الديمقراطية ترف ولا يمكن الاحتفاظ بها إلا فى عالم آمن سلمى إلى حد ما » [1] . ويعرف الرجعيون هذه الحقيقة ، وقد يعتمدون عليها فى إحداث حرب عارضة كبديل عن تحديد النسل ، أو كنظام يوحد إرادة الأمة . وليست الديمقراطية دواء يشفى من الحرب ، بل الحرب هى علاج الديمقراطية . ولعل العلاج يصبح مستديماً حين يجرى ساستنا العملية الجراحية الدولية القادمة .

وآخر الأسباب العاملة على إخفاق الديمقراطية هو شيوع الجهل . وفى ذلك يقول إمرسون : « إن بلاهة الناس داعية على الدوام إلى أن تسفر القوة عن وجهها » [2] . وقد أيدت اختبارات الذكاء رأى أولئك الذين راقبوا الانتخابات خلال العشرين السنة الماضية . فقد ذهبت نظرية الديمقراطية إلى أن الإنسان كان حيواناً ناطقاً . ولا ريب أن بعضكم قد رأى هذه العبارة تجرى فى كتاب من كتب المنطق . غير أن الإنسان حيوان انفعالى ، وعاقل أحياناً ، ويمكن أن يخدع بطريق مشاعره إلى حد الرضا التام . وقد يكون من الصواب ، كما ذهب لنكولن فى اعتقاده ، « أنك لن تستطيع استغفال كل الناس كل الوقت » ؛ ولكنك تستطيع أن تستغفل عدداً كافياً منهم لتحكم دولة كبيرة . ولقد حسب بعضهم عدد المغفلين على ظهر هذه الأرض فقدرهم بنسبة مائتين فى كل دقيقة ، وهذا نذير سوء للديمقراطية .

ومن الواضح أن الديمقراطية ليست وحدها هى المخفقة ، بل نحن ؛ فقد عزب عن بالنا حين جعلنا من أنفسنا حكاماً أن نجعل من أنفسنا قوماً أذكياء . ظننا أن القوة فى وفرة العدد ، فلم نجد فيها إلا أمراً عادياً ، إذ كلما كان عدد الناخبين أكبر ، كان الأشخاص أو الصفات التى تتوافر فيهم عادية أكثر . فنحن لا نتطلب من نوابنا المنتخبين عظمة أو بعد نظر ، بل إنما نطلب لساناً ثلاَّباً ، وبعض السياسة التى تبعد شبح الجوع . وقد جاء فى أقوال بيكون : « كان قدماء الساسة يصفون الديمقراطيات بأن الشعب فيها كالبحر والخطباء أشبه بالريح » [3] . حقاً نحن لا نحفل كثيراً بمن يحكمنا ، بل لا نكاد نحس أننا محكومون ، كحالنا

---

(١) Weyl, W., The End of the War, p. 83.

(٢) Representative Men, p. 21.

(٣) (1) Advancement of Learning, p. 227.

قديماً حين كنا نظن أننا لا ندفع أى ضرائب لأننا ندفعها عن طريق المالك أو التعريفة الجمركية .

وكان ڤولتير يؤثر الملكية على الديمقراطية على أساس أننا فى الملكية لانحتاج إلا أن نعلم رجلا واحداً ، أما فى الديمقراطية فينبغى أن نعلم الملايين الذين يختطفهم الموت قبل أن نتمكن من تعليم عشرة فى المائة منهم . إننا لا نكاد نتحقق إلى أى حد تعبث نسبة المواليد بنظرياتنا وحججنا . فالأقلية تحصل التعليم وأسرهم محدودة العدد ، وليس للأغلبية وقت تنفقه فى التعليم والأسرة فيها واسعة العدد ، ويكاد كل جيل ينشأ فى بيوت يبلغ دخلها من الضآلة حداً لا يسمح بالإنفاق على ترف المعرفة . وهذا هو السر فى أن مذهب الحرية السياسية كان على الدوام عديم الجدوى ، لأن الدعاية إلى العقل لا يمكن أن تلحق انتشار الجهلاء . وهذه هى العلة فى ضعف البروتستانتية ، لأن الدين كالأمة لا تنقذه الحروب التى ينتصر فيها ، بل الأطفال الذين تحسن تربيتهم .

وهذا أيضاً هو السر فيما يسود الديمقراطيات من إيثار المحافظة على التقاليد. وكان أناتول فرانس ينعى على الجماهير الخوف من التجـــديد neophobia . وكان بسمارك يلجأ إلى الانتخاب العام لتأييد السياسة الملكية . وفى ذلك يقول العجوز الساخر : « إنى أعد الانتخاب المباشر والتصويت العام أعظم ضامنين للاتجاه المحافظ أكثر من أى قانون انتخابى صناعى » [1] وقد ظفرت المرأة بحق الانتخاب فى يسر ؛ لأن زعماء الأحزاب كانوا يعتقدون أن هذا يدعو إلى المحافظة . وأقر الأحرار بعض الإصلاحات منها استفتاء الشعب ، فطرح المحافظون هذه الإصلاحات على الشعب يستفتونه ، ورفضت الإصلاحات بما فيها الاستفتاء [2]. وقد أدى توسيع الانتخاب فى انجلترا سنة ١٩١٨ إلى تولى أشد الحكومات رجعية خلال نصف قرن . وقد رفع قانون الانتخاب الإجبارى فى استراليا نســـبة الناخبين من ستين فى المائة ســـنة ١٩١٢ إلى تسعين ســـنة ١٩٢٥ وأثمر نصراً للمحافظين ساحقاً .

---

(١) Headlam, J. W. Bismarck, p. 255.

(٢) Maine, Sir H., Popular Government, p. 40.

لقد تنبأ السير هنرى مين فقال : « من أغرب الأفكار العامية القول بأن انتخاباً واسعاً شاملا يمكن أن يدفع عجلة التقدم والأفكار الجديدة ، والمسكتشفات الجديدة ، والاختراعات الجديدة ، وفنون الحياة الجديدة . الحق أن فرض مثل هذا الانتخاب سينتج ضرباً سيئاً من المحافظة » [1] . فعلينا إذن أن نسلم للإنجليز المتعصبين لفكرة أن الديمقراطية تبدو معادية للعبقرية ونافرة من الفن ، لأنها تغلو فى تقديرها للأمور التى تقبلها أفهام أوساط الناس ، فهى تبنى قصوراً من الصور المتحركة وتظن أنها البارثينون[2] Parthenon. ولو كان المجلس الأثينى قد اتبع منهجاً ما ظهر إلى الوجود أى بارثينون على الإطلاق[3]. قد يكون الاستبداد الفكرى للأغلبية مزعجاً كاستبداد الملوك السياسى ، فى بعض الولايات الأمريكية نجد أن القليل من المعرفة شىء خطر . وهذا الشك الديمقراطى فى الفردية هو ثمرة نظرية المساواة ، إذ ما دام جميع الناس سواسية فإن عدد الأصوات يجب أن يثبت قواعد أى حقيقة ، ويحيط أى عرف بسياج من القداسة . وليست الديمقراطية ثمرة عصر الآلة فحسب ، أو ثمرة تحكم عن طريق « الآلات » فقط ، بل تحمل فى طياتها احتمال استعمال أفزع الآلات على الإطلاق ، وتلك هى مطرقة هائلة من الإرغام الجاهل الذى يمحو التفاوت ، ويسحق العقل الذى يشذ ، ويثبط عزيمة الامتياز الخارج على التقاليد . ولست تجد التربية فى أى مكان من العالم ينفق عليها وتجهز بمثل هذا الإسراف الذى يوجد فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك فلن تجدها قليلة التوقير والاستفادة منها فى أى مكان كالحال فى الولايات المتحدة ، فقد وهبنا أنفسنا على نطاق واسع لهذه المهمة فأنشأنا نظاماً لم يسبق له مثيل من المدارس ، والمدارس العليا ، والكليات والجامعات ، والآن وقد تم بناؤها جميعاً وامتلأت جميع أماكنها ، إذا بنا نخرج بالتعليم عن أن يكون ميزة للوظائف العامة .

٣ — أساليب الديمقراطية

تنشأ فى الأمة التى تحكمها أقلية حكماً فعلياً ولابد لها من بعض المظاهر للرضا الشعبى ، طبقة خاصة ليست وظيفتها الحكم بل الحصول على موافقة

(١) In Sellars, R., The Next Step in Democracy, p. 216.

(٢) البارثينون معبد للآلهة أثينا بنى بين سنتى ٤٤٧ و ٤٣٢ ق . م (المترجم) .

(٣) Plutarch, Life of Pericles.

الشعب لأى سياسة قد تقررها تلك القلة التى لا يمكن الاستغناء عنها ، والتى تختفى فى قلب كل دولة ديمقراطية . ونحن نسمى هذه الطبقة من الناس بالساسة ، ولن نتحدث عن أشخاصهم .

ينقسم الساسة إلى أحزاب يندرج الشعب تحتها فى معسكرات متعادية . ومما يسهل مثل هذه التنظيمات الروح الطبيعية فى الإنسان للتحزب . والأحزاب أثر من آثار الولاء القبلى للحرب . فالمتوحشون فى استراليا يرحلون من طرف قارتهم الشاسعة إلى الطرف الآخر كى يتخذوا فى ميدان القتال جانب أولئك الذين يلبسون الطوطم نفسه الذى يلبسونه(1). ولا يزال الطوطم هو الذى يعيننا على تنظيم أنفسنا ، ويبدو أن الأحزاب التى تتخذ الفيل أو الحمار شعارها المقدس تفلح أكثر من تلك التى تختار بسذاجة الشعلة شعارها .

وقد أصبح التنظيم الحزبى اليوم عظيم النفقات ،ويحتاج إلى ملائكة — أى مثاليين واقعيين يدفعون ثمن ما تتكلفه (صالات) الاجتماعات ، وقاعات الأندية ، والرحلات والحملات الانتخابية ، ويقنعون كمكافأة لهم باختيار المرشحين ، والحصول على بعض العقود والمناصب ، والحماية من قيود بعض القوانين السخيفة المزعجة ، كما يلعبون دوراً هادئاً فى مهام التشريع الشاقة . ولقد صدق من قال : « إن الذين يعينون يحكمون »(2) . ولا يمكن للشعب أن يعين أحداً حتى فى المناصب الكبرى ، لأنه غير منظم وتنقصه المعلومات . ولكن قد يكون الشعب موضع الثقة فى توزيع مرشحيه بمساواة تقريبية . ولكن قلة صغيرة بشرط أن تكون منظمة تنظيما حسناً تستطيع عادة إذا أعطت جميع أصواتها فى جانب واحد أن تقر اتفاقاً ، أو تتولى منصباً رئيسياً ، أو تنجح فى انتخاب . ذلك أن «الجهاز machine» ينتصر لأنه قلة موحدة تعمل ضد كثرة منقسمة . ولعل هذا هو الذى عناه كارليل حين قال : « الديمقراطية بطبيعتها شىء يلغى نفسه بنفسه ، ويؤدى فى نهاية الحساب إلى نتيجة هى صفر صحيح »(3) . وقال الديمقراطى المتحمس جان جاك

---

(1) Maine, Popular Government, p. 31.

(2) Crozier, J.B., Sociology Applied to Practical Politics, p. 48.

(3) Chartism, p. 74.

روسو : « الديمقراطية الصحيحة لم توجد قط ، ولن توجد أبداً ، إذ مما يعارض طبيعة الأشياء أن تحكم الأغلبية الأقلية » . وجميع ألوان السياسة عبارة عن تنافس بين الأقليات المنظمة . أما الناخبون فرياضيون نظاف يهللون للمنتصرين ويسخرون من المهزومين ، ولكنهم لا يساهمون فى النتيجة .

فالانتخاب فى ظل مثل هذه الظروف من النوافل التى لا لزوم لها ، وهو يجرى فى الأغلب لتخفيف وطأة الرقابة الاجتماعية ، وذلك بترسيخ هذه الفكرة فى عقول الشعب ، وهى أن القوانين قد صدرت منهم . ومن أقوال منتسكيو أن الضرائب فى الحكومات الديمقراطية قد تكون أفدح من غيرها دون إثارة روح المقاومة ، لأن كل مواطن يراها ضريبة يدفعها لنفسه (١) . فالدولة هى الشعب (٢) ، ورئيس الدولة هو رئيس خدمه . أثِر زهو أى رجل تحصل منه على ما تريد . كان الرومان يحكمون الشعب بأن يوفروا له « الخبز وألعاب السرك Panem et circenses » وليس على حكامنا إلا أن يقدموا لنا ألعاباً مرة كل أربع سنوات — وسنوفر الخبز لأنفسنا ، وندفع ثمن دخول السرك .

وتكاد أن تكون المزية الوحيدة للانتخابات من هذه المقدمات السابقة هى فرصة التعليم المتاحة للشعب نتيجة إثارة وعيه ، ومع ذلك ففى معظم الأحوال تمحو الإحساس بخطر الأحداث الجارية هذه الفرصة . وما قيمة السياسى إذا لم يستطع أن يخترع بعض مخارج مسلية وغير هامة يصرف بها أعين الشعب عن المشكلات الواقعة بالفعل . مثال ذلك أنه فى انتخابات كندا سنة ١٩١٧ أخفيت بدهاء حيلة التجنيد الإجبارى بدلا من التطوع بالدعاية القائلة إن انخذال اقتراح التجنيد الإجبارى يعنى سيطرة العنصر الفرنسى من الشعب على كندا ، فنهض السكان الإنجليز جماعات وصوتوا للسيطرة الإنجليزية والتجنيد الإجبارى . وإذا أحسن العرض السياسى راجت أى أنواع السياسات العتيقة ، وتصبح الانتخابات مباراة فى التزييف والصخب ، وكلما خفت صوت الحجج السليمة ضاعت الحقيقة فى تيار الشغب . أضف إلى ذلك إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية كى

---

(١) The Spirit of Laws, Introduction, p. XXI.

(٢) يشير المؤلف متهكماً إلى عبارة لويس الرابع عشر : الدولة هى أنا L'état c'est moi فيقول هنا إن الدولة هى الشعب L'état c'est lui (المترجم) .

تحتفظ جماعات المحافظين فى الريف بالسلطان ؛ وحرمان عدد كبير من السكان من التصويت بسبب تجوابهم البلاد وكثرة تحركهم ؛ ونسبة من الغش والعنف عند صناديق الانتخاب — تخرج من هذا كله بالديمقراطية . تحت مثل هذه الظروف « يصبح الصوت الانتخابى فى قيمته كتذكرة فى قطار حين يكون خط السكة الحديدية معطلا باستمرار » (١) . فلا غرابة بعد ذلك أن تهبط نسبة الأصوات الفعلية عن الأصوات المقيدة من ٨٠٪ سنة ١٨٨٥ إلى ٥٠٪ سنة ١٩٢٤ . ولا عجب أن يرفض العقلاء الوقوف فى طابور ساعة لتقييد أسمائهم فى الجداول ، ثم ساعة أخرى للتصويت ، أى لاختيار ا أو ب ، مع أن كلا منهما ينتسب لشخص مجهول (٢) .

ومع ذلك فلنفرض أننا قد صوتنا ، وتمت الانتخابات ، وارتفعت أسعار السندات ، وذهب الشيوخ المنتخبون والنواب إلى واشنجطون (بعد بضعة أشهر) لتأليف الكونجرس عندنا أو البرلمان ، وهو ندوة أحاديثنا أو ندوة الثرثرة الوطنية ، فلن تجد أغرب من المفاجآت التى يلقاها هؤلاء الرجال والنساء المنتخبون ، ليس فقط لأن الرجال حين يجتمعون فى المجالس تطول فى الحال آذانهم (٣) . فقد اختير الشيوخ والنواب لما لهم من مقدرة سياسية تعناها الأمريكى ، أى القدرة على تعيين أنفسهم ، والإعلان عنها ، والتهليل لها ، وانتخاب أنفسهم ، فهم يملكون هذا الضرب من القدرة بشكل متقدم جداً ومتخصص . وهم عادة إمعات يسهل خضوعهم للنظام ، ذوو ضمير مطاط ، وخالون من الأصالة أو العبقرية الخطرة . فلن تجد شيئاً أقرب إلى حرمانهم المنصب (أو الاقتراب من المنصب) من العبقرية من أى حزب كانت — وفوق كل شىء العبقرية فى فن السياسة . فقد أصبح واضحاً فى هذا الزمان أن فرصة الرجل فى بلوغ المناصب العالية هى اشتهاره بالتفاهة .

وفجأة يجد ممثلونا أنفسهم غارقين فى مشكلات بعيدة كل البعد عن نوع

---

(١) Chesterton. G. K., Short History of England, p. 266.

(٢) لقد ازدادت نسبة الأصوات الفعلية للأصوات المقيدة بشكل محسوس حين هيئت الفرصة سنة ١٩٢٨ للناخبين أن يصوتوا على نائب معلوم الصفة .

(٣) Voltaire in Morley, J., Diderot and the Encyclopedists, vol. ii, p. 232.

المشكلات التى كانوا يحلونها وهم فى الطريق إلى السلطان . كانت تلك مشكلات سياسية : الولاء الصابر لقادة الناحية والمركز والإقليم ؛ التأثيرات الجارية من وراء ستار ، وألوان التفاهم السرية ؛ الأحاديث ، والتعهدات ، والإنكارات ، وتوجيه الإعلان ؛ والمساهمة بالأموال سراً ، والتى تنفق فى التحايل على القانون ؛ الأفضال التى يختص بها الأقوياء ، والوعود التى تبذل لغيرهم . أما هذه المشكلات التى يواجه أعباءها فى واشنجطن ويضطرب فى غمارها عندما تفرض آلاف مشروعات القوانين ، فهى مشكلات اقتصادية : تتعلق بأصحاب الأملاك ، والمواد الخام ، ومناجم الفحم ، وآبار الزيت ، والقوى المائية ، والإنتاج ، والمنافسة ، والنقل ، والملاحة ، والطيران ، والتحكيم ، والتوزيع ، والأسواق ، والمالية ، وهذه كلها تتطلب تفاصيل مستورة لا يفهمها إلا الإخصائى ، ولا يقوى على تحمل آلامها رجل اختصاصه شد الحبل — وعندئذ يلجأ ممثلونا إلى صحفهم ، ويصوتون كما يقال لهم.

وكلما أصبحت الحكومة أعظم تعقيداً ، أصبح الموظفون المنتخبون أقل أهميــة ، والخبراء المختارون أكثر قيمة ، وتعلو السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، لأن التنفيذية مزودة ومدعمة باللجان الفنية — مكاتب الاحتياطى Federal Reserve Boards ، ولجان التجارة ، ومكاتب العمل ، ولجان التجارة الداخلية ، ولجان الدين . . . ففى أثناء حكم الرئيس هاردنج فوجىء أعضـــاء الكونجرس بأن وجدوا أنفسهم وقد وضعوا فى طابور خلف أعضاء إحدى اللجان المذكورة سابقاً . واحتج المجلس بعشرات من « مما أن » « إذن » ، ولكن المستر هاردنج أجابهم بتلك الدماثة التى كانت كافية أن تجعل منه رئيساً . ولكن القشة بينت اتجاه الريح ، وهو أن « الحكومة النيابية » قد انهـــارت ، ولم تستطع الديمقراطية أن تجد طريقاً لانتخاب ذوى القرائح فى المناصب ، لأنهم كانوا قد شغلوا السلطة حين كانت الديمقراطية تلقى الخطب أو تقرأ الصحف .

أكان هذا هو السبب فى إلحاحنا على خصومنا باصطناع الديمقراطية ؟ يتحدث نيتشه عن « الاستعداد لتأييد شكل الحكم الديمقراطى فى الدول المجاورة — أو الفوضى المنظمة le désordre organisé كما يقول ميريميه Mérimée (١)

(١) ميريميه (١٨٠٣ — ١٨٧٠) قصصى فرنسى اشتهر بقصصه التاريخية . وقد تعلم مريميه علم الآثار القديمة ، وشغل منصب مفتش الآثار التاريخية فى فرنسا (المترجم) .

وذلك لسبب واحد وهو أن هذا الشكل من الحكم يجعل الدولة الأخرى أضعف ، وأكثر ميلا للهو ، وأقل صلاحية للحرب »[1] . ولعل تربع الديمقراطية على عرش التفاهة والعجز والغش والفساد له بعض الصلة بالانتقال الأفلاطونى من الحكم النيابى إلى « الاستبداد » أو الدكتاتورية فى إيطاليا وأسبانيا واليونان وروسيا وبولندا والبرتغال ، والخوف من تطورات مماثلة فى فرنسا . أما فيما يختص بنا ، فانظر ماذا حدث : هزمت قوى الإصلاح السياسى معظم الوقت ، وحيث ظفرت بنصر ضال كان ذلك عن طريق اصطناع الأساليب التى يتبعها « الجهاز machine » — ولذلك كان لانتصار « الإصلاح » فى بعض الولايات بعض صفات انقلاب العالم نحو المسيحية ، ولم يكن واضحاً تمام الوضوح أى الحزبين هو الذى تحول نحو صاحبه . وذكرت الصحف فى ذلك الحين : « أن السياسة اليوم تتحكم فيها « الأجهزة » تحكماً تاماً كما كان الحال فى حدود سنة ١٨٨٠ ... فالساسة المحترفون هم حكامنا أكثر فأكثر . وبعد خمسين عاماً من الصراع هزموا فى النهاية عدوهم وهو المصلح »[2] . لقد انتصرت التفاهة ، وفر الذكاء فى كل مكان من مجالس الديمقراطية كما يفر أمام سيل جارف ، وتربع المغفلون فى السرج وامتطوا صهوة البشر .

نعم هذه نظرة من جانب واحد ، ملخصة للاتهام ، أكثر منها تحليلا كاملا . أما الجانب الآخر من فضائل الديمقراطية فقد كثر امتداحه بحيث لا يحتاج منا إلى تكراره فى هذه الصفحات . حقاً إن استبداد الأغلبية بالأقلية أفضل (عدداً) من استبداد الأقلية بالأغلبية ؛ وإن الحرمان الديمقراطى من حق الانتخاب للرجل المتعلم ليس أسوأ من خضوع أصحاب المواهب الحديدة لأرستقراطية ذوى الحسب القديم ؛ وإن الديمقراطية قد رفعت روح الرجل العادى وملأته زهواً بمقدار ما حطمت عبقرية الفرد الشاذ وأجدبته ؛ وإن الناخب صاحب القوة المطلقة عنده الآن شعور بشخصية متحررة تعمل إلى حد ما على تكوين الشجاعة وبناء الخلق ؛ وإنه لا يوجد بيننا الآن عبيد للأرض (عن شعور) ، وإن كل رجل

---

(١) Human All Too Human, vol. i § 453.

(٢) The New Republic, Dec. 1925.

يعرف أنه قد يكون رئيس الدولة فى المستقبل . لعله كما قال برايس Bryce [١] بعد دراسة صابرة : إن هناك بعض صور الحكومات أسوأ من الديمقراطية .

غير أننا كلما ازداد فحصنا للديمقراطية ازداد انزعاجنا من عجزها ونفاقها ، إذ ما دامت السلطة السياسية غير حقيقية إلا إذا كانت تمثل السيادة العسكرية أو الاقتصادية ، فإن الانتخاب العام مظهر باهظ التكاليف . قد تدعى الدكتاتورية سيادة واحدة ، فهى من هذا الوجه أكثر أمانة . ومن أقوال نابليون : « ليست السلطة المطلقة فى حاجة إلى الكذب ، لأنها تعمل ولا تقول شيئاً » [٢] . والديمقراطية بغير تعليم تعنى النفاق إلى غير حد ، وتعنى انحطاط فن الحكم إلى السياسة ، وتعنى الاحتفاظ الباهظ التكاليف إلى جانب الطبقة الحاكمة الحقيقية بطبقة طفيلية كبيرة من الساسة وظيفتهم خدمة الحكام وخداع المحكومين .

وآخر مرحلة فى هذه المسألة هو حكم رجال العصابات ، ذلك أن المجرمين يزدهرون فى سعادة فى مدننا الكبرى لأنهم يضمنون حماية وتعاون القانون الكاملين . فإن كانوا ينتمون إلى « المنظمة Organisation » ، أو كان لهم فيها أصدقاء ، ضمنوا أنهم إذا ارتكبوا جريمة فلن يقبض عليهم ، وإذا قبض عليهم فلن يدانوا ، فإذا حكم عليهم فلن يرسلوا إلى السجن ، وإذا سجنوا فسيعفى عنهم ، فإذا لم يعف عنهم فسيسمح لهم بالهرب . وإذا قتلوا وهم يباشرون مهمتهم احتفل بدفنهم احتفالا عظيما يليق بعضو ينتسب إلى الطبقة الحاكمة ، ونصبت لوحات تذكارية لتمجيدهم . وهذه هى نهاية الديمقراطية البلدية municipal democracy .

وإذا أغضينا بعد ذلك عن هذا الشر النابع من أحلامنا المتمناة ، كنا جماعة من الجبناء . وإذا لم يكن فى استطاعتنا أن نجد طريقة لإصلاح الديمقراطية تنظفها من شرورها وتخلصها من جهالاتها ، فلنقدم دستورنا لأمة ناشئة ، ونستورد ملكاً .

---

(١) جيمس برايس (١٨٣٨ – ١٩٢٢) مؤلف إنجليزى وسياسى ، كان سفيرا فى الولايات المتحدة من ١٩٠٧ إلى ١٩١٣ ، وله كتاب عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وعن ممتلكات أمريكا (المترجم) .

(٢) Bertaut, J., Napoleon in His Own Words, p. 64.

٤ — حول أنفسنا

ماذا نحن فاعلون ؟

يجب أن يفهم حتى المصلح الثائر أن ما يمكن عمله قليل جداً ، ولا يمكن عمل شيء بسرعة . إن أعظم خطة نتمناها سيكون فيها من الإسراف الشديد الذى يغترف من ثروتنا الوطنية والخاصة للإنفاق منها على التعليم والاختراع والبحث العلمى كى ، تحسن عقولنا ، وتنقص عددنا ، وتجعل الشغل اليدوى أغلى من القوة الميكانيكية ، وتحل الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، وتحرر البشرية لمواجهة أعباء « المجتمع الأعظم » . وليس ثمة مع الأمد الطويل أى حل سوى التعليم ، فإلى أن يصبح الناس أذكياء فلن تتخلص المدن من الشرور . ولكن إذا كان العالم لم يفعل هذا كله من أجل أفلاطون [١] فالأشبه أنه لن يفعل هذا لأجلنا . وقد رأينا أى حيل شيطانية تلعبها نسبة المواليد بالتعليم . وأليق شيء بعد ذلك أن ندعو أفضل الناس فى البلاد علماً وأعظمهم قدرة ، بعد انتخابهم فى كل مهنة بوساطة أعضاء تلك المهنة ، فيلقى بعضهم بعضاً للنظر فى تجديد دستورنا ، والتوصية بإصلاحات جديدة للكونجرس والولايات ، وتأييد هذه التوصيات بهيبة المهن التى يشتغلون بها ، وبأموال أصحاب الملايين مما يكون كل مصلح على استعداد لبذله .

— أما أفضل خطة ثالثة فإنها تجرى كالآتى :

إن آفة الديمقراطية الحديثة فى الساسة والتعيين فى المناصب nomination . فلنلغ الساسة والتعيين .

لا ريب أن كل إنسان كان فى الأصل طبيب نفسه ، وأن كل أسرة كانت تصف لنفسها الأدوية ، إلى أن تجمعت المعارف الطبية ونمت مجموعة الأدوية ، فأصبح من المستحيل على الشخص المتوسط مجاراة « الفارماكوبيا » (الأقرباذين — دستور الأدوية) ، ونشأت طبقة خاصة من الناس خصصت جميع أوقاتها الحدية لدراسة علم العقاقير materia medica ، وأصبحوا أطباء محترفين . ولحماية الجمهور من الذين يمارسون العلاج بغير تدريب ، ومن أولئك المثابرين على هواية إجراء

---

(١) يشير المؤلف إلى رأى أفلاطون فى الجمهورية من أن المدينة الفاضلة تصلح بنظام من التعليم على رأسه الفلسفة (المترجم) .

التجارب ، منح الذين أتموا دراسة الطب درجة علمية يطمئن لها الجمهور ولقباً مميزاً . وقد بلغنا الآن الحد الذى يعد فيه خارجاً على القانون كل من وصف تذكرة دواء دون الحصول على مثل ذلك التدريب ، وتلك الدرجة العلمية من معهد معترف به ، ولم نعد نسمح لأشخاص لم يتهيأوا للعلاج أن يباشروا أمراضنا الشخصية أو أن نخاطر بأرواحنا ، فنحن نطلب من المعالج سنوات طويلة من عمره ينقطع فيها للدرس كى يصف لنا تذاكر الدواء ، أو يخلع لنا سنة .

أما أولئك الذين يعالجون آفاتنا غير الجسمانية ، ويخاطرون بمئات الملايين من الأرواح فى السلم والحرب ، وتوجد رهن إشارتهم جميع أملاكنا ومواهبنا ، فليس مطلوباً منهم أى إعداد خاص ، إذ يكفى أن يكون أحدهم صديقاً للرئيس ، مواليـاً للحزب organisation ، وسيما أو لطيفاً ، يحسن الترحاب ، يجيد النزال ، ويطيع الأوامر فى هدوء ، ويسخو فى بذل الوعود حسب الظروف . وليس من المهم بعد ذلك أن يكونوا من الجزارين أو الحلاقين ، من محامى أو محررى الأرياف ، من باعة الخمور أو الخنازير . فما داموا قد ولدوا فى كوخ من أكواخ أمريكا فمن المسلم به أن لهم حقاً إلهياً فى أن يكون أىّ منهم رئيس الجمهورية .

ولنتخيل صورة أبهج . لنفرض أن جامعاتنا العظيمة التى تشتمل على بذور أمريكا المنقذة قد أضافت إلى كلياتها مدرسة « للإدارة السياسية » ، وأنها لن تكون مدرسة نظرية بمقدار ماهى مدرسة عملية خاصة بالتفصيلات المحسوسة ؛ ولا مدرسة لمناقشة التاريخ السياسى ، أو « فلسفة الدولة » أو الملكية فى مقابل الأرستقراطية والديمقراطية والاشتراكية والفوضوية ، بل مدرسة تنزل بطلابها إلى الميدان الفعلى للإدارة المدنية . ستكون مدرسة تنظر فى مشكلات المدينة لا كما قد ينظر إليها ساسة الشوارع أو الإمعات المسيرون ، بل كما ينبغى أن يفكر فيها العالم ، أو المنفذ الذى رفعته الدربة والمقدرة إلى الحد الذى يرى فيه الإدارة فناً . فلو أن مثل هذا المنهج كان من الكمال والأمانة كمنهج مدرسة جيدة فى الطب ، فلن يجتذب من الناس إلا الجادين ذوى العقول العلمية ، وسيفزع منه بشكل عجيب القوم الذين يرتفعون اليوم إلى السلطان عن طريق بيع أنفسهم وتنميق أساليبهم . ولن تجد إلا قلة من المرشحين لمثل هذا التعليم منذ البداية ما داموا

لا يجدون ضماناً لشغل الأماكن السياسية بعد إتمام استعدادهم . ولكن انتشار خطة مدير المدينـــة لابد أن تفتـــح أبواباً ، وتنمو المدارس كما نمت مدارس الطب من قبل ، ولا مناص من دعوة مديرى المدينة الناجحين لرياسة هيئة التدريس .

هذا كله فى حدود الإمكان ، بل اليوم تقدم جامعاتنا الكبرى برامج تصلح أن تكون أساساً لهذه المدارس الإدارية . غير أن الخطوة التالية فى الإصلاح الذى نفترضه للديمقراطية يتطلب خيالا أوسع . ولنفرض أنه فى الوقت الذى نعد فيه هذه « المدارس » رجالا للحكم ، كانت هيئات أخرى قد أعدت الشعب بالدعاية المقروءة والمسموعة لهذه الفكرة الجديدة التى تتطلب حاجة حكامه للتعليم ، والتى تقدم مرتبات تتناسب مع المقدرة المطلوبة فى الحكومة الحديثة . ومن الواضح أن رأياً عاماً قد يتكون بحيث يشعر أى حزب سياسى أنه ليس من الحكمة تعيين أى رجل لم يعدّ هذا الإعداد الخاص للمناصب المدنية. ولا يبعد أن يأتى وقت يستغنى فيه عن التعيين أصلا كما هى الحال فى « الدستور Constitution » ، ويقدم الموظفون الإداريون بعد إعدادهم أنفسهم مباشرة مرشحين للانتخاب . ويجب أن يقتصر اختيار الشعب على هؤلاء وأن يكون له مطلق الحرية فى اختيارهم. لا ريب أن مجال الاختيار سيكون أوسع مما هو الآن وسيكون على أى حال سليما . سيكون ذلك امتحاناً لغفلة الديمقراطية ، وإذا صح مايقوله هرقليطس (١) عن الجماهير ، فهذا هو الضرب الوحيد من الديمقراطية الذى يمكن أن يعيش فى هذا العالم الواقعى .

أيمكن أن يؤدى مثل هذا الإصلاح إلى هدم جوهر الديمقراطية ؟ كلا ، بل إنه لضرورى للديمقراطية أن يشارك كل بالغ بالسوية فى انتخاب كبـــار الموظفين ، وليس من الجوهرى أن يكون جميع البالغين سواء فى الترشيح للوظائف . ذلك أن قيود المولد والسن والموطن موجودة من قبل ، فإذا أضفنا إليها الحاجة إلى

(١) هرقليطس فيلسوف يونانى من مدينة إفيسوس ، عاش فى القرن السادس قبل الميلاد ، وكان أرستقراطى التفكير والنشأة ، وصف الجمهور بأشد الصفات احتقاراً ، فهم لا يفهمون الأمور التى تقع عيونهم عليها ، وينساقون وراء غيرهم من المشهورين كالأغنام ، وغير ذلك من أقاويله (المترجم)

الإعداد فلن يكون ذلك إلا مجرد إضافة إلى تعقيد الحكومة المتزايد . وقد توسع الخطة الديمقراطية من ناحية زيادة عدد المرشحين أكثر من تضييقها من ناحية تحديد صفاتهم . والأولى أن نظامنا الحاضر هو البعيد عن الديمقراطية : إذ يحدد فرصة الناخب بين اثنين من المرشحين ، ولا تحقق الأساس الأعظم للديمقراطية بالنسبة للجميع إلا تحقيقاً ضئيلا ، نعنى المساواة فى التعليم ، والمساواة فى الفرص الاقتصادية . ولو اطمأن كل طالب بلغ مستوى معيناً من الامتياز أن المنح المدنية ومنح الدولة ستعينه من المدرسة إلى الكلية ومن الكلية إلى الجامعة حين يثبت أن مالية أسرته غير كافية ، فإن الطريق إلى أعلى المناصب ، وأحسن أطايب الحياة سيكون مفتوحاً للجميع بشروط متساوية ، بل إن القيود التى نقترحها هنا ستكون محترمة فى ديمقراطيتها . إن لب الديمقراطية هو تكافؤ الفرص ، غير أننا رضينا بالقشر ، ورمينا فى استسلام باللباب . فلنفتح جميع الأبواب للعبقرية حيثما ولدت ، ولسنا فى حاجة بعد ذلك أن نقلق بشأن أشكال الحكومات .

ولا نزاع فى أن عالمنا الصغير له خلله الذى لا يجب موازنته بالمدن الفاضلة بل بالأحوال الواقعة . ونحن حين نستبدل الجامعات بالصالونات والفنادق واسطة للتعيين ، لا يغيب عن بالنا أنه حتى الجامعات يمكن أن يتطرق إليها الفساد ، والمتخرجون فيها يمكن أن تفسد ذممهم وتشترى ضمائرهم . ومع ذلك فالمسألة مسألة اختلاف فى الدرجة ، إذ من المفروض أن الرجل الذى يحصل على درجة علمية ، أو الرجل الذى يبلغ به الشغف والشجاعة حد اختيار مهنة تتطلب إعداداً طويلا وشاقاً ، يكون عنده من الفخر بالمهنة ما يجعله يغار على شرفه ويخلص لعمله . ولا نزاع فى أن مستوى الأخلاق أرفع بعض الشيء بين العلماء منه بين الساسة ، وعلى الرغم من وجود بعض اللصوص والمهرجين بين صفوف الأطباء ، فمهنة الطب من المهن القليلة التى يسمح فيها « للأخلاق » أن تتدخل للكسب .

أما بالنسبة للجامعات فليس الأمر مسألة تعليم المذهب الراديكالى أو التقليدى ، لأن علم الإدارة ليست له إلا صلة ضئيلة بهذه التقسيمات الجليلة وعديمة الجدوى . ولا ريب أن القوة ستحكم فى ظل هذه الإدارة الجديدة بطريقة فعالة كما هى الحال الآن ، إلا أنها ستحكم حكماً أفضل بغير مضار وخشونة الغباء والسفه

والخبث . ولسنا نقدم هنا حلا « للمشكلة الاجتماعية » ، أو خطة يتمكن بها الضعيف من حكم القوى . وأكبر الظن أن القلة الماهرة ستستمر فى استغلال الأكثرية الأقل مهارة . ولسنا نملك سراً تتمكن به الديمقراطية من تجنب هذا النظام اللاأخلاقى للطبيعة . وليس غرضنا فى هذا المجال أن نجعل «الأنهار تتدفق خمراً والرياح تهمس بالموسيقى » ، بل أن نجعل أى حكومة من الاستطاعة والأمانة بمقدار ما تطيقه السيرة البشرية . فهذه هى مشكلة السياسة ، وهى المشكلة الوحيدة التى تعنينا ها هنا .

ونحن نميل فى هـــذه الأيام إلى اعتبار الفساد والجهل مزيتين طبيعيتين للمنتخبين ، ونسخر من أى اقتراح يدعو إلى تغيير هذا التقليد الوطنى . ولكن الحكومة لم تكن على الدوام عاجزة ومرتشية ، فلا يزال الإنجليز يتمتعون ببعض السمعة الخاصة بتدريب ساستهم وشرف قضاتهم ، وجعل عمد الألمان المحترفون مدنهم أفضل الأماكن حكماً فى العالم ؛ فلا شىء مستحيل ، ولكن التفكير هو الذى يزعم ذلك .

إن الفكرة التى اقترحناها فكرة مغرقة فى القدم ، فهى حلم سقراط وأفلاطون ، وبيكون وكارليل ، وڤولتير ورينان ، ولعلها ليست شيئاً أكثر من حلم ، ولعلها قد تكون حقيقة حين نكون جميعاً أحلاماً . ولا ريب أنها لن تكون لمدة طويلة أكثر من حلم ، إذ لابد من عشرات من السنين تنفق فى التعليم كى ننتج التغييرات اللازمة فى عقل الجمهور . ولكن إلى أن نبذل مجهوداً صادقاً لرفع الكفايات إلى المناصب وكسر شوكة عداء الديمقراطية للمعرفة — وإلى أن نتمكن من تجنيد تلك المواهب والقوى العقلية من أجل الصالح العام ، وهى التى تضيع اليوم فى تيار الأعمال والمكاسب الخاصة — وإلى أن نتمكن من أن نضع فى أروقة مجالس نوابنا ومجلس شيوخنا رجالا أعدوا أنفسهم للإدارة العامة إعداداً يبلغ من التمام على أقل تقدير مبلغ الذين يعدون أنفسهم لمهام أقل أهمية — فلاريب أن تصبح الديمقراطية عندئذ فاشلة ، ولعله من الأفضل للعالم ألا تكون أمريكا قد فتنت آمال الناس وخدعتهم .

الفصل التاسع عشر

الأرستقراطية

١ – الأرستقراطية المنقذة

الأرستقراطية موضوع أجمع الناس على أن كلماته الأخيرة قيلت عام ١٧٧٦ وعام ١٧٨٩ . فعندما فقد جورج الثالث صوابه ، ولويس السادس عشر رأسه ، خسرت الأرستقراطية قضيتها ، ولن تستطيع جميع شعور انجلترا المستعارة ، وشعاراتها ، وأرديتها ، أن تحمل الناس على احترامها مرة أخرى . لقد اندفع العالم فى طريق الديمقراطية .

من أجل ذلك كان من الغريب أن نقترح فى هذا الأوان إعادة النظر فى الأرستقراطية ، ولاشك أن مثل هذا الاقتراح سيجرفه تيار العصر . ومع ذلك فنحن لا نتكلم عن هذه الموضوعات متوقعين تأثيرها فى الحوادث . ويكفى إذا كنا فى « مملكة العقل » أن يتاح لأحدنا أن يتبادل الأسرار مع أصدقاء غير منظورين . وعندئذ تعرف أمريكا مرة أخرى عن الديمقراطية أكثر مما يمكن لسائر العالم أن يعرفه . ومن يدرى لعلنا فى هذا العالم الوطنى من المملكة الشعبية يمكن دون مخاطرة كبيرة بحياتنا أن نبدى بعض الآراء التى تفتح الطريق وتنير المكان للفكر الموضوعى .

ويمكن أن تتلخص الفروض فيما يأتى : لقد انهارت (١) الديمقراطية فى أمريكا على الأقل . ذلك أنها أخفقت بوضوح فى أن تمنحنا حكومة بوساطة الشعب ، أو حكومة بوساطة الأفضل . وإذا كان أى قارىء رقيق لهذا الكتاب يعتقد أن الشعب يحكم بالفعل فى أمريكا – أنه يحدد مثلا الحرب والسلم ، أو

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٢٨ ، وقد أصيبت الديمقراطية فى الربع الثانى من القرن بتجديد لقواها يبعث على التشجيع ، ولا يستحق منا هذا التهكم اللاذع الموجود فى النص .

السياسة الاقتصادية ، أو معدل التعريفة ، أو التعيين فى المناصب — فالأفضل له على الأقل أن يغفل قراءة هذه الصفحات . وكذلك إذا اعتقد بعض القراء أن الديمقراطية قد هيأت لنا حكومة بوساطة أحكم الناس أو أقدرهم ، فيحسن بهم أيضاً أن يمروا بهذه الصفحات مرّ الكرام .

غير أن القول بإخفاق الديمقراطية لايعنى أن نوليها ظهورنا باعتبار أنها شىء لاقيمة له ولا يمكن إصلاحه . فمن الواضح أن فيها كثيراً من الفضائل ، وكثيراً من القوى الكامنة التى تتفتح عن الخير . ومما لاريب فيه أن سلطان الأعداد أحدث ضرراً أقل من صور الحكومة التى حلت محلها . وبعد ، فالأفضل أن يحكمنا الأغرار من أن يقتلنا الملوك . وأكبر الظن أن الاخفاق العظيم كان شيئاً لا يمكن تجنبه ، وأنه لا يرجع إلى الجوهر بمقدار ما يرجع إلى الصورة . ولعل الديمقراطية إذا كانت قد احتفظت ببعض ملامح النظام الأرستقراطى القديم أن تكون قد نجحت فى خلق نظام سياسى أعلى بكثير من ذلك الذى نعيش فيه ونتحرك ونحتمل الحمق بسرور شديد .

فالأمر فى حدود الإمكان الذى يود المرء أن يشق الطريق إليه . ما تلك الأرستقراطية التى أعدت الساسة ، وغذت الفن ، وأبرزت الرجال الذين قدروا الشرف أكثر من تقديرهم الحياة ؟ أكان فيها أى صفات يمكن أن تعنى الحكمة ببعثها ؟ أيمكن أن تتزوج فضائلها فضائل الديمقراطية بطريقة تؤدى إلى عقم رذائل الزوجين وإنجاب أفضل الثمرات ؟ أيمكن أن نوفق بين اختيار كبار الموظفين بالانتخاب العام وبين اجتذاب أرقى الناس وأنظفهم للوظائف ؟

٢ — أشكال الحكومة

ينبغى أن نسلم بأن الأرستقراطية كانت محبوبة من الفلاسفة حتى فى أيام هزيمتها . فسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وشيشرون ، ومنتسكيو ، وڤولتير ، ودى توكفيل ، وتين ، ورينان ، وأناتول فرانس ، وجوته ، ونيتشه ، وبيرك ، وماكولى ، وكارليل ، وإمرسون ، وسنتايانا : عرفوا الديمقراطية فى أثينا أو فى روما ، فى باريس أو فى وشنطن ، ومع ذلك رفعوا أصواتهم بإجماع عجيب (سبينوزا وحده هو الذى خالفهم) إلى السماء وطلبوا من الله حكومة الأفضل . فما هذا الشىء الذى أعجب به هؤلاء القوم فى الأرستقراطية .

قال بونابارت — وهو أشد الفلاسفة تمسكاً بالواقع : « لاتزال الأرستقراطية موجودة على الدوام . فإذا سعيت إلى التخلص منها بتحطيم النبلاء ، فلن تلبث على الفور أن تمكن لنفسها بين أسر الطبقة الثالثة الغنية والقوية (أى الطبقة الوسطى) . حطمها هنا تجد أنها تعيش وتلتمس ملاذاً فى قادة العمال والشعب »(١) .

وجاء فى أقوال فتسجيمس ستيفن Fitzjames Stephen : « لك أن تشرع كما تهوى ، وأن تقر الاقتراع العام إذا رأيته صالحاً كقانون لا تمكن العبث به ، ومع ذلك فأنت لا تزال بعيداً كما كنت عن المساواة . لقد غيرت القوة السياسية شكلها لا طبيعتها ، وإذا قطعت هذه القوة قطعاً صغيرة فالنتيجة أن الذى يستطيع أن يطوى أكبر عدد منها فى قبضة واحدة هو الذى يحكم الباقى . وسيحكم أقوى رجل دائماً فى صورة من الصور . فإذا كانت الحكومة عسكرية فإن الصفات التى تجعل الرجل جندياً عظيماً ستجعله حاكماً . وإذا كانت الحكومة ملكية فإن الصفات التى يقدرها الملوك فى المستشارين والقواد والوزراء هى التى تجلب القوة . أما فى الديمقراطية الخالصة فإن الحكام هم المدبرون وأصدقاؤهم »(٢) . هذا تحليل موجز يمر بالتفصيلات مروراً عابراً ، ولكن فى هذه الخلاصة الكفاية ككلمة تمهيدية فى الموضوع .

ويمكن القول بوجه عام إن صور الحكم اثنتان فقط : حكم شخص واحد ، وحكم القلة . أما حكم الكثرة ففترة عابرة ، وهو إلى ذلك وهم لذيذ مريح يحرك همة الفرد ، ويسهل سير عجلة الحكومة . والأقلية تستطيع التنظيم ولا تستطيعه الأكثرية ، وهنا مربط الفرس ، فالحكومة إما أن تكون حكومة قلة أو حكومة فرد ، ولا شيء غير ذلك .

ويمكن من الناحية النظرية أن نقول الشيء الكثير فى الدفاع عن الملكية ، إذ لو تهيأ عبقرى عظيم القدرة على التنفيذ مثل نابليون ، لنجح كل شيء (ما عدا الحرية) تحت أمره المركزى والموحد . غير أن الملكية الموجودة فى الواقع أصبحت نادرة فى التاريخ الحديث . كانت أمراً واقعاً فى إيفان الرهيب ، وبطرس وفردريك ،

(١) Bertaut, op. cit., p. 46.

(٢) In Willoughby, W.W., Social Justice, p. 57.

ولويس الرابع عشر ، وبونابارت ، ولكن كم من ملوك وملكات فى فخفخة الملك لم يكونوا إلا مجرد رداء لأقليات مستترة سعيدة بإخفاء أيديها خلف أبهة الملك وهيبته . فأى شأن كان للقياصرة فى عهدهم الأخير سوى أنهم كانوا أدوات فى أيدى أسرة تشينوفنيك Tchinovnicks ، أو أى منزلة لإمبراطور ألمانيا الأخير سوى التكلم باسم النبلاء Junkers ورفع علمهم ؟ أيوجد فى العالم أكثر سخرية (بعد الانتخابات الأمريكية) من الحرس الجامد القفا الذى يذرع الأرض بشكل مخيف أمام القصر الذى يسجن فيه الإنجليز « ملكهم » ؟ فكيف كنا نحتمل انجلترا إذا لم يكن فيها أمثال جلبرت وسليڤان؟ Gilbert and Sullivan [١]

ولا قيمة للدعوى المألوفة التى تزعم أن هذه الملكيات الأثرية تؤدى وظيفة واقعية حين تمسك أطراف الإمبراطورية المترامية بوساطة رأس مشترك رمزى . حقاً يحب الشعب ملوكه ، غير أن ما يربط بين المستعمرات والدولة الحاكمة هو حاجتها إلى الحماية والتجارة لا الشعور بالوحدة والبساطة . والعرف وحده ، وهو الشعور بالمتعة الشديدة للاحتفاظ بالأساليب المألوفة ، هو الذى يبقى ملوك أوربا فوق عروشهم . وفى ذلك يقول فرانسيس تومسون [٢] : « ليست الملكيات فى جميع ممالك أوربا ، ماعدا اثنتين ، سوى مجرد بقية ، إنها أزرار لا نفع لها فى رداء الحكم ، لا تخدم أى غرض اللهم إلا أن تتهاوى باستمرار » [٣] .

يمكن إذن أن نعد الأمر مبدأ عاماً يتضح حتى مما فيه من استثناءات ، وهو أن خلف كل حكومة أقلية تسيرها ، وأن أول قاعدة فى التحليل السياسى يجب أن تكون : « فتش عن الأقوياء Cherchez les forts » . قد تكون الأقلية حربية أو تجارية أو أرستقراطية ، وبمعنى آخر أن الأقلية الحاكمة قد تكون جنداً يرفعون إلى العرش طائفة من القواد ؛ أو تكون جماعة من أغنياء رجال الأعمال يحكمون

---

(١) السير وليم جلبرت (١٨٣٦ – ١٩٠٠) شاعر انجليزى نظم أراجيز فكهة ، واشترك مع سليڤان (١٨٤٢ – ١٩٠٠) فى كتابة الاوبرات الخفيفة المشهورة مثل محاكمة بالمحلفين ، والميكادو ، وغير ذلك (المترجم) .

(٢) فرانسيس تومسون Thomson (١٨٥٩ – ١٩٠٧) شاعر انجليزى كاثوليكى اشتهر بقصائده الدينية ، وتأثر فى أخيلته بشيللى وكيتس (المترجم) .

(٣) Shelley, p. 39.

بوساطة رؤساء الجمهورية والملوك ؛ أو تكون أفراداً من الأسر القديمة قويت في الأصل بامتلاك الأرض ، وبلغت مع العرف مرتبة القيادة والمنزلة . ومن هنا نشأت حجة الأرستقراطي القوية أن الأرستقراطية هي البديل الوحيد عن الحكم بالثروة الغاشمة أو القوة الوحشية . وقد فتح انهيار الأرستقراطية الرومانية الطريق أمام الملوك العسكريين من البرابرة ، وانهيار الأرستقراطية الفرنسية والإنجليزية إلى تربع الاسترليني والدولار والفرنك على العرش . والديمقراطية تسبق قدوم حكم الأقلية العسكرية ، ولكن لم يوجد بعد أي نظام انتخابي يمكن أن يباعد بين الأغنياء والاستيلاء على السلطة . والوقاية الوحيدة من حكم الأغنياء plutocracy هو قصر الحكومة على الأسر التي تجري في دمائها تقاليد الحكم وصفاته. فالحكم بالنسب هو البديل الوحيد عن الحكم بدفاتر الشيكات ، والأرستقراطية وحدها هي التي يمكن أن تمنع أقلية من محدثي الثروة nouveaux riches من إخضاع حياة الأمة الأخلاقية والثقافية لمثل ومستويات تجارة الجملة والأسواق والمصانع (١).

٣ — فن الحكم Statesmanship

هذا كله موضع شك ، إن لم يكن مبعث اشمئزاز ؛ إذ ليس أدعى من إضعاف قضية الأرستقراطية من تصويرها من أول الأمر على أنها صورة وراثية للحكم . ومع ذلك فلنستمع للأرستقراطي بعض الوقت بغير مقاطعة أو سؤال ، مبعدين بيننا وبين أنفسنا رأيه المتحيز ، ومتعلمين منه حتى حين نختلف وإياه .

إنه يقبل وراثة اللياقة للمنصب كضرورة للحكومة الصالحة. فلا يرتفع شخص إلى معرفة الفن الكامل للحكم إلا إذا تنسم عبير ذلك الفن خلال أجيال من المسئولية والمنزلة . إنه يحتاج كما يقول نيتشه «لا إلى الذكاء فقط ، بل إلى الدم» . وهذا في نهاية الأمر ما كان نابليون يفتقر إليه ، على الرغم من تعليقه على دنجين D'Enghien (٢) :

(١) انظر شيشرون حيث يقول : « لا توجد صورة للحكم أقبح من تلك التي يظن فيها أن أغنى الناس هم أفضلهم» De Rep. 1, 34, in Bluntschli, J. K. Theory of the State, p. 453

(٢) الدوق دنجين (١٧٧٢ — ١٨٠٤) حارب في جيش المهاجرين واتهم بالمؤامرة ضد القنصل الأول ، فقبض عليه ، وحوكم أمام محكمة عسكرية في فنسان وحكم عليه بالإعدام فوراً . (المترجم) .

« وليس دمى أيضاً من الماء القذر » . فهو نجل أحد قواد الأقاليم ، ولم يكن ليستطيع مهما حاول أن يبلغ وزن الأرستقراطي بالمولد ومنزلته .

ولنمض مع نيتشه أكثر من ذلك فنجده يقول إن « الرياسة leadership تحتاج إلى أسر أرستقراطية كبيرة لها تقاليد استقرت زمناً طويلا فى الإدارة والحكم ، إلى الأنساب العتيقة التى تضمن لأجيال عدة بقاء الإدارة الضرورية والغرائز اللازمة » (١) . وهـذا هو السر فى احتجاج الأرستقراطى على قول القائلين « بالمولد العارض accident of birth » ؛ فالمولد ليس اتفاقاً وخبطاً بل نسباً متسلسلا ، وخلاصة قرون من النمو ، وبشير المقدرة والذكاء . ألست ترى أننا اليوم نهتم اهتماماً كبيراً بسلالات الحيوانات ، فنفحص بعناية لا أصولها المباشرة فقط ، بل أسلافها البعيدة وغير المباشرة كذلك . فالأرستقراطى يهتم مثل هذا الاهتمام بأنساب الإنسان ، ويصر على تعظيم أثر الوراثة ، كما يؤكد الديمقراطى أثر الفرصة ، أو الاشتراكى أثر البيئة . وهذا هو سر عزوفه عن الزواج من امرأة أقل منه مرتبة ، وعلة نفوره من الطبقات الأخرى وكأنها أنواع مختلفة . إنه يدرك ببصيرة الغريزة أو بالعرف الجمعى أن تهجين الأنواع يضعف الصفات ويزعزعها فترة من الزمن ، مع أن هذا التهجين قد يكون مرغوباً فيه لنمو جيل فى جنس جديد معقد (٢) .

ولكننا نقول مرة أخرى إن وراثة الصلاحية للمناصب الكبرى أمر ضرورى لإنتاج الحكام الكفاة . وهناك بعض الناس يجب اختيارهم منذ مولدهم كى نمنح لهم الوقت الكافى لنمو كامل وصحيح فى العقل والخلق . والعمر قصير جداً لا يتسع لتحصيل الثقافة والثروة معاً ، فينبغى أن نتخلى عن إحداهما منذ البداية ، ولا يمكن أن نستغنى عن أيهما . من أجل ذلك كان من مصلحة الإنسان أن يتحرر قلة من الناس من ضروريات الكفاح الاقتصادى التى تفت فى العضد ؛ وفى ذلك قال توكفيل : « إن إمكان العيش بغير عمل — قل هذا الإمكان أم كثر — هو الحد الضرورى للتقدم العقلى » (٣) لذلك كانت الأرستقراطيات كما قال تين

---

(١) Will to Power, § 957.

(٢) Cf. Ludovici, A.M. A Defence of Aristocracy, pp. 340-50.

(٣) Tocqueville, A. de, Democracy in America, vol. I, p. 209.

أثمن مدارس للتربيـــة ، إذ عن طريقها تجند الأمة رجالها الحاكمين وتُعِدهم.

إن ما لا يفهمه الديمقراطى هو أن إعداد رجل الحكم يحتاج إلى وقت أكثر مما يحتاج إليه إعداد ماسح الأحذية . وكان قادة إنجلترا، إلى أن اصطبغت حديثاً بالديمقراطية، يُدَرَّبون على المناصب العامة منذ طفولتهم، فى البيت أولا ، ثم فى إيتون Eton أو هارو Harrow ، ثم فى أكسفورد أو كمبردج ، وبعد ذلك يُعَيَّنون فى مناصب صغيرة شاقة . الحق أن أبدع مظهر للحضارة الإنجليزية كان يلى شغفها بالحرية هو انقطاع جامعاتها ذلك الانقطاع لا لفنون المال والصناعة، ولا للعمل والتجارة ، بل لمهمة إعداد حكام الإمبراطورية . كانوا حكاماً قساة ، وليس من الواضح لدينا لم كانت قسوتهم ضرورية لحكمهم ، ولكن هؤلاء الرجال هم الذين رفعوا إنجلترا الصغيرة إلى قمة العالم ، التى سيهبط بها حكامها من أهل الصناعة عنها فى الوقت الحاضر .

ومن العبث فى الديمقراطية أن يعد الناس أنفسهم لصناعة الحكم . إذ ليس لهم أقل ضمان فى استطاعتهم اجتياز امتحان الاجتماعات الانتخابية Convention، ومجالس انتخاب أعضاء البرلمـــان ، وأماكن الاقتراع . والأولى أن تدريبهم سيجعل منهم رجالا مهذبين ومفكرين يجدون فى شراسة الانتخابات وألاعيبها مصدراً لآلام تمنع من الإقدام عليها . وقد تنبأ سانت بيف Sainte-Beuve (١) أن الديمقراطية قد تحمل أصحاب المقدرة على العزلة . وتكهن رينان بأن سلطان الأعداد وتوجيهها قد يرفع المحتالين والدجالين فوق العرش ، فتنقلب الدولة إلى تفاهة مستهترة . وهذا دى توكفيل فى زيارته الثانية لأمريكا يكتب فى قنوط : « قلما يوضع أقدر الناس فى الولايات المتحدة اليوم فى المناصب الرئيسية. وينبغى أن نعترف أن هذه هى النتيجة التى تبلغها الديمقراطية عندما تجتاز جميع حدودها الأولى . ومن الواضح أن نوع حكام أمريكا قد انحط انحطاطاً شديداً خلال الخمسين السنة الأخيرة » (٢). ونحمد الله على أن دى توكفيل قد مات ولا يستطيع أن يرانا الآن .

---

(١) سانت بيف (١٨٠٤ – ١٨٦٩) ناقد فرنسى مشهور يقوم مذهبه فى النقد على تمييز عبقرية كل كاتب ، وتحديد معالم الذوق الأدبى (المترجم) .

(٢) Op. cit., vol. i, p. 209.

يرى الأرستقراطي أن النظام بداية الحكمة ، وأن التغيير دائرة من الحماقة . والحرية ثمينة ، ولكنها بغير نظام أى شيء تكون ؟ ومع أن الأرستقراطيات تحد من الحرية السياسية ، فليس هذا أسوأ من خنق الديمقراطية للفردية والفكر بالضغط الخنوق الصادر من الأكثرية الخاملة . فالأمة إذا ساد فيها النظام أمكنها أن تستمر في سياسة متماسكة ونمو متصل . ويتحرر فن الحكم بالأرستقراطية من مصادفات الانتخاب ، فينقطع الحكام إلى مهام تحتاج في تنفيذها إلى أجيال . فالهيئة الأرستقراطية الحاكمة ، كمجلس الشيوخ الروماني ، أو البرلمان الإنجليزي في عهد الملكة إليزابيث ، لها ضرب من الدوام الجمعي يكاد أن يكون خلوداً ، ولا تتمزق أهدافها ، وقلما تضطرب بموت الأفراد أو بفوضى الحملات الانتخابية وما يصحبها من نفاق . يقول دى توكفيل : « تكاد تكون جميع الأمم التي أثرت أثراً قوياً في مصير العالم بتصور مشروعات واسعة مع متابعة تنفيذها ، كانت محكومة بهيئات أرستقراطية » (١) .

حقاً إن مثل هذه الحكومة تكون حاجزاً عنيداً ضد التجارب أو التغيير ، ولكنك لن تجد أسلم منها . وحتى الأحرار إذا كان لهم أى علم بالماضي فإنهم يعرفون أن تسعة على الأقل من بين عشرة أفكار جديدة تنقلب شراً وبيلا . وأعظم سخريات التاريخ مرارة أن معظم الأفكار التي فنى الناس من أجلها قد ثبت أنها مضحكة . ولاريب أن مقاومة التغيير شيء بغيض كالفرامل في السيارة ، ولكنها أمر لا يستغنى عنه .

وهنا ننخدع بالموازنة مع العلم والأدب اللذين تقوم حياتهما على التجربة ، فنطفر إلى النتيجة زاعمين أن أفضل حكومة ما أفسحت المجال الكامل للتغيير . ولكن المجتمع ليس معملا ، ولا يخضع الناس للتشريح أحياء ، اللهم إلا في حالة الحرب . وحتى في العلم يقتصر الاستعداد للتجربة على عوالم من البحث يمكن أن تستخدم فيها حيوانات لا حيلة لها ، أو كائنات غير حية كمادة لإجراء

(١) المرجع السابق ص ٢٤٧ .

التجارب وحذف الأخطاء ، حتى إذا أردنا تطبيق نتائج العلم على أمور الحياة والموت الإنسانيين يتملكنا الحذر « كالجمهوريين » (١) . ومع ذلك فإن وجد ميدان نقاوم فيه التغيير ، فليس هو ميدان السياسة ، بل الغذاء والدواء . وليس اللعب بالأفكار كالتجربة بالأرواح .

ومع ذلك فحين يتعلق الأمر بمصير مائة مليون من الأنفس ، فقد يحسن استخدام ضوابط «فرامل» للعجلات الأربع ، حتى حين نصعد فوق الجبل . يجب أن تتحرك الجماهير الضخمة رويداً رويداً ، إذ من الأيسر أن تبث فيها الفوضى من أن تعيد إليها السلامة والنظام . والأمر في السياسة كالحال في الطب كثيراً ما يؤدى إصلاح داء واحد إلى ظهور داء آخر خفي يحدث عنه . بل إن تركيب المجتمع أعقد من تركيب أبداننا وعقولنا التي يشملها المجتمع في جموعه الغفيرة ، وفي علاقاته الكثيرة التداخل . وهذه العلاقات المتبادلة تصل إلى ملاءمة صالحة إذا تركت وشأنها ، أما حين تسعى النخبة الممتازة بالحكمة أو الأوساط المنتخبة في أمة من الأمم ، أن تخضع هذه العمليات الحيوية لنظام القانون المصنوع ، فنتيجة ذلك شبيهة بمن يحاول المشي وهو يحلل هندسة رجليه وحركاتهما .

وقد يختلف الأمر إذا كان المجتمع تركيباً منطقياً كالرياضة أو الهندسة أو أي شيء آخر لا يتعلق بالحياة . ولكن المجتمع كأنفسنا ذاتها نموٌ وليس صيغة قانونية أو قياساً منطقياً . فالمجتمع كما صوّره تين : « لم ينظمه فيلسوف مشرع طبقاً لمبدأ سليم ، ولكنه ثمرة الأجيال جيلا بعد آخر حسب الحاجات المتنوعة والمتغيرة . إنه ثمرة التاريخ لا المنطق . ويهز المفكر الحديث كتفيه حين يصعد بصره في السماء ويرى كيف كانت الأبنية القديمة وقد وضعت أساساتها اتفاقاً ، واضطربت هندستها ، وبان خللها في مواضع كثيرة » (٢) . وكل طالب يعرف جواب بيرك على روسو : ليس المجتمع عقداً بين المتعاصرين ، بل تكويناً لاشعورياً ينشأ بالتدريج ؛ وإن كان ثمة عقد موجود فهو بين الماضي والحاضر والمستقبل (٣) . فأن تقطع الصلة بالماضي قطعاً باتاً هو أن تدنو من الانفصال

---

(١) يشير المؤلف إلى الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة (المترجم) .

(٢) Taine, H., The French Revolution, vol. II, p. 7.

(٣) Reflections on the French Revolution, p. 91.

الذى يجلب الجنون ، وإلى الذهول الاجتماعى الذى ينشأ من هزة مفاجئة عند الضرب أو البتر . إن سلامة الفرد فى اتصال ذاكرته ، وسلامة الجماعة فى اتصال تقاليدها ، وفى الحالين يؤدى انقطاع السلسلة إلى رد فعل عصبى ، وإلى اضطراب خطر على الحياة . وهذا ما وجده بطرس الأكبر حين حاول أن يجعل روسيا دولة غربية فى جيل واحد ، وما حدث للنين حين حاول أن يجعلها اشتراكية . فالماضى لن يموت .

٥ — الحكومة والثقافة

تأمل الأخلاق والثقافة . لقد زرعت الديمقراطية فى النفس الحديثة خوفاً من الجماهير يسمى الضمير . ولكن هل نمت ذلك الفخر بالأرقى ، تلك الرغبة لاستحسان القلة المبدعة لا الطغام ، مما خلق الإحساس بالمجد عند الأرستقراط ؟ أيمكن أن يكون الأرستقراطى بيوريتانيا (متزمتاً) أو متعصباً ذميما ، أو يملى على غيره من الناس ما يجب عليهم أن يقبلوه ؟ أيمكن أن ينتج الأرستقراطى موسيقى « الجاز » أو يفتتح « الكباريهات » ؟ أيمكن أن يكون الأرستقراطى منافقاً أو ينحنى للفوز عن طريق ممالأة الجمهور ؟ أليس فى نغمة الجماعات الديمقراطية وعاداتها بعض السوقية مما لا يمكن أن يعيش بتوجيه الأرستقراطى أو باحتذاء مثاله ؟

يقول الأستاذ روس : « إن مثل العمل بين الأمريكان لا يضبطها تأثير مالك الأرض الأرستقراطى . وفى معظم « العالم القديم » كانت تحتقر الطبقة الاجتماعية العليـا وجهة نظر التاجر ، وتفتخر بأنها تقدر الأشياء من وجهة نظر المستهلك . . . ولما كان ميل الأرستقراطية للعيش لا لاكتساب المال قد أخذ يتسرب إلى المجتمع العام ، فقد أصبح المذهب التجارى commercialism فى أوربا أكثر التصاقاً بطبقة رجال الأعمال » (١) . وأكبر الظن أن أمريكا لن تطول وقفتها وحدها فى هـذا الميدان ، فأوربا أيضاً تعيش فى غصـة الديمقراطية وتجنح إلى اصطناع عاداتها من أسفل ، على أن رؤساء أغنياء رجال الأعمال فى أمريكا يميلون إلى تنمية ذلك الشرف الهادىء ، وذلك الواجب النبيل وهو أبدع زهور الأرستقراطية .

---

(١) Ross, E.A., Changing America, p. 88.

وحتى الديمقراطى له فى قلبه إعجاب حاسـد لما يسمى فى شىء من الغموض باسم أرستقراطية الروح : وهى عرامة الإقدام فى يسر ، وثقة فى الحكم والذوق ، وسرعة الخاطر وبداهة الحديث مع التحفظ والاعتدال ، وكرامة لا تذل وكرم لا يخطىء . وفوق هذا كله ، ودائماً ، رقة السيد المهذب (الجنتلمان) فلا غرابة أن تجد « كل إنجليزى يحب لورداً » ، وكما قال أناتول فرانس : « لا شىء يقدره الديمقراطى أكثر من شرف المولد » (١) . إن أوثق طريق إلى النجاح الاجتماعى فى الديمقراطية هو أن تسلك كالأرستقراطى ، وأوثق طريق إلى النجاح كخطيب فى أمريكا أن تتكلم كالإنجليزى (٢) .

هذا شىء يمكن أن يغتفر وطبيعى ، لأننا مهما نقل نعرف أن صنع سيد مهذب يحتاج إلى أجيال . وقلما يستطيع أحد أن يبدأ فقيراً وقد قضى عليه أن يجتاز القذارة العالقة بالحرب الاقتصادية ، ويظفر مع ذلك بتلك النظافة الخاصة بالعقل أو الرشاقة المتصلة بالجسم ، تلك الثقة والطمأنينة ، ذلك الفخر المتواضع والهدوء الكلاسيكى ، مما يميز الرجل الذى تأدب منذ البداية بالوصية والمثل والجو الممتلىء بأطايب الحياة وألطافها (٣) . يجب على العالم أن يختار هذا الاختيار الشاق بين الوراثة والتزاحم بالمناكب ، بين الذوق الرفيع الذى ينحدر من أعلى إلى أسفل بالمحاكاة ، وبين السوقية التى ترتفع من أسفل إلى أعلى تحت ضغط المنافسة .

ويتضح الفرق بين الروحين فى الأدب الذى يزدهر فى ظل ضروب الحياة والحكم المتنافسة . وإذا ضربنا صفحاً عن الاستثناءات التى تزعزع كل تعميم يختص بالكائنات الحية ، فإن الأدب الذى يكتب للأرستقراطية يميـل إلى الكلاسيكية ، والذى يكتب للديمقراطية يجنح نحو الرومانتيكية . وقد منحنا أثر العلم والاشتراكية بعض الوقت عصراً من الواقعية Realism حاكى فيه الأدب موضوعية العلوم الطبيعية ، واختار ثائراً لتصويره شرور الحياة ومظالمها . غير أن

---

(١) Penguin Isle, p. 210.

(٢) هذه العبارة الأخيرة مع الاعتذار إلى المستر جون كوبر بويز الخطيب الممتاز والقصصى العميق .

(٣) يتحدث كسر لنج عن تلك « البصيرة الموجهة الموجودة فى دماء كل أرستقراطى حقيقى » Europe, p. 194. وهو كتاب رائع

المنافسة الجوهرية فى الأدب تقع بين العقل الكلاسيكى والخيال الرومانتيكى ، كما أن المنافسة فى السياسة تقع بين الثروة الموروثة والمكتسبة . فالعصر الديمقراطى يحاول أن يفك أسر حياته الصناعية والتجارية العادية بأوهام الآداب الرفيعة الرومانتيكية فهو يحب أن ينتشل نفسه من الدكاكين والمخازن بالقراءة الخفيفة والحب العاطفى . ولكن الأرستقراطى يخجل من التبذل فى هواه ، أو التخشن فى حديثه ، لأن خياله يخضع دائماً لرقابة عقله . فكبح الهوى جوهر نفسه فى الأدب وفى الحياة . إنه يؤثر التحفظ على المبالغة ، وكما يقول فلوبير فى سلامبو : « إنه يتكلم فى هدوء ليكون أملك للسمع » وإذا أنتج كتباً فمن أمثال « مقالات » مونتينى أو « روح الشرائع » ، ولا يكتب أبداً « إميل » أو « البؤساء ». لاريب أن خلق أدب أو عالم يحتاج إلى جميع ألوان الكتب وكل أصناف الرجال .

ولقد كانت الأرستقراطيات بوجه عام مشجعة للفنون والعلوم ، وألقت ظلال حمايتها بإسراف شديد وبغير تمييز على الفرد الممتاز . وقد ذهب تارد إلى أن الأرستقراطيات أول من تقبل الأفكار الجديدة ، فقال إن المبتدعات ولو أنها يمكن أن تنشأ فى أى مكان إلا أنها تجد حمايتها المبكرة بين القلة المثقفة حيث تنتشر عنهم بالعدوى والإيحاء إلى المراتب الدنيا . ويقول سنتايانا : « لقد انحصرت الحضارة حتى الآن فى انتشار العادات التى تظهر فى الأوساط الممتازة وامتزاجها بينهم »[(١)]. وقال رينان : « كل حضارة فهى من عمل الأرستقراطيات »[(٢)]. وكان يخشى أن يفسد العلم فى ظل الديمقراطية عندما يحدث أن يشك الجمهور فى معناه[(٣)]. ويقول سومنر : « الطبقات هى التى تنتج التنوع ، والجماهير هى التى تحمل الأخلاق الموروثة إلى المستقبل »[(٤)] ويقول ليبون : « يدل التاريخ على أن جميع التقدم الحاصل حتى الآن يرجع إلى هذه القلة الممتازة . إن الذين يبدعون العباقرة يغذون سر الحضارة ، والمتعصبين وأصحاب الأوهام يخلقون التاريخ »[(٥)]. وهذا صحيح .

---

(١) Reason in Society, p. 125.

(٢) In Maine, op. cit., p. 42.

(٣) History of the People of Israel, vol. iv, p. 179.

(٤) Folkways, p. 47.

(٥) In Todd, p. 382.

٦ — الديمقراطية والفوضى

وأخيراً فإن الشعب نفسه يؤثر الأرستقراطية ، فهو محافظ فى السياسة كما هو محافظ فى الآراء ، ويحب الحكومة التى تتحرك ببطء نحو أهداف جلية. وهو لا يثور إلا حين يثقل عليه الضغط ، ومع ذلك يبدو أن السلطة غير المنتخبة تستهويه إلى أقصى حد . كان الإيطاليون يهتزون فخراً عند سماع اسم دكتاتورهم ، وبخاصة إذا كانوا لا يعيشون تحت سلطانه ؛ ولم يثرهم أنه ارتقى سلم الزعامة محطماً كل صور الديمقراطية وكل عزيز عندها . وإنك لتجد الصحف التى يقرؤها عامة الناس فى إنجلترا مثقلة بأنباء الأرستقراطية ؛ ويضع كل مخزن من مخازن البيع الشعار الملكى على أبوابه ، أو يفخر بأنه يتعهد بتوريد البضاعة لصاحب الجلالة الملك . ونستثنى من ذلك كله حالة واحدة بديعة ، فقد كان أكثر الأشخاص شعبية فى صحف أمريكا عام ١٩٢٧ أميراً إنجليزياً ، وأشيع النساء ذكراً ملكة بلقانية .

لعل الشعب اليوم أسعد قليلا عما كان من قبل . فقد ضاعفت الاختراعات وسائل راحتهم وقوتهم ، ومنحتهم الثروة آفاقاً جديدة من الرحلة والمتعة . ولكن إلى جانب هذا التنوع والمرح فى الحياة نشأ سخط عصبى فى النفس ، فكل شخص يبدو أنه يشعر بالحياة منافسة لا ترحم ، وحرباً بين الإرادات لا ترأف ، واندفاعاً لا نهاية له فى طلب الرياش والعربات والمنزلة . وقال أناتول فرانس : «إن الصورة الجديدة للمجتمع حين تشجع كل ضروب الأمل تبعث جميع الطاقات إلى العمل. لقد أصبح الكفاح فى سبيل الحياة أكثر تهوراً من أى وقت مضى ، وأضحى النصر أشمل والهزيمة أمر (١) » .

لقد طار السلام والهدوء من قلوبنا مع ذهاب الهيئة المنظمة للمجتمع الأرستقراطى . وقبل الثورة الفرنسية (إذا استعرنا تشبيه تين) كان المجتمع بناء كبيراً ذا طوابق منفصلة ليس بينها درج ، وكان الفلاحون يزرعون الأرض وقلما يفكرون فى الصعود ، والأرستقراطيون يزدهرون على طريقة واتو وفراجونارد (٢)

---

(١) On Life and Letters, 3rd series, p. 9.

(٢) Watteau (١٦٨٤—١٧٢١) مصور فرنسى اشتهر بتصويره المناظر الأرستقراطية الريفية — Fragonard (١٧٣٢ — ١٨٠٦) مصور فرنسى وحفار ، زين بهواً لمدام دى بارى (المترجم) .

لا يزعجهم صخب مكانهم . ومن أقوال تاليران : « إن من لم يعش قبل عام ١٧٨٩ لم يعرف حلو الحياة إلى التمام » (١) . أما اليوم فإن كل رجل وكل امرأة يحترق بالحمى ، تلك الحمى التى تجلب لنا الثروة وتجلب لنا الشرور . إن الحرية تعنى بالنسبة لنا أن كل واحد منا يصلح أن يكون رئيساً للجمهورية ؛ أما نتيجتها فأعظم كفاح ملح لا يستقر عرفه التاريخ . والسلم تقوم بين المتفاوتين ، أما دعوى المساواة فإنها مجلبة لحرب عنيفة لاتنقطع . من أجل ذلك كانت الديمقراطية مطية لنزاع دائم فى السياسة والاقتصاد وفى أحوالنا النفسية حتى لتجد الجهد والضيق مكتوبين على كل وجه ، وينغصان كل بيت . وحين يعترف المجتمع بتفاوت الناس الطبيعى فى العقل والإرادة ، ويلغى نفاق النظم المتساوية ، فقد يمكن أن يعرف الناس السلام مرة أخرى . عندئذ سينتقل المجتمع من المنافسة إلى المجاملة ، ومن الكم إلى الكيف ، ومن الخيال إلى الذكاء ، ومن الثروة إلى الفن .

٧ — أخطاء الأرستقراطية

هذه هى الحجة التى تقال فى جانب الأرستقراطية ، عبرنا عنها بغير تزويق يهدف إلى إبطال حجة الديمقراطية . ولندع أولا جانباً تلك الأمور التى تتركنا دون اقتناع ، ثم فلنحاول إدماج الباقى فى فلسفتنا .

لقد رسم أرستقراطى الطبع موجزاً شديد التحيز ، وأغفل كثيراً من النقط غامضة . ولنفرض أن الأرستقراطى ينتج حكاماً أرفع ، ورجالا أنفذ بصراً وأرحب خططاً ، فأى ضمان لنا نعتمد عليه فى الطبيعة البشرية أو من التاريخ يجعلنا نثق فى إخلاص هذا الرئيس الماهر للصالح العام ؟ فالأرستقراطيات قل أن تصنع من الشعب هذا الكل العضوى من الخدمة المتبادلة كذلك الذى يربط بين المخ والبدن (إذا استعملنا موازنة أرستقراطية قديمة) ، فهى تنفق كثيراً من وقتها فى إنزال الأسر الحاكمة المنافسة عن العرش ، أو فى الاحتفاظ لأنفسها بالسلطان ، مما لا يسمح بذلك الانقطاع اليقظ من الأجزاء للكل ، ذلك الانقطاع الذى تمتاز به قيادة المخ .

---

(١) Spengler, Decline of the West, vol. i, p. 207.

ولنذكر في هذا الصدد إدمان الأرستقراطيات الحروب التي كانت كالصيد بالنسبة إليهم ضرباً من الرياضة ، العدو فيه هو الفريسة ، والشعب المحارب ليس إلا مجرد كلاب للصيد . حقاً كانوا يضحون بأنفسهم في هذه الحروب بمحض حريتهم ، فلم يشك أحد في إقدامهم . وفي بعض الأحيان كانوا أقل توحشاً وأضعف رغبة في القتال من الطبقة المتوسطة التي شعرت بالقوة ودفعت إلى نشوب الحرب العظمى . لقد تحدث لويد جورج عن شنق القيصر في عامود نور ، أما لانسدون فقد نصح بالاعتدال . وأصر الديمقراطيون الفرنسيون على تقديم فتيانهم المراهقين ضحايا ، على حين كان الإمبراطور شارل يطلب في ذلة سلاماً مبكراً . ولكن علينا أن نذكر أيضاً حروب الوردتين [١] المتوحشة ، وحملات السلب التي أرسلها لويس الرابع عشر ، وجشع فردريك بدون رحمة ، وتقسيم بولندا كما يقتسمها اللصوص ، والاتحادات القاسية التي حاربت عشرين عاماً لإعادة البوربون إلى عرش فرنسا .

والقوة باعثة على الفساد بمقدار انعدام مسئوليتها ومنزلتها . والأغلب أن تكون الأرستقراطيات قاسية ، كما كان أهل إسبرطة بالنسبة لعبيدهم ، أو المواطنون الرومان بإزاء مدينتهم ، أو الملاك الإنجليز نحو الفلاحين في إيرلندا . أي مجد يوجد في الثقافة الأرستقراطية يمكن أن ينزل إلى وحشية الرومان مع أتباع سبارتاكوس [٢] Spartacus ، أو إلى قسوة كليف وهستنجس في الهند ؟ قد لا يكون هذا المبدأ صحيحاً حتى الآن ، ومع ذلك فهو مبدأ لا يزال صالحاً ويستحق أن يؤخذ به ، نعني : « لن يكون الرجل صالحاً لحكم رجل آخر بغير رضاه » . وهنا نجد أن المثل الأعلى الديمقراطي ، ولو أنه ليس إلا مثلا فقط ، يفتح آفاقاً أبدع ، إذ يشجع كل رجل على أن يكون مسئولا عن نفسه ، فيصلب عوده ، وتتسع نظرته . إن دولة تسير بأفرادها من الفوضى إلى طريق النظام خير من أمة تقوم على العبيد ولا ملاذ لهم إلا الثورة .

---

(١) هي الحرب الأهلية المشهورة بين بيت يورك وشارته الوردة البيضاء ، وبيت لانكستر وشارته الوردة الحمراء ، واستمرت ثلاثين عاماً في انجلترا وذبح فيها كثير من النبلاء والجند (المترجم).

(٢) سبارتاكوس (توفي ٧١ ق. م) عبد روماني ومصارع ، قاد حركة لتحرير العبيد من سنة ٧٣ إلى ٧١ ، وهزم عدة جيوش ، ولكنه هزم وقتل (المترجم) .

نعم لقد كانت الثقافة ترف القلة ، وستظل كذلك مدى الزمان الذى يعنينا الآن . ومع ذلك فلن تجد أحداً ذا معرفة يربط بين الفنون والعلوم وبين الأرستقراطية . وإذا كان التقدم راجعاً إلى القلة ، فقلما يرجع إلى القلة الوراثية . إن نمو العلم الحديث مرتبط بلا ريب بنمو النقل والصناعة ، وهما أمران لن يود الأرستقراطى أن يغمس يديه فيهما . وقد اشتغل فى بعض الأحيان رجال من ذوى المنزلة بالعلم مثل الكونت رمفورد [1] . ولكننا إذا حذفنا من القائمة أولئك الذين حصلوا على اللقب بعد أداء مهامهم ، رأينا أن العلم يكاد أن ينحصر فى الطبقة المتوسطة .

والأمر كذلك فى الفن ، فالأرستقراطيات لا تبدع فناً ولو أنها تعوله . وليست العصور العظيمة فى تاريخ الفن هى تلك التى امتازت بأرستقراطية مستقرة ، كعصر أحمنون ، أو الإقطاع فى مصر أو فى أوربا . إنها عصور تمتاز بظهور طبقة وسطى جديدة ، ولم تقم عظمتها فى بيوت النبلاء ، بل فى المدن الحرة والمدن التجارية . وتكاد تكون الدراما الإغريقية ثمرة رعاية رجال الأعمال فى اليونان : فكلنا يعرف أن تمثيليات أسخيلوس وسوفوكليس وأوربيدس العظيمة ذات الفصول الثلاثة كان يعدها ويخرجها على المسرح جماعة من الموسرين الذين سلكوا ذلك السبيل لتمجيد دولتهم وتزكية ثرواتهم . ولم يكن الذين أعانوا لوكريتيوس وهوراس وفرجيل من الأمراء المهذبين بل من رجال المال . ولم يشيد الكنائس الغوطية البارونات أصحاب الأرض ، بل طوائف التجار وثروات المدن المعتزة باستقلالها . وقد أعان أرستقراطيو الإنجليز شكسبير حتى أصبح قادراً على الارتفاع إلى الثروة (كان أشبه برجال الأعمال ، هذا الثائر ابن الجزار) . ولكن بنك أسرة مديتشى هو الذى كان يدفع نفقات «فواتير» النهضة . وقد رفض الأرستقراط إعانة جونسون أو برنس أو شاترتون ؛ ولفظوا بيرون وشللى . أما ثروة التجارة والصناعة الناميتين فقد غذت أدب القرن التاسع عشر القوى

(١) الكونت رمفورد Rumford (١٧٥٣ – ١٨١٤) مغامر ولد فى أمريكا ، ونصبه ملك بافاريا كونتاً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأصبح سفير بافاريا فى إنجلترا . وعاش معظم وقته فى باريس (المترجم) .

فى إنجلترا وفرنسا . وفى ألمانيا فقط ، مع فردريك الأكبر وكارل أوغسطس دوق و يمار ولودفج ملك باڤاريا ، يمكن أن يتقدم الأرستقراطى بقضية تشبه أن تكون معقولة .

الحق أن الأرستقراطى ينظر إلى الفنانين كأنهم عمال يدويون كما كانت الأرستقراطية المصرية تنظر إليهم ، فهو يؤثر فن الحياة على حياة الفن ، ولا يمكن أن يفكر فى الحط من نفسه إلى مستوى العمل المحرق الذى هو ثمن العبقرية . وهو لا ينتج فى الأغلب أدباً ، لأنه يعلم أن كل كتابة تستهدف النشر عبارة عن محبة للعرض . ولن تجد أرستقراطياً كان يرضى أن يغرق فى بحر من المداد مثل رابليه ، أو يكشف عن أوراقه السياسية مثل مكيافللى ، أو يكافح بحرارة كروسو ، أو يؤلف من المآسى والتشبيهات ما كتبه شكسبير ، أو حتى كان يكتب مقالات وقصصاً أرستقراطية كأناتول فرانس . ذلك أن سحر أناتول (وهو ابن بائع كتب) فى بعده الرفيق عن الأوهام . ولكن الأرستقراطى لا يجتاز مثل هذا الباب من الحقائق ، لأنه نشأ على النظر إلى العالم الآخر وهو نصف جاد ما دام يملك من قبل هذا العالم .

وكانت نتيجة ذلك فى الديمقراطيات الحديثة نزعة عابثة غاوية نحو اللذة ، وعربدة مستهترة تمتع فيها الناس بمزايا المركز إلى التمام ، وتجاهلوا مسئولياته أو مروا بها مر الكرام . وقد نشأ الانحلال من ضيق النظرة إلى الوراثة والتقييد المتعجرف لروابط الزواج بدوائر مختارة من أولاد الذوات ، فيصبح طراز النسل رقيقاً جسمانياً رخواً أخلاقياً ، وينحدر خلال جيل من العبقرية إلى التفاهة . بعض الأجيال فقط هى التى توسطت بين بطرس الأكبر ونقولا الأول ، وبين وليم أورانج وجورج الثالث ، بين « الدولة هى أنا l'état c'est moi » وبين «بعدى الطوفان après moi le déluge»(١) . وقد انحلت أسرة ستيوارت ، والبوربون ، وهبسبرج ، وهوهنزلورن ، ورومانوف . ولسنا فى حاجة إلى أمثلة أخرى لنؤكد هذه النتيجة فى فلسفتنا .

---

(١) يشير المؤلف إلى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر فى عبارتيهما المشهورتين . (المترجم) .

الخلاصة أن الوراثة فيها أسرة وهلم كما تجد فيها أسرة فردريك ، وأن ما تأخذه منا على مرّ الزمن « عملة صغيرة » أكثر مما تعطينا إياه ذهباً . وللعبقرية طريقة شيطانية بها تظهر فى أى طبقة ، ولو أن فرصة ظهورها أعظم حيث تجد مايكفى لطعامها ، والغالب أنها تستنفد الرجل الذى يكون فى خدمتها بحيث تترك بذرته عاجزة عن إنتاج مثله . وقد دامت الأرستقراطيات الوراثية زمناً طويلا بفضل صبر الناس وجبنهم . ومع ذلك فكيف تقاس مدة بقاء الهبسبورج إلى سلسلة البابوية اللانهائية ؟ كان البابوات أعظم حكام أوربا ، وكانت الكنيسة أعظم هيئة حاكمة . ولكن ليس ثمة مكان للوراثة فى الكنيسة ، ويستطيع أى رجل أن يشق طريقه من المحراث إلى الفاتيكان . ولقد كانت أقوى الحكومات فى التاريخ مزيجاً من الديمقراطية والأرستقراطية ، وأكبر الظن أن هذا هو نوع الحكومة الذى يجمل بنا أن نحصل عليه .

٨ — حول أنفسنا مرة أخرى

الواضح لنا فى هذه المشكلة المضطربة الخاصة بالحكم الإنسانى ، إن كان ثمة شىء واضح ، هو أن مبدأ الوراثة السياسى مبدأ يؤدى إلى الانحلال . فهو يحمى العجز وينقله عبر الأجيال ، ويسد كل طريق إلى الإدارة بالبله من ذوى النسب ، ويقف نضج الموهبة إذا كان صاحبها بغير لقب ، ويعتدى على أول ضرورة تلزم الدولة القوية الدائمة — أما كل موهبة تولد معه من أى طبقة كانت فسوف ينميها حتى تبلغ النضوج ؛ ويرحب بها فى خدمته . وهذه هى الحقيقة الهامة المستترة وراء صور الديمقراطية وألفاظها الرنانة : أنه إذا لم يستطع الناس أن يكونوا سواسية ، فالفرصة يمكن أن تجعلهم كذلك ؛ وأن حقوق الإنسان ليست حقوقاً للمنصب والسلطان ، بل حق النزول إلى أى ميدان يمكن أن يختبر فيه ويغذى صلاحيته للمنصب والسلطان . فهذا هو جوهر الموضوع .

والأرستقراطية هى حكم الأفضل ، وليس من الضرورى أن يكون الحكم بالوراثة . فإذا كنا نرغب فى الأرستقراطية ، ونفسد ونضيق لضياعها ، فليس معنى ذلك أننا نهفو لحكم الكونتات والدوقات ، بل معنى ذلك أننا نريد أن يحكمنا أقدر الناس . فنحن أينما سرنا نلق رجالا ونساء تدربوا على العمل وأعدوا له ،

ولكنهم يجدون الباب فى السياسة موصداً لا يمكن اجتيازه . لذلك ينبغى أن تفتح الديمقراطية الطريق .

والحلول صعبة ، لأن فسادنا قد تمخض عن فلسفة من التهكم حتى أصبحت أول استجابة لنا على أى اقتراح هى ابتسامة جدية . وقد بلغ بنا الأمر بنوع من التكيف مع جو البيئة أن أصبحنا نعتقد أن العالم كان على الدوام على هذا النحو ، وسيكون أبداً كذلك . ويبدو أننا قد تلاءمنا تمام الملاءمة ، مع أننا الآن فى غاية الذكاء بهذا الحكم الذى يحكمنا فيه الذئاب والأوز . وأكبر الظن أن ڤولتير كان على حق حين ذهب إلى أن الرجل الحكيم عليه أن يستسلم فيترك العالم بالحالة التى وجده عليها . غير أن سحر المدينة الفاضلة يسرى فى دمائنا ولن يتركنا فى راحة حتى نقف عن النمو . وفى الأرستقراطية بعض الخير الذى يجب علينا أن نبحث عنه وننسجه فى وحدة مع الحق الذى يكمن وراء ديمقراطيتنا المزيفة .

* * *

تصور انتخاباً لمحافظة إحدى المدن فى أمريكا عام ١٩٥٩ . إنه لا يزال انتخاباً ديمقراطياً ، يصوت فيه كل رجل وكل امرأة وينتخب أولئك الذين عليهم أن يحكموا . حقاً إنه انتخاب ديمقراطى إلى أقصى حد أكثر من أى انتخاب عرفناه من قبل . ذلك أن اختيارنا اليوم محدود بشخصين أو ثلاثة ، تختارهم اختياراً خاصاً جماعات صغيرة ليس لنا عليها رقابة ؛ وسلطتنا التى نُزْهى بها مقيدة بتحديد نوع الملابس التى سوف يلبسها أسيادنا فى الجيش . أما هنا فى هذا الانتخاب الذى نتخيله فالاختيار يتراوح بين مائة من المرشحين ، وتمرح سلطتنا فى حرية هذا المدى .

كيف يمكن أن يظفر هؤلاء المائة من المرشحين بالتعيين فى المنصب ؟ أوجدوا مائة « رئيس » Bosses ، ومائة « جهاز » machines ؟ بأى حبل جاذب ، وخدمة صادقة للحزب ، ومبادرة ثابتة العزم على التصويت خضوعاً للأوامر ، وصلوا إلى هذا الباب من السلطان ؟ لم يصلوا بأى طريق من هـــذه الطرق ، ولا بغيرها مع ذلك ، لأنهم لم يعينوا أصلا ، بل أعلنوا فقط ترشيحهم وأهدافهم ، ولا شىء أكثر من ذلك .

أيمكن أن يكون انتخاب بغير تعيينات ؟ أيمكن استبعاد الاتفاقات المدبرة ، وانتقاء المرشحين ، وجمع الرؤساء ، واجتماعات بلاكستون Blackstone Hotels[1] ولكن أيكون أى شخص حراً لترشيح نفسه لمنصب العمدة ؟ أو المحافظ ، أو الرئيس ؟ كلا ، بل ولا أى شخص آخر أو أى عدد من الأشخاص أحراراً فى تقديمه ، إذ جدارته فقط هى التى تزكيه ، وإعداده فقط هو الذى يعينه . على أى حال مهما يكن الاختيار الشعبى واسع الدائرة هنا ، فلن يؤدى إلى اختيار شخص غير ذى كفاية .

ذلك أن كل مرشح من هؤلاء المرشحين قد وقف حياته على تكوين نفسه التكوين الصالح للوظيفة التى ينشدها . فقد نجح فى الكلية بامتياز ، ثم بعد ذلك خلال أربع سنوات من التدريب الشاق والعملى فى مدرسة «الإدارة السياسية» . كان الحكم عنده فناً وعلماً يكتسب ويتعلم كما هى الحال فى الطب أو الهندسة أو القانون ، ولم يكن مجرد منصب يظفر به . وها هو ذا الآن قد برز فى النهاية منوراً بالمعرفة ومزكى بالعمل ، وقد سقط عنه كل خبث واحتيال فى الطريق . وأصبح الآن حراً ، وكذلك كثيرون غيره ، لينزل انتخابات العمودية فى أى بلدة صغيرة فى الدولة . فاذا خدم مثل هذه البلدة دورتين فله أن يرشح نفسه لعمودية مدينة أكبر ، حتى إذا خدمها دورتين فله أن يتقدم للانتخاب فى رياسة المحافظات الكبيرة . وإذا خدم فى إحداها دورتين فقد يتقدم ليكون محافظاً ، وإذا خدم الولاية ذاتها محافظاً دورتين فقد يطمع أن يكون رئيساً للجمهورية . فالإعداد هو الذى يعينه ، وجامعاتنا وهى أبدع إنتاج للحياة الأمريكية تصبح مربى حكامنا ومركزهم . وتبقى البيروقراطية كما ستبقى دائماً . وتبقى الأوليجارشية كما ستبقى دائماً ، ولكنها بيروقراطية مدربة ومسئولة . وأوليجارشية دستورية رفيعة ومقيدة . وتبقى الديمقراطية — فى الانتخابات — وترتبط الأرستقراطية بها — عن طريق تقييد الوظائف بالأفضل . ولكنها ديمقراطية تخلو من عدم الكفاية أو الفساد ، وأرستقراطية بغير وراثة أو مزية .

أهذا حلم غير عملى ومثالى ؟ وأى حلم لم يكن كذلك ؟ تأمل كاتباً صغيراً

(١) يقصد الاجتماعات التى تعقدها بخان الأحزاب الداخلية للاتفاق على مرشحيها . (المترجم)

فى عصر إلزابيث يتنبأ بواشنجطن أو ميرابو ؛ أو فى أيام واشنجطن من يقول بتحرير المرأة ؛ أو أيام جرانت من ينادى بتحريم الخمر . كل شىء مستحيل حتى ينفذ . إذا كانت أكسفورد وكمبردج تربيان رجال الحكم ، أفتحرم جامعاتنا لئلا تساويهما ؟ لقد ظلت الصين مدى قرون تقصر الوظائف على الرجال الذين يختبر تعليمهم وإعدادهم كل خطوة فى ترقيتهم . فلما دخلت الأفكار الديمقراطية إلى الصين عام ١٩١١ ، ألغى هذا النظام بالطبع ، ولو أنه كان يمنح تقريباً فرصاً متكافئة للجميع . وظهرت فى ألمانيا منذ قرن مدن لم يسبق لترتيبها ونظافتها وجمالها البديع مثيل ، لأن حكامها قد انتخبوا لما لهم من تدريب خاص بشئون المدن (١) .

ومع ذلك فلا يجب أن ندع اليأس يتطرق إلى نفوسنا ، فهناك بالفعل « مدارس للحكم » فى جامعاتنا الكبرى ، أو مناهج تصلح أن تكون نواة لمثل هذه المدارس . وقد بدأت العداوة للخبراء تختفى ، وبلغت الجرأة بمدن مثل سنسناتى Cincinrati أن يحكمها رجال دربوا تدريباً خاصاً . ويعرف كل مثقف فى أمريكا الآن أن انتخاباتنا تمثيليات شائنة ، وأن أرباب هذه اللعبة السخيفة منزعجون لانسحاب نصف الناخبين من إعطاء أصواتهم ، وإصرارهم على هذا الانسحاب . لقد آن الأوان أن ندعو الناس ليروا رأيهم فى ذلك ، وليعلنوا بصراحة أننا لن نضيع وقتنا فى أمر التصويت حتى يصبح انتخاب رجال الحكم ممكناً . إن الجبن الذى نتصف به هو الذى يترك الرأى العام جاهلا ، وهو الذى يسمح ببقاء نصف الأمة صامتة على اعتقادها المكتوم بأن الديمقراطية قد أخفقت. فلنعلن رأينا .

هذا كل ما يستطيع كاتب أن يفعله . ولكن تأمل أى أعمال جليلة يمكن أن يقوم بها رجال ذوو نفوذ وحيلة . تأمل مائة صحيفة دورية مزودة بالمقالات ، ومائة خطيب يعلمون الشعب أن الوقت قد حان كى تتحرر التربية . وتأمل رأى المثقفين يعلنونه بصراحة وينزلون به من طبقة إلى أخرى بين الشعب . وتأمل

(١) « لا ينبغى أن يعمينا نزاعنا مع ألمانيا عن هذه الحقيقة وهى أن ألمانيا قبل الحرب كانت أفضل الدول المحكومة فى أوربا » .Dean Inge, Outspoken Essays, Second Series, p. 94

العيون قد تفتحت والأهواء قد نامت . وأخيراً تنتشر الرغبة فى محاولة تحديد المناصب والعزم على قصرها — أو التعيين إذا وجب أن يكون هناك تعيين — على رجال أعدوا ودربوا بشرف . تأمل كل مدينة تحاكى فى غيرة غيرها حتى تصبح جميعاً نظيفة وآمنة ، وقد طرد من مناصبها وشوارعها على السواء اللصوص والأشرار .

ولسنا نرجو نحن الكهول أكثر من ذلك ، فقد تحجرت قلوبنا وجفت من الحقائق حتى أصبحنا نبتسم عند كل حماسة ، ونضحك من كل مثل أعلى . ولكن جيلا آخر ينمو فى كلياتنا ، وهو جيل مع أنه أقل رومانتيكية مما كنا عليه ، إلا أنه أشجع وأعلم . وحين نظفر بمليون من هذا الشباب سيكونون من القوة بحيث ينزلون إلى الميدان ويمحون العار الذى يخنق حياتنا العامة .

فليمح العار .

الفصل العشرون

كيف صنعنا المدينة الفاضلة Utopia

١ — فى مزايا المدن الفاضلة

من أقوال أوسكار وايلد : « إن خريطة للعالم لا تشمل مدينة فاضلة لن تستحق حتى مجرد النظر إليها ، لأنها تغفل الدولة الوحيدة التى ترسو عليها الإنسانية دائماً . وعندما ترسو الإنسانية هناك ثم تتطلع فترى بلاداً أفضل فإنها تبحر إليها . ذلك أن التقدم هو تحقيق المدن الفاضلة » (١) .

أهذا صحيح ؟ أتحققت المدن الفاضلة بانتظام ؟ إن الفكر الناشىء له اليوم رأى مضاد ، ولم يعد من البدع المألوفة الاعتقاد فى تحسين البشرية أكثر من ذلك. يقول المتشكك : « التاريخ يعيد نفسه ، وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ، وبخاصة الحضارات . وليس تقدمنا إلا موجاً مضطرباً على سطح بحر أعماقه ثابتة ولا تتغير . والمدن الفاضلة قصائد روحانية لطاف تخدر بها نفوسنا الحساسة ذواتها لتحتمل أفاعيل الحياة والموت التى تحرقنا . ولكن الرجل القوى يتلقى جروحه بغير دواء مسكن ، أو إذا احتاج إلى النسيان غمر نفسه فى الحاضر وما يدور فيه من ترتيب « روتين » دون أن يحفل بمصير الإنسانية فى الغد . وقد وقع ما هو كائن ، وسيكون . والأزياء وحدها هى التى تتغير » .

الحق أننا حيوانات غير شاكرة ، واليوم حيث أغدق مصباح علاء الدين باختراعاته ألوان الترف علينا نجلس كفتاة خيالية بين هذه الطرف ، ونتطلع إلى كنز مختلف وبعيد ، ولا حد لإعجابنا به لأنه شديد البعد . لقد طاف بأحلام الفلاسفة فى الماضى إنشاء المدارس العامة ، فلما حصلنا عليها أصبحنا نشتاق إلى الجامعات العامة . كان الناس قديماً عراة ، وهم اليوم كاسون ، ولكنهم

(١) The Soul of Man under Socialism.

يتألمون لأن غيرهم يلبس ملابس أغلى منهم . ومرّ على الناس حين من الدهر كانوا جياعاً ، واليوم يموت مئات الألوف كل عام فى جميع البلاد المتحضرة بسبب أمراض التخمة . ومع ذلك فلست تجد لساناً حامداً يرتفع بالدعاء لهذا الفيض العميم وهذا الطريف والتليد مما يشرفنا أن نموت به . وحتى فى أيام وليم شكسبير كان الظلام يخيم على المدن الكبرى ليلا ، وكان كل شارع مخوفاً . واليوم (ولو أن كل شارع لا يزال غير مأمون) ذهب عن الليل فزعه ، وتشيع الأنوار بهجتها فى كل مكان . ومع ذلك يرجع الناس البصر من وراء أكتافهم غير راضين ويندبون الأيام الخوالى . وفى الزمن الماضى كان الأطفال فى السادسة من العمر والأمهات ربات الأسر الكبيرة ينفقون أربع عشرة ساعة فى مصانع قذرة ، وينامون ليلا على الأرض بجانب الآلات ، أما الآن فالأطفال يذهبون إلى المدرسة حتى يصبحوا على أهبة حكم العالم ، ويبقى الملايين من النساء فى بطالة رقيقة تبدو لحداتهن خطيئة خيالية . ولكن مهلا . . . كم تزيد سعادتهم إذا استطاعوا القيام بشىء واحد آخر . . . رحلة إلى أوربا ، أو كوخاً على شاطىء البحر . لقد ظفر العمال بالتنظيم والشجاعة بأجور أعلى ، وإحترام أشد ، وأمن أعظم ضد تقلبات الحياة . ولكنهم للأسف لم يحققوا الدكتاتورية . لقد تطلع القواد ذات يوم إلى الزمان الذى يرون فيه الحرب العامة ، فلما شهدوها أصبحوا يقفون الآن أمام النجوم البعيدة فى شوق إلى إرسال السـلاح إلى المشترى (جوبيتر)(١). ويزدهر الكتاب اليوم بما لم يسبق له مثيل فى التاريخ . ويسرت الاختراعات ووسائل النقل والإعلان البيع بما لم يعرفه حتى بيرون أو ماكولى . وإذا بكاتب مثل أناتول فرانس يصبح مليونيراً من قلمه الممتاز – ولكن أى حزن يرين على قلوب هؤلاء العباقرة الناجحين .

يقول أناتول فرانس : « لو استطعت أن تقرأ ما سطر فى نفسى لفزعت ، فلست تجد فى جميع أنحاء الدنيا مخلوقاً أتعس منى . » ألا ما أروعك يارب الكلام الجميل . – أنت الذى أحطت نفسك بكنوز الفن من شتى العصور والبلاد ، يا من ملكت قلوب الساسة والثائرين فى نطاق من الإعجاب والحب ، ومن

---

(١) جوبيتر هو رب الأرباب وكبير آلهة الرومان وحامى روما (المترجم) .

مجد حتى فى حياته بأنه قرين رابليه ومونتينى وفولتير وغيرهم من ملوك فرنسا ، أنت الذى ملكت المال والفراغ ومع ذلك لم تستغلّ نفساً واحدة : فإذا كنت « أنت » لم تعرف السعادة قط ، فأين توجد ، وكيف نحصل عليها نحن الصغار ؟

ولأمر ما انتهت بنا الثروة إلى التشاؤم ، وتركنا غزو الطبيعة مثل « سلامبو » (١) بؤساء فى نصرنا ؟

لقد تحققت المدن الفاضلة ، ولكن فى العالم الخارجى فقط . تصور حالنا إذا لم يكن العالم الخارجى موجوداً ، كما يذهب بعض الفلاسفة . لقد تغير العالم الباطنى — أى أنفسنا — ولكن بأى بطء جيولوجى . لقد كان أيسر علينا أن نغير وجه الأرض ، وأن نربط القارات خفية براً وبحراً وجواً ، وأن نحول الفحم والحديد إلى ملايين الطرف ، من أن نخلع من أنفسنا غرائز الجشع والمقاتلة والقسوة السارية فى مستقبلنا بأجيال من الكفاح والفقر الدافع إلى التوحش . فنحن ما كتب علينا أن نكون عليه ، وسنبقى كذلك حتى إذا ذهبت الضرورة الملزمة لنا .

نحن على حق إذن فى أن نكون غير راضين ، ولو أنه من الخطأ أن نجحد فضل ذلك النصف من المدينة الفاضلة الذى منحنا العلم إياه ، ومن الخطأ ألا نفهم أن هذا النصف هو الوعد بالنصف الباقى وأساسه . إننا نعرف فى صميم قلوبنا أننا حيوانات تعيش فى الجنة غير جديرين بالجمال الذى تقع أعيننا عليه لأننا على استعداد لتشويهه بالصناعات البشعة ، فحيثما حصلنا معاشنا أصبحت الحياة مستحيلة . وكما نبدد الجمال كذلك نسىء استعمال المعرفة ، لقد ضاعفنا قوانا مائة مرة ، وأضفنا إلى أجسامنا كثيراً من الأذرع ، غير أن خططنا تكاد تكون من الهوان وضيق الأفق كما كنا نعيش فى الجهالة والقذارة . إننا أقزام روحية فى هياكل ضخمة هائلة . لقد حلت المدينة الفاضلة فى كل مكان ما عدا نفس الإنسان .

من أجل ذلك فإن هذه المدينة الفاضلة المتواضعة التى ننسج خيوطها الآن

---

(١) سلامبو Salambo قصة تاريخية كتبها فلوبير عام ١٨٦٢ ، وتدور وقائعها فى مدينة قرطاجة التى كافحت ضد جند من المرتزقة . ووقع قائد الجند فى حب سلامبو وهى غادة حسناء من قرطاجة وابنة قائد مشهور . وذهبت سلامبو ليلا إلى خيمة ماتو قائد المرتزقة لتحصل على القناع المقدس الذى سرق من المدينة . وتنتهى القصة بمقتل ماتو ، وموت سلامبو (المترجم) .

بالأحلام اللطاف لن تنظر فى إعادة بناء الطبيعة ، ولا فى « بسط مملكة الإنسان » (لأن فردوس بيكون قد تحقق) ، بل فى صياغة أنفسنا صياغة جديدة ، وبناء عقولنا وإراداتنا حتى تصلح لسكنى عالم أفضل ، صاف صفاء معرفتنا وقوى كقوتنا. ولما كانت « الطبيعة البشرية » والجهل الإنسانى هما السبب فى خراب كل مدينة فاضلة ، فسنسعى أولا إلى تطهير قلوبنا وعقولنا ، ومن الأرجح أن كل شىء آخر سيقبل علينا .

فلنجلس هنا تحت ظلال هذه الشجرة ، ولنستسلم لأوهامنا بينما يمرح الأطفال فوق المروج الخضراء .

٢ — العمدة يستيقظ

أيقظ العمدةَ مبكراً شروق الشمس التى ألقت أشعتها على أذنه ، فاستعاد الوعى رويداً رويدا ، وحال لون « البيت الأبيض »، وأقنعه النهار الطالع بظهور النور . وحاول النوم مرة أخرى ولكنه لم يستطع . ثم أخذ يفكر لأنه لم يجد أفضل شغلا للوقت من التفكير .

قال لنفسه : « يا إلهى . أنا العمدة . كيف بلغت هذا المنصب ؟ أى حظ هذا . وأى مصادفة . لو أنى لم أعرف تومى بيرك . . . لقد كان جميلا منه أن منحنى التعيين . ولكن لماذا لم أعرف منذ عشر سنين مضت أننى سأحكم مدينة كبرى ؟ لعلّى كنت قد أعددت نفسى . ما أشق هذا العمل . إنه أسوأ من إدارة خط سكة حديدية ، أو تربية أسرة . هذا إلى أننى لا دربة لى على الإطلاق . قلما قرأت كتاباً فى حياتى ، وها أنا ذا الآن رئيس لمليون من الرجال والنساء . إن ما أفعله يرفع أو يهدم آلافاً ، وسيؤثر فى أطفال لم يولد أجدادهم بعد. ومشكلاتهم لقد بدأت أضيق بها : ترحيل ، رشوة ، تطعيم ، رشوة ، تمويل ، رشوة ، تطعيم ، رشوة ، تسويق ، رشوة ، رشوة تطعيم ، تطويق رشوة ، تطعيم ، رشوة ، بناء ، رشوة ، تطعيم ، رشوة ، تنظيف شوارع ، رشوة ، تطعيم ، رشوة ، صحة ، رشوة ، تطعيم ، رشوة تعليم ، رشوة . . . أوه ، إن المهمة كبيرة جداً بالنسبة إلىّ . إنها مهمة تحتاج إلى مائة رجل . لن أستطيع القيام بها وحدى » .

وارتفعت الشمس فى السماء وسطعت فى بشر على أنفه . وتثاءب العمدة ، ثم جلس فى الفراش ، وهز رجليه . وفجأة أشرق وجهه .

« إنى أعرف ما سوف أعمله . سأخرج الساسة عن صوابهم . إنه شىء لم يعمل قط من قبل . سأدعو أكبر العلماء من جامعاتهم ، وأكبر الممولين من مصارفهم ، وأكبر المربين من مدارسهم ، وزعيمات المرأة من منتدياتهن ، وأكبر المخترعين من معاملهم ، وأكبر المقاولين من أنديتهم الرياضية ، وأكبر زعماء العمال من رحلاتهم — سأدعوهم إلى قاعة الاجتماعات فى المدينة ، وأطلب منهم مساعدتى .

« يا ربى . لقد سئمت الساسة . إنهم لا يودون عمل أى شىء ، بل يرغبون فى الحصول على كل شىء . لا يريدون الأعمال بل يطلبون المرتبات . وهناك عشرة من هؤلاء الساسة لكل عمل أطرحه ، ولا يكاد يعرف أحدهم شيئاً عن العمل الذى يظن أنه يرغب فى عمله . لقد ضقت بهم ذرعاً » .

وتحرر العمدة من جميع ملابسه ، ووقف بشجاعة أمام الشمس وخاطب أرواح الهواء :

« وبعد ، ففى المدينة رجال عظماء . فهناك فوق التل بعض العلماء معروفون فيما يقال فى جميع أنحاء العالم . ويوجد هنا مديرو بعض المصانع الكبرى العالمية . وفى المدينة رجل واحد هو رجل حكم (١) . فلماذا لا نستفيد بعقله؟ لن أستطيع إغراءهم بالسعى إلى المناصب ، وبخاصة أفضلهم ، ولن أستطيع حتى إقناعهم بالتعيين فى المناصب ، لأن المرتبات ضئيلة جداً . ولكن إذا قلت لهم : «أيها السادة إنى أحتاج إلى معونتكم ، أفلا تقبلون وتجمعون أنفسكم فى مجلس ينصحنى؟» — أظن أنهم يرغبون فى منح المدينة بعض وقتهم . وعندى سلطة تعيينهم كمجلس للإصلاح المدنى . . . » .

وعندئذ ركع العمدة ودعا الله قائلا :

« يا إلهى . امنحنى القوة » .

---

(١) يميز المؤلف بين السياسى politician ، وبين رجل الحكم statesman ، فالأول لايعرف صناعة الحكم ولا الإدارة وكل بضاعته الخطابة والظفر بالمناصب والسلطان والمال وتسخير الجماهير لأغراضه ، والثانى عالم متخصص فى فن الحكم (المترجم) .

٣ — المجلس الكبير

وسرت أنباء المجلس الكبير الذى ألفه العمدة فى أنحاء المدينة كالكرة تذرع الملعب . وارتعش الموظفون فى مناصبهم ، وعجبوا كم يطول بهم الوقت الآن فى وظائفهم . ولكن كل شخص آخر كان مسروراً . حتى الجهاز السياسى أعلن عن حماسته ، ولكنه تحدث مع « صاحب الشرف » (١) حديثاً خاصاً عرفوه فيه أنهم لا يحفلون بهذه الخطة لإصلاح الشعب ، ما دام « الحزب » organisation لم يمس ، ولم يصب بشىء ، ولا تزال رقابته موجودة .

واجتمع المجلس فى قاعة هادئة للاجتماعات وضعتها الجامعة تحت تصرفه . ومثلت الصحافة تمثيلا واسعاً ، أما الجمهور فطلب إليه بأدب أن ينصرف ، إذ حيث يوجد الجمهور تكثر الخطابة . وبلغ عدد أعضاء المجلس خمسين ، وكانوا جماعة من كل لون وجنس وفن ، ولكن كل رجل وامرأة منهم كان متميزاً بعمل خاص . كان فيهم الأستاذ جورمان البيولوجى الكبير ، وستوبردج جورمان المالى المستبد . وكان من بينهم فليكس شتراوس رجل البر والإحسان ، وآرثر تومكنز محافظ إحدى المدن الغربية . ثم هنرى هوبرت المهندس ، وإدوارد هيوز المحامى وكلاهما مشهور بتبريزه كموظف فى مجلس الوزراء . وكان من بينهم ثيوسن الاقتصادى ، وتاوسون العالم النفسانى ، وولبرت المهندس المعمارى . ومنهم أيضاً الدكتور موى الطبيب ، والصاغ جورج وهو مهندس آخر . ثم ماتيو جرين زعيم العمال ، وإجبرت جراى صاحب مصنع . وكان فيهم زعيم السود الكبير بودوسى ، والخفار المشهور لمبرج . وجلست السيدة الموسرة مدام ليرد كروكسى إلى جانب فانى كوان المرأة البسيطة التى نظمت التعليم الراقى لشغل الإبرة . وكنت ترى جنباً إلى جنب الشاب جون ستونمان وارث الملايين وموريس هلبر الزعيم الاشتراكى . واندمج رابى ستيفن ومارشال لويس بسرور مع مونسينيور أفيلا ودكتور إمرسون . أما الأسقف بويلنج المحافظ على تقاليد الكنيسة فقد صافح لأول مرة فى حياته كبير الموحــدين (٢) Unitarian جيمس هنرى هاوس .

---

(١) المقصود العمدة (المترجم) .

(٢) الموحدون فرقة مسيحية انشقت سنة ١٧٧٣ على الكنيسة الإنجليزية وكانت تنكر التثليث وتذهب إلى أن الله واحد أحد فى ذاته وصفاته (المترجم) .

ولم يكن بينهم تجار ، أو متعهدون realtors ، أو ساسة ، أو أدباء ، أو فلاسفة.

ثم إن العمدة خاطبهم متجملا بالحياء قائلا : « أيها السيدات والسادة ، لقد دعيتم إلى هذا المجلس لأن مدينتنا أصبحت من الاتساع بحيث لا يستطيع أن يحكمها بحكمة رجل واحد . فقد نمت إلى حد كبير لا يتيسر معه أن يديرها عدد من الرجال يختارون لمهارتهم السياسية أكثر من معرفتهم الاقتصادية أو قدرتهم الإدارية . ولقد حان الوقت الذى يجب فيه أن تسخر جماعاتنا الكبرى ما يوجد عندها من ذكاء وخلق .

« إننا فى حاجة إلى إرشادكم ، فادرسوا مشكلاتنا بعناية ، وافحصوا توصياتكم جيداً ، ولتكن هذه التوصيات فى حدود الطاقة البشرية وفى نطاق قدرة المدينة المالية . أما من جهتى فإنى أعد بتأييد كل توصية بكل ما لدى من نفوذ مادامت هذه التوصية لاتعارضها أقلية كبيرة سواء من المجلس أو الجمهور . ولكنى لا أعتقد أنكم ستواجهون أى عداء كبير ، فهذه المشكلات الخاصة بالإصلاح المدنى ليست أموراً سياسية ، وليست فيما أفترض أموراً تختص بالتشريع الطبقى . إننا نقف معاً فى فوضى ، ويجب أن نتحرك معاً نحو السلامة . والآن المدينة مدينتكم ، وعليكم إصلاحها » .

وساهمت الصحافة عند هـــذه النقطة الحرجة مساهمة فعالة فى أعمال المجلس الكبير . كان من اليسير ومن الطريف السخرية بالمشروع — أن يصوروا العلماء الخجولين والمهملين صوراً كاريكاتورية ، وأن يتنبأوا بأنه لا خير يرجى من مثل هذا المجلس المتنافر ، وأن يمثلوا الأعضاء كقديسين يريدون أن يثقلوا بفظاظتهم الأخلاقية على شعب يؤثر حياة مستهترة ويتصنع فيها الندم . ولكن العمدة كان قد عين كل صاحب جريدة كبرى أو كل محرر معروف فى المدينة فى عضوية المجلس ، فكانت ضربة عبقرى أظهرت قيمة التدريب السياسى . وتشجعت الصحافة بهذا الاعتراف فنهضت لانتهاز الفرصة ، ورأت أنها يمكن أن تصبح ، هنا كما تصورها الناس دهراً طويلا ، أعظم وسط تعليمى فى العالم . وأرسلت الصحافة أحسن محرريها لكتابة القرارات ، وقدمت كل تأييد ممكن للمشروع العظيم .

وفى أثناء ذلك كان الساسة يهمهمون ، وأعاد المقاولون النظر فى مواصفاتهم ومكاسبهم ، ورسم الشيوعيون صوراً غير لائقة لموريس هيلير، بل إن الجمهور لم يكن واثقاً تمام الثقة بالاهتمام بهذا المجلس المؤلف من الفطاحل، وبلبلت أول توصيات أقرت بعد أسبوع من المداولات أفكار الجمهور ، ذلك أن الفرع البيولوجى من المجلس أصدر قراراً فى جانب تحديد النسل : الأصحاء عقلياً وجسمانياً هم الصالحون وحدهم للإنجاب . وانتشرت رويداً رويدا موجة من الاحتجاج فى أنحاء المدينة . من هم أولئك الرجال والنساء ، هؤلاء « الخبراء » والرأسماليون والاشتراكيون والمفكرون حتى يحق لهم أن يخبروا الشعب صاحب السلطان أن الأبوة مزية أكثر منها حقاً مكسوباً بالوراثة ؟ ولو أن الصحافة لم تنشر التوصية الأولى كاملة، لكان من الممكن أن يحدث ضرر عظيم. وكان الاقتراح يجرى ببساطة كالآتى :

« أول قرارات المجلس أن الإصلاح يجب أن يبدأ بالاحتفاظ بصفات الجنس الجسمانية والعمل على تحسينها . فلا يمكن أن نتقدم كما نرجو إلا إذا استخدمنا كل وسيلة ممكنة لتشجيع الأصحاء على النسل ، وصرف ذوى العاهات عن إدامة عاهاتهم الوراثية .

« ومع ذلك فلا حاجة إلى تشريع مانع حتى فى هذا الأمر الأساسى ، بل نود فقط أن نقترح سبيلا يسلكها جميع العقلاء من الرجال والنساء . ونحن نؤثر أن نعتمد على محض إرادتهم الحرة على محاولة إرغامهم بالقانون . وسنقصر الإكراه على أنفسنا فقط .

« وبناء على ذلك نحن أعضاء هذا المجلس الإصلاحى نتعهد لأنفسنا ، ويقطع أبناؤنا (برضاهم) الذين فى سن الزواج على أنفسهم عهداً بالامتناع عن النسل إلا بعد موافقة الأطباء المعينين لهذا الغرض بوساطة الاتحاد الأمريكى الطبى . ونحن ندعو الجماعات والأفراد إلى إعلان قبولهم هذه القاعدة . ونحن واثقون من أن أذكى هيئات المجتمع ستكون أول من يتعاون على تنفيذ هذا الاقتراح ، ونتطلع إلى هيبة مثلهم للتأثير فى الجميع .

« ونحن نوصى المصابين بعاهات وراثية بحرية الزواج ، وسوف يشجعون على الحصول على طريقة لمنع الحمل من الأطباء المرخصين .

« ونوصى أكثر من ذلك بأن من يقبل هذه القاعدة ويراعيها سيكافأ بمنحه تأميناً كبيراً ضد الحوادث والمرض والبطالة والشيخوخة والموت . ويمنح معونة أمومة مالية لجميع النساء اللاتى يلدن طبقاً لهذه القاعدة . ونحن نثق فى تشجيع المحسن أكثر من منع المسىء .

« وأخيراً ، وفوق كل شىء ، ندعو الصحافة وجميع مدارسنا وجامعاتنا إلى نشر المعلومات عن هذا الموضوع : بأن يبينوا لكل قارىء أن تقدم الجنس يتوقف على الصفات المتحسنة فى كل جيل فى الصحة والعقل . وأن ينشدوا من وطنية الجمهور مزاولة هذا الكف النفسى المعتدل كأول خطوة فى إصلاح مدينتنا » .

ويلى ذلك فى ترتيب مؤثر توقيعات جميع أعضاء المجلس ما عدا واحداً .

وبعث هذا الإعلان الأول سخرية النقاد المتشككين ، فابتسم بعضهم من الأمل الساذج لقوم ظنوا أن فى استطاعتهم إصلاح المدينة بنشر المعرفة . وذكر أحد النقاد تعليق فردريك الأكبر على وزير التربية الذى كان قد اقترح إصلاح البشرية عن طريق المدارس العامة : « آه يا عزيزى زولتر ، إنك لا تعرف هذا الجنس الملعون كما أعرفه » . ولكن كثيرين من النقاد ابتهجوا بهذا التصور الجديد للحكم كتربية ، وهذا العزوف عن التجنيد والإكراه ، وهذه الخطة المتفائلة بدفع التقدم الإنسانى لا بالكشف عن المساوىء بل بتشجيع جميع البدايات السليمة .

ثم جاءت تعهدات بالقبول ، وعقد أطباء المدينة اجتماعاً خاصاً كرسوا فيه أنفسهم بالإجماع . ثم تبعهم أعضاء الاتحاد الأمريكى لأساتذة الجامعة فى المدينة ، وبعدهم بقليل اتحاد المعلمين . وانضم بعد ذلك نقابة الصحافة وأصحاب الصناعات الكيمائية ، واتحاد الموسيقيين . . . وأعلنت جماعات كبرى انضمامها . وأخيراً اقتراح اختيارى بتعهد تناسلى من جميع الطلبة الحاصلين على دبلومات من المدارس والكليات . وإذ لقى هذا الاقتراح تأييداً عاماً ، فقد أصبح التعهد الاختيارى المؤيد مع ذلك بقوة الرأى العام جزءاً من كل وثيقة بالانتساب إلى المدينة . وهكذا كسبت المعركة الأولى .

٤ — الحكم بالتربيــــة

بعد أسبوع قدم قسم التربية فى المجلس التوصية الثانية إلى العمدة ، ونشرت فى الصحف . وكانت كما يلى :

« نوصى بأن ينظر إلى حفظ الصحة العامة ، وأكمل تربية ممكنة للأطفال والمراهقين على أنها أول مهام الحكومة . ونقترح إنشاء مستشفيات بلدية يعالج فيها كل مرض علاجاً كاملا بالأجر . ونوصى بأن تلقى العناية بالجسم فى مدارسنا من الملاحظة والتشجيع ما تلقاه تنمية العقل . ونعتقد أن صحة الأمم أهم من ثروتها ، وأن سر السعادة فى الصحة . إننا نتطلع إلى تنمية كل رياضة صحيحة ، وإلى إلزام التعليم الخاص بجميع فنون النظافة . ونوصى بعدم تشجيع المشاهدة السلبية للألعاب ، وأن تقدم جميع التسهيلات لمشاركة الجميع مشاركة فعالة فى الألعاب.

« ونوصى بأن يكون فخر المدينة فى إنفاقها بسخاء على التربية . ونحث على الزيادة التدريجية فى معدل أجور جميع المعلمين حتى ترتفع مهنة المعلم إلى أرفع المراتب وتجتذب أفضل الناس . ونوصى برصد منح مدرسية يستعين بها الطلبة المعدمون حتى يتابعوا التعليم العالى ، وحتى تستفيد المدينة من جميع المواهب الكامنة فى مواطنيها . وننصح برصد مبالغ أخرى للبحث العلمى وتهدف إلى تنمية الاختراعات التى سوف تجعل القوة الميكانيكية أرخص من قوة العضلات فى الإنسان ، فتضع بذلك حداً للرق الإنسانى .

« ونوصى بأن تحذف من مدارسنا كل المراجع المثنية على الحرب ، وأن يشجع فى الناس ميلهم الطبيعى إلى السلام ، وأن يعتمد عليهم فى تأييد جميع الوسائل اللازمة للدفاع .

« ونوصى بتشجيع المدارس الخاصة ، والتجارب فى التربية . وننصح بالحرية الكاملة فى القول والصحافة والاجتماع والعبادة باعتبارها أموراً ضرورية للخلق الوطنى القوى . ويجب أن يوازن امتداد الدور الذى تلعبه المدينة فى حياتنا بأقصى ما يمكن من حرية العقل .

« ونوصى بأن تكون المدرسة هى البيت الفكرى للمجتمع ، فتفتح أبوابها آناء الليل وأطراف النهار ، وتقدم جميع التسهيلات للنمو الجسمانى والعقلى .

« ونعتقد بأن مدارسنا يجب أن تضطلع بمسئولية التكوين الخلقى ، حتى توازن فساد القوى والنظم الأخلاقية الأخرى . وأن أى تربية لن تكون كاملة حتى يندرب الطالب على البصر بالقيم والنتائج الاجتماعية لرغبة الفرد ، وحتى تنمى فيه الاستعداد لتحديد سلوكه فى حدود صالح الجماعة بأسرها .

« ونحث أصحاب الصحف ومحرريها على الرقى بالصحافة باعتبار أنها وسط كبير للتربية العامة . وندعو المحسنين إذا لزم الأمر عن طريق نشر نزيه وبارز فى الصحافة إلى تمويل تعليم كامل فى العلم والتاريخ والأدب والفن .

« وأخيراً نوصى بأن يكون تعليم الشباب فى كل فرع بالأجر لكل راغب . وبأن طلبة المدارس والكليات يجب أن ينظروا إلى كل بداية على أنها مجرد معلم يرشد إلى تنمية النفس ، وبأن التربية يجب أن ينظر إليها لا على أنها مجرد مهمة وإعداد فقط ، بل أنها صلة ممتعة وزكية بتراث الإنسانية الثقافى .

ووقع التوصيات جميع أعضاء المجلس ما عدا اثنين .

وسر كل إنسان بهذه التوصيات ما عدا دافعى الضرائب . فقد ابتهج الأطباء بعناية المجلس بالصحة ، وتنفس الجمهور فرحاً عند علمه بأن المستشفيات لن تكون بعد ذلك معامل لتشريح الفقراء أحياء . وكان المعلمون راغبين فى زيادة الأجور ، وأخذت أسرة كل معلم تنفق الزيادة المنتظرة فى الدخل . ورحب عباقرة الشباب الكثيرون ممن كانوا يعدون الفقر العقبة الوحيدة فى الاعتراف بهم بالاقتراح الخاص بالمنح المدرسية . وقدرت الصحافة منزلة الدور الملقى على عاتقها . وسبح خيال الفتيان والفتيات فى بحيرات المدينة الفاضلة المتوقعة.

ولكن تيودور بلاك رئيس اتحاد الملاك أرسل احتجاجاً أيده كل صاحب ملك . وإليك نصه :

« من الواضح أن مجلس الإصلاح الذى أنشأه العمدة بعد أن ضل سبيله فى أول تقرير له محاولا إصلاح الجنس البشرى بأسره لا المدينة فقط ، قد وقع الآن فريسة المثاليين السذج ، وأكبر الظن ضحية أبلغ الخطباء من بين أعضاء المجلس . وكنا نرجو أن يقصر المجلس اقتراحاته على حدود العقل والإمكان العملى ، ولكننا نرى الآن أنه بعد هذا التبجح كله لن نحصل إلا على مدينة خيالية (طوبيا) أخرى .

أما هذا المشروع الذى يجعل من جميع الطبقة العاملة حاصلين على الدكتوراه فجدير بتفكير تلميذ فى المدرسة ، فكل صاحب عقل ناضج يدرك أن عدد المناصب التى يمكن أن يستفاد فيها من التعليم العالى فى عالمنا الاقتصادى محدود جداً . ونحن نرى الآن أن كلياتنا تخرج من الطلبة أكثر مما تستوعبه مجموع المهن. فإغراق البلاد هذا الإغراق بذوى الدبلومات فى الفنون إنما يعنى أن عدداً كبيراً من هؤلاء المتخرجين حين لايجدون مخرجاً لما تعلموه من لغة لاتينية وإغريقية ، لن يتلاءموا مع مراكزهم فى الصناعة ، وسوف يعممون سخطهم الشخصى فى تهييج ثورى . ولن ينصح أى مفكر بزيادة هذا الفيضان ، وكل مرب مجرب ينظر الآن فى الطرق والوسائل المؤدية إلى تخفيضه .

إن توصيات المجلس تجرى فى تيار سياستنا الشائعة بتدليل الصغار . فكل منا يشعر أنه مطالب بالثناء على خطايا الشباب الحديث – وأن يستخف بما فيه من صلف ، وتحرر ، وتطرف ، وانحلال خلقى . وكل أب يضيِّق على حياته الخاصة كى يترك لأبنائه وبناته ثروة يضيعونها فى عيشة منحلة . إن هذه الكليات التى نرسل إليها صغارنا بمثل هذه التضحية هى مجرد أندية رياضية ومدارس للإلحاد . فأن نقدم لشبابنا الملحد لا التعليم العالى الحر فقط ، بل حمامات السباحة والمكتبات هو أن ننتقل من باب المستحيل إلى باب المضحك .

أيوجد أحد يوضح لنا من ينفق على هذا كله ؟ إن ميزانية البلدية الكبيرة التى تنفق على المدارس والكليات تفرض الآن ضريبة هائلة على العقارات ، فما مصير الضريبة إذا نفذت هذه التوصيات الجشعة ؟ فليحسب كل مواطن يرتهن أرضاً تكاليف هذه الأعاجيب ، ثم لينظر ماذا يبقى له حين تكون الحكومة الوطنية قد سلخت دخله ، والمدينة قد فرضت عليه أن يدفع نفقة أكداس من البلاشفة .

إنا نطلب من العمدة أن يضع حداً لهذه المهزلة ، وأن يعيد هذه التوصيات إلى المجلس طالباً من أعضائه أن يجمعوا بأنفسهم الاعتمادات المطلوبة لمشروعاتهم .

المخلص

تيودور بلاك

٥ — اشتراكية أصحاب الملايين

فتحت هذه الرسالة باب الانقسام فى الرأى بالمدينة انقساماً أصبح أشد وأعمق يوماً إثر يوم . وعندما أعلن المجلس دون أن يرد على أى نقد تقريره الثالث ارتفعت أصوات التعليقات المعارضة . وانتشرت إشاعة تقول بأن التقرير كاد أن يشطر المجلس شطرين . ولوحظ بالفعل أن سبعة أعضاء من الخمسين رفضوا توقيعه . وإليك بيان هذا التقرير :

« نحن نوصى بأن تحكم المدينة رقابتها على كل غذاء يدخل حدودها ، وأنها بالتعاون مع الصحافة ستنشر كل أسبوع قائمة بالأسعار ، وأنها ستتخذ الخطوات التى تمنع مضاعفة البيع بالتجزئة لضروريات المعيشة .

« ونوصى بأن تستولى المدينة على جميع المرافق العامة وتديرها ؛ وأن تنشىء بنفسها محطـات الكهربا المـائية hydro-electric plants ، أو تتعاون فى استخدام الآلات المنشأة من الدولة . وأنها ستبيع التيار بتكاليفه لكل من يرغب فى استخدامه حتى تتحرر المدينة من الدخان ، وحتى تصبح جميع الصناعات صحيحة ونظيفة .

« ونوصى بأن تمتلك المدينة جميع خطوط النقل وتقوم بإدارتها ، وأن تكون زيادة التعريفة أو خفضها لتغطية تكاليف الإدارة الفعلية ، وأن تجرى هـذه التسهيلات لتجنب الازدحام الحاضر البغيض ، ولسكنى السكان براحة فى الريف .

« ونوصى بتشجيع الشركات corporations التى تخضع أساليبها للإشراف ، والتى تحدد المدينة أسهمها وتضمنها ، لتبنى عمارات ، وإذا أمكن مساكن مستقلة ، بإيجار معتدل ، حتى يمكن أن تتجدد مباهج البيت والأبوة ، وأن تستعيد الأسرة بعض منزلتها الأولى كمدرسة للأخلاق ومنبع للنظام الاجتماعى .

« ونتقدم بالشكر لأولئك المحسنين الذين يسروا وجود متاحفنا وفرقنا الموسيقية العظيمة orchestras ، ونأمل أن تمتد هذه المنح الخيرية إلى جميع أقسام المجتمع وطبقاته . ونحث على تنمية ما يجرى العمل به الآن من ترقية فهم الفنون والاستمتاع بها وأن تغذى الذوق فى جميع النفوس ذلك الذوق الذى يكشف عن العبقرية وذلك الإحساس بالجمال وهو أحسن ضمان لعظمة مدينتنا » .

وقوبلت التوصية الثالثة بالفتور ، أو محى أثرها بالمدح الضعيف ، أو هوجمت بازدراء . ولما كانت اقتراحاتها تستهدف نفع المجتمع بأسره أكثر من أى قلة منظمة أو بارزة ، فلم يعبر إلا القليل عن استحسانه . أما العناية التى أثارها التقرير غير العادى الأول فيبدو أنها لن تعود ، فلم يكن اليسير بعث حماسة الجمهور بأمور كالنقل والغاز . لأنه كما أن حريق منزل يجتذب لمشاهدته جمهوراً أكثر من بنائه ، كذلك لم يكد المجلس يشرع فى تفصيلات الإصلاح حتى خفت صوت الاهتمام الشعبى . وإذا كان هناك إجماع عام على المساوىء التى تقاسى منها المدينة ، وكانت هناك مئات من الخطط لحلها ، فلم يكن أى اقتراح يتوقع أن يسر منه أكثر من نفر ضئيل من أولئك الذين يرغبون فى التغيير .

أما كبار تجار أغذية الجملة الذين كانوا يبيعون لتجار القطاعى فى المدينة ذلك الطعام الذى كانوا يختزنونه كوسيلة بارعة لرفع الأسعار ، فقد ضغطوا على قادة الحزبين ليتبرأ من المجلس ويحط من شأنه . أما شركات الغاز والكهربا الكبرى ، والتى كان ما تخجل منه أقل من ذلك ، فقد كانت شكواها أقل ، وأعلنت أنها لا تمانع فى شراء البلدية للتيار بشرط أن يسمح لها بتحديد الثمن . واقتبست بعض خطوط النقل كما زعمت توصية المجلس « لزيادة التعريفة » ، واشتد عداء آلاف الناس عند قراءتهم هذا الاقتباس للمجلس . أما المساهمون (بعضهم كان قد ربح من قرار إشكومنز و بمقتضاه حددت أسهم السكك الحديدية و ضمنتها الحكومة الوطنية) فقد احتجوا على ضمان أو تحديد البلدية لأسهم المبانى . وابتسم العزاب من الاقتراحات القاضية بأن يكون إنجاب الأولاد بدعة مرة أخرى . وخلال هذه المناقشات كلها دار بحث واحد هام : كيف يمكن أن تمول هذه المدن الخيالية ؟

٦ — تمويل المدينة الفاضلة

بعد شهر من تاريخ اجتماع المجلس الكبير قدم تقريره الرابع والأخير ثم انفض ، واستغرب أهل المدينة لتوقيعه كالتقرير الأول من جميع أعضاء المجلس ما عدا واحداً ، وهذا نصه :

« نوصى بامتداد وتحديد الديمقراطية بحيث تعنى الفرصة المتكافئة للجميع

فى أن يجعلوا أنفسهم صالحين للمناصب الكبرى ، وقصر المناصب على اللائقين. ونحث على إنشاء مدارس للإدارة السياسية فى جامعاتنا ، وأن يكون القبول فيها حراً لكل من ينجح فى اختبارات الالتحاق سواء أكانوا من خريجى الكليات أم لم يكونوا . وأن يكون التعليم فيها كاملا وعملياً كالمطلوب اليوم ممن يريد أن يمارس مهنة الطب . ونقترح على أحزابنا السياسية أن تعين أكثر فأكثر للمرشحين فى وظائفها الصغيرة المتخرجين فى مثل هذه المدارس الإدارية . وأن يقصروا قصراً تاماً جميع التعيينات فى الوظائف الكبرى على الرجال والنساء الذين بعد تخرجهم فى هذه المدارس يكونون قد خدموا دورتين فى بعض المناصب الأقل مرتبة . كما نلتمس إعانة « مكتب الأبحاث البلدية » حتى يمتد نشاطه فيشمل دراسة الطرق الحديثة للحكم البلدى فى أى مكان ، والمراقبة المتصلة لقرارات كل موظف فى خدمة المدينة .

« ولتمويل توصيات هذا التقرير وما سبقه نقترح ما يأتى : أولا ضريبة على الأرض غير المستغلة ، وأنواع الترف ، وجميع الهبات الخاصة والوصايا التى تزيد عن قيمة معينة ، وعلى جميع الملاهى التى لا تساهم فى النمو الجسمى والعقلى للمجتمع . وثانياً إصدار سندات بلدية ذات أجل طويل ، حتى تتحمل الأجيال التى ستفيد من هذه التحسينات نصيبها من التكاليف .

« وحيث كنا نعلم أن هذه المصادر لن تكون كافية ، فإنا نقترح أن يشترك القادرون على الدفع فى « رصيد الإصلاح » Reconstruction Fund على أن تديره هيئة من غير السياسيين ينتخبهم أصحاب الهبات وهذا المجلس . ونحن نرجو من الصحافة أن تعين فى رفع هذا الرصيد إلى رقم يتناسب مع ثروتنا . كما نتوجه إلى ما نعرفه فى قومنا من بعد النظر ومحبة للوطن كى تحرك همة القادرين والأغنياء من الرجال . سيتحقق الإصلاح بدونهم ولكن ببطء ، ويمكن أن يتم بهم فى جيل واحد ، فنجعل مدينتنا تنافس عظمة أثينا وفلورنسا وروما .

« وللتعبير عن اهتمامنا الخاص بهذا الموضوع نحن ، أعضاء هذا المجلس ، نتعهد بدفع خمس دخلنا السنوى مدى خمس السنوات التالية لهذا الرصيد » .

٧ — ولكن فى الواقع

من كان يستطيع مقاومة هذه الفقرة الأخيرة ؟ بضربة واحدة استعاد المجلس ما فقده من اهتمام الجمهور وتأييده . ولما كانت الأراضى الصالحة وغير المستغلة فى المدينة قليلة ، فقد سخر حتى تيودور بلاك وابتسم . ولكن ، « خمس دخلنا الكلى ! » كان ذلك منحة ضخمة ، لأن المجلس كان يضم طائفة من أغنى الناس فى البلاد ، وحتى أعضاؤه الاشتراكيون كانوا أغنياء . فلا ريب أن تكون المدينة الفاضلة قد بدأت .

وأصبح الذين دافعوا عن المجلس منذ البداية فى ظل هذه الظروف المشجعة أكثر شجاعة فى ثنائهم ، فأبرزوا ما فى الاقتراحات من اعتدال ، كما وضحوا هذه الحقيقة وهى أنه ما عدا بعض الاستثناءات القليلة قد أيد هذه التوصيات المحافظون والمتقدمون من كل صنف وأمة وعرف . ونشرت الصحافة التقارير الأربعة معاً حتى يتمكن القراء من البصر بالمجتمع المشرق السليم كاملا ، ذلك المجتمع الذى كان خلقته فى ضمير أصحابه . وأصبح من الواضح أن ما كانوا يحاولونه ليس مدينة فاضلة آلية ، ولا جنة فيها الظل الممدود نعمة للماشين أو الطائرات للزاهدين فى المشى ، بل كانت فى أساسها أكثر من ذلك ، الرقى بالنسيج الجسمى والعقلى والخلقى للسكان . إن جنساً ينشأ من هذه الأساليب جدير أن يخلق لنفسه مدينة فاضلة ، وأن يصبح قادراً على استخدام الآلات دون أن تستبده .

ومرة أخرى بتأييد الصحافة نما « رصيد الإصلاح » نمواً سريعاً . فتعهد كثير من الأفراد والأسر بخمس دخلهم لمدة عام بشرط إنفاقه على « التوصيات » . وحول أحد أعضاء المجلس بهدوء مبلغ خمسين مليوناً من الدولارات كان قد رصدها للتعليم العام إلى هذا المشروع . وأرسلت نساء حليهن ، ووهب رجال وهم على فراش الموت أموالهم ، واستقطعت المنظمات مبالغ كبيرة من أسهم أعضائها الصغيرة . وبلغ الرصيد مائة مليون بعد شهرين من انفضاض المجلس .

وتطلعت جميع العيون إلى «مكتب العمد» Board of Aldermen . فى اليوم الذى كان على العمدة أن يتقدم فيه التوصيات احتلت جميع المقاعد فى الصالة والمقاصير ، وطفحت وجوه جميع النظارة بشراً وكأنهم كانوا يشعرون بأنهم

يشاهدون أول حادث دراماتيكى فى الانتقال من « عصر الذهب » إلى « العصر الذهبى » . وقرأ العمدة جميع التقارير مبيناً أن كل اقتراح يجب أن يعرض كإجراء منفصل ، وطلب بلباقة الموافقة عليها جميعاً . كان أمله أن تستقر هذه الإدارة فى ضمير مستقبل المدينة إذا أقرت هذه التوصيات ، وبدأ العمل فى تنفيذها قبل انتهاء دورته .

فلما فرغ نهض عمدة قديم ، وتكلم معارضاً التوصيات فقال :

« يا صاحب الشرف ، إنى أحكم على هذه التدابير بأنها تسليم دنىء للاشتراكية . ماذا دهى كبار رؤساء الصناعة الذين اتخذوا مكانهم فى هذا المجلس حتى سلموا فى كل نقطة للخطط الصبيانية الصادرة عن أحلام الشيوعيين ؟ إنى لأرى وراء هذه القرارات يد موسكو الحمراء ، والتأثير الخفى « للدولية الثالثة » . ومع أن بعضها حسن إلا أنى سأصوت ضدها جميعاً لأنى أحب بلادى ، ولن أرضى أبداً أن تخضع لنفوذ دولة أجنبية » .

وضحكت الصالة ، ولكن العمد أنصتوا فى وقار . ونهض أحدهم وسخر بأدب من الفكرة القائلة بأن المشروعات شيوعية . ولكن المتكلم الثالث نقل المناقشة إلى جو الخطابة . كان أبيض الشعر ، أحمر الوجه ككلب الصيد ، تقلب فى مناصب مختلفة حتى بلغ المجلس البلدى . قال يزأر كالرعد بحماسة :

« أيها السادة ، ليست هذه المشروعات تسليما لروسيا فقط ، بل تسليما لأصحاب المصالح الكبرى الذين سعوا طويلا إلى التحكم فينا . فما هذا الشىء الذى يسمى « المجلس الكبير » إلا أن يكون نادياً للأغنياء ؟ أليست منحتهم لجزء صغير من دخلهم طعماً يصيدون به المدينة كلها فى أيديهم ؟ وما رصيدهم الكبير إلا أن يكون استغلالا لمبلغ ضخم سينفق بوساطتهم لا بوساطتنا ، ليصوغوا المدينة على هواهم ؟ وما حديثهم عن شراء خطوط النقل إلا أن يكون حجة مزيفة لرفع التعريفة أو لشراء هذه الخطوط بالسعر الذى تفرضه هذه الخطوط ؟

« ثم لاحظوا أيها السادة هجومهم غير الوطنى على الحرب . أقدم إلينا قط اقتراح بمثل هذه السفاهة يذهب إلى أننا لن نقول كلمة طيبة لشبابنا المقدام وقوادنا العظام الذين ظفروا باستقلالنا ، وحفظوا اتحادنا ، وجعلوا العالم بالديمقراطية آمناً ؟

« وفى جميع هذه التوصيات لاتوجد كلمة واحدة عن الدين . فكروا فى ذلك أيها السادة ، لا توجد كلمة واحدة عن الدين . على العكس اقتراح ملحد بأن الدين آخذ فى فقدان تأثيره الأخلاقى . وهذه الفتيات فى المدارس سيستبدلن بالدين علم الأخلاق . أوه . علم الأخلاق ethics . هلا عرفتموه ؟ — علم الأخلاق ؟ ما علم الأخلاق هذا ؟ إنى أعرف ماهو ، إنه مشروع لتحطيم الدين. إن نصف أعضاء ذلك المجلس ملحدون ؛ أو نفعيون وهو نفس الشيء ؛ أو يهود وهذا أسوأ . لقد عرفت منذ البداية أن كثيراً من أعضاء المجلس يهود . أكرر لكم القول ، كثيراً جداً من اليهود .

« وأنت يا صاحب الشرف ، كيف استغفلوك ؟ أنت الذى نشأت فى الشوارع كالباقين منا ، ثم ارتفعت إلى منزلة العمدة الجليلة لمدينة كبرى . إنهم يقولون فى وجهك إن جميع العمد الآن يجب أن يتعلموا فى تلك الجامعات الكبرى. هه . هؤلاء المعلمون فى المدارس هم الذين سيخبروننا كيف ندير المدينة ، إيه ؟ إنهم يريدون تحطيم الديمقراطية التى حارب آباؤنا من أجلها ، والتى حفظها إخواننا فى الميادين الفرنسية . إنهم يريدون انتزاع حق المنصب من العمال الأمناء. يا للخجل منهم . عار علينا جميعاً كجماعة من المغفلين إذا صوتنا لمشروع واحد من هذه القوانين ، هذه المشروعات الخائنة التى ستخرب حكومتنا وتجلب الخزى لمدينتنا الجميلة . » .

واستمرت المناقشة على مشروعات القوانين عدة أيام : وناضل العمدة فى صبر للموافقة على كل قرار ، وأيده كثير من العمد السابقين ، على حين كانت القاعة المزدحمة تصفق بشدة لكل خطبة مؤيدة أو تصويت موافق . وبعد نهاية أسبوع صدر القرار الكبير ، وأخذت الأصوات على كل مشروع قانون على حدة ، وعاد الجمهور إلى بيته . ولم يوافق على أى قرار .

دع عنك هذا كله ، فإن ظل هذه الشجرة بديع ، وما أمتع أن تسمع ضحكات هؤلاء الأطفال .

الجزء الثامن

الدين : محاورة

الفصل الحادى والعشرون

على المروج

أشخاص الحوار

أنــــدرو : ملحد		ماتيــو : كاثوليكى	
أراييـــــل : مضيفة		بـــول : بروتستانتى	
كــلارنس : لا أدرى		فيليب : مؤرخ	
اســــتر : يهودية		سيدا : هندوكى	
سير جيمس : عالم أنثروبولوجى		ثيودور : اغريقى	
كـــونج : صينى		وليـم : عالم نفسانى	

تنقسم المحاورة ثلاث جلسات : على المروج ، وحول المائدة ، وفى المكتبة .

نشـــــأة الدين

١ — الآنيمية Animism

آرييل : فلنرتب أنفسنا فى حلقة حول هذا الحوض من زهر التوليب . سنكون فرسان الحديقة المستديرة ، وقد حلفوا أن يدافعوا عن الإيمان — أو يهاجموه. تعال يا ماتيو ، يا تابع المسيح ، وأنت يا أندرو ياملحد ، ساعدانى على نقل هذه الأرائك . ومن يحب منكم غروب الشمس فليجلس هنا فى مواجهة الرب الأعظم. هناك ؛ أنبتدىء ؟

بول : كما تريدين منا ، يا آرييل ؟

آرييل : لقد طلبت منكم المجىء والتحدث عن الدين ؛ فكم يهمنى ، وكم يدهشنى ، ولعل بعض الناس يهمهم ويدهشهم كذلك . يجب أن تفسروا كيف نشأ الدين ، ومعنى صوره المختلفة وقيمتها ، وما موقفه اليوم ، وماذا سيحدث

له فى أمريكا . كذلك يجب أن تخبرونى عن النفس أخالدة هى ، وعن الله أموجود هو ؟ هذا كل شىء .

كلارنس : يمكن أن نفعل ذلك بإيجاز شديد — إذا وافقت .

آرييل : ولكنى أسر جداً حيث أجدك مخالفاً . لقد فتنتكم بهذا المكان لأنى أعلم أنكم جميعاً مختلفون . إنى أحب أن أراكم تتناقشون معاً فى وفاق ، ولو أن كلا منكم على يقين من أن الباقين على خطأ فظيع . كيف سنبدأ ؟

أندرو : بأن نعرف اصطلاحاتنا . ماذا تعنون بالدين ؟

آرييل : أوه . . التعريفات متعبة جداً ؟

فيليب : لقد جمعت ذات مرة تعريفات الدين ، ولعلى أذكر بعضها . يسميه شلير ماخر شعوراً بالاعتماد المطلق . ويسميه هافلوك إليس : « إحساسا مباشراً intuition بالاتحاد مع العالم » [١] . ويقول جلبرت موراى « إنه ذلك الذى يجعلنا نتصل بقوى العالم العظمى » [٢] . ويصفه شبنجلر بأنه « الميتافيزيقا التى نعيشها ونجربها — أى ما لا يمكن أن نفكر فيه كيقين ، والأعلى من الطبيعة كواقع ، والحياة كوجود فى عالم ليس واقعاً ولكنه صادق »[٣] . ويعتقد البروفسور شوتويل أنه : « ليس شيئاً سوى الاستسلام للسر mystery » [٤] . ويعرفه إفرت دين مارتن بأنه : « التقدير الرمزى لسر الوجود فى عبارات تدل على مصلحة الإنسان كذات » [٥] ويحده ريناخ بقوله : « الدين مجموعة من الشكوك Scruples تعوق حرية عمل ملكاتنا »[٦] .

ماتيو : هذا أكثر التعاريف سخرية وإيذاء سمعت به .

وليم : إنها جميعاً نماذج من الغموض .

---

(١) Goldberg, I., Havelock Ellis, p. 138.

(٢) Murray, G., Four Stages in Greek Religion, p. 95.

(٣) Decline of the West, vol. ii, p. 217.

(٤) Shotwell, J.T. The Religious Revolution of Today, p. 153.

(٥) Martin, E.D. The Mystery of Religion, p. 378.

(٦) Reinach, S., Orpheus, a History of Religion. p. 3

فيليب : أحسب أن تعريف تيلور يروقك أكثر منها ، فهو يسمى الدين بكل بساطة : « اعتقاد فى كائنات روحية » .

السير جيمس : ولكن بعض الآلهة يتصورها الناس مادية . وليس الاعتقاد كافياً ، إذ يجب أن تضيف العبادة .

فيليب : كيف تعرف أنت الدين ، يا سير جيمس ؟

سير جيمس : الدين استعطاف أو استرضاء لقوى أعلى من الإنسان ونعتقد أنها توجه طريق الطبيعة وحياة الإنسان أو تتحكم فيهما [(١)] .

آرييل : أتعنى أنه عبادة كائنات علوية ؟

السير جيمس : أشكرك على هذا الدرس فى الإيجاز .

آرييل : حسناً ، كيف نشأ الدين إذن ؟

أندرو : لم يجب عن هذا السؤال أحد بأفضل مما أجاب عنه لوكريتيوس : «كان الخوف أول شىء خلقه الآلهة فى العالم » . فقد كانت الحياة البدائية محفوفة بآلاف المخاطر ، وقلّ أن كانت تنتهى بالفساد الطبيعى ، إذ تحل الشدة أو المرض بالناس فتفنيهم قبل أن يبلغوا الشيخوخة بزمن طويل . واليوم حين يُعجز المتوحش عن فهم الظواهر يشخص أسبابها ، ويفترض بالقياس إلى بدن نفسه أن روحاً تسكن فى كل شىء طبيعى ، وهى المسئولة عما يفعله هذا الشىء . ألم تر قط الدهش والخوف فى عينى كلب يرى ورقة يدفعها الريح فى طريقه ؟إنه لا يستطيع أن يرى الريح ، وإنى لأراهن أنه يتخيل وجود روح فى الورقة تجعلها تتحرك . إنه كلب متدين ، وأنيمى animist [(٢)] بدائى . فهذه هى كيفية نشأة الدين .

آرييل : هل نصدقه يا سير جيمس ؟

سير جيمس : إذا شئت . إن ما يسميه أندرو المرحلة الأولى كان فى

---

(١) Frazer, Sir J., The Golden Bough, p. 50.

(٢) اصطلاح أنيمزم animism ، وأنيمى animist، من الاصطلاحات التى يصعب ترجمتها . لذلك آثرنا إبقاءها كما هى ، فنقول : أنيمزم أو أنيمية للمذهب ، وأنيمى لصاحب المذهب أو أحد أتباعه . أما ترجمتها بحيوية ، وحيائية واستحياء وغير ذلك فلا تدل على المعنى تماماً . والاصطلاح فى الأجنبية من اللفظة اللاتينية anima أى الروح أو النفس وكتاب النفس لأرسطو مشهور ، ويسمى de anima أى فى النفس (المترجم) .

الأرجح مرحلة ثانية ، تصور الناس فيها أن البحر العظيم ذا الطاقة المولدة للعجائب ، والتي عبدها أهل جزر الملايو وسموها « مانا Mana » ، وهنود أمريكا وسموها «مانيتو manitu» ، وهي مرحلة مقسمة إلى أرواح منفصلة تسكن الأشياء الفردية .

سيدا : كان ذلك الاعتقاد المبكر شديد العمق ، ولا يختلف كثيراً عن آخر اعتقاد للعلم الحديث من أن كل مادة طاقة .

سير جيمس : لا يزال الاعتقاد القديم يصحبنا بأساليب كثيرة . فقد افترضوا قديماً أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والسماء صور خارجية للأرواح ، ولا نزال حتى اليوم نحب أن نشخص هذه الأشياء الطبيعية . وكان الإغريق يظنون أن السماء بدن الإله أورانوس ، وأن القمر هيكل الربة سيلين ، والأرض جسم جايا ، والبحر جسد الإله بوزيدون .

تيودور : لم يكن ذلك إلا شعراً يا سيدى بالنسبة للمثقفين من الإغريق .

سير جيمس : وكان فى نظر أوساط الإغريق حقيقة حرفية ، ألم يكن كذلك ؟ ولكن جميع الناس سواء فى هذه الخاصية . كانت الغابات فى نظر قدماء الألمان والنرويجيين تبدو مملوءة بالسكان من الجن ، والأقزام ، والسحرة ، والمردة ، والمساخيط ، والحور ، والعفاريت — ولك أن تراهم فى رينجولد Rheingold[1] ، وبيرجنت[2] Peer Gynt . ولا يزال بسطاء الفلاحين فى أيرلندا يعتقدون فى الحور ويخشون تأثيرها . ويعزو الهنود الأمريكيون فى بعض الأحيان انحطاطهم إلى هذه الحقيقة ، وهى أن الرجل الأبيض قطع الأشجار التى كانت أرواحها تحمى الرجل الأحمر . وفى جزائر الملوك molucca يحتفلون بالأشجار المثمرة كما يحتفلون بالمرأة الحامل ، فلا يسمحون باقتراب أى ضجة أو أى إزعاج منها ، لأن الشجر كالمرأة الحامل الخائفة قد تسقط ثمارها قبل الأوان . وفى أموينا Amoyna حين تتفتح حقول الرز تحرم الأصوات العالية فى جوارها خشية قلة المحصول وضمور العيدان قشاً[3] . وكانت فى بلاد الغال غابات مقدسة

---

(١) رينجولد ، اوبرا لڤاجنر (المترجم) .

(٢) بير جنت اسم دراما شعرية لإبسن ، اتخذ بطلها بير جنت وهو شخصية خرافية من الأدب الشعبى الشمالى (المترجم) .

(٣) Frazer, pp. 112, 115.

مملوءة بأشجار مخصوصة بالعبادة . وكان الدرود [١] فى إنجلترا Druids يجمعون مقاسيس شجر البلوط بطقوس دينية .

آرييل : لا يزال يوجد طقوس معينة مرتبطة بالمقساس mistletoe، أليس كذلك ؟ ولكن امض فى حديثك يا سير جيمس .

سير جيمس : حسناً ، هذه الأنيمية ذاتها كانت تطبق على النجوم ، فكل نجم منها يأوى روحاً هادية . وكان البابليون يعزون سبعة كواكب إلهية ، وخلعوا أسماءها على أيام الأسبوع . ونحن لا نزال حتى الآن نوقر دون أن ندرى أيام الأحد والاثنين والسبت [٢] . أما أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة فنحن نمجد آلهة اسكندناوة : تيفس Tives، وودن Wodin ، ثور Thor ، فريجا Friga . ويؤثر الفرنسيون فيما يختص بهذه الأيام ذاتها آلهة الرومان وهى مارس Mars ، ميركورى Mercury جوف Jove ، فينوس Venus . ونشأ التنجيم فى بابل عن الفكرة التى تزعم أن هـــذه الأرواح الكوكبية تحكم مصير الإنسان . وإلى يومنا هذا تقدم الصحف جدولا فلكياً لمعرفة الحظ والبخت كل شهر ، ونستعمل لغة تنجيمية أو فلكية حين نقول : «المجانين lunatics» ، أو المزاج « الحربى martial » أو « المرح jovial » . وتنتشر عند كثير من القبائل عادة إحداث ضوضاء مفزعة فى أثناء خسوف القمر لطرد الشياطين التى تهاجمه [٣] . وقد نفى أهل أثينا أنكساجوزاس لقوله بأن الشمس كرة من النار وليست إلهاً . وأصبحت هذه الأرواح فى المسيحية ملائكة . ويبدو أن كبلر كان يعتقد أن لكل كوكب ملاكاً يرشده فى مسيره . وأكبر الظن أن الهالة التى ترسم حول رءوس القديسين بقية من عبادة الشمس [٤] . ولا يزال الميكادو معدوداً إله الشمس [٥] . أظن أننا نستطيع القول مطمئنين أن الأنيمية هى النســـيج

(١) الدرود كهنة وثنيون عند قدماء الإنجليز (المترجم) .

(٢) هـــذه الأيام بالإنجليزية هى على التـــوالى sunday, saturday, monday, أى يوم الشمس ، يوم القمر ، يوم زحل – من أجل ذلك كان كلام المؤلف مفهوماً فى لغته . وعلى هذا القياس فليصل القارىء بين باقى الأيام وبين الآلهة التى ذكرها المؤلف فيما بعد (المترجم) .

(٣) Reinach, pp. 39, 94.

(٤) Jung, C.G., Psychology of the Unconscious, p. 173.

(٥) نحسب ان هذه العقيدة قد تغيرت بعد هزيمة اليابان واحتلالها فى الحرب الأخيرة (المترجم)

الأولى للدين . ونحن نعنى بالأنيمية الاعتقاد فى أن الأرواح تسكن كل شىء .

فيليب : إن عبادة عضو التناسل إحدى الصور القديمة للأنيمية ، أليس كذلك ؟

سير جيمس : نعم ، فالهمجى لا يعرف شيئاً عن الوسائل الداخلية للتناسل ، وهى التى كشفها لنا علم الخلايا Cytology الحديث . إنه يرى فقط الهيئات الظاهرة ، لأنه لا يفهم ، التى يؤلهها ، وهذه أيضاً فيها أرواح خالقة ينبغى أن تعبد .

سيدا : إنه يبدو لى ديناً معقولا جداً . ذلك أن معجزة الخصب والنماء تظهر فى هذه الهيئات أكثر من أى موضع آخر ، فهى الموطن المباشر للقوة الخالقة . ولا تزال رموز التناسل — اللنجام lingam ، واليونى yoni — تعبد حتى الآن فى بلادى ، ويحملها الناس تعويذة واقية [1] .

فيليب : تشير النقوش القديمة للمصريين إلى عبادة عضو التناسل كأقدم عبادة لهم [2] . وكذلك كان الرومان يحملون أيقونات تناسلية كتعاويذ تجلب الخصب ، كما كانوا يحتفلون بالسر الإلهى للتناسل فى أعياد الحرية « ليبراليا Liberalia » ، والخمر « بكاناليا Bacchanalia » وغيرهما من الأعياد . ويحدثنا لوسيان Lucian [3] عن الأعمدة العظيمة التى يكاد ارتفاعها يبلغ مائتى قدم والتى كانت تقوم أمام معبد أفروديت فى هيرابوليس رمزاً لعضو التناسل[4].

أندرو : أعتقد أن كل عبادة على الأقل عند النساء مرتبطة بنشوة الحب . كانت رؤى القديسة تريزا مرتبطة ارتباطاً واضحاً بمشاعر وهلوسات شهوانية . وهذا يصدق على كثير من الشخصيات المقدسة ، إذا كان لنا أن نؤمن برأى كرافت إبنج وهافلوك إليس . ولما كانت تجربتى مقصورة على انفعال واحد من هذه الانفعالات المذكورة فليس فى استطاعتى الإدلاء برأى أصيل فى الموضوع [5].

---

(١) Sumner, Folkways, p. 546.

(٢) Howard, C., Sex-Worship, p. 63.

(٣) لوسيان (١٢٠ — ٢٠٠ بعد الميلاد) مفكر إغريقى حر عاش فى ظل الامبراطورية الرومانية ، كتب سيرا وقصصاً وشعراً ومحاورات كثيرة (المترجم) .

(٤) Encyclopaedia Britannica, 11th ed., vol. xxi, p. 345.

(٥) Krafft-Ebing, Psychopathia Sexualis, ch. i ; Ellis, H., Studies in the Psychology of Sex, vol. i, p. 315.

سير جيمس : أكبر الظن أن دور الجنس فى الشعور الدينى وفى عبادة عضو التناسل عند الديانات البدائية مبالغ فيه . وتفسير عبادة الشجر والمسلات وأعمدة مايو[١] May-poles وطقوس الختان على أنها تناسلية أمر مشكوك فيه[٢].

تيودور : علينا أن نذكر أن هذه الشعائر القديمة التى كانت تحتفل بالتناسل كانت دينية أكثر منها جنسية . ثم نمت ألوان من الرخص حولها ، كما كانت الحال فى عيد « ثلاثاء النحر » [٣] Mardi Gras أيام المسيحية . أما فى الأصل فقد كانوا يتصورون القوة التناسلية مقدسة وجديرة بكل احترام ، وهذا أفضل من تصورها غير نظيفة .

أندرو : وكذلك غير ضرورية .

آريل : فلننتقل إلى شىء آخر يا سير جيمس . فالأنيمية أول عنصر فى تكوين الدين . فما هو الثانى؟

٢ — السحر

سير جيمس : إنه السحر . فبعد أن ملأ الإنسان البدائى العالم بالأرواح ، وعجز عن التحكم فيها كما يحاول العلم ، أخذ يسترضيها ويستعين بها . والسحر كما يقول ريناخ : « فن قيادة الأرواح Strategy of animism » . وهو عادة سحر عطوف ويعتمد على الإيحاء . كان المتدين البدائى أو الساحر الذى يستأجره لكى ينزل الغيث يصب على الأرض ماء ، والأفضل أن يكون ذلك من فوق شجرة . وفى وقتنا هذا إذا انقطع المطر فترة طويلة فى البلقان وبعض جهات ألمانيا يأتون بفتاة يجردونها من ملابسها ويصبون عليها الماء فى احتفال يصحبه رُقًى سحرية[٤] . وعندما هدد الجدب الزولوس Kaffirs فى جنوب أفريقيا

(١) أعمدة تقام للرقص حولها فى أول يوم من شهر مايو (المترجم)

(٢) Smith, W.R., The Religion of The Semites, vol.i., p.437; Frazer, p.120

(٣) ثلاثاء النحر ، عيد فرنسى كان يقام يوم الثلاثاء آخر أيام الصوم ، ويسمى ثلاثاء الزفر . وكانوا يحتفلون به فى باريس بالطواف بثور سمين فى شوارعها يصحبه قساوسة فى هيئة ساخرة مع فرقة موسيقية تشبها ببعض الأعياد الرومانية (المترجم) .

(٤) Reinach., p. 86.

طلبوا من المبشر أن يرفع مظلته ويمشي بين الحقول (١) . وفى سومطرة تصنع المرأة العقيم من الخشب على هيئة طفل وتضعه فى حجرها ، وهى تحسب أن ذلك يشفيها من العقم . وفى جزر الأرخبيل تصنع المرأة العقيم عروسا من القطن الأحمر وتتصنع إرضاعها وهى تتلو رُقىً سحرية ، ثم يسرى الخبر فى أنحاء القرية أنها أنجبت طفلا ، فيقبل أصدقاؤها يهنئونها . وبين سكان بورنيو من إذا جاء المرأة المخاض أرسلت تطلب ساحراً يخفف عنها آلام الوضع ، ويجعل الطفل يولد بسرعة ، وذلك بأن يمثل هو نفسه حركات الولادة ، وبعد بضع دقائق من آلام هستيرية يدع حجراً يسقط من حجره ويتمتم بعزيمة يدعو بها الجنين إلى محاكاة الحجر . ولقد كان كثير من أشهر العلاجات وأوثقها فى التاريخ سحرية . فهذا باحثكم الدكتور جيمس ج . والش قد سجلها فى كتاب رائع . فإن كنت تشكو من بثور حب الشباب فارقب النجم الهاوى ، حتى إذا هوى امسح وجهك فيتساقط الطفح ، فإذا لم تنجح فذلك لأنك لم تكن سريعاً بما فيه الكفاية . ولعل الأسهم المثبتة للحيوانات فى الصور الموجودة على جدران كهوف ألتامرا Altamira وغيرها كان الغرض منها أن تكون سحراً موحياً . وكان الناس فى العصر الوسيط يحاولون إلقاء السحر على أعدائهم بأن يجعلوا تمثالا من الشمع على صورة العدو ثم يغرزونه بالدبابيس . ولا نزال حتى اليوم نحرق صور الناس . ويسمى أهل بيرو عندما يفعلون ذلك « حرق النفس » (٢) .

أندرو : أعتقد يا سير جيمس أن إحدى نظرياتك الأثيرة عندك هى أن السحر أبو العلم .

سير جيمس : الأنيمية أمّ الشعر ، والسحر أبو الدراما عن طريق التخييل make-believe ، وهى أبو العلم بطريق الرغبة فى سياسة الأرواح ، وإذا أخفق السحر كان الساحر فى بعض الأحيان يضيق ، ولو أن الناس يرسخ فى أذهانهم نجاح السحر مرة واحدة أكثر من إخفاقه عشر مرات . وكان من مصلحة الساحر أن يدرس الأسباب والنتائج ويقع على الوسائل الطبيعية لتنفيذ غرضه المطلوب ؛

---

(١) Hoernlé, R.F.A. Studies in Contemporary Metaphysics, p. 181.

(٢) Frazer, p. 13 ; Reinach, p. 11.

فإذا استخدم هذه الوسائل مع استمراره فى إجراء الأساليب السحرية ، فقد يمكنه أن ينسب نجاحه للسحر ويرفع من شهرته كشخص قادر على تسخير الآلهة . وهكذا نشأ عن الساحر البدائى ، وصانع المعجزات ، أو الكاهن ، المعالج الدجال والطبيب ، والمنجم والفلكى ، والسيماوى والكيماوى . إن علماءنا فى كل ميدان من البحث هم الخلفاء المباشرون لأولئك السحرة القدماء . فقد خرج من ذلك النبع الواحد كل من الدين والعلم ، والفلسفة والطب ، وهما التياران المختلفان اللذان يجريان كالنغمة المؤتلفة خلال تاريخ البشرية [١] .

وعظمت مهارة الساحر أو شهرة العزيمة السحرية فى بعض البلاد إلى درجة أن الخيبة فى كسب رضا الإله لم تكن تنسب إلى نقص العزائم بل إلى عناد الإله . وكان الشباب فى اليونان يضربون أحياناً تمثال « بان Pan » بالسوط إذا لم يمنحهم صيداً موفوراً [٢] . ويلقى صيادو السمك فى إيطاليا تمثال العذراء فى البحر إذا كان الصيد على الرغم من صلواتهم قليلا [٣] . وإذا لم ينجح دعاء الصينيين فقد يسحبون بوقاحة تمثال إله فى الشوارع ، ويوجهون إليه عبارات اللوم قائلين : « أيها الروح يا كلب ، لقد منحناك معبداً فخماً تعيش فيـــه ، وصغناك من الذهب ، وأطعمناك جيداً ، وضحينا لك ، ثم تجحد كل ذلك ! ! » [٤] وفى هذه المزاولات العجيبة اقترب البدائيون اقتراباً شديداً من فكرة القضاء Moira — أو الحظ — باعتبار أن القضاء أعلى من الآلهة والبشر على السواء ، وهو ما به تتميز الديانة الإغريقية ، ويؤدى من جهة إلى التوحيد ، ومن جهة أخرى إلى العلم .

آرييل : لست أدرى ما يقودنا إليه كل ذلك ، ولكنى أظن أنه كله ضرورى .

سير جيمس : لا ينبغى أن تتعجلى النتائج سريعاً يا سيدتى ، ففى دراسة أى ميدان من العلم أو التاريخ يحسن البدء بإغراق نفسك فى الحقائق . فإذا وصلت

---

(١) Frazer, p. 62 ; Reinach, p. 22.

(٢) Hobhouse, L.T., Morals in Evolution, p. 379. – (بان عند الإغريق هو إله المراعى والأغنام – المترجم) .

(٣) Todd, op. cit., p. 414.

(٤) Nietzsche, F., Human All Too Human, vol. i, p. 120.

إلى النتيجة فى كثير من السرعة تخيرت هذه النتيجة لك بعض الحقائق، وحجزتك عن رؤية الباقى.

آرييل: إنك على صواب، وزجرك فى موضعه، فامض وزدنا حديثاً.

سير جيمس: حسناً، لم يؤد السحر إلى الدين والدراما فقط بل إلى الطقوس الدينية، والتضحية، والصلاة. فلا يزال كثير من الصلوات جزءاً من طبيعة العزائم السحرية، التى يتمتم بها المصلى ويتلوها مرة بعد أخرى وهو مؤمن بهذا التكرار. والطلاسم، واللعنات، والدعوات الصالحة، هى أمور تطورت عن السحر. ولكن أكثر الصور دلالة وانتشاراً والتى تطور إليها السحر الدينى هى طقوس الزراعة. كان البدائيون يشخصون قوى النمو على أنها ذكر وأنثى. ويبدو أن لفظة «مادة Matter» جاءت من لفظة «أم Mater» (١). ذلك أن الطريقة المشخصة لرؤية الأشياء أو التفكير فيها سبقت بالطبع غير الشخصية والمجردة، بالضبط كما أن الأنيمية سبقت الميتافيزيقا. إن إله طفل يصلى أكثر ألف مرة تحديداً، وإن شئت فقل أكثر مادية من إله سبينوزا الممتزج بالله God-intoxicated. وهــذه إحدى مساوىء الفلسفة، نعنى أنها تستبدل بالجزئيات المحسوسة المجردات العامة. فتأخذ منا آلهة شبابنا الخاصة والمجسمة وتعطينا بدلا منها «المطلق absolute» الذى يكون من المضحك تصويره فى هيئة إنسانية.

كيف نحصل على محصول طيب، هذه هى المشكلة الكبرى فى كل جيل وفى كل عام. ولم يفكر البدائى قط فى حل المشكلة بصيغة التسميد الأزوتى أو أى صيغة علمية أخرى، بل دخل إلى المشكلة من باب السحر — فيدعو «الأرض الأم Moher Earth» أن تلد له بطناً كبيرة من الطعام. ورتب لذلك الأعياد التناسلية زمان البذر، فحقق بذلك لنفسه غرضين: الأول تخصيب الأرض بالإيحاء عن طريق التقليد، والثانى منح نفسه إجازة ذات مغزى. وفى بعض البلاد كان الناس ينتخبون ملكاً وملكة «لمايو May» أو عروساً وعريساً فى عيد «أحد العنصرة»، ثم يطبقون طقوس الزواج عليهم كتعويذة تفتن

(١) Jung, op. cit., p. 173.

الأرض إلى الخصب . وكثيراً ما كانت الطقوس تشمل الزواج الكامل لئلا تجد « الطبيعة » (أى تلك التى تلد) أى عذر لسوء فهم ما يطلب منها .

إنك لا تزال تعجب أى مدخل لهذا فى الدين . ولكن صبراً ، عندما تدرس الدين المقارن سترى إيمانك ذاته فى نظرة شاملة تصحح الأوهام . فالبدائى كان يعتمد على وفرة المحاصيل أكثر منا اليوم ، لأن احتياطه من القحط والجدب كان من الضعف بحيث لم يمتنع عن عمل أى شىء يوفر له محصولا غزيراً . فسنحت له فكرة ، تكاد توجد فى جميع الأديان ، هى أن يضحى بكائن حى — برجل أول الأمر ، ثم فى العصور المتأخرة بحيوان — لروح الأرض . ذلك أن الدم حين يغوص فى الأرض فإنه يجلب رضا الإله ويخصب الأرض . وكان الهنود فى الإكوادور يضحون بدم وقلب الإنسان عند بذر حقولهم . وكذلك كان يفعل هنود الباونى Pawnee Indians ، وكانت الطقوس فى قبائل البنغال تبلغ حداً مرعباً يجل عن الوصف (١) . وفى بعض الأحيان كانوا يضحون بمجرم. وكان الأثينيون يحتفظون بعدد من المنبوذين لتقديمهم فى حالات الضرورة التى تقتضى ترضية الآلهة بسرعة . فإذا حل قحط أو انتشر طاعون ضحوا بمجرمين أحدهما بديل عن رجال القبيلة ، والآخر عن نسائها . فهذا هو الأصل فى نظرية الفدى vicarious atonement .

آرييل : ماذا تقول ؟ أتعنى أن أكثر العناصر أساسية فى اللاهوت المسيحى ترجع إلى تلك الطقوس الدموية ؟

سير جيمس : لابد أنها تبدو كذلك ، ولو أنى لا أسميها عنصراً أساسياً فى اللاهوت المسيحى . لقد دهشت كثيراً حين وجدت فى أمريكا أن الذين يقدرون العناصر الثانوية وغير الجوهرية فى الدين أكثر من غيرها — وهى الأمور التى تميز فرقة عن أخرى — يسمون « الأصوليين » Fundamentalists . أما أنا فأسميهم ، إذا سمحتم لزائر أن يتكلم بهذه الألفة ، « السطحيين » superficialists ولكن هل أمضى فى قصتى ؟

آرييل : نعم إلى نهايتها .

---

(١) Frazer, p. 432.

سير جيمس : كانت تلك هي الروح ، ففي كل عام ، في العيد المسمى ثارجيليا Thargelia في أثينا ، كانوا يأتون بكبشي فداء، كما كانوا يسمونهما، ويرجمونهما بالحجارة حتى الموت قرباناً للآلهة وفداء لذنوب الشعب (١) . والأغلب أنهم كانوا يختارون الضحية قبل ذلك بعام ، ثم يعبدونها ويكرمونها اثنى عشر شهراً كملك وإله . ثم تذبح في الربيع — وفي معظم الأحوال بعد جلدها بالسياط . ولاريب أن دوافع الشعب نحو السادية Sadism كانت تجد مخرجاً بهذه الوسيلة الدالة على التقوى ، والتي لا غبار عليها . وفي صور متأخرة عن هذه الشعيرة البدائية كانت الضحية التي يقع عليها الاختيار لتكون قرباناً في العام المقبل تعبد كبعث للضحية المذبوحة ، وذلك تشبيهاً بالربيع كإحياء لتربة الأرض بعد وفاتهـا الظاهرة في الخريف . وأصبحت أسـاطير موت الإله وبعثه في هيئة إنسانية جزءاً من جميع الأديان تقريباً في غرب آسيا وشمال شرقي أفريقية (٢) .

ويعد الانتقال من ذبح الرب إلى أكله تقدماً طبيعياً ، لأن الهمجي يعتقد أنه يكتسب قوة ما يأكله . ففي أول الأمر كان الناس يأكلون لحم الضحية ويشربون دمها ، حتى إذا تهذبوا بعض الشيء أحلوا بدل الضحية الحية تماثيل تصنع من الدقيق يأكلونها بدلا عن تلك . وفي المكسيك القديمة كانوا يصنعون تمثال الإله من الحبوب والبذور والخضر يعجنونها بدماء أطفال يضحون بها لهذا الغرض ، ويأكلها الشعب بعد الصوم احتفالا دينياً « لأكل الإله » . ويعزم الكهنة عزائم سحرية على التماثيل فتنقلب من عجين إلى آلهة (٣) .

ماتيو : من المؤكد أنك لن تصل إلى هذه النتيجة وهي بطلان عقيدتي الفداء والقربان المقدس ، لسبب واحد وهو أنك تجد شيئاً شبيهاً بهما بين الشعوب البدائية .

سير جيمس : كلا على الإطلاق ، فلا يزال من البين أن هاتين العقيدتين صحيحتان ، ولن أقول في هذا الأمر قولا جازماً . لقد ارتقت هذه الطقوس

---

(١) Allen, G., Evolution of the Idea of God, p. 353.

(٢) Allen, p. 246 ; Frazer, p. 337.

(٣) Sumner, p. 336 ; Frazer, p. 489.

أكثر فأكثر مع الزمن ، وكانت هيئتها القديمة تعكس صورة مجتمع يأكل لحوم البشر ، وتقوم على مبدأ أن الآلهة لها ذوق رئيس القبيلة نفسه . فلما بطلت عادة أكل لحوم البشر ، حلت الحيوانات بدل الإنسان فى التضحية ، وأكبر الظن أن هذا الانتقال قد رمز إليه فى قصة إبراهيم وإسحق [1] والكبش . ولكن الكاهن البدائى كان يحب اللحم كما تحبه الآلهة ، فلم يلبث أن ابتدع طرقاً يحتفظ بها بأطيب أجزاء الضحية من الحيوان لنفسه ، تاركاً للإله الأمعاء أو العظم فقط وقد موهت بما عليها من شحم [2] .

أندرو : لم يكن الناس قد تصوروا بعد الإله عليما بكل شىء .

٣ — الطوطم والمحرم

سير جيمس : وفى أثناء ذلك أدى اعتماد الناس على الحيوانات ، وخوفهم من الوحوش الكبيرة إلى ظهور عنصر ثالث فى الدين ، هو الطوطمية . والطوطم Totem لفظة هندية تدل على علامة أو أمارة . وكان الطوطم تمثالا يستخدمه هنود أمريكا لتمثيل حيوان أو نبات كانوا يعتقدون أن الروح الحارسة للقبيلة تسكن فيه [3] . والطوطمية ، وهى عبادة الحيوانات والنباتات المقدسة ، كانت مرتبطة فى الغالب بمرحلة الصيد ، ولكن كثيراً منها ظل باقياً حتى المرحلة الزراعية ، وهكذا انتقلت الحمامة والسمكة والحمل المقدسة إلى اليهودية والمسيحية .

كلارنس : نحن جميعاً طوطميون ، بعضنا غزلان من شمال أوربا ، وبعضنا غزلان من شمال أمريكا ، بعضنا يصوت للفيل ، وبعضنا الآخر يصوت لأكمل رمز ديمقراطى ، وهو الحمار . وبعضنا يدخل الحرب إلى جانب الأسد ، وبعضنا الآخر إلى جانب الصقر . إننا فى حاجة إلى الحيوانات للتعبير عن ضروب ولائنا الرفيع .

فيليب : سنة ١٩٢٧ أمرت الحكومة اليابانية بهدم آلاف من المزارات الصغيرة الموقوفة على عبادة الثعالب والثعابين وغيرها من الآلهة [4] .

---

(١) ذهب المفسرون فى الإسلام عند تفسير هذه الآيات من سورة الصافات أن المقصود هو اسماعيل (المترجم) .

(٢) Sumner, p. 340.

(٣) Reinach, p. 15.

(٤) New York Times, July 25, 1927.

ولـيم : ولعل قسوة يهوه والأرباب المعاصرة بقية من عبادة الوحوش ؟ فى خلال مرحلة انتقالية كانوا يتصورون الإلـه بأن له وجه إنسان وجسم حيوان ، أو العكس . وأبو الهول مثال على ذلك . ولما حلت حرب الإنسان للإنسان محل حرب الإنسان للوحش تصوروا الإله كرب الحرب وزعيم الجند لا على أنه حيوان . ولكنه ظل ضارياً كما كان دائماً . ويشير « تارد » إلى أن أكثر الآلهة استبداداً هم كذلك أكثرهم احتراماً — وهذا شيء شديد الشبه بالأزواج [١] .

آرييل : إن مقدار ما تعرفونه أيها الرجال لشيء مفزع . كيف يتسنى لنا ، نحن النساء ، أن نجد وقتاً بعد إرضاع الأطفال والزينة فى صالون التجميل لنلحق بكم ؟ والآن يا سير جيمس ، لقد عددت ثلاثة عناصر فى أصل الدين : الأنيمية ، والسحر ، والطوطمية . أهناك غيرها ؟

سير جيمس : عنصران آخران : المحرمات ، وعبادة الأسلاف . ولفظة محرم « Taboo » لفظة بولينيزية ، تدل على المحرم أو الممنوع . كان تابوت العهد محرماً — لا يمسه إلا أفراد أسرة كهنوتية لها هذا الامتياز . ولما أراد داود أن [٢] يحمله إلى أورشليم وضعه على عجلة جديدة تجرها ثيران ، فتعثرت وأوشك التابوت أن يقع على الأرض ، فتقدم عـُزة uzzah ورفعه ، وعندئذ ضربه الرب فمات لانتهاكه الحرام [٣] . ومعظم المحرمات كانت تقاليد أخلاقية تعتبرها القبيلة من الأهمية بحيث تحتاج إلى عقوبة دينية من أصل إلهى ، تدعمها بالخوف والاحترام . والوصايا العشر مثال على ذلك . وكذلك يحكى الفرس كيف أن زرادشت كان يصلى ذات يوم فوق جبل عال فظهر الله له من خلال الرعد والبرق وأنزل عليه « كتاب الشريعة » . وفى أسطورة كريت أن الملك مينوس تلقى من الله الشرائع على جبل دكتا . وفى أساطير الإغريق أن ديونيسيوس كان يسمى واهب الشريعة ،

---

(١) Tarde, Laws of Imitation, pp. 270, 273, 275.

(٢) انظر صموئيل الثانى ، الاصحاح السادس ١ — ٦ حيث تجد القصة كاملة : « وقام داود وذهب هو وجميع الشعب ... فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة .... ولما انتهوا إلى بيدرناخون مد عزة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت . فحمى غضب الرب على عزة وضربه الله هناك لأجل غفله ، ومات هناك لدى تابوت الله » (المترجم) .

(٣) Reinach, p. 4.

وكانوا يتمثلونه يمسك فى يديه لوحين من الحجر نقشت عليهما النواميس . وكان ذلك ستراً بديعاً لعصا الرئيس ، ولعلنا يمكن أن نرجع إليها حق الملوك الإلهى .

كلارنس : كانت خطة نافعة فى العمل ، وليست مبتذلة . وقد علمت من المشرعين الأصليين أنفسهم أن الله هو صاحب « الإصحاح الثامن عشر »

٤ — عبادة الأسلاف Ancestor-worship

آرييل : ولكن يا سير جيمس ، يبدو لى من الغريب أن تتعمق هـذا التعمق فى تاريخ الدين دون أن تصل إلى الله .

سير جيمس : هذه هى النقطة الأخيرة . إنك تريدين كالطفل معرفة « من الذى صنع الإله ؟ » — كيف أصبح هذا البحر من الآلهة ، وهذه الأرواح التى تملأ الحقل والغابة والسماء ، إله البشر الذى آمن به الناس أخيراً ؟ ولعلك تذكرين الأساطير القديمة عن تحول الآلهة إلى حيوانات أو بشر . والحقيقة كانت عكس ذلك تماماً ، إذ أصبح إله الغلال وإله الحيوان إلهاً نصف بشر . فحين نسمع عن زيوس ينقلب طائر البجع swan ، أو نقرأ عن « أثينة ذات عينى البومة » و « هيرا ذات عينى البقرة » ، نذهب إلى أن قبائل الإغريق كانت تخلط بآلهتها الجديدة تصورات مأخوذة عن حيوانات كانوا يعبدونها فى المرحلة الطوطمية . وقد أشار وليم إلى أبى الهول كمثل لمرحلة انتقال الآلهة الذين كانوا نصف حيوانات ونصف رجال أو نساء . ولم يكن فى حاجة إلى الذهاب مثل هذا البعـد ، فالمتحف الرائع عندكم مملوء بتماثيل كانت مقدسة قديماً نصفها بشر ونصفها حيوان. والحيوانات الخرافية كالمنطور (١) minotaur ، والقنطور centaur ، وعرائس البحر siren ، والسطير satyr ، وحوريات الماء mermaid ، وإله الحقل ، هى جزء من مرحلة الانتقال من الحيوان إلى الآلهة المشبهة (٢) . وجاءت عبادة الأسلاف فأكملت التحول .

---

(١) المنطور رأسه ثور وجسمه بشر ، والقنطور نصفه إنسان ونصفه حصان ، والسطير نصفه بشر ونصفه ماعز ، وحورية الماء نصفها إنسان ونصفها سمكة (المترجم) .

(٢) Reinach, p. 81 ; Murray, op. cit. p. 37.

ويبدو أن عبادة الأسلاف قد بدأت بظهور الموتى فى الأحلام ، فكانت خطوة بسيطة بين الفزع من مثل هذه الرؤى وبين عبادة الموتى . وأصبح الأقوياء فى حياتهم مخوفين بعد موتهم . الحق أن هذا الخوف من الموتى أصبح أعظم قوة مؤثرة فى الديانة البدائية (١) . وإذا كانت الأنيمية قد خلقت السحر ، فقد خلقت عبادة الأسلاف ما ينبغى أن نسميه الدين . وتدل لفظة الإله عند بعض البدائيين الآن على « الرجل الميت » . ويدل « يهوه » على « القوى » ، ومن الواضح أنه كان زعيماً قوياً . وفى مصر وروما والمكسيك وبيرو كان الملك يعبد كإله حتى قبل وفاته . ولقد أله الإسكندر نفسه لأن الشعوب التى فتحها كانت معتادة حكم الملوك الإلهية ، ولولا هذا التحول ما قبلته حاكماً عليها . وكان لابد من استرضاء أشباح مثل هؤلاء الرجال ذوى القوة الهائلة ، وأصبحت الطقوس الجنائزية الممنوحة لهم أول صور الاحتفالات الدينية لتمجيد ذكراه وشرفه وعمله . وقد أخذت جميع صور تمجيد الإله من شعيرة العبودية للرؤساء فى الأرض ، مثل رفع الأيدى ، والسجود ، والركوع ، والتعظيم ، وغير ذلك . وإلى هذا اليوم لا يكمل أى مذبح كاثوليكى لا يضم رفات بعض القديسين . ، أى الأسلاف الأبطال . وبهذا المعنى بدلا من وقف عبادة الأسلاف على الصين واليابان فإنها تمتد إلى كل مكان فى العالم .

وكان الإغريق ومعظم الشعوب القديمة تتوسل إلى موتاها كما يتوسل المسيحيون بالقديسين (٢) . وعالم الموتى عالم حقيقى واقعى إلى درجة أنه فى بلاد كثيرة كانت توفد إليه الرسل بثمن عظيم : إذ يدعو الرئيس عبداً ويبلغه رسالة شفوية ، ثم يقطع رأسه . فإذا نسى الرئيس شيئاً أرسل عبداً آخر عقب الأول بعد قطع رأسه كملحق للرسالة (٣) . أما شبح الميت فكانوا يعتقدون أنه يحمل بعض تلك القوة الخارقة ، أو المانا Mana التى أصبحت مادة الحياة لجميع الآلهة فيما بعد . وهذا هو السر فى العناية باسترضائه . فالدين « religio » مشتق لا من «religare» أى يربط ، بل من «religere» أى يعنى بكذا ، أو يميل —

(١) Frazer, p. vii.

(٢) Reinach, p. 80.

(٣) Allen, p. 30.

والعكس هو « neglegere » أى الإهمال (١) . فالدين مرتبط بعواطف بنوية يتحول فيها تدريجاً الخوف من الموتى إلى محبة الموتى . وحتى الشخص إذا كان متوحشاً فيمكن أن يحب حين يموت .

المرحلة التالية هى تصور الإله أو الرئيس الميت كأب . وفى الدين الحديث نجد فكرة أبوة الله فكرة هزيلة أو علاقة روحية — فنحن لا نفكر فى أن الله يلد الناس جسمانيا . أما عند الإغريق وكثير من الشعوب القديمة فقد كانت الفكرة جسمانية ومباشرة : لقد نشأت أجناس البشر عن آلهة متعددة . وإنك لتجد فى نهاية كل نسب إلهاً . أما الفكرة التى ظهرت عند الإغريق واليهود من أن الآلهة قد خلقت الناس من طين ، فهى من أصل متأخر (٢) .

وهكذا وصلت الإنسانية آخر الأمر إلى تصور إله إنسانى ، واقتضى ذلك منها زمناً طويلا . وقبل هذا الإله ولعدة قرون كثيرة كان بحر الأرواح ثم الأرواح المنبثة فى الصخور والشجر والنجوم ، ثم الأرواح الخالقة بالتناسل وفى الأرض ، ثم الآلهة الحيوانية ، وأخيراً — عن طريق تأليه الأسلاف والملوك — الإله الإنسانى . وأنتم تعرفون أن سبنسر كان يظن أن جميع الأديان يمكن أن ترد إلى عبادة الأسلاف — وهى نظرية قديمة قدم إيوهميروس Euhemerus الذى عاش سنة ٣٠٠ قبل الميلاد . مهما يكن من شىء فعبادة الأسلاف مرحلة متأخرة وليست الأولى ، ومرت قبلها عصور طويلة لم تكن فيها أى آلهة تشبه البشر على الإطلاق . فلما ظهرت عبادة الأسلاف أحدثت تغييراً عظيما فى الدين : أنسنته humanized ، إن صح هذا التعبير ، وأتاحت له أن يتصور الألوهية أولا فى العبادات التى نصوغها لأقوى الناس ثم لأرقهم . لقد مهدت الطريق للعقائد المشبهة الكبرى فى أرض الميعاد واليونان وروما . والآن فليكمل أحد غيرى القصة .

٥ — الوثنيـــة Paganism

آرييل : لقد علمتنى يا سير جيمس ما لم أكن أعلم فأزعجتنى إزعاجاً شديداً . إنى لألاحظ كيف أنصت إليك بول وماتيو فى صبر عظيم ، وأرجو

(١) Reinach, p. 2.

(٢) Smith, W.R., op. cit., p. 42.

أن يتحدثا قريباً مما يعرفانه . ولكن ألا تظنوا أننا يجب أن نسأل أولا تيودور شرح ديانة الإغريق ؟ فأن يكون المرء وثنياً لا بد أنه كان شيئاً ممتعاً .

تيودور : سيدتى ، لست جديراً أن أسمى إغريقياً ؛ فالإغريق اليوم من السلاف ، فهم ليس شعباً قديماً ورث ثقافة قديمة كالصينيين ، بل شعب جديد يسعى إلى بناء حضارة جديدة كالأمريكان . ومع ذلك فقد أحببت ودرست عقيدة بلادى القديمة ، ويسرنى أن أتحدث عنها إليكم . ولما كنت أتوقع سؤالى فقد اصطحبت معى نصاً صغيراً من السير جلبرت موراى .

سير جيمس : إنى أعرفه حق المعرفة ، فهو سيد مهذب ، أيام السلم .

تيودور : إنه يحسن الكتابة عن بلادى . يقول سير جلبرت : « للإغريق القديمة اليد الطولى فى الدين وكل شىء آخر على السواء ، فى امتيازها الرائع بالبدء من أسفل السفوح ثم المكافحة حتى لو كانت خطرة للصعود إلى أعلى القمم . وليس ثمة أى فزع من الخرافات البدائية لا يمكن أن نجد له أثراً بعيداً فى تراث الإغريق . وقل أن تجد فكراً روحياً بارزاً فى العالم لم يكن له نموذج أو صدًى فى الأدب الإغريقى الذى تمتد رقعته من طاليس إلى القديس بولس » (١) . ولعلى أستطيع أن أبين لكم ذلك التقدم الرائع ، وأن أوضح فى الوقت نفسه بمثال الإغريق التحليل البديع الذى قدمه لنا سير جيمس عن تطور الدين .

لقد عبد الإغريق أول الأمر كغيرهم من الشعوب الأرواح فى الشجر والنجوم والحيوانات والنباتات . وأكبر الظن أن السماء كانت أول موضوعات العبادة . ذلك أن « زيوس Zeus » كان يعنى السماء ، كما تعنى « ديوس Deus » فى اللاتينية ، « ودى Di » فى السنسكريتية . وحتى فى أمريكا يقولون « حفظتنا السماء » و « أطلب من السماء » كما لو كان الله والسماء شيئاً واحداً . ويعتقد جميع البسطاء من الناس أن الله موجود فوق السحاب . وفى القرن الثالث قبل المسيح سمى الفيلسوف الرواقى خريسيبوس Chrysippus الآلهة بأنها : « الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والقانون ، والبشر الذين استحالوا آلهة » (٢) .

---

(١) Murray, p. 15.

(٢) Murray, p. 117.

وأقدم الشعائر التي نعرفها عنهم كانت شعائر الزراعة لتخصيب الأرض . أتعلمون قصة الأميرة دناى Danaë التي سجنت فى برج وزارها زيوس فى هيئة مطر مذهب ؟ يعتقد الباحثون أن هذه القصة الخرافية نشأت عن الشعائر القديمة التي كانوا يخصبون بها الأرض (مشخصة فى دناى) بإنزال المطر الذهبي من روح أورب السماء . وأنتم بالطبع تعرفون خرافة ديميتر Demeter وبرسيفونى Persephone ، وأكبر الظن أنكم رأيتم ديميتر العجيب فى المتحف البريطانى — وهو تمثال أجمل بكثير من أى تمثال آخر صنعه فيدياس أو بركسيتيلس . كانت ديميتر ربة الغلال ، وكان الرومان يسمونها سيريس Ceres ، ويسميها الأمريكان سيريال Cereal . وقد اختطفت ابنتها برسيفونى إلى « حادس Hades » (١) . ولكن ديميتر حزنت حزناً شديداً فسمح لبرسيفونى بالعودة إلى الأرض زمان كل حصاد بشرط أن تنفق الشتاء فى الجحيم (حادس) .

أندرو : إذا كان لابد أن نذهب إلى الجحيم فالأفضل أن نمضى فيه الشتاء لا الصيف .

تيودور : القصة عبارة عن دراما صغيرة ترمز إلى ازدهار الأرض السنوى وبركتها . ذلك أن جميع الخرافات تكاد تكون جميعاً قد وضعت لتفسير ، أو كما تقول لتأنيس humanize طقوس الزرع الأنيمية (٢) . اما أفروديت الجميلة التي نقلتها الإغريق عن ربة بابل عشتار ، فقد نشأت من أرواح الغلال فى الأيام الخوالى . وكان عيدها يحتفل بيقظة الربيع . وأنتم تعلمون ولا ريب أن عيد الفصح كان فى الأصل عيد الربيع ، وعيد عشتار .

ماتيو : إن الكنيسة بما عندها من حكمة ربانية قد اصطنعت الأعياد الوثنية ، ولاءمت بين عادات الشعب وبين ديانة المسيح .

تيودور : كانت أفروديت الرمز المحبوب للطاقة التناسلية فى الطبيعة والإنسان . ولم يكن القدماء يقدرون العفة بمقدار ما يقدرها المحدثون . . .

كلارنس : يبدو أنك لا تحسن معرفة المحدثين ، يا تيودور .

---

(١) أى الجحيم (المترجم) .

(٢) Allen, p. 38 ; Smith, W.R., p. 18.

تيودور : سأقول إذن ، بمقدار ما كان المسيحيون فى العصر الوسيط أو البيوريتان يقدرونها . والأولى أنهم كانوا يعجبون بالأم الولود ، وعبدوا الاتصال الجنسى ، حتى إذا كان حلالا ، بما يمكن أن يسمى بالاستهتار المبتذل . واعترفوا بقوة ومجد وحقوق أفروديت أو فينوس أو عشتار ، كما يتبين ذلك من التمثيلية العظيمة « هيبوليتوس Hippolytus » لأستاذنا العميق أوريبيدس. وكانوا يظنون أن الرجل يكون ولاريب تعيساً إذا عاش بغير أن يدفع للربة ضريبة الجنون الإلهى للحب . وفى كثير من نواحى آسيا الصغرى كان واجباً دينياً محترماً على كل سيدة أن تقف بأبواب المعبد ، وتهب نفسها لكل غريب يطلبها ، ثم تضع على مذبح الربة ما كسبته من بغائها المقدس . ألم يكن كذلك ياسير جيمس ؟

سير جيمس : بكل تأكيد . كان الفناء المقدس مزدحماً فى الغالب بنسوة ينتظرن الصلة بهن . وكان على بعضهن أن ينتظرن بضع سنين (١) .

تيودور : لقد نقلوا « أدونيس Adonis » أيضاً من بابل. وكان الساميون يسمونه « تموز Tammuz » ، وفى بعض الأحيان « أدون Adon » ، وهذا يعنى « السيد Lord » . وظن الإغريق أن هذا اللقب اسم ، وخلعوه على إلههم المسروق . وتصف أساطير بابل واليونان أدونيس بأن خنزيراً وحشياً قتله ، ولعله كان صورة إنسية للحيوان المقدس الذى عبده الساميون القدماء . وكانوا يضحون مرة كل عام بخنزير برى يأكلون لحمه فى مأدبة عامة ، فى الوقت الذى يندب فيه الشعب موت أدونيس . وبعد أيام قلائل يحتفلون ببعثه (٢) .

سير جيمس : أكبر الظن أن أسطورة موته وبعثه ترجع إلى طقوس الزرع التى ترمز إلى موت الأرض وبعثها (٣) . فى كل مكان نجد القوة غير الشخصية فى تطور الدين تنقلب شخصاً ، وتولد قصة خرافية .

تيودور : وهذا هو الحال تماماً فى أسطورة ديونيسيوس ، الذى كان يمثل الكروم ، كما كانت ديميتر تمثل الغلال . ومات كغيره من أرباب الزرع ، ثم

---

(١) Frazer, p. 330 :; Ellis, Studies, vol. vi, pp. 229 f.

(٢) Rainach, p. 40.

(٣) Frazer, pp. 335-7.

بعث إلى الحياة مثل الأرض فى الخريف والربيع . وكان عيده يخلد كذلك بتمثيل مأساة موته وبعثه (١) . ونشأ من ذلك الاحتفال مسرح ديونيسيوس وجميع روائع أسخيلوس وسوفوكليس وأوربيدس . فهذه التمثيليات كانت جزءاً من عبادة ديونيسيوس ولابد أن تعالج موضوعاً دينياً . ومع ذلك فقد نشأت الكوميديا من شعائر الأعياد ذاتها : رموز تناسلية تحمل فى مقدمة المواكب الديونيسية . ومن هذا العيد التناسلى المسمى « كوموس Comus » ، إلى جانب السخرية والغناء الجنسى المسمى « أويدوس oidos» مما كان يجرى فى مصاحبته ، نشأت «الكوميديا Comedy » . وأحسبكم ستغفرون بعد ذلك قلة حياء أرستوفان (٢) ، فلم تكن أى سيدة محترمة تحضر تمثيلياته .

سير جيمس : كانت دراما stag رائعة لتمجيد رب الماعز .

تيودور : أنت على حق يا سير جيمس ، فقد حل ديونيسوس محل الماعز المقدس كما حلت الأرباب الإنسانية محل الأرباب الحيوانية . ولم يكن الشعب ليستطيع أن ينسى ماضيه ، فقد كانوا يضحون له بماعز ، وكثيراً ما كان يصور فى هيئة ماعز . ومن أسمائه « الجدى » . وكان الذين يسيرون فى موكبه يلبسون قناعاً من وجه الماعز ، وهذا هو الأصل فى تسمية « التراجيديا trag-oidos » أى غناء الماعز . وقد اختلطت الحيوانات المقدسة بجميع الآلهة كبقية من الطوطمية. وتستطيع أن تتبين عبادة الأسلاف فى أشعار هوميروس التى يعرض فيها لتأنيس الآلهة . وفى نظر الإغريق لم يكن هناك حد فاصل بين الرجل والإله ، فقد يصبح الرجل العظيم إلهاً كما قد يصبح الإله رجلا عظيما . وكان الآلهة يتزوجون من البشر ، وكانوا يشبهون البشر فى كل شيء تقريباً (حتى فى الرذائل والفضائل) ما عدا أنهم لا يموتون .

فلما اتحدت الجماعات المتعددة الخاصة بعبادة الأسلاف فى المدن أو الامبراطوريات ، جمعت آلهة هذه الجماعات فى بانثيون عام ، يضم آلهة الطبيعة

(١) Ibid., p. 388.

(٢) أرستوفان هو شاعر الكوميديا فى اليونان بلا منازع فى القرن الخامس ، وكانت تمثيلياته أخلاقية وسياسية تنتقد التقاليد الجارية نقداً لاذعاً . وطلبة الفلسفة يعرفون تمثيلية السحب التى صور فيها سقراط صاحب مدرسة يعلم السفسطة (المترجم) .

من أيام الزمن الصالح فى أسرة واحدة مع الأسلاف الأبطال فى العقائد المتأخرة . وفى النهاية مجد خيال الشعراء والمنشدين الأساطير القديمة ، فولدت آلهة أوليمبوس .

أندرو : ألم تلاحظ يا تيودور إلى أى حد نسجت آلهة أوليمبوس حكومة عالمها على منوال مجلس وزراء رئيس الولايات المتحدة ؟ ذلك أن بلاس أثينه أو مينرقا كانت وزير الخارجية ؛ وبوزيدون أو نبتيون وزير البحرية ؛ وديميتر أو سيرس وزير الزراعة ؛ هرمس أو مركورى مدير البريد ؛ وآرس أو مارس وزير الحربية ؛ وهيرا أو جونو وزير الداخلية — وهذه الآلهة مهمتها الأساسية الإشراف على ميول الرئيس نحو زوجاته المتعددة ، وهو زيوس أو جوبيتر .

تيودور : لاريب كانت هناك آلهة أكثر من هذه ، لأن الإغريق كانوا يشخصون كل شيء ، حتى الحظ الذى أصبح الإلهة « توخى Tyché » وجميع الشعوب القديمة أحبت أن يكون لها إله لكل مظهر من مظاهر الحياة . وحين اصطنع الرومان البانثيون الإغريقى ضعفوه . كان هواؤهم نفسه يموج بالآلهة والشياطين . كانت هناك « أبيونا Abeona » حامية الأطفال حين يبرحون بيوتهم ، و « دومديوكا Domiduca» التى تحرسهم فى أوبتهم ، و « انترديوكا Interduca » التى تعنى بهم فيما بين ذلك ، و « كبه Cuba » (١) التى تحرسهم وهم نيام ، و « إيدوكا Educa » التى تعلمهم الأكل ، و « فابولينوس Fabulinus » التى تعلمهم الكلام ، و « ستاتانوس Statanus » التى تعلمهم الوقوف ، ومئات غيرها (٢) . وبعد أن انتصر هانيبال فى كاناى زحف على روما ، وإذا به يرى عند أبوابها حلماً يحدثه بالرجوع عنها ، فأطاع الصوت الذى سمعه فى الحلم ، وشيد الرومان الشاكرون فوق ذلك الموضع محراباً لإله جديد سموه « رديكولوس Ridiculus » أى الإله الذى يدفع الرجل إلى التراجع (٣) . وكان لكل حقل هيكله ، ولكل بيت معبده ، ولكل مفترق طرق مزاره .

---

(١) يذكر القراء أن من عبارات العامة عندنا ما تقوله المرأة حين تضيق بطفلها فلا ينام « كبه تأخذك » وأكبر الظن أن لفظة « كبه » هذه ، هى الربة حارسة نوم الأطفال (المترجم) .

(٢) Shotwell, p. 30 ; Allen, p. 37.

(٣) Shotwell, p. 34

أندرو : أليست عبادة الملائكة الحارسة والقديسين المحليين ميراثاً مسيحياً لهذا البانثيون الزاخر ؟

تيودور : أظن ذلك .

أندرو : لابد أن استرضاء جميع هذه الآلهة كل ساعة كان مهمة ثقيلة مخيفة ــ كما لو كنت تعيش كل حياتك تلبس ملابس السهرة . ولقد قال أناتول فرانس لبروسون إنه لا يحب الوصية الأولى من الوصايا العشر : « اعبد إلهاً واحداً » ، فقد كان يرغب فى عبادة « جميع الآلهة ، وجميع الهياكل ، وجميع الإلاهات » . كان يحبها جميعاً لأنه لم يكن من واجبه أن يعبدها جميعاً .أما الإغريق والرومان فكان عليهم أن يعبدوها .

تيودور : نعم أنت على حق ، وكان سير جيمس على حق .كان الإغريقى الساذج يؤمن بآلهته إيماناً جدياً ، فهو يخشاها ، وينفق كثيراً من الوقت فى استرضائها . لم تكن الوثنية متعة خالصة . ومع ذلك فقد كان فى ذلك الدين جمال عظيم وعقل كثير . فقد كان من الخير أن تشخص وتحترم قوى الطبيعة وصورها ، التى تعبر عنها الآلهة الكثيرة بأفضل مما يعبر إله واحد عن الصراع والتيارات المتعارضة فى العالم . وقد نشأ عن ذلك الإيمان كثير من صور الفن : نشأ النحت والبناء من الدفن ؛ والدراما من المواكب الدينية ؛ والموسيقى والشعر من الترانيم التى كانت تنشد فيها . وهذب الفن بدوره الدين ، وخلد ذكر الآلهة القديمة . فقد وهب هوميروس وهزيود لآلهة أوليمبوس أجساداً وخصالا ، وخلع عليهم فيدياس عظمة وجلالا . ولك أن تقول إن آلهة هوميروس ماتت عند مولد آلهة فيدياس . لقد صنع العامة آلهة ضارية فاسقة ، فصب الفنانون فيها أرقى المطامح الإنسانية ، وصاغوها بحيث تعكس تطور الحضارة والثقافة عند الإغريق . وما أعظم الفرق بين زيوس السفاك فى خرافات هزيود ، وأب العالم الرائع الذى صيغ من الخيال العارم لأسخيلوس ، واكتسى بحكمة سوفوكليس الصافية . لقد قرأت كثيراً عما يدين به الفن للدين ، ولا يظهر أن أحداً يشعر بما يدين به الدين للفن .

ومع ذلك فلم يكن من الخير لقدماء الإغريق أن تنشأ الدراما من شعائر ديونيسيوس ، لأن الدراما أصبحت أدباً ، وأصبح الأدب فلسفة ، وأذابت الفلسفة

جميع العقائد والأفكار القديمة . ولم تكن إلا خطوة يسيرة حتى انتقل توحيد سوفوكليس الهادىء إلى شك أوربيدس ثم إلى عبارة صديقه بروتاجوراس المشهورة : « أما عن الآلهة أموجودة هى أم غير موجودة فهذا شيء لا سبيل إلى معرفته » . فأنت ترى أنك يا عزيزى كلارنس لم تكن أول لا أدرى .

كلارنس : كنت أشك فى ذلك .

تيودور : حقاً لقد ولدت الدراما فكرة حطمت فى النهاية الآلهة القديمة — « القضاء » القادر على كل شىء ، و « القدر » الذى كان يحكم الآلهة والبشر على السواء . ومن هنا لم تبق إلا خطوة واحدة للوصول إلى فكرة القانون الطبيعى العام ، وهى الفكرة التى اضطلع بها الفلاسفة . ذلك أن نمو المعرفة أفضى بالناس إلى البحث عن تفسيرات طبيعية فى الأحداث العادية أولا ، ثم فى الأحداث المفروض أنها علوية ، وأخيراً فى الكون ككل . واستبدل كبار الفلاسفة السابقين على سقراط الماء والهواء والنار بآلهة السماء . وعلم السفسطائيون الناس فن الشك ، وقبلوا المذهب الطبيعى قضية مسلمة . فلم يلبث أن أصبح كل صبى ناشىء ملحداً ، حتى إذا كنا فى زمان أفلاطون رأينا انهيار ديانة الإغريق الأصلية (١) . يقول أفلاطون فى محاورة النواميس : « ما دام كثير من الناس قد توقفوا عن الاعتقاد فى الله ، وأصبح الحلف بالآلهة بدعة قديمة ، فليصطنع القضاء فى المحاكم مجرد الإثبات أو الإنكار » (٢) .

كلارنس : نحن فى طريقنا إلى بلوغ هذه النقطة فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك لا يزال بعض البسطاء يتكلمون عن التقدم .

بول : لقد حذفت من حديثك يا تيودور أن القديس سقراط ، كما كان إرازمس يسميه ، اقترح ديانة توحيدية ، وأعلن على الأقل فى محاورة الدفاع اعتقاده الراسخ فى الله .

تيودور : نعم ، وقد كان فى فلسفة أفلاطون عنصر دينى عميق ، ولكن

---

(١) Murray, p. 107.

(٢) Laws, xii, 948.

إله سقراط كان « روحاً demon » [1] سلبياً فقط ؛ أما إله أرسطو فكان كمالا لا يتحرك مستغرقاً فى النظر إلى ذاته .

كلارنس : كان فكرة مجردة ثابتة فى مركزها .

تيودور : وكانت آلهة أبيقور ملوكاً لا عمل لها ، ولا تهتم بأمور البشر .

آرييل : كانوا صحبة فى حديقة خالدين فيها أبداً .

تيودور : ما أبرعك يا آرييل فى الإيحاء لى بأن أنهى الحديث . أتسمحين لى بدقيقة أخرى ؟ فى زمان فيرون والشكاك كان آلهة اليونان قد ماتوا اللهم إلا بالنسبة للطبقات الدنيا . وكانت الثقافة الهلينستية لا أدرية ، فانصرفت عن طلب الحقيقة ، وتعلمت الاستسلام ، ودرست لذائذ الفن ، وفنون اللذة ، وتسلت بالجمال الذابل فى عالم مولٍّ . على أن ذلك العصر كان من بعض الوجوه أنضج عصر فى اليونان ، أشبه بالعصر الذى شاركت فيه جميع الطبقات المثقفة ثمار قوم من أمثال توماس هاردى ، وجورج مردث ،وجورج كليمنسو ،وأناتول فرانس .

بول : لقد انتصر الفلاسفة ، ولكنهم أغفلوا فى انتصارهم شيئاً واحداً — أغفلوا هذا الاعتبار وهو : هل يمكن للقانون الخلقى إذا انتزعت منه العقوبات الأخروية أن يعلم الأمة ضبط النفس الضرورى للاستقرار والقوة . ثم تختتم الصورة بما قد تختتم به صورتنا فى هذا العالم الغربى : انحلال خلقى ، فوضى فردية ، فساد ، جريمة ، انتحار .

تيودور : ومع ذلك فقد أخذ الدين يولد من جديد بين طبقات الشعب . ذلك أن الوحى الذى كان يسمع فى دلفى وديلوس ، والشعائر السرية فى إليوسيس ، واندفاع العقائد الشرقية إلى بلاد اليونان فى أعقاب عودة جيش الإسكندر ، قد جلب للطبقات الفقيرة فى أمة منهزمة العزاء الذى تتعطش إليه . وازدهرت العبادات الأورفية بما أحدثته من تحول فى عقيدة الجحيم القديمة ، فلا يمكن أن يبتلع

(١) من الصعب ترجمة « ديمون » فهو روح ، أو جن ، أو هاتف ، أو صوت — ولم يكن سلبياً فقط بمعنى أنه ينهى عن الفعل ، بل كان فى بعض الأحيان إيجابياً يحث على العمل كما جاء فى افتتاح فيدون من أن الهاتف أمر سقراط بإنشاء الشعر والموسيقى (المترجم) .

الظلام الجميع ، أما الصالحون فيذهبون إلى جنات إليزيوم Elysium السعيدة ، وأما الطالحون فقد يمكن أن ينجوا إذا ملأ أبناؤهم أيدى الكهنة بالمال . يقول أفلاطون : « يقف الرسـل المستجدون بأبواب الأغنيـاء يستجدونهم ، ويغرونهم بأن لهم قوة أودعتهم الآلهة إياها يغفرون بها ذنوبهم أو ذنوب آبائهم بالقرابين أو التعاويذ ، وبألوان الطرب واللعب . . . ثم يبرزون طائفة من الكتب دوّنها موسى أو أورفيوس . . . يؤدون شعائرهم بحسب ما جاء فيها ، وهم لا يقنعون الأفراد فقط ، بل مدناً بأسرها ، بأن محو وغفران الذنوب . . . فى يد الأحياء والأموات على السواء . وهم يسمون مغفرة ذنوب الموتى بالأسرار ، التى تخلصنا من عذاب الجحيم . أما إذا أهملناها فلن يعلم أحد ما يصيبنا » (١) .

وكانت النحلة الأورفية تعلم أن عذاب الإنسان راجع إلى جريمة قديمة ارتكبها التيتان Titans (المردة) الذين عصوا أمر الله ، وتكفيراً عن هذا الذنب الأصلى قيدت النفس فى البدن كأنها فى سجن ، ولا ينقذها منه إلا فضيلة الزهد والصبر على أداء الشعائر . واستمع الناس الذين فقدوا الأمل فى أطايب هذه الدنيا إلى هذه العقيدة الجديدة وهم فى شوق شديد إليها . وأفل نجم دين المدينة polis ، وذلك الإخلاص القديم لدولة المدينة ، وأخذ الناس يتحدثون عن الخلاص الشخصى فى حياة آخرة ، والاستسلام لما فى الدنيا من شرور . وأصبح عالم الأرواح أكثر حقيقة من هذه المناظر الدنيوية التى تطالع الناس بالهزيمة والمجد الزائل . وفى هذا العالم من التقوى والأمل ظهرت المسيحية ، وانتصرت روح الشرق على الإغريق .

آرييل : شكراً لك يا تيودور . لقد بين لنا سير جيمس مولد الدين ، ثم بينت لنا موته وبعثه . تعالوا بنا نتناول طعام الغداء ، وسننظر فى مصير الآلهة حول المائدة .

(١) Republic, p. 365.

الفصل الثانى والعشرون

حول المائدة

من كونفوشيوس إلى المسيح

---

١ — كونفوشيوس

كونج : لقد كانت النتيجة التى انتهيت إليها يا صديقى العزيز تيودور تبكيتا لبلادى . وأرجو أن تغفر لى ما أفترضه من أن تصوركم للشرق ظاهرى جداً . فأنتم لا تدركون حتى حجم آسيا . إنكم لا ترون أوربا إلا على أنها أفضل قطعة من لحم القارة العظيمة — إن صح هذا التعبير — وهى ليست أصل أديانكم فقط ، بل لغاتكم وأجناسكم . وإذا تذكرتم مبلغ اتساع آسيا أدركتم مدى المخاطرة التى تجازفون بالتعميم عنها . لا يمكن أن تتهموا قارة .

آرييل : هذا بديع ياكونج ، زدنا من هذا الحديث .

كونج : الحق ليس هناك آسيا واحدة بل أربع . آسيا الحربية فى الشرق الأدنى — آسيا المسلمة ، أرض الدين الذى جاء يحمل السيف لا السلام (١) . ومع ذلك ففى الشرق الأدنى كم نجد من تعقيد فى الجنس والخلق ؟ . . . أتراك عثمانيون ، أعراب ويهود ساميون (وحتى هؤلاء الإخوة مختلفون عظيم الاختلاف) فرس وأفغان ، قوقاز وأرمن . ثم هناك آسيا المتصوفة ، شبه جزيرة الهند العظيمة التى أرجو أن يتحدث لنا سيدا عنها . وهناك سيبريا — المنغول ، والروس ، والكوريون ، واليابان ، وهذه أيضاً كتلة معقدة تتحدى أى تعبيرات

---

(١) يخطىء المؤلف فى فهم معنى الإسلام ، فالإسلام من السلام بمقتضى اسمه ، وقد نجحت دعوة الإسلام لما فيه من مبادىء خالدة سامية . ودعوة الإسلام بالحكمة لا بالسيف ، كما قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ... الخ (المترجم) .

معروفة . وهناك الصين أقدم الأمم وأحدثها مولداً فى العالم . كيف ننظر إلى أمريكا نظرة جدية وعمرها قرنان من الحضارة على حين تبلغ حضارة الصين ٥٠٠٠ سنة ؟ إنى أجد لذة فى هذه المباينة السخيفة بين تقدم الغرب وركود الشرق. إنى لأعجب كم مرة حرك التقدم الصين فى تتابع حضارتها وعصورها « الوسطى » ؟ لقد جربت الصين جميع الأفكار وسئمتها . إنها أشبه ببروتاجوراس الذى التزم تقاليد زمانه ، لأنه بعد أن جرب جميع البدع الدينية ورأى أنها كلها ناقصة وعرفية ، خلص إلى أن الفرق الحقيقى ضئيل جداً بين رأى وآخر ، أو بين دين وآخر ، فلا حاجة إلى اضطراب الفكر بشأنها . وإلى أن جاء الغرب فأسكرنا بنشوة الصناعة والديمقراطية والثروة كنا نحن الصينيين راضين بالعرف والسلام الجارى . فإذا كان التقدم ليس إلا مجرد تغيير سطحى كما يزعم بعض الفلاسفة ، فالصين على صواب : لأن التقاليد الجارية حسنة كأى تقاليد أخرى ، ولأن حياة الزراعة بما فيها من كدح هى وحياة الصناعة والأعمال الشاقة سواء . فالفلاح البسيط الذى يرعى أرضه ويعنى فى تقوى بقبور أجداده يجد من السعادة ما يجده أى شعب على هذه الأرض الموبوءة بالإنسان .

آريبل : حدثنا عن ديانة الصين يا كونج .

كونج : ولكن يا سيدتى ، لا توجد ديانة صينية — هناك فقط أديان صينية . هناك بوذية الصين ، وإسلام الصين . ويوجد بين الشعب ديانة feichistic فتيشية تدين بالأرواح والأصنام images ، وطوطمية تعبد الحيوانات المقدسة . ولن أتحدث عن هذا لأن الخرافات تعم الفلاحين فى كل مكان . وهناك عبادة الأسلاف المفروضة على الجميع ما عدا « الوطنيين » الشبان ، وهى ديانة يحكم فيها الموتى الأحياء فى كل عمل من أعمال الحياة تقريباً . وهناك ديانة لاوتسى ، الطاو Tao أو الطريق Way ، والتى تكاد تندمج اليوم فى البوذية ، ولكنها لا تزال تخلق قديسين ينقطعون إلى التأمل وإنكار الذات . وأخيراً هناك الكونفوشيوسية ، ديانة الطبقات المثقفة فى الصين مئات عدة من السنين . ولست أعرف صفة يمكن أن تنطبق على جميع هذه الأديان معاً سوى أنها صينية . بل من الصعب حتى أن نصفها بأنها شرقية ، إلا إذا شئتم أن تصفوا المسيح أو سقراط كشرقيين .

ذلك أن ديانة لاوتسى تكاد تكون فى جوهرها نفس ديانة المسيح . وديانة كونفوشيوس التى تسمى ديناً (إذ الأفضل أن توصف بأنها فلسفة) تشبه شبهاً غريباً فكر عظماء الإغريق . أتسمحون لى بأن أتلو عليكم بعض أقوال لاوتسى ؟ :

« كافىء الإساءة بالإحسان . سأحسن إلى المحسن ، وسأحسن كذلك إلى المسىء كى يصبح محسناً . سأكون أميناً مع الأمين ، وأميناً مع الخائن حتى يصبح أميناً . من لا يثق فى الناس لن يجد من يثق به . تخلف إلى الوراء توضع فى مقدمة الصفوف . تواضع تأمن . انحن تستقم . العظيم من يجعل التصاغر ديدنه . من يشعر بالقوة ويرضى بالضعف يكن سيد العالم . رأس الحكمة أن تعرف وتدعى الجهل . الحكيم من يعرف نفسه ولا يتباهى ، ويحترم نفسه ولا يطلب لها شرفاً . كل شىء فى الطبيعة يجرى فى صمت . تظهر الأشياء إلى الوجود ولا تمتلك شيئاً ، وتؤدى وظيفتها ولا تطلب شيئاً . جميع الأشياء تعمل ثم نراها تسكن ، فإذا تفتحت وازدهرت عاد كل شىء إلى أصله . الرجوع إلى الأصل راحة أو نفوذ القضاء . وهذه الرجعة قانون أزلى ، والحكمة فى معرفة هذا القانون . لا تفعل شيئاً بإرادتك بل بموافقة الإرادة الأزلية ، تنل كل شىء » (١) .

ماتيو : هذا كلام بديع ، ولكن الدين فيه قليل جداً .

كونج : وستجد أقل من ذلك فى كلام كونفوشيوس ، لأنه لم يستعمل أى عبارات سماوية ، ولم يكن يهتم بالحياة الآخرة . سأله تلميذ عن واجب الإنسان نحو الأرواح فأجاب : « كيف يمكن أن نؤدى واجبنا نحو أرواح الموتى قبل أن نتمكن من أدائه نحو الأحياء » (٢) . فلما ألح التلميذ فى السؤال عن الموت ، أجاب الأستاذ : « قبل أن نعرف ما الحياة كيف يمكن أن نعرف ما الموت ؟ إن الحكمة هى الإخلاص فى تأدية الواجب نحو الناس مع احترام الأرواح حتى نبعدها عنهم » (٣) إن دين كونفوشيوس كان بناء كبيراً من وحدة الوجود أفضل

---

(١) Brown, B., The Wisdom of the Chinese, pp. 85-120.

(٢) Brown., p. 31.

(٣) Thorndike, L., Short History of Civilisation. p. 254.

ما يقربه إلى أذهان الغربيين موازنته بمذهب سبينوزا . تأمل هذه العبارات تر أنها تشبه بعض نصوص كتاب « الأخلاق » للفيلسوف اليهودى العظيم :

« الحق Truth قانون الله . . . ومعنى الحق تحقق وجودنا ؛ والقانون الأخلاقى هو قانون وجودنا . الحق ما به توجد الأشياء الخارجة عنا . . . هذا الحق المطلق لا يفنى . ولأنه لا يفنى فهو أزلى . ولأنه أزلى فهو موجود بذاته . ولأنه موجود بذاته فلا نهاية له . . . إنه باطن وعاقل دون أن يشعر بذلك . . . ولأنه لا نهاية له وأزلى فإنه موجود فى جميع الوجود » (١) .

لم يقدم كونفوشيوس للعالم لاهوتاً ، ولا عقيدة ، بل قانوناً خلقياً عظيما وأرستقراطياً ، إنه : « طريق الإنسان الراقى » . وهو لا يشـــبه المسيح إلا فى عبارات قليلة من مثل قوله : (قبل المسيح بخمسة قرون) « لا تفعل بالناس ما لا تحب أن يفعلوه بك » . ولكنه بسقراط وأرسطو وجيته أشبه ، إذ يوحد بين الأخلاق والعقل ، ويدعو لا إلى الخضوع والرقة بل إلى تنمية الشخصية كاملة. وحين كنت أدرس فى الصين كان علىّ أن أحفظ تعاليمه ، وأستطيع أن أتلوها عليكم ساعات وساعات :

« ماذا يكون الإنسان الراقى ؟ أن يهذب نفسه بمراعاة الاحترام . والإنسان الراقى حر الفكر وليس متعصباً ، أما الإنسان العادى فمتعصب وليس حر الفكر . الإنسان الراقى يحب أن يتمهل فى حديثه ، لأن هلاك الناس فى لسانهم . إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بما يتفق مع أعماله. إنه لا يجادل ، ويتوافق مع طريق الوضيع . . . لانهاية للأمور التى تؤثر فى الإنسان ، وعندما يخرج عن إرادته ما يحب وما يكره ، فإنه يتغير إلى طبيعة الأشياء كما تقبل عليه. الإنسان الراقى يلتمس فى نفسه كل ما يريد ، والدنىء يطلب كل ما يريد من غيره. طلب الحق يشغل بال الإنسان الراقى ، ولا يخشى أن يصيبه الفقر . ويحزن لعجز قدرته لا لجهل الناس إياه . السر فى امتياز الرجل الراقى هو عمله الذى لايستطيع غيره من الناس رؤيته » (٢) .

---

(١) Brown, pp. 39-41.

(٢) Williams, E.T.,China Yesterday and Today, p. 241; Anon, The Wisdom of Confucius, p. 132 ; Thorndike, p. 255. Brown, p. 24.

سـيدا : ولكن يا صديقي كونج ، ليست هذه ديانة . هذه أخلاق فقط . وأسوأ من هذا أنها أخلاق للنخبة الممتازة فقط ، لأولئك السادة بالطبع الذين لا يكاد أحدهم يحتاج إلى أخلاق أصلا . كلا ، الدين شيء أكثر من الأخلاق ، وبغير هذه الزيادة تصبح الأخلاق ناراً من البعد بحيث لا تبعث دفئاً . وليس الدين كذلك عقيدة أو أي شيء فكري آخر . إنه شعور ، إنه غمر النفس المفاجيء والشامل بضرب من الإحساس بالكل يحيل الأنانية نسكاً ، والتفرق ولاءً وجمعاً . إني لأعجب إذا كان الغربيون قد تملكهم قط مثل هذا الشعور .

فيليب : حصل هذا الشعور ليعقوب بوهم Bohme ، والقس فرانسوا .

أندروا : كان بول بلاد Paul Blood يقول إنك تستطيع بلوغ هذا الشعور بالأثير — بالتخدير الباطني .

سـيدا : هؤلاء شواذ ، وتدل ندرتهم على ضعف سيطرة الدين على شعوب أوربا وأمريكا . أما في الهند فمن المسلم به أن هذه الوحدة بين الجزء والكل هي جوهر الدين ولبه ، فلا يسمى الرجل متديناً لمجرد إيمانه بعقيدة أو أدائه الشعائر . وكهنتنا المعروفون بالبراهمة يشتقون اسمهم من اسم الإله براهما Brahma . ولست تجد في هذا العالم أضيق ولا أكثر انفصالا من الشخصية . والشخصية اسم نكرة ، وتعني كل « الحقيقة » . وهذا يذكرنا مرة أخرى بسبينوزا . وفي مذهب البراهمة ، براهما وحده وهو الحقيقة المطلقة موجود ، وكل ما عدا ذلك ، كل انفصال تنفرد فيه الأشخاص أو الأشياء فهو « مايا Maya » ، وهم ، فإذا استطعت أن تشعر بشخصيتك الصغيرة قد ذابت ، وأصبحت تسبح راضياً في بحر الوجود ، وكل شيء آخر سوى هذا الاتحاد يبدو لك حقيراً ، فقد عرفت ما الدين ، وما الله ، وتصبح أنت نفسك جزءاً من الله ، وتغرق في بحر اللانهاية الإلهية .

آرييل : أذكر عبارة لثورو [1] يقول فيها : « ألقيت بنفسي ذات يوم

---

(١) هنري ثورو Thoreau (١٨١٧ — ١٨٦٢) كاتب وشاعر أمريكي تأثر بفلسفة إمرسون ، اشتهر بفرديته ، وحبه الطبيعة ، وإيثاره البساطة البدائية ، ونزعته نحو التصوف ، وثورته على المجتمع والحكومة . له كتب كثيرة أشهرها « والدن » أو وحي الغابة ، وقد نقله إلى العربية الأستاذ أمين مرسي قنديل ، ونشرته مكتبة الأنجلو عام ١٩٥٥ (المترجم) .

حار فى مياه البحيرة الراكدة ، وكدت أغيب عن الحياة ، فأخذت أشـــعر بالوجود » . ثم شرع يتحدث عن نفسه كجزء من « كائن واحد عظيم »مع الطيور التى كان يسمعها .

ســـيدا : إنى أذكر هذه الفقرات يا سيدتى ، وما أجملها . ألم يبلغك أنه قرأ وأحب فلاسفة الهندوس ؟ فهو يقول : « كان من الملائم أن أعتمد على الرز فى معيشتى ، أنا الذى أحببت هذا الحب فلسفة الهند » .

كلارنس : ولكن هذا الإحساس بالمجموع على الرغم من أساسه الانفعالى ليس بالضرورة دينياً . لقد رأيت مرة وأنا راكب قطاراً محلياً بسيطاً من خلال النافذة سحباً عنبرية فى سماء زرقاء تتخللها خطوط بيضاء . وانقطع منى النفس عندما غمرنى جلال القبة الزرقاء . وشعرت باتجذاب قوىّ نحوها كأنى ذرة تافهة فى محيط رائع . ومع ذلك أؤكد لك أنى لست متديناً .

أندرو : ليست هذه النشوة بالاتحاد الأمر الوحيد فى ديانة الهندوس . فهناك عبادة الجنس ، والتثليث ؛ والذى أعرفه أن كرشنا Krishna هو الشخص الثانى فى الثالوث (١) الهندوسى ، تجسد رجلا وخلص العالم . وهناك الآلهة المتعددة — عدد لا يحصى منهم ، ويقول ريناخ إن البانثيون الهندوسى يشـــبه غابة استوائية (٢) . إن ما يحبه الشعب ليس الإحساس بالكل بل قصة جيدة غير معقولة . وهذه النشوة الصوفية التى حدثنا ســـيدا عنها أبعد عن ذوقهم من الأسطورة القائلة بأن أحد الآلهة أغرق المحيط ، وأن إلهاً آخر تزوج عشرة آلاف عذراء فى ليلة واحدة (٣) . هذا إلى لذة الشعب بأداء الشعائر — غسل أيديهم فى نهر الكنج (كما لو كان نهر الكنج يجعل أى شىء نظيفاً) مرددين تعاويذ وصلوات ، والاعتماد على القوة الإلهية الموجودة فى التمائم التناسلية . أليس هذا صحيحاً يا ســـيدا ؟

---

(١) الثالوث الهندوسى ، هو : براهما ، فشنو ، سيفا . أما كرشـــنا فهو رب النار والبرق والسماء والشمس ، وفيه تجسد فشنو (المترجم) .

(٢) Reinach, p. 60.

(٣) Keyserling, Count H., Travel Diary of a Philosopher, vol., p. 100.

سـيدا : كلا ، لقد أخذت القشور المبتذلة للدين على أنها روحه ، كما لو ظن فلاسفتكم اليوم أن بدن الإنسان أو جهازه المحرك له هو جوهره . وحتى الشعب البسيط الذى وصفت شعائره الصالحة كثيراً ما يصوم إلى درجة الموت جوعاً . ولست أعتقد فى الشعور بلذة بديعة من الموت جوعاً ، إلا إذا كان ذلك سبيلا إلى انعدام الشعور بالذات ، وإدماج الفرد العابر فى الدنيا والأزلية . لقد رأيت متصوفة ضموا أيديهم منقبضة وظلوا كذلك زماناً حتى طالت أظافرهم وخرجت من ظهور أيديهم . لقد نسوا أنفسهم تماماً . أو تأمل بوذا : لقد حاول كالمسيح أن يطهر الدين الموروث من مفاسد الكهنة ، وأن يعيد إليه صفاءه القديم . أبى أن يقتل البراغيث التى كانت تزعجه ، ولم ينطق إلا بالكلم الطيب حتى للنمور التى اعتادت التهام عدد كبير منا فى الهند . ولم يكن كالمسيحيين يجعل قبلته آخرة تتحقق فيها الرغبات ، بل كان يطلب الموت المطلق للشهوة ، ورفع جميع الحواجز بين شخصية الفرد وروح العالم . وهذه هى النرفانا (الفناء) : أن تخلص نفسك من كل تفكير فى ذاتك ، فيرتفع جميع كيانك إلى الحقيقة الأزلية.

أندرو : إنى أشك فى أننا سنمارس جميعاً النرفانا . وما يعنينى فى مذهب بوذا هو إلحاده : فأنا أعتقد أنه أنشأ ديانة فى غاية القوة بغير إله ، أليس كذلك ؟

سـيدا : إذا كنت تعنى بالإله شخصاً سامياً ، فهذا صحيح . أما إذا كنت تعنى روح الكل ، فلا .

أندرو : إنى أفهم أن بوذا فى أساطير الشرق يمثلونه على أنه ولد من عذراء. ويبدو أن كل إله لابد بمقتضى ميلاده أن يقذف الأمومة الطبيعية بالمطاعن — تلك الأمومة التى كانت فى القديم رمز وينبوع جميع الآلهة .

سـيدا : لا ينبغى أن تفهم الأساطير فهماً حرفياً ، إذ تفقد بذلك الحكمة العظيمة التى ألبستها فى صورة فلسفية . وأعود مرة أخرى فأرجوك أن تذكر أن هذه الأمور ليست ديناً .

أندرو : تعنى أنها البراغيث التى تعيش على جسم الدين .

سـيدا : إذا شئت ذلك . ولعلكم معشر الغربيين تتعلمون بعد جيل أو جيلين ماهية الدين . فلا سبيل إلى علمكم به اليوم لأنكم مقبورون فى الآلات ،

وأفكاركم متعلقة على الدوام بالذهب . ولكن الصناعة ستخرب نفسها بالحرب ، وتغرق سائر أوربا وأمريكا فى بحر من الآلام . وعندئذ يزول الزهو بالشخصية والثروة الفردية ، ويعود الناس فى حمى العذاب إلى الشعور بالله — وهو تلك الروح والحياة التى لا اسم لها ، والذى وصفه الحكيم الهندوسى بأنه « العدم » nothing الذى بقى من الشجرة بعد زوال جميع أجزائها . ولا يزال الشرق يعود إليكم اليوم كلما تبرمتم بالماديات والشهوات . إن العلم المسيحى ينمو بينكم أسرع من أى وقت نمت فيه المسيحية . والتصوف الدينى يستولى على قلوب الملايين والملايين رجالا ونساءً ممن يعرفون مقدار ما ينبغى أن تكون عليه الحياة المنعزلة من باطل. ستفهمون ذات يوم الهند ، والدين .

تيودور : هذا شىء ممكن . إن تاريخ الدين صراع أبدى بين روح الشرق وبين روح الإغريق .

٣ — اليهودية

إستر : إنى أشعر مثل سيدا بأننا أغفلنا بعض العناصر الهامة فى الدين. ونحن نستعمل هذه العبارة « إكراماً لله » ، فلا تكون فى نظرنا سوى عبارة فقط. ولكن الدين يأخذ الألفاظ مأخذاً حرفياً . الدين يدل على أداء الأفعال إكراماً لله for God's sake ، فينكر المرء لذته الشخصية أو يتقبل العذاب العظيم فى سبيل ذلك المدبر النهائى والكلى ، وهو الله . وأعتقد أن هذا الشىء العميق فى الدين ، هذه الرؤية vision التى بدونها تكون روح الأخلاق مجرد حساب ، هى الشىء البارز فى ديانة اليهود .

آريبل : نعم ، إنى مندهشة كيف تحدثنا هذا الحديث الكثير عن الدين دون أن نذكر شيئاً عن أعظم الأمم تديناً فى التاريخ . حدثينا عن اليهودية يا إستر.

إستر : ليست القصة كلها بديعة ، ذلك أن هذا الدين الذى يعد أعمق الأديان قد بدأ بالأنيمية والخرافة كما وصف سير جيمس . وكان أقدم من نعرفهم من اليهود يعبدون الصخور والأغنام والماشية وأرواح الكهوف والآبار [١] . كانوا

(١) Shotwell, p. 30.

يبجلون التمائم fetiches مثل التراقيم ، وهى أصنام كانوا يحملونها تشبه معبودات الرومان المنزلية المسماة « لاريس Lares » ، كما كانوا يمارسون ضرباً من السحر البدائى . وكانوا يطلعون على إرادة الآلهة بإلقاء زهر من صندوق (١) .

أندرو : ولا نزال نلعب هذه اللعبة لمعرفة إرادة الآلهة .

إستر : وكان لعبادة الأعضاء التناسلية نصيب كذلك . فالثعبان والثور كانا رمزين تناسليين ، وكانوا يتصورون الرب « بعل » Baal كمبدإ الذكورة الذى يخصب الأرض الأنثى (٢) . وتكاد جميع الأعياد اليهودية تشتق من طقوس الزرع : المازوت Mazzoth (عيد الشعير) ، والشبوت shabuoth (عيد الحصاد)، والسوكوت Sukkoth (عيد المظلة) ، كانت تحتفل فى الأصل ببدء حصاد الشعير ، ثم نهاية حصاد القمح بعد ذلك بخمسين يوماً ، ثم قطاف الكروم (٣) وكان « الفصح Pesach » عيد أول نتاج القطعان : فيضحى بحمل أو جدى ويؤكل ، ويلطخ الباب بدمه ترضية للإله الجائع . وأصبح هذا العرف يفسر فيما بعد بأن الله قد ذبح أبكار المصريين ، ونجى بنى إسرائيل الذين عُلِّمَتْ أبوابهم بدم الحمل . ولكن هذا التفسير من اختراع الكهنة . ذلك أن عيد الفصح كغيره من الأعياد مأخوذ من الكنعانيين المقهورين ، الذين كانوا يقدمون الجدى قرباناً لربهم المحلى . وكان الحمل فى الأصل طوطم قبيلة كنعانية ، ثم انتقل إلى المسيحية وأصبح كـ « حمل الله Agnus dei » ، رمز المسيح . وهناك بقايا طوطمية أخرى كتمثيل يهوه ثوراً ، وتحريم أكل لحم الخنزير ، ومن الظاهر أن ذلك كان يرجع إلى أن الخنزير البرى كان طوطماً لليهود الأوائل .

أندرو : ما هذا ؟ كنت أظن أن الأمر أمر صحة لا طوطمية . ففى جميع الشرق الأدنى الخنزير محرم خشية الحمى الترخينية Trichinosis .

إستر : إن روبرتسون سميث وسلامان ريناخ ، وهما لا يتفقان أبداً إذا استطاعا ، يتفقان فى رفض النظرة التقليدية . وعلى العموم فليس فى التوراة

---

(١) Reinach, p. 177.

(٢) Smith, W.R., p. 101.

(٣) Reinach, p. 184.

أية إشارة إلى مرض يفسر على أنه راجع إلى أكل حيوانات غير نظيفة . فالمرض يرجع إلى لعنة الأرواح ، وعلاجه الصحيح هو الرقية . أما حفظ الصحة فهى فكرة إغريقية . ستدهش يا أندرو حين تجد أن ريناخ يعد التفسير الصحى على أنه « علامة على الجهل » (١) .

أندرو : الحق لقد قرأت ذلك فيما كتبه رينان .

إستر : إن ريناخ يسخر من رينان .

أندرو : سيسخر علماء الإنسان يوماً ما من ريناخ . ولست تخيفنى بهذه الحواجز من أسماء الثقات . فثمة كثير جداً من العناصر الصحية فى الشريعة الموسوية بحيث لا يكون من غير المعقول اعتبار تحريم الخنزير مسألة صحة . ومع ذلك امض فى حديثك يا إستر ، فهناك على الدوام احتمال ضئيل أننى على خطأ .

إستر : الوصايا العشر فى الشريعة المسماة بالموسوية عنصر أشرف بكثير من هذه الصحة المزعومة . ومع ذلك فهذه الوصايا أيضاً كانت بدائية ومحدودة . كانت الوصايا العشر شريعة للقبيلة لم تبلغ بعد مرتبة الإنسانية التى كان عليها انتظار إرسال الأنبياء . فالوصية القائلة : « لا تقتل » لم يكن معناها منع الحرب ، إذ أن يهوه كثيراً ما كان يأمر أو يقر الذبح بالجملة .

كلارنس : وأعلنوا الحرب على المديانيين midianetes كما أمر الرب موسى ، وقتلوا كل ذكر . . . وقال لهم موسى : « هل أبقيتم كل أنثى حية ؟.. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلا » (٢) .

إستر : نعم ، لقد نشأت أخيراً من تلك الوحشية أرفع مثل أخلاقية عبر عنها أى إنسان ؛ وكانت الشريعة الموسوية قوة دافعة فى ذلك التقدم ، فهى التى كونت خلق اليهود القوى ، ومكنتهم بتنظيم الحياة ومتانة الفلسفة من تخطى جميع البلايا التى أنزلها هذا العالم المسيحى عليهم . كانت أول شريعة جعلت النظافة فى المرتبة الثانية بعد العبادة ، واعتبرت بدن الإنسان هيكلا تجب العناية به بنفس

(١) Reinach, p. 18.

(٢) Numbers, xxxi, p. 7, 15, 17.

الاهتمام الديني الذى نعنى فيه بالنفس . وغالباً ما يصفونها بأنها لا تفضل كثيراً قانون حمورابي ، ولكنها كانت أول قانون منظم وضع أساس الرفق بالعبيد ، وكان في اصطناعهم اليوبيل الخمسيني نفحة تكاد تكون اشتراكية . « والأرض لاتباع البتة لأن لى الأرض . . . وتقدسون السنة الخمسين ، وتنادون بالعتق فى الأرض لجميع سكانها . ستكون لكم يوبيلا وترجعون ، كل إلى ملكه ، وتعودون كل إلى عشيرته » [1] . كان ذلك مثلا أعلى لا يمارس بالفعل ، ولكن الأمم الأخرى لم تحظ حتى بالمثل الأعلى .

أما عن « السيد » السفاح يهوه الذى جاء ذكره فى حديثك يا كلارنس ، فقد كان رب الحرب ، وليس إلا أحد الآلهة القبلية عند قدماء اليهود . ومن أقوال إرميا : « لأنه بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا » وعندما قالت نعمى لراعوث : « لقد رجعت سلفتك إلى شعبها وآلهتها » أجابت راعوث : « شعبك شعبي ، وإلهك إلهي » . ذلك أن تغيير القبيلة كان يحمل معه تغيير الإله [2] واستمر هذا التعدد فى الآلهة حتى الزمان الذى دونت فيه أسفار موسى الخمسة ، لأن قصة الخلق كانت تروى أولا منسوبة إلى يهوه ، ثم بعد ذلك منسوبة إلى « إلوهيم Elohim » وهو اسم جمع للآلهة . وكانت هذه الأسطورة الخاصة بالخلق وجنة عدن شائعة فى شعوب آسيا الصغرى زمناً طويلا قبل أن يدونها كهنة (بيت الرب) Temple فى التوراة فى القرن السابع قبل الميلاد . فهى موجودة عند الفرس ، والفينيقيين ، والكلدان ، والبابليين ، وغيرهم . وكتب هزيود سنة ٨٠٠ قبل الميلاد يحكى الصورة الإغريقية للخرافة ، فقال : جزر السعداء ، حيث تنمو شجرة تحمل تفاحاً ذهبياً يهب الناس الخلود .

سيدا : وعند شعبنا أسطورة مماثلة . فكتب الفيدا تحكى كيف أن سيفا siva أنزل شجرة تين من السماء وأغرى المرأة أن تغوى بها الرجل باعتبار أنها تكسب الخلود . وأكل الرجل ، فأنزل سيفا عليه اللعنة ، وقضى عليه بالبؤس والشقاء [3] .

---

(١) سفر اللاويين – Leviticus, xxv.

(٢) Allen, p. 181 ; Smith, W.R., p. 37.

(٣) Doane, T.W., Bible Myths, p. 12.

كونج : فى أحد الكتب المقدسة عند قدماء الصين ، المسمى تشى كنج ، يوجد النص الآتى : «كانت جميع الأشياء أول الأمر خاضعة للإنسان ، ولكن امرأة ألقت بنا فى ذل العبودية برغبتها الطامحة فى المعرفة . لم ينزل شقاؤنا علينا من السماء بل من المرأة . لقد أهلكت الجنس البشرى . ألا ما أشقاك يا بوسى . لقد أشعلت النار التى تحرقنا ، والتى لا تزال كل يوم فى ازدياد» (١) .

فيليب : وراء جميع هـــذه الأساطير يشعر المرء بأن المرأة والمعرفة هما أصل جميع البلاء ، وهما القاتلان للحياة البريئة السعيدة . وتجد هذه النغمة تسرى فى جميع صفحات التوراة حتى تبلغ التهكم على المرأة فى سفر الجامعة (٢) ، ثم هذه العبارة الرهيبة : «لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذى يزيد علماً يزيد حزناً» وحتى المسيح كان يزدرى الصلة الجنسية ، ومجد حكمة الأطفال .

كلارنس : حسناً ، فى هذا الكلام كثير من الصواب . فهل نحن سعداء كما كنا حين كنا جهلاء ؟ ولماذا نحب وجوه أطفالنا الصريحة ؟ لعل ذلك لأننا نحسدهم على تحررهم من شهوة الجنس ومن المعرفة . ولكن لا تسمحى لنا بمقاطعة قصتك يا إستر .

إستر : لم تبق إلا مسألتان : لقد أعطى اليهود للعالم التوحيد ، وأول تبشير بالعدالة الاجتماعية . كانت الصفة القبلية للآلهة القديمة راجعة إلى العزلة الاقتصادية واستقلال الجماعة من جهة ، ولأن كل إلهٍ متنافس كان السلف المعبود فى قبيلة معينة من جهة أخرى . ثم أدى نمو التجارة وما ترتب على ذلك من نمو الترابط الاقتصادى إلى تحالف القبائل واندماج الآلهة . وأخيراً أصبح من الممكن التفكير بلغة الإنسانية كلها ، وبإله واحد . وكان إشعيا Isaiah أول من عبر عن الله الأكبر ، وهو إله يكاد يكون جديراً بكوبرنيقوس : «هوذا الســـيد الرب من كال بكفه المياه وقاس السموات بالشبر وكال بالكيل تبر الأرض ووزن الجبال بالقبان والآكام بالميزان . . . هوذا الأمم كنقطة من دلو . . . هوذا الجزائر يرفعها كدقة» (٣) والتطور الذى جاء بعد ذلك هو تصور أيوب الله على أنه نظام

---

(١) Ibid., 14.

(٢) الجامعة Ecclesiastes هو ابن داود الملك فى أورشليم (المترجم) .

(٣) Isaiah, xl (اشـــعيا – الاصحاح ٤٠) .

الكون . وهنا نجد أن ديانة اليهود بعد أن بدأت بالسحر والخرافة قد ارتفعت إلى آراء سبينوزا السامية ، ومهدت الطريق للعلم الحديث . ولكن الفكرة التي كانت أعظم حتى من فكرة أحدية الله والنتيجة الطبيعية لها ، فهي فكرة وحدة الإنسانية ونهاية الحروب ، وانتشار العدالة الاجتماعية .

كلارنس : خروج الحرب على القانون مسألة سننظر في أمر البحث فيها .

إستر : ذهب عاموس إلى أورشليم ، و « وقف بالباب » (في جانب الشارع كما نقول اليوم) وأعلن دين الإنسان الجديد . « لذلك من أجل أنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها لأني علمت أن ذنوبكم كثيرة . . . ويل للمستريحين في صهيون . . . المضطجعون على أسرة من العاج والمتمددون على فرشهم . . . » فهذا كله لن ينفعهم في تقديم الضحايا لبيت الرب ، لأن الرب سيقول لهم : « بغضت وكرهت أعيادكم ، ولست ألتذ باعتكافاتكم . إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضي ، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت لها . أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع . وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم » [1] أو استمع إلى إشعيا يقول :

« الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم . وأنتم قد أكلتم الكرم . سلب البائس في بيوتكم ؟ . . . ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ويقرنون حقلا بحقل . . . فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض . . . . وماذا تفعلون في يوم العقاب حين تأتي التهلكة من بعيد ؟ إلى من تهربون للمعونة وأين تتركون مجدكم ؟ . . . لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب . أتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات . . . أعيادكم بغضتها نفسي . صارت على ثقلا. مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم . وإن كثرة الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . اغتسلوا تنقوا . اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني . كفوا عن فعل الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق ، أنصفوا المظلوم ، اقضوا لليتيم ، حاموا عن الأرملة » [2] .

---

(١) Amos, v, 11, 21 f. ; vi, 1-4. (عاموس)

(٢) Isaiah, i, 11 f ; iii, 14 ; v, 8 ; x, 1 f.

أندرو : هذا بديع ، ما هذا الأسلوب ، وما هذه القوة .

إستر : لن تجد فى تاريخ الدين أو تاريخ الأدب أبدع من ذلك . لقد منح الإغريق ، كما قال رينان ، العقل الحرية ، ولكن اليهود وهبوا الناس الأخوة. حصل الإغريق على الثقافة ، ولكن لم يكن لهم قلب ، حتى إن فلاسفتهم دافعوا عن الرق . أبدع الإغريق الفن والعلم ، ولكن بقى على اليهود أن يقدموا للعالم فكرة العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان . وبهذا الإيمان ستظفر إسرائيل الصغيرة التائهة وسط الإمبراطوريات القديمة والمتضايقة وسط الدول الحديثة بالنصر فى النهاية . واليوم فإن الشعوب التى قهرتها أو استبدت بها تنحنى لروحها ، وتتطلع إلى المثل التى وهبتها للعالم .

أندرو : من أشـــعيا إلى تروتسكى .

إستر : نعم ، ستكون الاشتراكية دين العالم حين تموت المسيحية (١) .

٤ — المسيحية

آرييل : إنك مدهشة يا إستر . إنك تجعلينى فخورة بشعبى . والآن من يحدثنا عن المسيحية ؟ لست أنت يا أندرو الطروب ، لأنك لن تفعل أكثر من التماس عيوبها ؛ ولا أنت يا ماتيو ، لأنك تحبها كثيراً . ولعلل فيليب الذى يستطيع الابتعاد عن التحيز إذا حاول ، يقدم لنا بعض الأسس التاريخية ، ثم نستطيع بعد ذلك أن ندخل فى معركة حامية . أتوافقون ؟

ماتيو : لقد استمعت صابراً إلى هذا الوقت ، وأستطيع أن أستمع أكثر من ذلك . وأقرر مما سمعت أن الدين المقارن مذبح يضحى عليه كل دين . أما فيليب فهو مخطىء دائماً ، ومع ذلك يغتفر له دائماً .

فيليب : إنك تتحدث كمسيحى يا ماتيو ، ولكنك ستندم حالا على شفقتك . ويسرنى أن أرى آرييل تعترف بأهمية وضع المسيحية فى الموضع الصحيح من النظر الشامل . فكما يحب بعض الحاضرين معنا أن يقول : « النظرة الشاملة

---

(١) المؤلف مسيحى ، ولكنه يحكى أحلام إسرائيل على لسان هذه اليهودية . وقد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٩ فى الطبعة الأولى لهذا الكتاب أى قبل قيام إسرائيل بمدة طويلة (المترجم) .

هى كل شىء » . لقد نشأت المسيحية من تيارين كبيرين معقدين من الظروف التاريخية : الأول نمو طبقة عاملة لا حيلة لها ولا أمل ، والاستغلال الصناعى والتجارى فى بيت المقدس والإسكندرية وأنطاكية وأثينا وروما . والثانى اتصال واندماج أفكار اليهود الأخلاقية ، والتى أحسنت إستر وصفها ، بأفكار الإغريق الفلسفية والدينية .

ومن قبل أيام سليمان أدى مركز أورشليم الكائن فى مفترق الطرق التجارية الكبرى التى كانت تربط بين فينيقيا والخليج الفارسى وشعوب البحر الأبيض بأشور وبابل وفارس ، إلى نمو المؤسسات والمطامع التجارية بين اليهود ، وإلى توسيع الهوة بين الأغنياء والفقراء . وكان اليهود الذين رجعوا من بابل معدمين . وقام الفاتحون من الإغريق والرومان بغارات وحشية على هذا الشعب العاجز واسترقوا منه الشباب بالآلاف . وفى طفولة المسيح باع الرومان مدناً بأسرها بالقرب من الناصرة فى أسواق العبيد . وفى كل مكان من ثغور البحر الأبيض الكبرى كانت تظهر طبقة من المعدمين ، وبدأت تتكون فيما بينهم نظرة دينية معادية ومضادة لنظرة أسيادهم . أما الأغنياء فقد كانوا يؤيدون ، على الرغم من أنهم كانوا بينهم وبين أنفسهم لا أدريين ، العبادات والعقائد الموروثة . أما الفقراء فقد اصطنعوا قانوناً أخلاقياً جعل من ضعفهم وبؤسهم وفقرهم فضائل ، واتخذوا ديناً بلغ ذروته فى جنة ينعم بها العازر المعدم ، ونارٍ يشقى فيها Dives الغنى المليونير . ومن هنا جاء تشهير نيتشه بالمسيحية على أنها تغليب نوع أدنى من البشر على نوع أرقى . وكانت الطبقة العاملة على استعداد لتقبُّل دين يقف إلى جانب الضعيف ، ويبشر بفضائل ذوى القلوب الوادعة المتواضعة ، ويمنح الأمل فى جنة يعوض فيها صاحب الحظ السيىء فى الدنيا بسعادة أزلية . إن أعظم مشكلة دقيقة تواجهها المسيحية الحديثة هو التوفيق بين اعتمادها على الأغنياء وبين ولائها الطبيعى للفقراء .

وفى ضوء هذا الأساس من الظلم والفقر أرى شيوعية وأخلاق المسيح . ذلك أنه كان ولاريب شيوعياً ، يعتقد أن جميع الأشياء الضرورية ملك للجميع ، وأن الغنى يجب أن يشارك الفقير فى كل شىء ، ولو كان حياً اليوم كما قال نيتشه لكان مصيره أن يرسل إلى سيبيريا . ولكن أى إنسان ، غنياً كان أم فقيراً ،

يقرأ قصته البسيطة كما يرويها الرسل الأولون لا يملك إلا أن ينجذب نحوه ؛ فهو أعظم الشخصيات التى لا مثيل لها فى التاريخ مبعثاً على الإعجاب بها . وللأسف أنه ارتبط بدين وكنيسة ، ولو أنى أزعم أن ذلك كان ضرورياً . إذ حين تختفى تلك الكنيسة وذلك اللاهوت فقد تنسى البشرية معلمها العظيم .

وتمثل مذهبه الأخلاقى التصورات الأخلاقية لأشراف اليهود فى صورة مصفاة وسلمية . وقد بين كلاوسنر كيف أنه كان صورة كاملة لزمانه ، وكيف ورث تقاليد البطولة التى عرفت عن أنبياء وحكماء إسرائيل (١) . فنحن نجد أن هليل Hillel ، وهو جد غمالائيل Gamaliel الذى علم القديس بولس ، يتكلم أحياناً بنفس ألفاظ المسيح قبل ظهوره بجيل ، وذلك مثل قوله : « لا تحكم على جارك قبل أن تضع نفسك فى موضعه » . « خضوعى هو مجدى ، ومجدى هو خضوعى » « لا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يصنعوه بك ؛ هذا هو كل الشريعة — ليس الباقى إلا شرحاً » (٢) وكما قال فلهوزن : « لم يكن المسيح مسيحياً بل يهودياً » . وقال رينان : « المسيحية أروع ما أبدعته اليهودية » . أو هى بعبارة هينى : بدعة يهودية (٣) .

ومع ذلك فقد أضافت المسيحية إلى اليهودية مذهباً يفسر إلى حد كبير بجانب شخصية وأسطورة المسيح انتصارها . ولم يتكلم المسيح كثيراً فى بداية تبشيره عن عالم آخر ، بل عبر عن مملكة السماء بعبارات دنيوية ، أو كتصفية خالصة للنفس . ولم تكن فكرة خلود النفس جزءاً من عقيدة اليهود التاريخية ؛ ذلك أن اليهود فى أيام بأسهم وقوتهم كانوا يعلمون الفرد أن تمزج نفسه بالجماعة ، وأن يكون عمله لنجاة نفسه أقل من خلاص الدولة ؛ فجعلوا بذلك فكرة خلود النفس تكاد تكون غير ضرورية . وكان أيوب أول نبى من شعبه أنزل خلود الشخص منزلة الاعتبار ، لأنه لم يكن يستطيع التمسك بإيمانه فى إله طيب دون أن يفترض أن الله فى العالم الآخر سيحسن جزاء من اتقى وتعذب فى الدنيا .

---

(١) Klausner, J., Jesus of Nazareth, Book viii and passim.

(٢) Reinach, p. 204.

(٣) Klausner, p. 363 ; Renan, E. History of the People of Israel, vol. v, p. 355.

ولما فقد اليهود كل أمل في النصر في هذا العالم ، ظهرت فكرة الجنة التي يلقون فيها عوضاً في كتب الحكمة ، أخنوخ ودانيال . ولم يختلف الأمر عن ذلك مع المسيح ، ذلك أنه حين يئس من تأسيس مملكة السماء في الأرض وضعها في الجنة ، وبشر بيوم الدينونة Last Judgment الذي يقضي فيه على نصف الجنس البشري بما فيه من معظم النساء الجميلات في كل عصر بجحيم أبدي لن تنطفىء ناره أو ينقطع عذابه .

ماتيو : لست أرى فيما صورته السيد ابن الله .

فيليب : لعل صورتي وصورتك كلتيهما خطأ يا ماتيو . ومن يدري ؟ فهذا هو جمال الفلسفة ، أنك لا تجد فيها شيئاً يقينياً ، ولذلك لا يقتل الفلاسفة أحدهم الآخر ، ولا يزجون بالناس في الحرب . فإذا كنت أرى مرارة في المسيح في عهده الأخير فذلك لأني أراه قائماً على أساس من مذهبه الأخلاقي نفسه ، وأحكم عليه بالكمال الذي يكاد يكون مستحيلا والذي كان يبشر به . تلك المثالية الأخلاقية هي عندي جوهر المسيحية ، وهي ولا نزاع أعظم مساهمة في تحضير البشرية . ولا يزال عجبي قائماً كيف تولد في النهاية من القرد والغابة إنسان قادر على تصور البشرية كلها كفرد واحد ، وعلى محبتها وتحمل العذاب في سبيلها بما لا حد له .

ماتيو : ألا ترى يا فيليب أن الإرادة الإلهية وحدها هي القادرة على تحمل مثل ذلك العذاب أو معرفة مثل ذلك الحب ؟

فيليب : ومع ذلك حتى هنا يجب أن نختلف ، لأن مذهب المسيح الأخلاقي هذا لا يجب أن يؤخذ على إطلاقه ، إذ فيه عناصر هي موضع للتنازع مهما تكن سامية . وقليل منا هم الذين تبلغ بهم الشجاعة حد التصريح بما يعتقدونه في قلوبهم — إن شريعة المسيح إذا أخذت كاملة كانت غير عملية . فمن المستحيل أن « لا تفكر في عيشك ، ماذا تأكل أو ماذا تشرب » . فنحن لا يمكن أن نعيش كالطيور في الهواء ، بل أشبه بالزنابق في البستان . فمن العسير أن يحب أحدنا جاره كنفسه ، ومن المستحيل أن نحب أعداءنا . إن الدعوة إلى عدم المقاومة في عالم يتكون الناس فيه بالانتخاب الطبيعي والكفاح في سبيل الحياة

هى دعوة إلى العدوان والاستعباد . وإن شعباً يحب أعداءه ، فمصيره أن يمحى من على وجه الأرض .

كونج : كان لاوتسى أيضاً يعلم : « أحب أعداءك » . ولكن كونفوشيوس قال : « وبماذا إذن تكافىء الرحمة ؟ كافىء المحسن بالإحسان ، والمسىء بالعدل » .

بول : يجب أن تذكر أنه حتى إذا كان مذهب المسيح يبدو مسرفاً فى الكمال بالنسبة للبشر ، فقد كان ذلك هو الأمر اللائق بما يطلبه عالم بربرى . كانت وظيفة المسيحية الجوهرية أن تهذب بفرض هذه الوداعة المتطرفة التوحش الطبيعى فى جنسنا البشرى . وقد أثمرت ألفا سنة من التبشير بعض الثمار الطيبة . فأنا أعتقد أننا اليوم أشفق ، وأكرم ، وأحب للسلم من الإغريق أو الرومان : فقد خففنا من وطأة الاستغلال ، وقلمنا أظافر التوحش ، وسمونا بخلق الإنسان .

فيليب : يخطر ببالى أحياناً أن المسيح حين كان يبشر بهذه الأساليب الكاملة قد كان ينظر إلى خاصة رسله وحوارييه ، وفكر أن يمنحهم نظام رهبنة قد يحصنهم من صنوف الفتن فى العالم . كذلك فكر أفلاطون فى حماية ملوكه الفلاسفة بنظام يكاد يكون شيوعية زاهدة . يقول المسيح لأتباعه ألا يتزوجوا ولا يقتنوا . إنه ينظر إليهم كأنهم رهبان فرنسيسكان . كان يعرف كما نعرف أن معظم الناس سيستمرون فى إدمانهم الباطل على اقتناء المال والزواج من النساء . إن سوء فهم مذهبه على أنه المقصود به جميع الناس هو الذى ألقى بالمسيحية فى أحضان نفاق لذيذ ليس له من الوجهة العملية أثر فى العالم .

أندرو : ما لا أحبه فى هذا المعلم النبيل هو عداوته للجسد ، وقلة اكتراثه بالمتع البسيطة لغرائزنا الإنسانية . أحسب أنه « بيوريتانى » يهودى .

ماتيو : إنك تسىء فهمه ، فلم يحتقر أن يحيل الماء خمراً فى قانا Cana . وقد لامه خرقاء أهل زمانه لتساهله مع جامعى الضرائب المرتشين والمجدليات الخاطئات . كان يفهم خطايا الجسد فى حنان كحنان الأم . لقد نسيتم قصة المرأة التى اتهمت بالزنا .

فيليب : صحة الرواية موضع شك يا ماتيو . ومع ذلك فمجرد تدوينها دليل

على أن الرفق بالمرأة جزء من وصف المسيح . الحق أن يتحول فى خلال قرن أو قرنين ذلك المحتقر بقلبه للأغنياء والمحب بإخلاص للفقراء إلى بطل لأسطورة لاهوتية ، لدليل على ظمأ البشرية الدائم للخرافات ، وعلى قوة تأثير الأساطير القديمة فى تكوين العقيدة المسيحية . ذلك أن فكرة ابن للإله ، ومخلص يولد من عذراء ، ويموت تكفيراً عن خطايا البشر ، ثم يبعث مرة أخرى من القبر ، من الأفكار الشائعة فى كثير من الأديان قبل المسيحية ،أو مستقلة عنها : ففى الهند مثلا «كرشـنا» ، وفى مصر «حورس» ، وفى المكسيك «كتسالكوتل» Quetsalcoatl [1].

تيودور : وكان بسطاء الإغريق يتصورون أورفيوس إلهاً مات ميتة فظيعة ، ثم ذهب إلى الجحيم ، وعاد بعد ذلك إلى الحياة . وتُروى القصة ذاتها عن بروميثيوس ، وأدونيس ، وهرقليس [2] .

سير جيمس : يشيع فى الأديان القديمة وجود آلهة يصبحون بشراً . وفى إمبراطورية الصين ، كانوا يحتفظون بسجل يكتب فيه جميع الآلهة المتجسدة ويحفظ فى إدارة الأقاليم فى بكين . وبلغ عدد الآلهة الذين منحوا حق الحياة على الأرض ١٦٠ . وترجع فكرة «المسيح المخلص Messiah» إلى كبش الفداء الذى كان الشعب يختاره ليموت تكفيراً عن خطاياهم وترضية لآلهة الأرض والسماء كى ينمو القمح مرة أخرى . وهى فكرة تتردد عند كل شعب [3] .

إستر : فى القرن السابع عشر ادعى زباتاى زيفى أنه المسيح الذى أرسله الله لتخليص اليهود .

سير جيمس : عندنا حالة أحدث من ذلك بكثير ، فحوالى عام ١٨٣٠ ظهر رجل فى كنتاكى زعم أنه ابن الله ومنقذ البشرية . واعتقد فيه آلاف من الناس وشاع إنجيله ،إلى أن طلب منه أحد أتباعه أن ينزل رسالته باللغة الألمانية على التيوتون الموجودين فى الإقليم ممن كانوا يجهلون اللغة الإنجليزية ، وحرام أن يذهبوا

---

(١) Doane, op. cit., pp. 111 f.

(٢) Ibid.

(٣) (1) Frazer, pp. 93, 103, 580 f.

إلى النار لذلك السبب . ولكن « المنقذ » الجديد اعترف بأنه لا يتكلم الألمانية . عندئذ صاح أحد أتباعه متعجباً : «ماذا . أنت ابن الله ، ولا تعرف حتى الألمانية ! ! » وكان ذلك خاتمة مسيح كنتاكى (١) .

فيليب : بعد أن جعل قدماء المسيحيين السيد المسيح إلهاً اضطروا إلى استخدام بعض الحيل اللاهوتية لمواجهة مطلبين : الأول التماثل المنطقى للعدد المقدس ثلاثة ؛ والثانى العقيدة التوحيدية . كان العرف السائد عند اليهود مؤدياً بالطبع إلى التوحيد ، ولكن إله اليهود كان إله حرب وقوة ، وكان طغام المدن الذين اتجهت المسيحية إليهم يطلبون إلهاً للتسامح والشفقة والمحبة . وهكذا مات يهوه ، وولد « الإله الأب » . ولكى يوفقوا بين ملكه العام وبين وجود الشركاء ، كان لابد من اختراع ، على طريقة الفرس ، إله للشر – هو الشيطان ، أو إبليس . وفى الوقت نفسه كان لابد للعقيدة الجديدة أن تتلاءم مع العرف الجارى بين شعوب البحر الأبيض من عبادة ثالوث من الآلهة . فقد عبد الهندوس ، والمصريون ، والفينيقيون ، والأشوريون ، والرومان ثلاثة آلهة على أنها ثلاثة . ولكن النزعة إلى الوحدة وبخاصة بين اليهود تطلبت تركيب آلهة المسيحية الثلاثة فى ثالوث ، وقام فلاسفة الإسكندرية بهذه المهمة فى ضوء الفلسفة والأساطير الإغريقية . وهكذا أوّل المثقفون من المسيحيين الدين الجديد تأويلا توحيدياً ، على حين رأى العامة فيه لوناً جديداً بديعاً يختلف عن معبوداتهم المتعددة. وحلت مريم محل فينوس ، وأفروديت ، وعشتار ، وإيزيس ، و« الأم الكبرى» فى عبادة فرجيا . وأصبح مارس ميكائيل كبير الملائكة ، ومركورى روفائيل وجبريل . وفيما بعد ولى القديسون كورثة للآلهة الوثنية الصغرى ، فلكل أمة ، ولكل مدينة ، ولكل طائفة قديسها الحامى ذمارها كالآلهة المحلية فى الزمن القديم. وهكذا تجددت نزعة البشرية الطبيعية إلى تعدد الآلهة .

وكذلك بقيت الأعياد القديمة ، واندمجت بحكمة أعياد مثل عيد الموتى All Souls ، والقديس جورج ، والقديس يوحنا المعمدان فى أعياد قبل المسيحية .

---

(١) Ibid, p. 102.

وضم عيد القيامة عيد الفصح عند اليهود ، وعيد عشتار عند البابليين ، واحتفال الإغريق ببعث أندونيس . وكان عيد الميلاد Christmas فى الأصل عيداً مصرياً خاصاً بمولد الشمس ، أى عند الانقلاب الشتوى حين « يتحرك » الفلك المقدس شمالا ، وتأخذ الأيام تطول . وكان المصريون يمثلون مولد الشمس الجديد بتمثال طفل يبرزه الكهنة ويعرضونه على المتعبدين (١). وتعدلت فى الوقت نفسه الاحتفالات القديمة لتصبح ملائمة . كان التعميد من الشعائر البدائية التى كانت تدل على تكريس الصبيان لحياة الشباب ومزاياها . وكان ذلك التكريس يتخذ هيئة غمس تام فى الماء ، ثم إنقاذ مزعوم من الغرق دليلا على ميلاد جديد .

تيودور : فى عبادة ديونيسوس كانوا يسمون المكرس « المولود مرتين » (٢).

فيليب : لقد نشأ القربان المقدس ، كما بيّن سير جيمس ، عن عادة أكل الإله . وقد أخذ القداس فيما عدا التدشين من الشعائر التى كانت تقام فى معابد اليهود ، وكذلك الملابس والأناشيد الكهنوتية اليهودية . وكانت الكنائس فى أول أمرها معابد يهودية synagogues . وجيلا بعد جيل أصبحت هذه الشعائر أدنى إلى التعقيد ، وأصبحت العقائد أبعد عن التصديق . وأخذت طبقة الكهنوت تقوى كمتخصصين لازمين فى اللاهوت والشعائر ، ووسطاء بارعين بين المذنبين من الناس وبين إله لا يمكن أن يرضى عنهم إلا بسلوك طرق معينة مقدسة . وساد فى القرن الثامن عشر الاعتقاد بأن الكهنة هم الذين ابتدعوا الدين . فقد تساءل ڤولتير : « من ذلك الذى اخترع فن التأله ؟ » ثم أجاب : « هو أول محتال قابل أول مغفل » (٣) . ومع ذلك ليس الكهنة هم الذين أبدعوا الدين ، بل الدين هو الذى خلق الكهنة . ذلك أن ما فى الإنسان من أمل وإيمان لا يمكن استئصالها هو الذى خلق الدين ، وسيخلقه على الدوام . ولكن الكهنة هم الذين خلقوا الكنيسة ، فقد نظموا أنفسهم فى سلطة كهنوتية قوية تمول من أسفل وتحكم

(١) Frazer, pp., 345;60.

(٢) Kallen, Horace, Why Religion, p. 242.

(٣) Essai sur les Moeurs, in Reinach, p. 9.

من أعلى . وهم الذين نصروا قسطنطين ، وتخيلوا « الهبـة Donation »[1] المشهورة ، وقبلوا وصايا غنية ، وأخيراً جعلوا كنيسة فقراء الصيادين وهم رسل المسيح أغنى وأقوى منظمة عرفها العالم . وبلغ ما تملكه الكنيسة فى عصر الإصلاح الدينى ثلث الأراضى المزروعة فى أوربا ، وامتلأت خزائنها بالمال . فلا غرابة أن تفقد روح «مؤسسها» وأن تهوى إلى الانغماس فى كل متعة دنيوية ،وأن تتجر فى الرتب الكهنوتية . لقد قلبت أوربا المسيحية فضاعت صرامة العبادة القديمةالشرقية فى الوثنية المولدة فى عصر النهضة . ذلك أن الأديان تولد بين الفقراء ، وتموت بين الأغنياء .

وحاول « الإصلاح الدينى Reformation » أن يستعيد ذلك الزهـد القديم وتلك البساطة البدائية ، فنجح وجلب معه فردية محركة للهمم ، وفى الوقت نفسه قانوناً شديداً لتهذيب النفس أدى إلى بناء الخلق المستقل لم يسبق لقانون غيره أن أثمر هذه الثمار ، إذ يكاد العظماء فى التاريخ السياسى والاقتصادى الحديث أن يكونوا من البروتستانت ، ولكن ثمن ما قام به الإصلاح الدينى كان فادحاً إذ وضع الكتاب المعصوم محل الكنيسة المعصومة ، ولما لم يجد مثل هذه الكنيسة أباح للفرد تأويل الكتاب المقدس . وترتب على ذلك أن كل هرطيق أسس فرقة جديدة ، وانشقت البروتستانتية إلى مئات من الشيع . ثم إنها بمحاولته من تجديد المسيحية البدائية قد أعادت روح اليهودية ، وأدخلت فى الأخلاق تَزَمُّتاً Puritanism شـديداً وجافاً كاد أن يفسـد الفن قرنين من الزمان . أعطتنا الكاثوليكية جمالا بلا حق ، وحاولت البروتستانتية أن تعطينا حقاًبلاجمال . وأحسب أن الجمال سينتصر فى النهاية .

٥ — الكاثوليكية والبروتستانتية

ماتيو : « الجمال والحق » . ألم تفكر يا فيليب أبداً أن أحدهما ليس بأكثر موضوعية من الآخر ؟ فنحن لا يمكن أن نتفق حول الله ، بأكثر مما يمكن أن نتفق حول . . .

---

(١) يشير المؤلف إلى هبة قسطنطين المشهورة ، والتى زيفت فى القرن التاسع ، وتذهب إلى أن قسطنطين حين اعتزل فى البوسفور عام ٣٣٠ تنازل عن جميع حقوقه وأملاكه كامبراطور للغرب إلى البابا فى روما وخلفائه . ويقال أن شرلمان أيد هذه الهبة (المترجم) .

أندرو : الإلاهات .

ماتيو : فليكن ، يا قليل الدين . اعلم يا أندرو أنك لا يمكن أن تحس بالدين لأنك لا تستطيع أن تشعر بالجمال المنفصل عن الرغبة ، ذلك الجمال العارم الذى تلبسه الأرض أحياناً فى الخريف أو فى بعض أيام الصباح المشرقة فى الشتاء حين تتحلى كل شجرة بالثلج المتألق ، ويسطع كل سطح بالجليد . إن الحق ليبدو شيئاً هزيلا جداً إلى جانب مثل هذا الجمال . وكيف تعرفون أيها المتشككة التعساء أنكم قد حصلتم على الحق ؟ إن علمكم يتغير كل يوم ، وما يعرفه هذا العلم اليوم عن المادة أقل بكثير مما كان يظن أنه يعرفه منذ خمسين عاماً مضت . وينتقل علم الحياة من يقين إلى ضده كل ثلاثين عاماً ، ففى جيل كان كل شىء يرجع إلى البيئة ، وفى الجيل التالى إلى الوراثة ، وفى الذى يليه إلى البيئة . وتسود فى جيل نظرية التغير بالمصادفة fortuitous variations ، وفى الذى بعده نظرية التحول بالطفرة mutations . ويشيع فى جيل مذهب التكوين التناسلى pangenesis ، وفى الآخر الصبغيات والمورثات genes . وتسمع فى جيل أن القرد جدنا ، وفى الذى يليه انه ابن عمنا ، والذى بعده أنه لا يمت لنا بصلة القرابة أصلا . إن علم النفس لا يعرف هل الشعور موجود أو لا ، والرياضة لا تعلم أيكون الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين . ثم تريد منى بعد ذلك أن أهجر كل الجمال الذى كشفت عنه نظرة المسيحية إلى العالم من أجل هذه « الحقائق » الآخذة فى الموت . ألا ترى أننا ذرات مغرورة حين نظن أننا نستطيع أبداً فهم هذا الكون ، أو إخضاع جميع أسراره وأموره المعقدة لقطعة صغيرة منه تسمى العقل البشرى ؟ وما عقلكم سوى الإيمان بالحواس وبالمنطق — الحواس التى تقطع أوصال كل ما تقرره ، والمنطق الذى يستطيع أن يجعل كل تحيز يبدو معقولا .

أما أنا فأرى مجال الاختيار قليلاً جداً بين نظريات العالم على أساس صحتها ، وإنى لراض أن أحافظ على ذلك المذهب الذى يلهمنى بالجمال ، ويشد عزمى بالأمل . وحين تمحى جميع مذاهبكم ، سيظل الإيمان الذى أتمسك به يشعل قلوب مئات الملايين من البشر . ولعل أحفادكم يهتدون إلى الإيمان من هذه

اللاأدرية الباردة التي تورثونها إياهم . ويوماً بعد يوم يشفى العالم الغربي من تلك الغلطة الشنيعة : « الإصلاح الديني » . وسيعود كثير من فرق البروتستانت إلى الحظيرة بعد أن ملت الانقسام والتنازع ، وستنحل الفرق الباقية بالتهافت على التجديد (مودرنزم) ، وتحديد النسل . إن سرطان الفردية آخذ فى التهام الكنائس التي انشقت على روما . وعندما يدعى كل امرىء أنه حجة فى الفلسفة واللاهوت ، يحدث فى الدين ما يحدث فى الديمقراطية : التمزق والفوضى . وحين يحل الفرد محل الأسرة ، وتحل الإباحية محل الزواج والأبوة ، ينحط الجنس . ونحمد الله أن بين الكاثوليك رجالا ونساءاً لا يزال أحدهم موالياً لصاحبه إلى النهاية ، وأن الأطفال لا يزال يتاح لهم أن يجعلوا من البيت نعمة بنموهم الرائع ولعبهم السعيد .

بول : فى كلامك يا ماتيو الكثير من الحق ، فنحن البروتستانت يظهر أننا نفنى أنفسنا بكثرة الشيع الطائفية ومنع الحمل . واليوم تبلغ نسبة الكاثوليك اثنين من كل خمسة مسيحيين فى أمريكا . إن معدل مواليدكم يقضى علينا ، وستكون البلاد لكم سنة ٢٠٠٠ إذا استمرت النزعات الحاضرة . سيكون ذلك خيراً من جهات كثيرة . فأنا أسلم لك بأن ديانتك أسعد وأجمل من ديانتى . أسلم لك بأن النظرية الكاثوليكية عن الزواج فيها كثير من الحكمة ، وفى سلطة الكنيسة عندكم كثير من النبل ، وفى قساوستكم ورهبناكم القديسين محبة بديعة ورقة رقيقة . لقد تأثرت إلى أعماق قلبى بالسلطة التي كان من الظاهر أنها قابضة على أتباعها ، عندما رأيت المهندسين والعمال قد جاءوا زرافات من محطة بنسلفانيا الهندسية ، وركعوا فى خشوع على الأرصفة يطلبون البركة من الكاردينال مرسيه . ولن أنسى شخصية « المحقق الكبير » التي صورها دستوفسكى . وأكبر الظن أن الحياة بما فيها من علل وحرمان وخيبة أمل لن تكون محتملة بغير الشعر الذى كان إيمان العجائز يضفيه على نثر حياتنا الاقتصادية .

أندرو : ما دام الشعب يحب أن يخدع ، فلنخدعه .

بول : ولكنى أقول لك يا ماتيو بصراحة إننى أخشى مذهبك ، فلن أنسى قط أن كنيستكم أقامت فى الماضى محاكم التفتيش ، وأنها نفت كوبرنيق ،

وأخمدت صوت جاليليو ، وحرقت برونو حيا مشدوداً إلى سارية فى الميدان العام . وكثيراً ما وقفت فى طريق تقدم المعرفة وتحرير العقل البشرى . ولست مرتاحاً حين أفكر أن كنيستكم إذا لم تحدث تغييرات كبيرة فى معدل المواليد فيظهر أن مصيرها قبل نهاية هذا القرن أن تصبح العامل المسيطر على الحياة الأمريكية . إنها اليوم أقوى أقلية منظمة ؛ فهذه بوسطن ، موطن البيوريتان (المتزمتين) مدينة كاثوليكية ؛ وفيلادلفيا ، مقر الإخـوان المهتزين [1] Quakers ، مدينـة كاثوليكية ؛ ونيويورك موطن البروتستانت من الإنجليز والهولانديين هى الآن مدينة كاثوليكية .

ماتيو : ألا تظن أن الوقت قد حان كى ننال حظنا ؟ ـ إنه بعد أن تحملنا بصبر الاضطهاد والعار من رجالكم وطوائفكم ممن لا يعرفون شيئاً فيجب أن نكافأ بالاحترام والقوة ؟ هذا وليس من الصحيح أن الكنيسة عارضت تقدم المعرفة ، بل إنما عارضت ـ وذلك زمان عزها وشعبيتها ـ الأفكار الضالة التى كانت ، أو ليست إلا بدعاً فكرية بنت ساعتها . لقد رفضت أن تسمح لأتباعها بالسقوط فى مهاوى فوضى العقل والنظريات التى تشيع فى أوساط المفكرين المتقدمين فى زماننا . حقاً وقفت سلطة الكنيسة فى بعض الأحيان إلى جانب خطأ قديم . ولكن ماذا تريد من البشر ؟ ألم يضل قط الحزب السياسى الذى أيدته فى الانتخابات الماضية ؟ وبعد فقد كانت الكنيسة أعظم قوة خلقية وفنية وفكرية فى تاريخ ألفى العام الأخيرة . كانت محاكم التفتيش نتيجة حركة الإصلاح الدينى ، وكانت تلك المحاكم فزعاً مؤقتاً من الخوف وتأميناً للنفس . ثم من أول من أسس حرية العبادة فى أمريكا ؟ ليس هم حجاج نيوإنجلند الذين أجمعوا على عـلاج الإخوان المهتزين Quakers بالحديد المحمى بالنار ، بل كاثوليك ماريلاند . أينا أكبر ذنباً فى إشـاعـة الجهالية Obscurantism [2] والعداوة للعلم الحديث ـ أهى الكنيسة الكاثوليكية التى لم يكن سلطانها فى النمسا وبفاريا

---

(١) فرقة دينية ليس لها عقيدة محددة أو سلطة كهنوتية منظمة ، أسسها جورج فوكس ١٦٤٨ ، وسمى أصحابها بالمهتزين لأن القاضى بنيت فى دربى ، الذى وقف أمامه فوكس سنة ١٦٥٠ كان أول من سماهم كذلك ، حين أمر فوكس القاضى أن يهتز ويرتعد عند سماع كلمة الرب (المترجم) .

(٢) الجهالية مذهب من يعارض البحث والإصلاح (المترجم) .

وفرنسا عائقاً لحرية الفكر هناك ، أم الأصوليون[1] Fundamentalists من البروتستانت فى أمريكا الذين سمحوا للمشرعين الريفيين أو بسطاء الفلاحين بتقرير ما هو صحيح أو باطل فى علم الحياة الحديث ؟ هل المجالس المعصومة أو الفلاحون المعصومون أفضل من الكنيسة المعصومة ؟

بول : هذه ضربة فى الصميم يا ماتيو . ولا اعتذار عندى لهؤلاء القوم فهم الخندق الأخير فى الدفاع عن الجهل ، وستهذبهم مدارسنا وجامعاتنا قريباً. أما بروتستانتيتى الخاصة فإنما هى ملاذ من الردة إلى الخرافات ، ولو أننا فاخرنا بالإلحاد فى وجه شعب كان الله فى حياة أفراده البائسة الحقيقةَ العليا ، وكان خلود النفس عزاء لا غنى عنه ، فإننا ندعو بذلك إلى تعصب لحماية النفس ، ونسوق الجبناء إلى ألوان من التطرف يعوضون به عما يكتنف نفوسهم من وجل . وفى هذا الجو من تبادل البغض والخوف لا أجد أملا فى أن يلقى المذهب المتحرر الذى أعتنقه إلا فرصة ضعيفة للنمو ، فالعقل لا يجد رواجاً فى أوقات الخطر . ومع ذلك فسوف ننتصر ، لأن اتساع نطاق الطبقة الوسطى مع انتشار التعليم من الأمور المعينة لنا . وأكبر الظن أن انتصار الكاثوليكية العظيم سوف يؤدى بالأحرار من كل لون إلى الاتحاد فى ضرب من المسيحية المعتدلة لن تطلب من أتباعها شيئاً أكثر من الإيمان بالله والتمسك بأخلاق المسيح .

كلارنس : اعلم يا بول أن بروتستانتيتك مقضى عليها . يكفى أن تنظر إلى انحلالها ، فقد انشقت إلى آلاف من القطع المتناثرة ، إلى جماعات صغيرة عنيدة يحتضن كل منها هرطقته حتى تصبح مذهباً سلفياً لا يتحرك ، وكل منها يبغض ويزدرى سائر الألوان الأخرى من فرق البروتستانت . وهذه قصاصة من جريدة نيويورك الصادرة فى أول نوفمبر ١٩٢٨ ، تتحدث فيها عن البروتستانتية فى الولايات المتحدة :

« من الظاهر وجود خمس جماعات من « المهديين[2] Adventists »

(١) فرقة من البروتستانت سميت كذلك لأنها أرادت أن تتمسك بأصول الديانة المسيحية والمحافظة عليها ، ويقابلها المتحررون modernists (المترجم) .

(٢) المهديون فرق مسيحية تعتقد فى ظهور المسيح مرة أخرى وقرب نهاية العالم (المترجم) .

وثمانى عشرة فرقة من « التنصيرية Baptists » ، وخمس من الإخوان والألمان التنصيريين ، وست فرق من إخوان بليموث ، وثلاث فرق من إخوان النهر ، وثلاث فرق من الإخوان الاتحاديين ، وست فرق من أنصار الكنيسة الارثوذكسية الشرقية ، وإحدى عشرة فرقة إنجيلية ، وأربع فرق من الأصحاب Friends ، وثلاث وعشرين من اللوثريين ، وسبع عشرة من المينويين [1] Mennonites، وتسع عشرة من المنهجيين [2] Methodists ، وتسع من المشيخيين Presbyterians، وأربع من الكنيسة المصلحة Reformed Church ، وأصناف أخرى متعددة كل صنف منها يبلغ من فرقة إلى ثلاث . . . مثل التنصيرية من أصحاب المبادىء الستة العامة ،والتنصيرية الاختيارية ، والتنصيرية النظامية ، والتنصيرية البدائية ، والتنصيرية القدرية ، وتنصيرية اليوم السابع ، والمينوية الأمانية [3] المحافظة Conservative Amish Mennonites ، والمينويين العزل ، والمينويين المستقلين عن الكنيسة . ونجد من المنهجيين هذه الأصناف : البدائيين ، والمجمعيين ، والمقدسين ، والمصلحين . وهناك . . .

بول : كفى يا كلارنس ، أنا مقتنع بأن البروتستانتية منقسمة ، فطريقتنا أن نترك الفرد ، فى ضميره وفى جماعته ، حراً ليكون متميزاً ومنطلقاً كما يهوى . وهذا أفضل من إلغاء التعدد بسلطة مركزية شديدة ولا رقيب عليها .

ماتيو : السلطة هى البديل عن الفوضى .

كلارنس : ستهلك البروتستانتية بسبب فقدانها البر الذى ترسو عليه والمركز الذى تجتمع حوله . إنها تقف فى وسط الطريق بين الرومانسية والتربية . وما ذكره ڤولتير عن الشعب يصح قوله على الدين : يضيع حين يتجه نحو العقل.

(١) هم أتباع سيمونس مينو Simons Menno (١٤٩٢ - ١٥٥٩) ظهر فى فريزلاند، وعدل مذهب اللاتنصيريين Anabaptists ، ولاتزال فرقته موجودة فى أمريكا وهولندا وألمانيا (المترجم) .

(٢) أتباع جون وشارلى ويسلى Wesley ، نشأت فى جامعة اكسفورد عام ١٧٢٩ . وسموا كذلك لأن الفرقة تكونت من طلبة الجامعة ، فأطلق عليهم زملاؤهم هذا الاسم لاتباعهم منهجاً خاصاً فى الدراسة . ثم نمت الفرقة على مر الزمن وانشقت على الكنيسة الإنجليزية (المترجم) .

(٣) الأمانية Amish ، أتباع يعقوب أمان أو أمين Ammanu or Amen ، وهو مينوى ظهر فى سويسرا فى القرن السابع عشر (المترجم) .

وقد كانت البروتستانتية تجرى فى طريق الانحلال منذ أيام الإصلاح الدينى. ذلك أن أعظم أعدائها هو انتشار تلك المعرفة التى يتصور بول أنها حليفته. أما تقدم العلم فلا يمس الكاثوليكية لأنها لاتخضع للعقل، بل تقوم على الإيمان وتلعب على أوتار الحواس والخيال أكثر من الفكر، فإذا انتشى الإحساس وتغذى الأمل ارتاح العقل وسكن، وفى هـذا سر الكاثوليكية. غير أن البروتستانية لم تتجه قط إلى الحواس فيما عدا الأناشيد والترانيم. فهى قد قضت على الحواس لخشيتها منها، فأغلقت أبواب المسارح وأسدلت الستار على الفن، واستبدلت بدراما القداس منطق العظة الجاف، وحاولت أن تضع الدين على أساس الحجة — وهو أعظم خطأ أمكنها أن تفعله. فلا غرابة أن تتضاءل كنائسها على حين ستظل الكاثوليكية قوية كما هى الآن، وأكبر الظن أن قوتها ستزداد فى مستقبل الأعوام. ستتهشم البروتستانتية بين أحلام الخيالى وعقل المفكر، وسيكون مستقبل أمريكا كحاضر فرنسا الآن: قلة مسرفة فى الشك، وقلة غارقة فى التدين وتقوى الله. وسيعيش المتحررون فوق بركان من الخرافات. ولن تكسب الكاثوليكية جانب الجماهير فقط، بل إذا حل الفقر كنتيجة للتنافس الاقتصادى المرير أو فقدان حرب كبرى فستظهر ثانية الأساطير القديمة. ولا يزال الفلاحون فى كل بلد يحبون أساطير القدماء، ولا يزال البسطاء من الدهماء يعتقدون فى الأرواح والمحرمات والنذر السماوية. يقول الكسندر بركمان إنه قرأ على جدران مجلس الدوما السابق فى سانت بترسبورج . . .

أندرو : بتروجراد .

إستر : لننجراد .

كلارنس : . . . هذه الأسطورة محفورة فى الحجر: «الدين أفيون الشعب Religion Is Opium For The People». ولكنه أضاف أنه فى الكنيسة الملحقة بالمجلس كانت الصلوات مقامة، والمكان مزدحماً بالجمهور(١). لقد نسى الذى حفر العبارة أن الأفيون شائع فى الشرق. أما فى الغرب فليس الناس أفضل حالا. إذ فى الوقت الذى تنمو فيه حرية الفكر بين القلة، تظهر عبادات

(١) The Bolshevik Myth, p. 56.

جديدة كالحشائش التى تنبت فى أرض الإيمان القديم البائرة . إنه لزمن عجيب لتأسيس دين جديد . وينتشر العلم المسيحى كأنه الدواء الوحيد ، لأن الشعب عازف عن قبول المسيحية أو العلم . أما التصوف الدينى Theosophy فإنه يقلب الفاشلين من الكتبة والباعة إلى فقراء الهند . وقد رأيت فى صحيفة حديثة ١٥٣ إعلاناً دينياً من بينها ٥٣ كانت تتصف بهذه الاعتقادات السحرية . أعلن رجل عن محاضرة عنوانها : « هل الشيطان كائن مشخص ، وهل سيقيد ويسجن وتغلق عليه أبواب الجحيم ألف عام ، وذلك فى مسرح الطرب ، والدخول مجاناً ، وسيجيب المحاضر عن الأسئلة » . وهناك خرافة نرويجية قديمة تقول بأنه بعد فجر الآلهة ، أى بعــد إهلاك المردة إياهم ، يظهر كون جــديد ، وتبعث الآلهة إلى الحياة ثانية . وتكاد هذه الخرافة تحكى تاريخ العالم ، فالآلهة يرجعون دائماً ، ومن الشرق دائماً . فنحن نغرق فى بحر من العبادات الجديدة الوافدة من الشرق كما كانت حال الإغريق والرومان فى القرون الثلاثة قبل الميلاد ، أو كما غمرت أفريقيا وأسبانيا بأتباع محمد . الحق أن الجماهير ستطلب على الدوام ديناً ينثر فى غلالة من الصور ، ويحاط بهالة من الغيب . إنهم لا يريدون علماً لأنهم منه فى فزع مميت . ذلك أن إحدى عظات العلم أن الحياة يأكل بعضها بعضها الآخر ، وأن مصير الحياة كافة إلى الفناء . ولن يقبل الجماهير العلم حتى يرى جنة أرضية . وما دام الفقر قائماً على الأرض فهناك آلهة فى السماء .

الفصل الثالث والعشرون

[فى المكتبة]

الله وخلود النفس

١ — خلود النفس Immortality

آرييل : سنظفر هنا فى المكتبة بالراحة والهدوء . فإذا كانت المناقشات قد أثقلت عليكم فيمكن أن تسروا عن أنفسكم وأن تلهو بالكتب . ولكنى أرجو ألا تبرحوا هذا المكان حتى تحدثونى عن مصير الإنسان بعد الموت ، وهل سنظل نعتقد فى وجود الله .

بول : من الواضح أن كلارنس لا تسلم بوجود مثل هذا الأمر الذى يسمى النفس الخالدة ، وأننا سنموت جميعاً كالكلاب .

كلارنس : نعم ، فلماذا لا يكون كلبى خالداً مثلى ؟ إنى فى توحشى معه كما كان يمكن أن يكون يهوه نفسه . فأنا محبة لنفسى ولا أعطيه إلا ما لا أريده. أهجره حين أحب ، ولكنه أوفى لى من هلويز لأبيلارد . وإذا فاضلت بينى وبينه كان هو أدنى منى إلى المسيحية .

سير جيمس : إن « نفسك » يا بول ترجع إلى الأرواح التى كان الإنسان البدائى يلقاها فى أحلامه . فلما رأى أشباح الموتى ظاهرة الانفصال من أبدانها فقد استنتج من ذلك أنه أيضاً له شبح منفصل أو نفس منفصلة . ونحن لا نزال نقول : « أسلم روحه » أو « صعدت روحه » he gave up the ghost(١) كناية عن الموت . وتدل لفظة « الروح spirit » كاللفظة الألمانية geist على

(١) هذا هو التعبير العربى المقابل للعبارة الإنجليزية « أسلم شبحه » (المترجم) .

النفس soul والشبح ghost معاً . وكان الإنسان فى قديم الزمان يؤول الأصداء والظلال على أنها روح أو قرين أو نفس للشخص ، أو ذات صلة به . ويرفض الباسوتى Basuto أن يمشى بالقرب من مجرى الماء لئلا ينقض تمساح على ظله فيأكله . ولما كان الإنسان الهمجى يرى نفسه فى النوم يصطاد ويمشى ويجرى هنا وهناك، على حين تأكد له فيما بعد أن جسمه لم يتحرك ، فقد اقتنع من ذلك أن له نفساً منفصلة (١) . وكذلك خيل إليه أن الغيبوبة والمرض والإغماء إنما هى تجرد الروح موقتاً عن البدن . ويعتقد العبيد فى غرب أفريقيا أن علة الصداع فقدان النفس ، فيرسلون ساحراً يبحث عنها فى الغابات ، فيعود وقد قبض على النفس ووضعها فى صندوق ، فينفخها من الصندوق إلى أذن المريض، وعندئذ يشفى الصداع .

كلارنس : فى إحدى قصص أناتول فرانس يقول أحد سكان بولينيزيا : « النفس نفخة ريح ، وعندما رأيت أنى على وشك الموت ضغطت على أنفى لأحفظ نفسى داخل بدنى . ولكننى لم أضغط ضغطاً كافياً . وها أنا ذا ميت »(٢).

سير جيمس : فى جزر السليبز Celebes يعلقون شصوصاً « سنانير » صيد السمك فى أنف المريض وسرته وقدميه حتى إذا حاولت نفسه الخروج اصطادها . والعطس من أخطر الأمور : إذ قد يكون من القوة بحيث يقذف بالنفس ، وهذا الشّص هو السر فى أن أحدنا إذا عطس بادر أصحابه يطلبون من الله أن ينعم عليه ، والاستعانة بالله مطلوبة بوجه خاص فى هذا المأزق . ويفرقع الهندوس إبهام أصابعهم عندما يتثاءب أحد أمامهم أملا منهم أن هذا الصنيع يحفظ نفسه من الانطلاق إلى الخارج . ويرفض كثير من البدائيين أخذ صورة شمسية لهم لئلا تصطحب الصورة أنفسهم معها — وفى هذه الحالة قد يأتى المصور ويلتهمهم على هواه (٣) .

إستر : لقد عرضت هنا فى نيويورك حديثاً تمثيلية تسمى ديباك The Dybbuk ، وكان فيها دراسة دراماتيكية للنفس المنفصلة .

---

(١) Spencer, H., Principles of sociology. vol. i, p. 286.

(٢) The Garden of Epicurus, p. 197.

(٣) Allen, p. 49 ; Frazer, pp. 178 f., 193.

سير جيمس : لقد نشأ الاعتقاد فى خلود النفس نشأة طبيعية من هذه الفكرة . ويقول هنود تسكارورا Tuscarora إن جميع الهنود الطيبين حين يموتون (كما لو لم يكونوا جميعاً طيبين عند موتهم) يصعدون إلى عالم من الأرواح بعيداً جداً بين النجوم حيث يجدون نساء حسناوات لا تلحقهن أبداً كهولة أو بدانة ، وأرضاً بهيجة للصيد زاخرة دائماً بالغزلان لا ينقص عددها مهما يكثر صيدها . أما الأشرار فيذهبون إلى مكانٍ الطعام فيه نادر وغذاؤهم على الثعابين . وبلغ الاعتقاد فى خلود النفس عند المصريين من القوة أن البيوت التى كانوا يقيمونها لإيواء الأبدان إنما هى مجرد أكواخ بالقياس إلى « منازل الأبدية » المشيدة فى أفخم حال لسكنى النفس . وفى الهند اتخذ الأمل الدائم فى الخلود هيئة التناسخ الذى انتشر غرباً حتى بلغ إيطاليا حيث نجد فى أقوال فيثاغورس : « لا تضرب هذا الكلب لأنى تعرفت فيه على صوت صديقى الذى توفى » . ومذهب نيتشه فى زماننا هذا عن « الدورة الأبدية » eternal recurrence إنما هو مظهر آخر لنظرية التناسخ يبين إلى أى حد تتشبث الفكرة بالبقاء ، حتى فى فلسفة «نصف كلبية » medicynical (١) . وتكاد توجد فكرة « جهنم » فى كل مكان ، ولكن صورتها تختلف بالنسبة إلى مايتحمله الناس من عذاب ، والذين يتصورونها مقراً لأعدائهم . أما نحن فقد جاءت إلينا فكرة « جهنم » عن اليهود الذين كانوا يقاسون من حرارة الصحراء ، ولكن الإسكيمو يعتقدون أن « جهنم »برد أبدى .

بول : يبدو أنك تعتقد أنك بما تبينه من قدم فكرة الخلود تنكر صحتها ، ومع ذلك فأنا أقبل الفكرة لنفس الأسباب تقريباً التى دفعت الهمجى لقبولها . فأنا حين أتأمل ذاتى أجد شيئاً لا يسهل التعبير عنه فى عبارات مادية . إن موت بدنى إنما سيحرر هذه الذات الجوهرية .

وليم : قد لا تكون النفس مادية يا بول ، ولكنها موقوتة ، فهى خاضعة للزمان والتغير والموت خضوع البدن . ومن الواضح أن ما نسميه « العقل Mind » مرتبط بالجسم ، والمخ ، والأعصاب . فالعقل والجسم ينموان ويفسدان معاً ،

(١) لأن مذهب نيتشه لم يكن يزدرى جميع الناس كالكلبيين ، بل العامة فقط . أما النصف الآخر من البشر ، فهو الجنس الراقى ، أو السوبرمان (المترجم) .

ويتحملان على حد سواء آثار التلف والمرض. وقد حاول وليم جيمس تفسير هذه العلاقة المتبادلة بالقول بوظيفة المخ «المحررة» permissive function of the brain وهذه حيلة بارعة لا تليق برجل تدرب على الوضوح الفرنسى . وعلى الرغم من عجائب علم الغدد مما يقول به الهواة من أصحابه فقد بيّن هذا العلم أن صلة الجسم بالعقل ليست محررة بل منظمة ، ذلك أن الحقن بخلاصة الغدة الدرقية يؤدى إلى رفع البلاهة عن مناطق بأسرها .

إن ذاتى ، أو شخصيتى ، جزء منها ثمرة ميول موروثة مرتبطة بالأفعال المنعكسة العصبية ، وجزء آخر نتيجة تجارب جسمى التى تصل إلىّ عن طريق الحواس الجسمانية ، والتى تسجل فى مخى الجسمانى كعادات وذكريات . لست أقول إن العقل أو الذاكرة هو المخ بل أقول إنهما مرتبطان معاً بالجهاز العصبى ، ويعتمدان عليه ، فلا يمكن أن يعيشا بعده . ويمكن أن تمحى الذكريات بعض الوقت أو باستمرار باستعمال الأثير أو غيره من المركبات الكيمائية . فالشيخوخة تزيل بعض مناطق الذاكرة ، وتضعف الذات بما تفعله من انحلال بعض أجزاء المخ — أكبر الظن أنها ألياف الترابط الموجودة فى السحاء . وحين تفسد أعصابى بعد الدفن تختفى باختفائها ذاتى الخاصة . لأن تميز ذاتى self عن ذاتك ، إنما هو نتيجة اختلاف الوراثة والتجارب التى تنقش على جسدى الفانى . وحتى وحدة النفس التى يجب أن يفترضها مذهب الخلود فإنها موضع شك ، ذلك أن شخصيتى فيض دائم الجريان ؛ وفى كل عقد من حياتى كنت شخصاً آخر . فأرانى اليوم مختلفاً اختلافاً تاماً عما كنت عليه وأنا صبى فى العاشرة . فأى هذه الأنفس الكثيرة العابرة هى ، أو كانت هى « نفسى » ؟ ثم إن الشخصية قد تكون مزدوجة أو متعددة . وليست نفسى إلا مركزاً أو حزمة من الارتباطات ، وليس ثمة أى ضمان أن الحزمة التى أسميها « أنا » لن تنقسم إلى حزمتين أو أكثر ، أو إلى شخصيتين متبادلتين بالأمراض أو الصدمات . أى نفس هى الخالدة نفس جيكل أو نفس هايد ؟ وحتى إذا بقيت النفس بعد فناء البدن ، فأى نفع لها ؟ أيمكن حقاً أن نتصور وجوداً لا جسمانياً ، أو نتمناه راضياً ؟ كيف تجد أى لذة ، أو تعرف أى نشوة للحب بغير جسد ؟

ماتيو : اعلم يابول أنك إذا اعتقدت فى خلود النفس فينبغى أن تمضى فى الشوط إلى نهايته وتسلم ببعث الأجساد .

بول : لا ، من الإسراف الافتراض بأن جسدى بعد أن تأكله الديدان ، ولا يبقى منه إلا عظام نخرة وخصلة شعر ، يعود مرة أخرى يوم الحساب أو قبل ذلك إلى هيئته الأصلية واتصاله الأول بملايين الملايين من الخلايا . وإذا لم نكن قادرين على تخيل أو تصور نفس بغير بدن ، فإنما ذلك لنقص فينا لا لعدم إمكان ذلك . وحتى فى علم الطبيعة توجد مئات من الأشياء كالكهرباء تبدو لى بعيدة عن التصديق بها ،ولو أننى متأكد من أنها حقيقة واقعة . وقد أثبتت البحوث الروحانية psychical research مراراً وتكراراً أن الروح يمكن أن تعيش بالفعل بعد فناء البدن . فقد جمع باحثون لا شك فى ذمتهم بأعظم عناية أدلة حاسمة اضطر إلى التسليم بها علماء كانوا فى الأصل منكرين أو متشككين مثل هيسلوب Hyslop ولمبروزو وألفرد رسل ولاس . بل لقد سلم محرر « مجلة أمريكا العلمية Scientific American» بأن مرجرى كراندون Margery Crandon كانت تحصل لها ظواهر روحية حقيقية ، وأنها تتصل بأخ لها مضى على موته زمن طويل .

وليم : إن فحص المجلة العلمية الأمريكية للسيدة كراندون انتهى إلى تقرير انقسم الرأى فيه قسمين : بيرد وكارنجتون مؤيدان ، وهوديني ومكدوجل معارضان. وقام أساتذة جامعة هارفارد فيما بعد بإجراء فحوص واختبارات كانت نتيجتها سلبية (١) . وزعم هوديني أنه يستطيع أن يقوم بإعادة أى ظاهرة روحية مقررة من جراب حيله . كان يتنقل من مدينة إلى أخرى ،ويعلن من فوق خشبة المسرح أسماء وعناوين مئات من الوسطاء ، واتهمهم معيناً أسماءهم بالنصب مع سبق الإصرار ، وتحداهم أن يقيموا عليه دعوى القذف . ومنح ١٠٫٠٠٠ دولار مكافأة لكل من يثبت الظواهر الروحية تحت شروط علمية . ولم يقبل أحد تحديه . وزعمت مدام بيبر Mrs. Piper أنها اتصلت بروح الدكتور فينويت Phinuit بعد موته ، وقام باختبارها وليم جيمس ، وسير أولفرلودج ، ومدام سدجويك — وكلهم ممن يعطفون على المباحث الروحية ، فكان تقريرهم

(١) Cf. article by Prof. Boring, Atlantic Monthly, Jan. 1926.

ضدها . وأنتم تعرفون قصة دنجلاس هوم الذى منحه براونج — إن صح هذا القول — خلوداً مؤقتاً . وتجولت إيسابيا بلادينو فى أنحاء أوربا معلنة عن مزاعم عريضة لقوى روحية . فقام باختبارها برجسون ، وكورى ومدام كورى ، وغيرهم من الذين عينهم المعهد العام الباريسى لعلم النفس . وبيّن النور الخاطف فى الجلسة (التى كانت تجرى بالضرورة فى الظلام) نضداً مرفوعاً فى الهواء ولا يعتمد على أى دعامة مرئية سوى كلام إيسابيا . وقدم العلماء المختبرون تقريرهم الذى قالوا فيه إنهم عجزوا عن كشف أى احتيال ، ولم يتمكنوا من تفسير ما قامت به السيدة من عمل . ولكنهم اختتموا التقرير باحتمال القيام بالعرض عن طريق خفة اليد أو خفة القدم . وحين جاءت مدام بلادينو إلى أمريكا سنة ١٩٠٩ فحصها منستربرج فى هارفارد ، فلما حركت قدمها لتحدث عملية الرفع أمسكها طالب بيده — مما يدل على أن الطلبة أسرع خاطراً من الأساتذة. وفى جامعة كولومبيا اختبرها البروفسور لورد وكشف الطلبة حيلتها ، وذلك بأن التقطوا صورة فوتوغرافية على ضوء المغنيسيوم على غير توقع منها ، وبينت الصورة أن السيدة كانت ترفع المائدة بيدها . وعادت إيسابيا إلى إيطاليا عام ١٩١٠ وقد انهارت دعواها تماماً (١) .

بول : نعم هناك كثير من الاحتيال . ومع ذلك فلو وجد وسيط من مائة وسيط أو مائة ألف وكان أميناً واتصل اتصالا فعلياً بالموتى أصبحت قصص الاحتيال لا قيمة لها ، وثبت خلود النفس . لا ريب أنكم لا تزعمون أن شخصاً مثل أولفرلودج كان أفاقاً . وعليكم أن تقرءوا ما روى ، فستجدون ظواهر بينات كثيرة يدهش لها العقل ، وإذا أبيتم التسليم بها كنتم كمن يضع نفسه موضع المحافظ الوجل مثل المعارضين لداروين . وكنت أظن أن روح العلم ستدفعكم إلى الشعور بأن أى شىء ممكن فى هذا العالم المملوء بالعجائب ، وبأننا لا نملك القول كيف تحدث الأمور العجيبة البعيدة عن التصديق . ثم فلتذكروا أن معرفتنا بالعقل تكاد تبدأ .

---

(١) Leuba, J.H., Belief in God and Immortality, p. 160 ; New York Times, May 12, 1910.

أندرو : إننا نعرف أكثر مما يريح بالنا . فنحن نرى أن العقل — وهو القدرة على التفكير — جزء من التطور، كالقدرة على الحركة أو الهضم أو الإحساس . ومن الواضح جداً أن عقولنا ثمرة طبيعية كأبداننا ؛ وأن النمو يتكرر عندنا فى كل فرد من الجنين المضحك إلى قمة النضج العقلى . والآن عند أى نقطة من هذه العملية التطورية دخل عنصر الخلود ؟ إذا كان الإنسان خالداً ، فالقرد خالد كذلك . وإذا كان القرد خالداً فكذلك البرغوث الموجود فى ذيله ، ولكانت الدودة باقية كالعصفور الذى يأكلها . ومن الأفكار المقلقة لنا أن تلحق بنا فى الجنة جميع الحشرات التى تضايقنا فى وقت الفراغ . ثم تأمل هذا أيضاً : ستكون جميع الطبقات والأجناس التى نبغضها موجودة هناك فى الجنة تثقل الأجواء السماوية برائحتها . وسيلتقى الصالحون من أهل كلانز برجال من كيلارنى Killarny وسيجد الأمريكان الصميمون الجنة سوقاً متعددة اللهجات كنيويورك . ستكون مكاناً شديد الزحام ولو كنا نحن أبناء هذا الجيل خالدين ، فكذلك كان أبناء سائر الأجيال . إن ألف ألف مليون من الأنفس تنتقل إلى العالم الآخر كل ثلاثين عاماً أو نحو ذلك . وما دام الناس قد وجدوا منذ بضع مئات من آلاف السنين فلا بد أن تبدو الجنة كبرودواى عند الظهر .

وليم : لاشك أن مناقشتنا عقيمة لأن الاعتقاد فى الخلود متأصل فى الفطر الخارجة عن نطاق الحجج . وهذا الاعتقاد جزء من الدافع إلى حفظ الذات . والحياة قصيرة ، و « الأنا » حلوة . فكيف يمكن أن نفنى بهذه السرعة ؟ لقد نشأت فكرة خلود النفس فى الأجواء الحارة حيث تنضج الحياة وتفسد بسرعة تجعل الاعتقاد فى حياة بعد الموت يكاد يكون ضربة لازب لاحتمال هذه الحياة . وهناك نرى حياة الفرد بأوضح من أى مكان آخر قصيرة زائلة ، وذرة فى تلك الخلية التى تسمى النوع الذى إنما هو موجة فى بحر الحياة . ونحن أيضاً ، مع أن حياتنا تمتد إلى ضعف أعمارهم طولا ، لا نرضى بالسنين المقسومة لنا ، فنثور على الموت الذى لا مناص منه ، ونتطلع إلى شباب جديد وحب آخر . لقد كان الدين قائماً ذات يوم على الخوف ، والآن يعتمد على الأمل .

أندرو : إنه لا يزال قائماً على الخوف . إننا نشتاق إلى الخلود لا لأننا نحب

الحياة بل لأننا نخشى الموت . وكثيراً ما نسأم الحياة ، ونضيق بما فيها من متاعب وعلل ، وحقائق وواجبات ، ونشعر مثل قيصر بأن حياتنا قد طالت إلى حد الكفاية . والحيوانات لا تخشى الموت لأنها ، فيما عدا لحظات عابرة تراه فيها يصيب حيواناً آخر ، لا تعرف الموت حتى يحل بها ، وعندئذ يكون وقت التفكير النظرى قد فات . فعندما أصبحت الحيوانات بشراً ، ونمت الذاكرة ، وألقتها إلى المستقبل ، عندئذ اكتشفت الموت ، واخترعت الخلود لترتاح عقولها . وأن نولد هو كما قال فكتور هوجو أن يحكم علينا بالموت مع تأجيل التنفيذ إلى أجل غير معين . والخوف من الموت هو بداية الدين .

فيليب : أما أنا فقد حصلت على إحساسى بالخلود من أننى جزء من الحياة. نحن بضعة من كل ، ويقوم خلودنا على ما نساهم به فى ذلك الكل . ليس الخلود عند أفلاطون فى السماء بل فى الذكرى العطرة للناس ، وفى الكتب التى تعلم كل ساعة ألوفاً من التلاميذ أكثر مما كان مؤلفها يعلم وهو حى . إننا نعيش فى أبنائنا وفى آثارنا ، وهذه هى بعث البدن والنفس . ولا قيمة لهذا الضرب من الخلود للفرد بعد موته ، ولكن قيمته لا تقدر بالنسبة للمجتمع ، لأن الحضارة تقوم على الاحتفاظ بأعمال الموتى . وقد يكون من الخير لنا أن نعود إلى التفكير فى الخلود كما كان الإغريق وقدماء اليهود يرونه ، لا فى ضوء ذواتنا المنفصلة بل فى ضوء الجماعة أو الجنس الذى ننتمى إليه .

كلارنس : أليس من الغريب أن نتناقش فى مسألة حلها لوكريتيوس منذ ألفى عام ؟ انظروا ماذا وجدت هنا — إنها شرح ماللوك الشاعرى على شرح لوكريتيوس لأبيقور . استمعوا إليه :

أيصبح الكون الأزلى كالعهن المنفوش
ويعود إلى صفحة المجهول نسياً منسـيا
وأنت أيها الواهن وكنت بالأمس شعلة
تحترق فى عزلتك خالداً وحيـداً خلياً

* * *

أفى أحضان الليـل هيأتك لهذا المصير
الطبيعة بالقوة الغاشمة والبطش الشـديد

تحمـــل الطفل كالمـــلاح محطم السفين
وتلقيه وهو يصيح على شـــطآن النور

* * *

ماذا هناك . إنها صيحة ، هذا كل ماهناك
لاتعرف أهى أعضاؤك أم أعضاء أخيك
بالأمس كان الطفل أقل من هذه الصيحة
وفى الغد سيكون الرجل أقل من هاتيك

* * *

من نســـيج ألياف الوليد تبرز النفس
كوردة تفتحت ورقة ورقة فى همس
تفسد أليافه . وكما تغيب عن الماء الشمس
فينفجر فقاعه كذلك يغيب من كان بالأمس

* * *

تسكن الريشة عن الحركة فوق سطح الماء
كذلك النفس فى البدن تذوب وتبهج فى هناء
ذرات فى ذرات ، تكل وتشتاق إلى الراحة
رماد فى رماد ــ آمال ومخاوف تطلب السلام (١)

ماتيو : كان ينبغى أن يكون كاثوليكياً صالحاً ليضع هذا الشرح الرائع . لاريب أنكم ترون الآن حججكم كم هى قديمة ، وكم هى مهلهلة وبالية .

كلارنس : ولكنى ظننت أن بول قد احتج بأنه ليس فى قدم الاعتقاد شىء ضد خلود النفس ؟ أما أنا فأظن أن جميع الحقائق قديمة ، وأن الشعراء والكذابون والمجانين هم وحدهم الذين يمكن أن يبتكروا . وإنى لأذكر عبارة من أقوال أناتول فرانس ، وهو آخر تلامذة أبيقور : « إن شمسنا تحملنا نحن وجميع توابعها إلى برج الجاثى constellation Hercules حيث نبلغه فى بضعة ملايين من القرون . وستموت الشمس فى هذه الرحلة ، وتموت الأرض معها » (٢) .

---

(١) Mallock, W.H., Lucretius on Life and Death, pp. 19 f.
(٢) On Life and Letters, 3rd Series, p. 210.

وسنموت نحن مع موت الأرض ، إذا قدر لنا أن نعيش بعدها حتى ذلك الحين. ألا يبدو من المضحك يا بول أن يزعم الخلود خلق مزعزع فى كوكب عابر ؟ ومع ذلك فلماذا نحرمك من إيمانك البديع ؟ إنى لأعرف أن مذهبنا يؤدى إلى نتيجة كئيبة ، وأن النفس المتعطشة لن تحمد مثل هذه الفلسفة السلبية .

بول : لاتخف ؛ إنك لم تزعجنى كثيراً . إن لحظة واحدة من التأمل الباطنى تهدم جميع ما خيل إلى حججك الظاهرة أنك مثبته . إنى أرى العقل (بين جنبىّ) فى داخلى ، وأرى أنه شىء موضوع فوق بدنى يقابله وأسمى منه . وبدنى أداة مؤقتة للعقل . وأنا لا أدرى شيئاً عن العالم الآخر — وفى هذا الصدد فأنا مثلك لا أدرى ، غير أنى إنما أقف من المعتقديْن المتكافئين الممكنيْن إلى جانب أكثرهما حثاً وتشجيعاً . إنى لمؤمن بأن ما أدركه وأشعر به — ولو أنى عاجز عن فهمه وعن رسم صور مادية أو هندسية تدركها عقولكم « المادية بالفطرة » — ليس أقل صدقاً وحقاً مما أدركه مباشرة بالحواس الظاهرة . فلو أن شخصاً عزيزاً عليك ممن تحبه أصابه الموت ، لأقبلت عليك فلسفة جديدة ، إذ يبدو لك أمراً غير معقول ، وقسوة عظيمة من « روح العالم » أن تجد وأنت إلى جوار القبر أنك لن ترى أبداً صديقك أو ابنك مرة ثانية . أما أنا فأعتقد أنى سأراهم ، وهذا الاعتقاد يغمر حياتى بضرب من السرور والصبر على المكروه لن يجد إلى قلوبكم الفارغة سبيلا . إنى لأشفق عليكم حين يصاب أحدكم بفقد المحبوب .

سيدا : أظن أنك على حق يا بول .

ماتيو : أعرف أنك على حق يا بول .

كلارنس : أرجو أن تكون على حق يا بول .

٢ — الإله الميت

إستر : لقد امتلأنا كآبة ، وأرجو أن توفقوا إلى شىء أكثر بهجة تقولونه عن الله .

سير جيمس : لا ينبغى أن تدهشى يا سيدتى إذا لم نستطع أن نقدم إليك الله الذى كنت تتوجهين إليه بصلواتك فى الطفولة . ذلك أن فكرة البشرية عن الله

فى تغير دائم . حقاً يمكن أن يدون تاريخ الإنسانية فى صيغ من تجسدات الله — نعنى الموت المتكرر لإله قديم حتى يفسح الطريق لآلهة قد تمثل أخلاقاً ومثلا عليا أرقى فى جنس يتطور . سيبلغ منك العجب مبلغه حين تطلعين على قائمة الآلهة المتعددة مما كان الإنسان يعبدها بين حين وآخر على أنها أبدية (١) . فالآلهة الكبرى تبلغ المئات ، والصغرى تبلغ الملايين . ولو أمكن للأجيال الماضية أن تعود إلى ظهر الأرض لافتضح أمرها حين تعلم أن آلهتها حتى القادرة على كل شىء والتى كانت تتقرب إليها بالصلاة إنما يعرفها اليوم علماء الأنثروبولوجيا فقط . وقد أول كل شعب فى كل عصر الله على هواه ، وكان راغباً فى الموت أو على الأقل فى القتل للدفاع عن ذلك التصور العابر . أما المؤرخ فلا يخدعه هذا القتل أو هذا الاستشهاد . فهو يعرف أنه لم تظهر فكرة سخيفة إلا وضحى بعض الناس بأنفسهم فى سبيلها ، وأنه على استعداد أن يرى الفكرة عن الله تتغير فى الحاضر والمستقبل كما تغيرت فى الماضى . وبناء على ذلك فهو لا ينزعج من التعريفات الجديدة للآلهة ، بل يرحب بمحاولة صوغ هذه الفكرة الأزلية صياغة جديدة تتسق مع معارفنا النامية . سيعتقد الناس دائماً فى الله ، لأن فكرة القوة المرتبطة بالكمال ترضى النفس وتحركها . فمن بواعث الرضا أن تكون مع القدرة الكلية على وفاق .

كان إله آبائنا آخر مرحلة فى حياة « يهوه Jehovah or Yahveh » وإنى لأعجب فى بعض الأحيان (ولو أن علم اللغة لا يؤيدنى كثيراً) هـل « يهوه » مثل « يوفيس Iovis » لا يرجع إلى « أبى السماء Dyaus-pitar or Sky-Father » عند الهندوس . ونحن نعلم أن « الأب زيوس Zeus pater » عميد أوليمبوس هو ترجمـة « لدياوس بيتار Dyaus pitar » . وكذلك جوبيتر ، فهـو « يوفيس باتر Iovis pater » . وقد غالى أصحاب مذهب فرويد فى بيان الدور الذى تلعبه صورة الأب فى صنع الآلهة (٢) . ولا ريب أن عقل الشاب يحب

---

(١) لقد رتبها مستر هـ . ل . منكن ترتيباً بديعاً فى أحد أجزاء كتابه الشائق المسمى « آراء متحيزة Prejudices » .

(٢) Cf. Freud, S., Leonardo da Vinci, p. 104 ; Jung, C.G., Analytical Psychology, p. 172. Jones, E., Papers on Psychoanalysis, p. 383.

أن يتصور العالم كبيت يرأسه أب . ولكن الأولى أن أصل فكرة الأب يرجع إلى عبادة الأسلاف ، وإلى الفكرة التى تذهب إلى أن العشائر تسلسلت عن الآلهة . وهذا التشخيص للآلهة فى هيئة الذكور هو آخر إهانة على المرأة أن تنتقم لها .

وأكبر الظن أن تشبيه الإله بصورة أو شبه للإنسان راجع إلى عبادة الأسلاف . فالله كان كالإنسان ، كل ما فى الأمر أنه أعظم وأقوى . وكما قال زينونان قبل ميلاد المسيح بستة قرون : « يتصور البشر الآلهة أنها تولد ، ولها كأنفسهم ثياب وأصوات وأبدان . . . وحتى آلهة الأحباش فإنها سمر الوجوه مفرطحة الأنوف ، وآلهة تراقيا ذات شعر ذهبى وعيون زرقاء . . . بل إن هوميروس وهزيود نسبا إلى الآلهة كل شائن ومعيب بين البشر : السرقة ، والزنا ، والغش وغير ذلك من الأفعال الخارجة على القانون . . . وحتى الثيران والأسود والخيل لو كان لها أيد ترسم بها الصور لصاغت الآلهة على هيئتها وجعلت أبدان الآلهة كأبدانها » .

هذه الشكوى من خلود آلهة أوليمبوس تكشف عن العملية التى بها تموت الآلهة : فهى تتخلف عن نمو الإنسانية الخلقى . إنها تهلك بسبب عدم تغيرها الإلهى . إن آلهة قدماء الإغريق الفاسقة السارقة الكاذبة إنما خلقها قوم كان يبدو لهم مثل هذا السلوك مشروعاً ، فقد كان العصر عصر قرصنة واغتصاب وحرب ، وكانوا يتصورون الآلهة مثال الخبرة فى هذه الأعمال القديمة . فلما تقدم الذوق الخلقى أنكر زينونان وأفلاطون هذه الآلهة الشريرة . إن الصورة التى رسمت لهم فى العصور القديمة مما تشمئز منها المشاعر التى أصبحت أرقى عند المفكرين فيما بعد . ومن سوء حظ كل حضارة أنها ترث آلهة الهمجية .

وينبغى أن نجعل فى بالنا عند النظر فى ألوهيتنا الموروثة أن يهوه ، إذا شئنا أن نفهم موته ، كان قبل كل شىء رئيس الحرب وإله الجيش ، كأى إله كانت كل أمة تعينه على جيوشها سنة ١٩١٤ . وكما أن فكرة النار كانت تعكس قسوة البدائيين ورؤسائهم المتوحشين ، كذلك فكرة الله كانت تعكس قلق الحياة القبلية فى عالم غير منظم يعيش فوق بركان من العداوة والأخطار فى كل مكان .

فلما نما النظام الاجتماعى ، وأصبحت الحياة أكثر أمناً ، والحرب أقل شيوعاً ، وأصبح الإنسان تبعاً لذلك أقل قسوة ، أصبحت الأفكار القديمة عن إله الحرب warrior-god الذى يقضى على الملايين بدخول النار بغيضة عند ذوى العقول الناضجة . فقد تطلب التنظيم الاجتماعى من الناس ونمى فيهم العادات والمثل لأخلاق تعاونية . وتفرعت بالتدريج وأكثر فأكثر عن فكرة الإله القديم فكرة ما يجب أن يكون عليه الإنسان الكامل. ولعلكم تذكرون أن جون ستيوارت مل أعلن فى شىء من المفاخرة أن مثل هذه الألوهية كما صورها اللاهوت فى العصر الوسيط إذا وجدت حقاً ، فلم يكن صاحبها إلهاً ، بل شيطاناً ، وأنه « إذا استطاع مثل ذلك الموجود أن يرسلنى إلى جهنم لأنى لا أسميه إلهاً « طيباً » ، إذن فلأذهب إلى جهنم » . لقد قلب نمو الإنسان الخلقى تصوره عن الله رأساً على عقب .

وقد نشأ هـــذا الرقى فى الطبيعة الإنسانية من ازدياد الأمن فى التموين الاقتصادى والنظام السياسى من جهة ، ومن استمرار الأخلاق المسيحية مدى ألف وتسعمائة عام من جهة أخرى . لقد كان المسيح هو الذى قتل يهوه ، فإذا بالمسيحية تقتل الإله المفروض أنه مسيحى . ولست أعتقد أن هذه الألفى السنة من التدريب الخلقى على الرغم من نزعتنا الحربية وفسادنا السياسى لم تكن عديمة الأثر فى أخلاق الإنسان . من أجل ذلك فإن ما نشهده اليوم ليس بأية حال موت المسيحية بل موت ذلك « الإله ذى اللحية القاتمة » كما سماه نيتشه ، والذى نفذ إلى المسيحية من طريق غريب ، وإلى جانبه نظام خلقى فيه تمجيد للرحمة والسلام ، ولا يتفق بأى حال مع يهوه ، بل بلغ فى النهاية من القوة الحد الذى قضى عليه . وهكذا أصبحت عقول الناس اليوم حرة لتكوين إله أفضل .

أندرو : لاريب أن أعظم مجد يبلغه الدين أن يتحطم بما يبلغه نظامه الأخلاقى من كمال . ولكن الأسباب والنتائج على حد سواء أعظم مما تصفه الآن . فمنذ اللحظة التى أعلن فيها كوبرنيق أن الأرض إنما هى ذرة من تراب فى عوالم لانهاية لها ، قضى على الإيمان القديم بالإعدام . لم يعد هناك مركز ، ولا فوق أو تحت . بل فقدت الأرض كل هيبتها ، وأصبح من المستحيل الاعتقاد بأن القوة المنظمة وراء هذا الكون الشاسع إلى غير حد قد نزلت على هذا الكوكب

واتخذت صورة إنسان يتعذب ويموت من أجل خطايا لا قيمة لها لجنس لا أهمية له . فلا غرابة أن يعد أناتول فرانس هذه الثورة الفلكية : « أعظم حادث في تاريخ الفكر بأسره »[1] . ولم يتبين العالم دفعة واحدة نتائج استبدال الفضاء الخلاء بالسماء ، ورد الكرة الأرضية والإنسان الذى يعيش على ظهرها إلى مستوى لحظات فى تاريخ النجوم . لقد أحرق برونو حياً لأنه أدرك هذه النتائج وأعلنها . ولكن « الإصلاح الدينى » مضى فى طريقه وكأن كوبرنيق وجاليليو لم يعيشا قط .

ثم جاء دارون فأتم الهدم . فكما بدد الفلكى الأرض فى غياهب الفضاء اللامتناهى ، كذلك ضيع عالم الحياة الإنسان فى لا نهائية الزمان ، فى التطور الطويل الأمد للأنواع المتحولة . فقد كان يمكن أن يعتقد المرء فى التدبير الإلهى بعد ظهور كوبرنيق ، ولكن كان ذلك مستحيلا بعد دارون . فقد أفسحت العناية الإلهية الطريق للانتخاب الطبيعى ، ونزل الحب الأزلى عن عرشه للصراع الأبدى ، وأصبحت الحرب مرة أخرى « أبا كل شيء » . وكان الناس زمان بالى Paley [2] يظنون أن كل عضو قد ركب بعناية للغرض الذى يقوم على تحقيقه . وكان كل حيوان ، قبل ظهور مذهب النباتيين قد خلق ولا ريب لتحقيق حاجات الإنسان . ولكن دارون لم يبين أن كل هذا التدبير لا محل له فحسب ، بل كشف على غير رغبته تناقض الحياة الكونية والإنسانية التى تجرى بلا خطة . وهل يمكن أن تجد شيئاً أسخف من الطريقة التى يكثر بها الإنسان نوعه ؟ إن وجود الله ينقضه كل من الحياة والموت ، فلا يعتقد فى وجوده طبيب أو قائد . وهل يمكن لخالق عاقل أن يبدع عالماً قانون الأحياء فيه كفاح لا يرحم ولا يهدأ فى سبيل البقاء ، ولا يعيش فيه إلا الهمجى والخادع والسافل ؟ إنه كفاح فى كل مكان : الإنسان للإنسان ، والقبيلة للقبيلة ، والإمبراطورية للإمبراطورية ، والنوع للنوع ، — ومن يدرى لعله فى المستقبل إذا تقدمنا بما فيه الكفاية ، كفاح كوكب لكوكب . بل اليوم تبدو النجوم مسوقة بعضها نحو بعضها الآخر بروح شيطانى يطرب للتخريب .

---

(1) On Life and Letters, 3rd Series, p. 212.

(2) وليم بالى (١٧٤٣ — ١٨٠٥) لاهوتى وفيلسوف إنجليزى (المترجم) .

أما فيما يختص بنا ، هنا تحت موطىء قدم الإله ، وموطن ابنه المحبوب ، فإن كل اختراع تنتجه عقولنا النامية يزيد فى بؤسنا ، وكل آلة تضاعف عبوديتنا. لقد تعلمنا الطيران حتى يمكن فى الحرب القادمة أن نقتل غير المحاربين بالملايين . وإنك لترى بيتهوفن وهو أكثر الناس حاجة إلى السمع يصاب بالصمم ؛ ونيتشه المحتاج إلى عينين يصبح أعمى ؛ والدكتور جونسون وعظمته إنما تقوم على الخطابة يفقد القدرة على الكلام ؛ ورينولدز المصور يفقد القدرة على استعمال يده . وقد رأيت ذات يوم امرأة مشلولة ترجع علتها إلى أنها منذ عشرين عاماً حين كانت فى شبابها وجمالها بادرت بالعوم مباشرة بعد أن لعبت مباراة فى التنس ، فانتشلت من الماء عاجزة مدى الحياة : لقد زحف سم خبيث من مفصل إلى آخر فى بدنها حتى أصبحت ترقد اليوم عاجزة عن تحريك أى عضو من أطرافها . وانتفخ وجهها من المرض ، وفسد فى جسمها كل عضو ما عدا عقلها الذى بقى صافياً حاداً ليزداد عذابها . فالعالم هو ما سماه هنرى أدامز : « لوحة صورت من العذاب ، والحزن ، والموت . طاعون ، ووباء ، وقحط . فيضان ، وجدب ، وصقيع . كوارث فى أنحاء العالم ، وحوادث فى كل ركن . قسوة ، وشذوذ ، وغباء ، وشك ، وجنون . فضيلة تولد رذيلة ، ورذيلة تعمل للخير . سعادة بلا عقل ، وأثرة بلا كسب ، وبؤس بغير سبب ، ومخاوف لا يعرف لها أصل » وتتوج الصورة بالموت جزاءً عادلا للجميع . فالحديث عن العناية الإلهية سبة للمعذبين فى الأرض (١) .

ماتيو : إنك تتحدث يا أندرو من أعماق قلبك عن الشر ، وإنى لأرجو أن تستعيد يوماً ما اعتقادك الدينى . لقد اعترفت الكنيسة دائماً بحقيقة الشر المرة . لقد كتب البابا إنوسنت الثانى رسالة عنوانها « فى تعاسة حظ الإنسان » On the Misery of the Human Lot . إن كل معتقد فى إيماننا يفترض أن هذا العالم مخلوق للعذاب . ألا ترى أن هذا هو السبب الذى يجب من أجله أن نؤمن ؟ كيف يمكن أن نحتمل العيش إذا عرفنا أن هذا العذاب لن تعوضه السعادة الأخروية ؟ إنك لم تتعلم بعد حتى درس ڤولتير : إذا لم يكن الله موجوداً فينبغى أن نخترعه .

(١) Adams, H., Mont. St. Michel and Charters, p. 370.

أندرو : إنك يا ماتيو رجل طيب ، وعندما تتجاوز بمثل هذا الصبر عن هرطقتنا ، أكاد أسلم بكل ما تقول . ولست أفخر بمعارضتك . وهرطقتى صادرة عن شخص يرجو من صميم قلبه أن يكون خصمه على صواب . ولكن كل لاهوتك يقـــوم على « خطيئة » الإنسان ، وفداء المسيح إياه . وقـد جعل التطور هذه العقائد بعيدة التصديق . لقد انهار لاهوتك عندما اختفى آدم من التاريخ . الحق كاد التاريخ أن يسىء إليكم كما أساء علم الحياة ، إذ من المستحيل أن نعتبر ارتفاع الأمم وسقوطها ، وتخريب الحرب للفنون ، وانتصار اللصوص والمتعصبين والقتلة المستمر ، دون أن نستنتج مع أناتول فرانس بأن « العالم مأساة كتبها شاعر ممتاز » — أو لعلها ملهاة من قلم « أرستوفان الإلهى » .

كلارنس : يعجبنى رد ماتيو على حملتك يا أندرو . فالشر يؤدى إلى الإيمان كما يؤدى إلى الإلحاد . فكل جندى متدين حتى يرقى إلى المؤخرة . وجميع القواد ملحدون . والعذاب الذى يدل فى نظرك على عدم وجود الله ، يدل على وجوده عند صاحب النفس التى يجب أن ترتاح . وما دام الفقر أو الموت موجوداً فسيكون هناك آلهة . إن ازدياد الثروة من أهم الأسباب فى تدهور الدين أكثر من أى سبب آخر ذكرته . فالثروة تقبر الزهد ، وتغرق المدن بألوان الترف والخلود . وحين يلعن الدين الترف والخلود يولى كل إنسان الدين ظهره ، ما عدا الذين لم يتمكنوا من أن يكونوا أشراراً .

بول : والآلة أهم من الثروة سبباً فى الإلحاد . فقد صنعت الثورة الصناعية العجائب بالآلات ، حتى أصبح الفكر الحديث لا يملك إلا أن يقرر أن الآلة هى كل شىء . لقد رأت العصور الوسطى فى الطبيعة مجد الله ، ولذلك عبدوا الطبيعة ، واجتهدوا أن يبلغوا مرتبة جمالها بالفن العظيم . والروح التجديدية modernity إنما ترى فى الطبيعة كثيراً من المادة الخام تصلح للأشياء النافعة ، فهى تقتلع الأشجار لتصنع ورق الصحف ، وتسمم الهواء والترع بالمواد الكيمائية . إنها تحيل القرية الهادئة إلى جحيم ومدينة صناعية . إنها تصنع آلات جديدة ، وتسارع إلى التحكم فى الأرض . إن فساد الاعتقاد يرجع إلى حد كبير إلى الصلف المطرد عنـــد الإنسان مع شىء قليل من ادعاء القدرة على كل شىء ، فهو

يستطيع أن يصنع كل شيء بآلاته ، فلا حاجة له بذلك إلى الله . وحين كان الناس يزرعون الأرض كانوا أكثر تواضعاً، ولعلهم كانوا أشد عمقاً ، فقد رأوا سر الحياة فى كل ماينمو على الأرض، ولم يخطر ببالهم قط أن يسموا أطفالهم آلاتاً .

كلارنس : كان سبنسر على اتفاق معك فى نصف ما تقول ، فذهب إلى أن الغيبية supernaturalism أقوى ما تكون فى المجتمعات الحربية السابقة على عصر الصناعة ، حيث كان لابد من بث روح الطاعة ، ثم ضعف ذلك المذهب بظهور الصناعة التى تنمى الذكاء وتعتمد عليه . وإنى أفترض أيضاً أن الصناعة تزعج الدين ، لأنها تحشد الناس معاً فى المدن حيث تحتك العقائد المختلفة فتتآكل حتى تموت أخيراً من التحات . هذا إلى إن الصناعة تجلب الديمقراطية ؛ فيتنازل الإله الحاكم المطلق الذى كان يعكس نظام الملكية غير المسئولة عن عرشه لديانة إله الحكم النيابى ، ثم إلى «دين الإنسانية» الذى يجلب معه عبادة الأعداد . إنك على حق يا بول : إن فى عدم اعتقادنا شيئاً كثيراً من التعاظم .

أندرو : عندما تذكر أسباب إلحادنا يجب ألاّ تنسى التربية . إن طالب الكلية اليوم يُطْرح فى معامل الطبيعة والكيمياء حيث يرى العالم ينحلّ ثم يتركب تحت بصره ، دون أن يذكر الله أمامه . إنه يدرس علم الحياة ، فيتعلم أن « التدبير الإلهى » إنما هو « التغــــــير الملائم » favorable variation ، وأن عين الإنسان رقعة غير متقنة إلى درجة أن أى طبيب عيون ، كما زعم هلمولتز ، لن يجرم بصنع مثلها ؛ كل ذلك إذا لم يكن من سوء حظ الطالب أو من حسن حظه أن ينتمى لولاية تقرر فيها المسائل العلمية بالاقتراع أو التشريع . إنه يدرس علم الإنسان والدين المقارن ، ويقرأ كتب سير جيمس ، فيرى إيمانه وعباداته فى ضوء شامل يذيب خرافاته ويضيفها إلى الآثار الباقية عن الجهل القديم . فلا غرابة أن يتهم الذين يعيشون بعقلية ما قبل الطوفان كلياتنا بأنها عش الإلحاد. نعم إنها لكذلك ، ولا حيلة لهم فى هذا .

وليم : لقد نسيتم جميعاً الحرب . لقد كانت تعين على التدين بين الفقراء ؛ ولكنها ولدت بين الموسرين الشك ، إذ من العسير الاعتقاد بأن عالماً يسير فى طريق الانتحار كان من إبداع عقل سام خير .

فيليب : مهما تكن الأسباب فمن الواضح أن الدين قد فقد سيطرته على العالم الغربى ، وأن موجة عظيمة من التحول إلى الدنيا تجرف واحـــدة بعد أخرى تلك الأوجه من الحيـــاة التى كانت تتعلق فيما مضى بالدين . هـــذه الكليات التى ذكرتها كانت إلى عهد قريب معاهد دينية يشرف عليها رجال الكنيسة . ولكن الصناعة وجدت أن الكليات فى ظل هذا الإشراف كانت تخرج فلاسفة وشعراء وخطباء ولاهوتيين بدلا من مهندسين ومعدنين وكتبة حسابات . وارتفعت عقيرة الصناعة بالشكوى . ولما تبينت الكليات أن الشاكى صاحب مال اعترفت بعدالة شكواه ، وطردت رجال الدين ، ووضعت رجال المال فى كراسى الرياسة وضيقت على معاهدهما الدينية حتى يتجه الأساتذة إلى الاشتغال بمنحة كارنيجى ، واستبدلوا الطبيعة والكيمياء بالأدب والفلسفة ، وأغرقت البلاد بالحاصلين على دبلومات فى العلوم . لقد استولى العـــلم على الجامعات من الدين .

فهذا هو منبع اتجاهنا نحو الدنيا . ومن هذا الأصل أخذ المجرى يتسع حتى كاد أن يشمل جميع ألوان الحياة . فالأيام المقدسة أصبحت أيام راحة . وأهمل ونسى القديسون الذين كانوا يضفون على التقاويم نوراً وكآبة . كانت الزراعة عبادة وطقوساً وهى اليوم جرارات وكيمياء . والقانون الذى كان فيما سبق أمر الله هو الآن وحى أعضاء الشيوخ والعمد . والدولة التى توحدت ذات يوم مع الدين ، وتوحد رئيسها مع الله ، أخذت تفصل نفسها أكثر فأكثر حتى من النصوص الحاوية الدالة على التقوى السياسية ، بل إن الدولة لن تتنازل حتى لتستأجر الدين كرجل الأمن [1] . إن حكومتنا مسيحية فى « عيد الشكر » ؛ ولكنها تعوض عن ذلك بقية العام . وتفصل الجمهورية التركية عن الديانة الإسلامية ، ولا تجد إلا نصف الجرائد التركية الأمر من الأهمية بحيث يستحق الذكر [2] .

حقاً فى كثير من الجماعات وفى دوائر لاشك فى تحرر عقول أصحابها ، لا تزال تعيش خرافات باطلة ومعتقدات غير معقولة ، ولكنها إلى جانب الطقوس

---

(1) Adams, B., The Laws of Civilisation and Decay, p. 293.

(2) New York Times, Apr. 12, 1928.

المنكرة والمعتقدات العجيبة التى سادت فى الزمن القديم معقولة ولا ضرر منها .
وازن بين أوربا الغربية والشرق تدرك مدى إقبالنا على الدنيا . يقول جيبون إن «أوائل المسيحيين كانوا يشعرون أو كانوا يتخيلون وجود شياطين لا تنفك تهجم عليهم ، ورؤى تظهر لهم ، ونبوات تهديهم ، ثم ينجون بأعجوبة من الخطر والمرض بل من الموت نفسه بالتوسل بالكنيسة » (١) . فكم بقى من ذلك اليوم ؟
إن تاريخ الحضـــارة نفسه هو تاريخ الإقبال على الدنيا (٢) secularisation
إن العظات التى نسمعها لم تعد تخبرنا عن رؤى وشياطين ونبوات . وهجر الناس الحديث عن النار والصراط بل والمعجزات . ذلك أن كل شىء آخذ فى التعقيل ، واللاهوت وقد أخذ يفقد حرارته القديمة أصبح مزيجاً مهذباً من الفلسفة والأخلاق. ولكن الأخلاق التى كانت فى الماضى ملك الكنيسة الخاص انحلت اليوم عن رباط الكنيسة والدولة معاً . واضمحلت الجزاءات الأخروية القديمة ، وانعدم الشعور بالخطيئة . لم يعد المثل الأعلى الأخلاقى الذى كنا نعتنقه فى الشباب فضيلة بل حذراً .

أندرو : معى الآن بعض الإحصاءات تناسب المقام . أولا تقرير من شارلس بوث يبين أن ٧٥ ./. من سكان لندن لا يحضرون أبداً فى داخل الكنيسة — ثانياً ، يقول تين إنه حتى سنة ١٨٩٠ ، فى باريس ، ومن سكانها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ من الكاثوليك لا يؤدى فريضة الفصح إلا ١٠٠٫٠٠٠ فقط ، مع أن هـــذه الفريضة أقدس الواجبات الدينية مدى العام. وأنه من بين ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كاثوليكى فى فرنسا لا يتقدم إلى الاعتراف إلا ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فقط (٣) . أصبح الدين فى الدول اللاتينية صفة جنسية ثانوية للنساء . ولا يحتفظ بالكاتدرائيات فى فرنسا من أجل العبادة بل لاستقبال السواح ، فهم الذين يعينونها مالياً لا المصلون — ثالثاً : تبين من استفتاء أرسل إلى قراء جريدة ديلى نيوز فى لندن أن ٣٠ ./. من القراء ملحدون . وأن ٤٥ ./. ينكرون ألوهية المسيح ، وأن ٦٠ ./. ينكرون الصحة التاريخية لسفر التكوين . وأرسل الاستفتاء ذاته إلى قراء جريدتى الأمة وأثينايوم

(١) Decline and Fall of the Roman Empire, vol. i, p. 461.
(٢) Shotwell, p. 9.
(٣) The Modern Régime, vol. ii, pp. 132-3.

فى لندن فاتضح أن ٥٠ ٪ من هؤلاء المثقفين لادينيون ، ومن بين ١٠٨٨١ من الذين أجابوا لم يؤمن بصحة الأسفار الخمسة إلا ٨٨ فقط (١) — رابعاً : إحصاء أجرته جريدة « العالم » فى نيويورك تبين منه أن : ٧٫٥٠٠ متدينون ، ٢٩٢٤ لادينيون ؛ ٦٢٩٢ مؤمنون بخلود النفس ، ٣٩٥٤ غير مؤمنين بخلود النفس ؛ ٦٣٢٧ مؤمنون بالصلاة ، ٤٠٦٣ غير مؤمنين بالصلاة ؛ ٥٥٥٦ مؤمنون بنزول الإنجيل ، ٤٦١٤ غير مؤمنين ؛ ٤٩٥١ يمارسون عبادات دينية خاصة ، ٥٣٨٨ لا يمارسونها ؛ ٢٦٨٤ يتعبدون مع أسرهم فى البيت ، ٧٣٢٠ لا يتعبدون مع أحد (٢) . وهذه الأرقام خاصة بمدينة نيويورك ؛ ولاريب أن نسبة المؤمنين إلى غير المؤمنين كانت تكون أعظم إذا كان الإحصاء عاماً فى جميع أنحاء البلاد ، أو كانت الإجابات من الأميين كما سئل المثقفون .

كلارنس : لقد كانت كلماتك الأخيرة القليلة أسوأ الكلمات . أما بالنسبة للمسيحية فالموقف أسوأ حتى مما تشير إليه هذه الأرقام ، لأن كثيراً من الإجابات الموافقة جاءت من فرق وشيع ليست معدودة مسيحية فى العادة ، مثل (المتصوفة الدينيين) الثيوسوفست theo ophists . وفى أمريكا يوجد حول أربعين مليوناً يذهبون إلى الكنيسة ، أما الباقى فلا يبرحون الفراش حتى الظهر يوم الراحة كل أسبوع . وجميع الدلائل تدل على أن المسيحية تجتاز نفس الانهيار السريع الذى أصاب ديانة الإغريق القديمة بعد ظهور السفسطائيين و «التنوير الإغريقى» . كان ڤولتير مثل بروتاجوراس ، وديدرو مثل دمقريطس ، وكانط مثل أفلاطون ، وسبنسر مثل أرسطو ، وأناتول فرانس مثل إبيقور . إننا نعيش فى عصر غروب الآلهة .

٣ — وظيفة الدين

بول : إن فى صوتك يا كلارنس نغمة حزينة . إنك لا تقل تديناً عن أى واحد منا ، ولكن عقلك المفكك الذى تثق به هذه الثقة هو الذى يمنعك من الاعتقاد . أواثق أنت من أن حكم منطقك أصح من إحساس قلبك ؟ هل علوم الفلك والطبيعة والبيولوجيا من الثقة بحيث يكون من الحكمة السماح لها بتحطيم الآمال التى أبقت على حياة الكثيرين ؟

(١) New York Sun. Sep. 13, 1926.

(٢) New York World, Dec. 16, 1926.

كلارنس : إنى أعرف مقدار ما يمكن أن يكون فى الإيمان من عزاء. لى عم شيخ يعيش فى الجبل ويبلغ من العمر التسعين. كان يعمل فى مزرعته حتى لم تعد قدماه تقويان على حمله. والآن يجلس إلى جوار الموقد فى المطبخ طول النهار هادئاً مبتهجاً يرقب الموت. وفى بعض الأحيان يقول: «لم أكن عبداً سيئاً، ولو أنى ارتكبت بعض الأعمال الخسيسة مرة أو مرتين فى حياتى. فليكن، إن الله سيغفر لى. إنه طيب». وتجلس إلى جواره زوجته العجوز تقرأ الكتاب المقدس فى المساء، وهى تلتهم بسعادة عظيمة كل كلمة للمسيح، وكل وعد بالنعمة المقبلة. لم يخطر ببالى أن ألقى الشكوك حول مثل هذه الآمال. لم لا يتعزيان؟ وفى القرية عند سفح الجبل كنيسة صغيرة يذهبان إليها — كنيسة نظيفة، بيضاء، كريمة. وأظن أن برجها المتواضع قد أخذ بيد مئات الألوف من الأنفس. وتقع المدافن خلف الكنيسة حيث تجد فوق كل قبر ملاكا لطيفاً أو صليباً مرجواً، وجميع الكتابات المنقوشة تبشر الميت بلقاء المسيح. انظر كيف يأمل الشعب. إنى أسلم لك يا پول بأن العالم يكون أبدع إذا كان هؤلاء البسطاء على صواب.

أندرو : إنك عاطفى جداً يا كلارنس، فأنت تسمح لماتيو أن يخبرك كم جلب الأمل فى السماء للناس السعادة. ولكنك لم تذكره بالرعب الذى أنزلته الكنيسة على ملايين القلوب بتبشيرها بالعقاب الأبدى فى نار جهنم وبئس المصير (هكذا يؤكد لنا الكتاب المقدس). ولم تذكره بالمرارة التى جرعها الدين لحياة الإنسان: هذه الأسر التى مزقها التعصب والاختلافات المؤسفة؛ الأمم التى سيقت إلى الحرب لنصر العقيدة، والرجال والنساء الذين احتفل بحرقهم، لئلا ينكشف أمر الكتاب المنزل أو الكنيسة المعصومة بقليل من الهرطقة الخاصة. إنك تذكرنى بعبارة قالها شبنجلر: الإلحاد متفق تماماً مع الرغبة التواقة إلى التدين الحقيقى — ومن هذا الوجه فهو يشبه مذهب الرومانسية الذى يستعيد كذلك ما ذهب إلى غير رجعة [1]. وقد امتلأ العقدان الأولان من هذا القرن بكثير من الملحدين المتدينين، مثل أناتول فرانس، جورج مور، جورج سنتايانا — النادبون الرومانتيكيون لإيمانهم الميت. كانوا عصر انتقال، أما أبناؤهم فلا يشعرون

(١) Decline of the West, vol. i, p. 408.

كما شعروا به ، ولن يعرف أحفادهم هذا الشوق على الإطلاق . ولو أمكننا أن نعوّد البشرية نسيان فكرة الخلود جيلين أو ثلاثة أجيال لزالت هذه الكآبة الشعرية .

وليم : لست أظن ذلك يا أندرو ، لأن الاعتقاد أمر طبيعي ، وهو ينشأ مباشرة من الحاجات الفطرية والعاطفية — من التعطش إلى حفظ الذات ، والثواب ، والصحبة ، والأمن ، بل والخضوع . وفي بعض الأحيان يغمرنا الشكر على النعمة حتى لنود أن يكون « لروح العالم » آذان يسمع بها آيات شكرنا . ويقول نيتشه إن الطريقة التي تنقلب بها المصائب حظوظاً حسنة أغرته بالاعتقاد في الله (١) . ولك أن تكتم أنفاس الدين قرناً من الزمان ، ثم اكشف عنه بعد ذلك الغطاء تجد الدين ينمو من جديد قبل مرور عام واحد . ذلك أن الاعتقاد طبيعي أكثر من الشك ، وهو من أجل ذلك أيسر . والشك يبعث على التوقف والضيق . والإيمان يدفع إلى البسط ، ويحسن الشهية والدورة الدموية . وكل متشكك يشكو من معدته . ومن ثم كان التفاؤل وهو صورة من الإيمان أكثر انتشاراً وتلقائية من التشاؤم الذي هو صورة من الشك . ومعظم الكتاب المحبوبين كما قال نابليون « باحثون في الأمل » . والشك مشغلة وعمل ، والإنسان كسول . ومن الناحية العقلية تؤدي الأقلية معظم العمل أما الجماهير فطفيليات . القويّ وحده هو الذي يستطيع أن يشك ، إذ لا يُجْهد أكثر من الشك .

ماتيو : هناك منبع آخر للدين نسيت أن تذكره ، وذلك هو الروح الشعري في الإنسان . فالدين لم ينزع عن الموت ما فيه من ألم فقط ، بل ملأ الحياة جمالا بالطقوس ، والبناء ، والنحت ، والنقش ، والدراما ، والموسيقى . فقد رفع أحداث الروتين في حياة الإنسان ، من الولادة إلى الزواج ثم الموت ، إلى مستوى السر المقدس ، وجعل من هذه الأمور العادية تجارب مقدسة ، ومد جذورها في النفس بالشعور ، وخيَّلها للناس بالفن . لقد بدل مأساة الحياة الحقيرة إلى رحلة شاعرية يحج فيها المرء إلى نهاية شريفة . وبغير الدين تصبح الحياة سخيفة وضيعة كبدن بغير نفس . إني لأعجب أحياناً كيف يشعر الملحد مساء أيام الأحد عندما تدق أجراس الكنيسة — ألا يغمره شعور قوي بالوحدة ؟

Joyful Widsom, § 277. (١)

إن يوم الأحد كأى يوم آخر بالنسبة إليك يا أندرو أنت وكلارنس . ومع ذلك لن تغنى جميع حفلاتكم الموسيقية ومسارحكم عن القداس فى كنيسة سان باتريك أو سان توماس صباح الأحد .

آندرو : مرحى مرحى يا ماتيو ، أخبرنا عن الحقيقة ، إنك تتحرق شوقاً إلى الذهاب إلى الكنيسة .

ماتيو : لعلى أحياناً . ولكنى فى أوقات الصفاء أعرف أن تمضية ساعة فى الكنيسة تشد أزرى طول الأسبوع وتشع فى حياتى ألواناً من البهجة . ومن ناحية أخرى ما أفرغ عيد الميلاد عندكم . إنى لأذكر كيف كانت أسرتنا كلها فى ليلة عيد الميلاد تركع أمام الكراسى فى حجرة الطعام وهى تتلو جماعة تسابيح الصلاة . لازلت أسمع أبى يقول « أبانا » و« السلام لك يا مريم » بصوت رخيم وبغير تعجل . ثم صباح اليوم التالى القربان المقدس Holy Communion ، والقداس الكبير . كنت تجد كل شخص مشرقاً ومرحاً ، والثلج ناصع البياض ، مع رنين الأجراس ، وأشجار عيد الميلاد المتلألئة . والصغار سعداء بتلقى الهدايا ، والكبار أكثر سعادة بتقديمها . وفى عيد رأس السنة كنا نركع جميعاً أمام والدى ، الأطفال والشبان على السواء ، نطلب بركته . تلك كانت أسر فى ذلك الزمان . فلا عجب أن تضمحل الأسرة ، وأن تستشرى الجريمة بعد أن مات التبجيل .

كلارنس : يقول أحد أصدقائى الأعزاء إن ثمة أربع مراحل من النمو لفهم الدين : الأولى يسميها الاعتقاد العاطفى ، والثانية الاعتقاد الميتافيزيقى ، والثالثة التجرد المطلق من الوهم ، والرابعة الإدراك الذوقى (١) . إنى لأود أن أكون معك يا ماتيو فى هذه المرحلة الرابعة . ولكن المشكلة هى أنك تأخذ هذا كله حرفياً .

ماتيو : يجب أن نقبلها بحرفيتها وإلا بدت كتمثيلية هزلية آثمة . وكيف يمكن أن تكون جميلة إلا تكن صادقة ؟

بول : لقد بينت وجهاً واحداً فقط من وظيفة الدين الهامة يا ماتيو . لقد تحدثت عن قيمته بالنسبة للفرد ، ولكن قيمته بالنسبة للمجتمع لا تقل أهمية . إن الاحتفال الدينى بالزواج لم يعظم هذا الحادث فى نظر الشريكين المرتبطين

---

(١) Powys, J.C., The Religion of a Sceptic.

فقط ؛ بل ربطهما برباط وثيق من الزواج الذى يقوم على عمق العاطفة والخشية مما يضفيه الدين على ذلك الأمر الذى بغيره إنما يكون مجرد إباحة للمضاجعة . وقد أدى الدين بهذه السبل إلى استقرار الأسرة وإلى استقرار الدولة تبعاً لذلك . وأينما وجهت نظرك فى حياة الإنسان الجارية رأيت الغرائز الفردية أقوى من الغرائز الاجتماعية . والغريزة التناسلية وهى أقواها جميعاً ليست بالضرورة اجتماعية ، وقد تؤدى إلى التفكك والفوضى كما هى الحال اليوم . ووظيفة الدين الكبرى ، بما فيه من أسرار مقدسة ، وتعاليم خلقية ، ووعد بالجنة . . .

أندرو : لابد أن أذكرك مرة أخرى بأن تضيف الخوف من النار .

بول : . . . أن يدعم دوافع الإيثار ، أو إن شئت فقل دوافع المعاونة والتعاون ، لتقاوم دوافع الأثرة القديمة التى ربيت فى أحضان آلاف من السنين من الكفاح فى سبيل البقاء فيحارب ويظفر ويأكل ويسود . ولست أعتقد فى وجود جهنم ، ولكنى أعتقد أن الفكرة عنها قد باعدت بين كثير من الناس وبين ارتكاب الشر . والذى أراه أن الشاب حين يكتشف أن جهنم لا وجود لها فإنه لا يحفل بشىء . ووظيفة الأخلاق أن تمثل الكل فى مقابل الجزء والمستقبل فى مقابل الحاضر ، وهذا بالضبط ما يسعى الدين إلى عمله . الدين كما يقول هوفدنج هو الاحتفاظ بالقيم . وبغير الجزاءات الدينية تصبح الأخلاق مجرد تقدير ، فيختفى الإحساس بالواجب ، ويقف كل شاب جميع ذكائه وعلمه على التحايل على الوصايا .

فيليب : لاريب أن الدين كان أعظم قوة فى التاريخ هذبت توحش الإنسان قبل ظهور المدارس . وذهب بنيامين كيد K dd إلى أن جميع الحضارات قامت على أساس الجزاءات الأخروية التى قدمها الدين للأخلاق . وكان تارد يعتقد أن الحياة الشريفة عند بعض الملحدين ترجع إلى الأثر المستمر لتربيتهم الدينية — وهو ما سماه كارليل «النور اللاحق » Nach:che.n للمسيحية . وهذا هو الذى أشار إليه رينان حين كتب عبارته المشهورة : « إننا نعيش على ظل لظل . فعلى أى شىء سيعيش الناس بعدنا ؟ » — كيف يتحكمون فى شهواتهم ، ودوافعهم إلى الكذب والسرقة والقتل حين يختفى حتى هـذا « النور اللاحق »

لعقيدة على فراش الموت ؟ . ويختتم رينان كلامه قائلا : « الدين وهم لا غنى عنه »[1] وقد كتب دستوفسكى أعظم قصص فى العالم ليبين كيف أصبح الإنسان « متلبساً » بالشياطين حين هجر الله . فلا غرابة أن الدولة حتى زمان الثورة الفرنسية والأمريكية كانت تربط نفسها دائماً بدين من الأديان ، وكانت تمنحه معونة مالية وحربية فى نظير حمايته الأخلاق . ويرجع العداء الحديث بين الكنيسة والدولة إلى أن المسيحية أصبحت ديانة عالمية لا وطنية ، فأصبحت الكنيسة فى علاقاتها بالحكومات سيدة لا تابعة ، واضطرت كل دولة حديثة كى توطد سيادتها إلى أن تحارب سلطة الكنيسة . هذا الانتقال فى الحكم من مبدإ التأنيث إلى مبدإ التذكير ظاهرة نادرة أكبر الظن أن عهدها لن يطول .

يقول فلوطارخس فى بعض كتبه : « قد يكون قيام مدينة بغير أرض تملكها أيسر من قيام دولة بغير اعتقاد فى الله[2] . وزعم بيل Bayle أن قيام دولة لا دينية أمر عملى تماماً ، ولكن ڤولتير رأى أن بيل إذا عين حاكماً على ستمائة فلاح لبشر بينهم فى الحال بالعقاب الدينى[3] . وكان نابليون يظن أن أعظم معجزات المسيحية أنها حجزت الفقراء عن قتل الأغنياء ، وفى ذلك يقول : « لو لم يوجد البابا لكنت اخترعته »[4] . ولا نزاع فى أن الدين المشترك يهب الأمة وحدة وحمية يجعلان من أهلها جنوداً أقوياء . ويكفى أن نتأمل المسلمين واليابانيين .

أندرو : فى ضرورة الدين المزعومة للحكومة والأخلاق كثير من الهراء . فهذا الأسقف سويفت Dean Swift الذى لابد أنه كان يعرف الدين معرفة جيدة يقول إن عندنا من الدين ما يكفى ليجعلنا نكره ، ولكن ليس ما يكفى أن يحب أحدنا الآخر . والدين يؤدى إلى الفاقة كما يؤدى إلى الوحدة ، وما عليك إلا أن تذكر انتخابات سنة ١٩٢٨ . ولاحظ أخيراً أحد الإيرلنديين — أكبر الظن بغير رخصة من الكنيسة — بأن : « الدين علة شقائنا ، فبعضنا بروتستانتى

(١) History of the People of Israel, vol. v, p. 92.

(٢) In Bluntschli, Theory of the State, p. 287.

(٣) Lange, History of Materialism, vol. ii, p. 17.

(٤) Todd, op. cit., p. 434.

والبعض الآخر كاثوليكى . ولو كنا جميعاً لادينيين لعشنا معاً كمسيحيين »[1] .

أما الذى تسميه وحدة ، فأنا أسميه ركوداً . فالوحدة التى يعطيها الدين للناس هى وحدة التقاليد ، وهى طاعة لاشك فيها ، وأمثل صورة لها عبادة الأسلاف فى الشرق . أما أن الدين يهذب توحش الإنسان ويؤدى إلى بناء الأخلاق فكيف تفسر التضحية بالإنسان فى العقائد القديمة ، والدفاع عن الرق ، والأمر الواقع status quo فى الكنيسة الحديثة ؟ لقد رفض هيوم منذ زمن طويل فكرة الدين هذه من أنها أم الأخلاق أو أساسها . فقد ظهر الدين بعد الأخلاق بزمن طويل. فإذا كان هناك أية علاقة بينهما فذلك أن الأخلاق لأنها تهذب بالتربية والأمن تؤثر فى الدين أثراً مهذباً . لقد قالها سومنر بشجاعة : « لم تكن الكنيسة قط فى مستوى التقاليد Mores الراقية فى أى عصر . فكل بحث نجريه يؤدى بنا لا إلى أن الكنيسة كانت الملهم والقائد بل إلى اختلاف رسل الحق ، وإلى التقلب العظيم فى التقاليد Mores »[2] .

ماتيو : ولكن أليس من الواضح لكل إنسان أن اضمحلال الاعتقاد الدينى قد أدى إلى انهيار خطير فى الأخلاق ؟ انظر إلى ما عندنا من عربدة ، وإباحية جنسية ، وأدب مكشوف ، ومآسى العرى وحب العرض ، أتجدها بين أبناء وبنات الكنيسة المخلصين ، أم بين النفوس « المتحررة » ؟ لقد أدت الداروينية إلى الجبرية والتشاؤم وإلى أبيقورية كئيبة . يتحدث توماس هاردى عن « الكآبة المزمنة الآخذة فى الاستيلاء على الشعوب المتحضرة مع زوال الاعتقاد فى سلطة خيرة »[3] — فأى عالم أوثق من هذا تود سؤاله ؟ إنه جيل مكتئب ، وما فيه من بهجة إنما هو محاولة لنسيان فراغ القلب بإطعام الفم . وأنت تعرف القول المأثور : الدين عند مهد كل أمة ، والفلسفة عند لحدها .

فيليب : وقال نابليون : « الفيلسوف الصالح مواطن فاسد » .

ماتيو : ولا يمكن أن يكون المواطن الفاسد فيلسوفاً صالحاً ، فلا أحد يحب وطنه لا يحرك ساكناً فى الوقت الذى يحطم فيه علم سطحى ومؤقت الدين

(١) The Arbitrator, May, 1922.

(٢) Todd, p. 428.

(٣) Hardy, T., Tess of the d'Urbervilles, p. 133.

الذى شيد حضارتنا وأخلاقنا . إلى متى تستطيع أوربا اللادينية الآخذة فى الانحلال إلى دويلات محبة لذاتها — دويلات صغيرة ، طبقات ذات مصالح ، جشعية فردية — تستطيع أن تتماسك إزاء شرق يتقوى بالصناعة أو يلهم بالاعتقاد الدينى؟ كيف تستطيع أن تمنع البؤس واليأس من أن يملأ كل قلب إذا أنكرت فى تعاليمك أعز الآمال التى عرفها الإنسان ؟ اسمع : هذا كتاب يكاد يرجع إلى قرن مضى — اعترافات طفل فى هذا القرن ؛ وسترى فى بدايته سؤالا يطرحه دى موسيه لن تجد له أى جواب :

« عندئذ قال خصوم المسيح للرجل الفقير : إنك تنتظر صابراً إلى يوم العدل : لن يكون هناك عدل . وتنتظر الحياة الآخرة لتنتقم : وليست هناك حياة أخرى . وتجمع دموعك ودموع أسرتك وصياح أبنائك وعويل نسائك وتضع هذا كله تحت أقدام الله ساعة الموت : ولا يوجد إله » .

ثم لاشك أن الرجل المسكين جفف دموعه وطلب إلى زوجته أن تكف عن نهنهتها ، وأبنائه أن يلحقوا به ، ووقف على الأرض فى قوة ثور ، ثم قال للغنى : « أنت يا من ظلمتنى إنما أنت مجرد إنسان » وللقسيس : « أنت يا من عزيتنى ، لقد كذبت » . وكان ذلك بالضبط ما أراده خصوم المسيح . لعلهم ظنوا أن هذه هى السبيل لبلوغ الإنسان السعادة ، أن يطلقوه ليظفر بالحرية .

ولكن إذا كان الرجل المسكين قد اقتنع بأن القساوسة قد خدعوه ، وأن الأغنياء قد سرقوه ، وأن كل إنسان له حق ، وأن كل خير فهو من هذا العالم ، وأن البؤس شقاء ، وإذا اعتقد المسكين فى نفسه ووثق بقوة ذراعيه فقال لنفسه ذات يوم : « الحرب على الأغنياء . أما أنا فلأكن سعيداً هنا فى هذه الحياة ما دامت الآخرة لا وجود لها . الأرض لى ، ما دامت السماء خلاء . هى لى وللجميع ما دام الجميع سواء » . وأنتم أيها المفكرون الأجلاء الذين قدتموه إلى هذا المصير ، ماذا أنتم قائلون له إذا انهزم ؟ [1] » .

ألا ترى أن إحدى الوظائف العميقة للكنيسة هى تعزية الضعيف فى خضوعه الذى لا غنى عنه للقوى ؟ إنك تعلم الضعيف الثورة . أفلا تعرف أنه فى صراعه

---

(1) Musset, A.de., Confessions of a Child of the Century, p. 21.

مع الغنى الماهر القوى المحرر من الضمير سيكون مقضياً عليه بالانهزام ؟ إنك تنتزع الله من الفقراء وتمنحهم الحرية ، ولكن كيف تنال الحرية بغير معرفة وقوة ؟ ماذا أنت قائل لهؤلاء القوم حين ينهزمون ، وحين تلطخ الثورة الشوارع بدمائهم ، وحين يجلب لهم الكفاح فى سبيل العيش ، وبقاء الأقوى ، وإرادة السلطان ، طغاة جدداً بدلا من القدماء ؟

فيليب : من الممكن جداً أن ينهار المجتمع الذى نعيش فيه بانحلال الجزاءات الأخروية التى كانت مرتبطة بنظامها الأخلاقى . وأكبر الظن أن العلم سيكون عاجزاً عن اتخاذ مكان ما حطمه بشدة . ولست أعرف حلا سوى الثقة بانتشار المعرفة .

ماتيو : ولكن قليلا من المعرفة شىء خطر ، وليس لدى الناس من الوقت إلا ما يكفى لهذا القليل . أما التعليم الذى وضعت فيه ثقتك فإنما هو آلة تقلب الرجال والنساء أشراراً عامدين .

فيليب : نعم ، نحن نجتاز الآن مرحلة المعرفة القليلة ، ولكننا سنتقدم إلى الأمام ، وسترتفع المعرفة فى المستقبل إلى حكمة ، على الأقل عند قادة الشعب . وعندئذ يكون سقراط على صواب : فالأخلاق الوحيدة الثابتة ، والأخلاق الوحيدة الآمنة من موت الأديان والعقائد المحققة ، هى أخلاق الحكمة والعقل . وإذا لم نستطع أن نثق بالتعليم فلن نبلغ الحق فى أى شىء .

ماتيو : سيرتفع بعضكم إلى فضائل الرواقيين الوثنية ، وسيأكل معظمكم ، ويشرب ، ويطلق زوجته . ولعل البشرية بعد جيل أو جيلين ترى المصير الذى يقوده إليها الإلحاد ، وتمتلىء الكنائس مرة أخرى — حتى كنائسك يا بول التى تنافس الآن نياجارا — إننا ننسى أن قلة قليلة فقط هى التى تأثرت بالإلحاد ، فيوجد حولنا فى كل مكان كثير من البسطاء الذين يعبدون الله . وحين ينتهى أجلكم جميعاً أيها السادة ستظل الكنيسة تقوم بعملها أقوى وأبر من أى وقت مضى ، معلمة أبناءها الرحمة والولاء ، مقوية قلوبهم بمُثُل القداسة ، ومعزية إياهم عن شرور الحياة ويقين الموت المظلم . سينساكم العالم كما نسى ديمقريطس ولوكريتيوس ، ويرجع إلى المسيح .

كلارنس : من الراجح جداً .

٤ ـ الإله الجديد

بول : عندما أصغى إليك يا ماتيو أكاد أتحول إلى كنيستك . ولكنى لا أظن أن المستقبل فى جانبك . فكلما رفع التعليم المستوى العقلى للجنس سيعرف الناس كيف يميزون وهم أكثر عزماً بين الجمال والحق . وإذا وجب ألا تصبح المسيحية وقفاً على تعزية الجهلاء فقط فينبغى لهـا أن تبنى معابدها داخل العالم الذى كشف كوبرنيق وداروں . ولعل هذه السنين من البلايا التى أصابت الدين هى أعظم نعمة له ، إذ يجب أن نعيد اليوم صياغة إيماننا فى عبارات أرحب ، وأن نتصور إلهاً جديراً بالكون الجديد الذى اكتشفناه . «وسعوا الله» Elargissez Dieu هكذا قال ديدرو الملحد [١] . وقد كان على صواب ، إذ يجب أن نوسع فكرة الله .

« إن مهمة الدين العظيمة التالية » كما قال لورد مورلى « أن نخلق ديناً جديداً للإنسانية » . لن يختفى الدين ، فسنستمر فى البحث عن شىء أعظم من أنفسنا يمكن أن نعبده . سيستمر الناس فى البحث عن تفسير متماسك للعالم ــ وهذه هى الفلسفة ؛ وسيستمرون فى نفخ ذلك التفسير بالشعور ليبعثوه حياً ــ وهذا هو الدين . سيستمرون فى التطلع إلى الاتحاد والتعاون مع الكل الذين هم منه أجزاء تافهة منفصلة . وهذه النظرة الشاملة التى تكون فلسفة وحقاً حين تكون فكرية فقط ، تصبح جوهر الدين وسره حين تتغذى بعبادة الكل . وقد يمكن بمثل هذه الصياغة أن نجمع بين العلم والدين مرة أخرى فى النفس الواحدة ، كما جمع بينهما ليوناردو وسبينوزا وجوته .

آرييل : أخبرنا كيف يكون ذلك يا بول .

بول : الله الذى أعتقد فيه هو أقدم الآلهة ــ إنه « المانا » أو « المانيتو » عند البدائيين ، ذلك البحر من الحياة أو الروح الذى منه تستمد جميع الكائنات الحية وجودها . الله حياة . الله هو الحيوية الخالقة للعالم ، أو هو بعبارة القديس توماس « فعل خالص Actus Purus » . وحيثما تعمقت فى سَبْر هذا الأمر وقعت على هذه القوة الحافزة المولدة ــ « هى دائماً وعلى الدوام الدافع المولد فى العالم » . وقد شعر كل مفكر عميق من هرقليطس إلى هافلوك إليس بحياة باطنة

(١) Morley, J., Diderot and the French Encyclopedists, vol. i p. 128.

حتى فى أشد الكائنات غير المتحركة سكوناً . يقول إليس : « إنه عالم مماوء بحياة لا نهاية لها . فما الذى كشف لنا عن ذلك الأمر ؟ إنه العلم . العلم الذى كنا نظن أنه سلبنا كل خير وجميل — العلم هو الذى بيّن لنا ذلك » [1] .

نعم ، علم الطبيعة وعلم الحياة هما اللذان سيقدمان لنا الإله الجديد . علم الطبيعة الذى يجد حيوية زاخرة فى كل ذرة ، وعلم الحياة الذى يبين لنا معجزة النمو الدائمة البقاء . وبعد فقد كان الدين على حق : إن أعلى حقيقة فى العالم هى القوة الخالقة ، تلك الحياة التى بدونها ، كما قال سبينوزا ، لا يتصور أو يمكن أن يتصور شيء . وكان سبينوزا على حق فى قوله : « كل شيء حى بدرجة ما » . وكان شوبنهور ونيتشه على حق فى قولها : إن وراء « المادة » توجد الإرادة . وكان هيجل على حق : الله هو تلك العملية من النمو التى تتحول فيها كل مرحلة إلى نقيضة باطنة — إلى انقسام فتيلى mitotic — يؤدى إلى نمو أعظم . وكان أرسطو على حق : فى كل شيء هذا الدافع الغريب إلى النمو والكمال ، وإلى تحقيق كل إمكان ملازم . وكان برجسون على حق : فى الحياة والاختيار تتكشف سر الحقيقة الباطنة . ولكن برجسون كان على خطأ ، إذ ليس بين المادة والحياة عداء ، وليست المادة عدو الحياة بل صورتها والهيئة الخارجية لتلك القوة الباطنية . الحياة هى الطبيعة الخالقة Natura naturans التى قال بها المدرسيون وسبينوزا ؛ إنها الكمال الأول كما يقول أرسطو ، والذى به يسعى إلى بلوغ تمامه الطبيعى ؛ إنها « الرغبة Desire » التى تخلق فى فلسفة لامارك البيولوجية عضواً بعد عضو ، وتصوغ ببطء البدن فى صورة الإرادة .

العلم هو الذى يخلق ديانتى ، لأن التطور هو الذى يثبت وجود إلهى . كيف يمكن أن يكون التركيب الآلى قد تطور ؟ إن صح هذا فهو أبعد مائة مرة عن التصديق من الأساطير الموجودة فى الكتاب المقدس ، ولا يمكن أن نفتديه بالدلالة الرمزية والجمال الشعرى مما يجعل تلك الأساطير تكاد تكون أصدق من الحق . تأمل التطور لا كما فعل دارون (إذ أى عالم من علماء الحياة يفكر فيه كما فكر دارون ؟) بل كما رآه لامارك وشوبنهور ونيتشه . فالتطور

(1) Goldberg, I., Havelock Ellis, p. 71.

ليس تكويناً للكائنات الحية بوساطة البيئة ، بل هو تعديل الأحياء للبيئات ، وجوهر هذه الأحياء هو الرغبة التي لا تعرف الشبع ، حسب عبارة سبينوزا . أيمكنك أن تفكر في ذلك الكفاح الطويل الصاعد للحياة من الأميبا حتى أينشتين وإديسون وأناتول فرانس دون أن ترى العالم مرة أخرى كثوب الله ؟ ألا ما أعجبنا من حيوانات . إننا نولد ونموت كالموج المترقرق على صفحة النهر ؛ ونحارب وندمى ونموت في معارك العالم الاقتصادية ؛ ونكذب ونسرق ونستعمر ونطغى ونقتل ؛ ولكننا في بعض الأحيان نصنع البارثينون وكنائس كالتي بناها البابا سكستوس الرابع في الفاتيكان ، ونكتب أحياناً أمثال السمفونية التاسعة لبتهوفن ، أو أوراق الحشيش لوالت هويتمان ، ونهب أحياناً حياتنا لأبنائنا وجنسنا . ومع ذلك فصعودنا إنما قد بدأ فقط ، فنحن في شباب ومراهقة نمونا ، وكل شيء يبرعم من حولنا وفي داخلنا ، وما قمنا به ليس إلا وقفة تَعِدُ بما بعدها . ولم يظهر حتى الآن قانون استنفد بحثنا أو وصفنا . قد تسمي هذا شعراً أو شعوراً ، ولكني لا أستطيع أن أرى نبتة خضراء تنبثق من الأرض دون أن أقول : هذا هو الله . ولا أملك حين أرى طفلا ينمو ويفنى دون أن أقول : هذا هو الله . إن كل سيدة تحمل رضيعها تحركني ، لا على أنها صورة للعذراء أو للإيمان ، بل كأعظم رمز لتلك القوة الخالقة التي تختفي وراء حركة الأعضاء ، والتي تحرك كما قال دانتي الأرض وسائر النجوم .

أندرو : لقد أخذني العجب بعض الشيء من جنس إلهك . فأن ترد الله لتوحد بينه وبين الحياة ، هو أن تسلبه من الشخصية وتجعله بغير جنس . ومع ذلك فإنك تراه — أو لعلي أقول تراها — فوق كل شيء في الأمومة . لعلك ستقبل تحدي شو ، وتؤول إلهك على أنه من جنس الأنثى .

بول : الجنس شيء سطحي ظهر متأخراً ، والشخصية أكثر سطحية وتأخراً . والله من وراء الجنس والشخصية وهو بهما محيط . فأن تنسب الشخصية لله على المعنى الذي نستعمل نحن فيه هذه اللفظة ، فهذا تشبيه وتفاخر صبياني . يجب أن نقرأ زينوفان مرة أخرى . والشخصية انفصال ، إنها صورة خاصة من الإرادة والخلق . ولا يمكن أن تكون مثل هذه الذات المنفصلة والمتحيزة .

الله مجموع ومنبع هذه الحيوية أو الروح العامة التي منها تجرد وتتكاثر ذواتنا وشخصياتنا قطعاً صغيرة . والشخصية قالب صغير جداً لا يسع الله وقد تبين ذلك منذ كتب كوبرنيق وداروين . قد تتحدث عن إلهي أنه لا جنس له إذا شئت ، ولو أن ذلك يكون وصفاً سلبياً لا يليق . أما أنا فسأستمر في الحديث عنه رمزياً باستعمال ضمير المذكر كما نتحدث عن الإنسان بالمذكر بضرب من الرخصة الأبوية . وإذا كنا نتحدث عن الشمس بضمائر المذكر [1] ، فحديثنا عن الله بالمذكر أدنى من المعقول (بشرط أن نعرف حدوده) حين نأخذ في بالنا أنه الأصل الشخصي الأعلى لكل شخصية .

ومع ذلك فهناك شيء كثير يمكن أن يقال في رأي شو . فالذكر عارض وأداة ، والأنثى حامل للجنس واستمرار له ، إنها التجسد المباشر للخلق الطبيعي . والعبقرية هي كفوها الوحيد كأوضح تجسد للإله باعتبار أنها أداة الخلق الروحي ، وخالقة المعرفة الجديدة والقيم الجديدة ، في الأمومة وفي العبقرية ، ومن فوقهما الله . وليست الإنسانية هي الله كما ظن كومت ، فلا أحد يعرف الإنسانية يحفل بعبادتها . إن معظمنا مادة خام ، ومجرد أحجار وملاط في بناء لا يمكن أن نفهم السر في تصميمه . ونحن إنما نكتشف وجود شيء يتصل بالله في لحظات نادرة ألمة من حياتنا نصعد فيها إلى مراتب الاختيار ، وفي الشقاء الخالق عند العباقرة . وهذا في صورة أخرى هو التجسد والصلب . كان نيتشه ذلك الملحد التقي يقول إنه حين كان يمشي مع فاجنر كان يعرف مَنْ الله ، وكان يحس بأنفاس الألوهية تهب عليه . وحرية الإرادة والعبقرية ضربان من الوهم إذا كان الله موجوداً خارجاً وقادراً على كل شيء ، أو إذا كان العالم آلة (الميكانيكية إنما هي كلفينية Calvinism [2] مغلفة بالثورة الصناعيـــة) . وتتكشف لنا لمحة من حرية الإرادة ، ويصبح بعض أثر العبقرية ممكناً إذا كان الله موجوداً معنا ، وفي الحياة

---

(١) الشمس مذكرة في اللغات الأجنبية ، أما في العربية فالشمس مؤنثة وفي ذلك قال المتنبي يرثي أم سيف الدولة :

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهـــلال (المترجم) .

(٢) كلفن (١٥٠٩ – ١٥٦٤) مصلح ديني بروتستانتي ، يقوم مذهبه على أن إرادة الله مطلقة ، وليست للإنسان إرادة ، وان الخلاص بيد الله الخ (المترجم) .

الدائمة التي ترتقي من طاقة الذرة إلى فن فيدياس ورؤية المسيح . فأن ترى الحياة من خلال كل تنكرها المادى ؛ وأن تحس بالألوهية ، كما كان القدماء يفعلون ، فى كل شجرة ، وفى كل حيوان ، وفى كل زواج وولادة ، وفى كل عظمة للعقل والنفس حتى فى الاضمحلال والموت الذى لا يرد ؛ وأن تحكم على جميع الأشياء فى صورة خيرها لمجموع الحياة ؛ وأن « تلحق بالكل » وأن تتعاون راغباً فى النماء : هذا هو الدين . أما توقير العبقرية ، وتوقير الأمهات والأبناء وجميع الأشياء النامية ، والولاء للحياة — فهذا هو عبادة الله .

أندرو : هذا كلام شعرى ، وقصور تبنى على الماء . فلا تخدعن نفسك ، سيبتسم كل عالم من تأليه حياة يمكن كما قال سنتايانا أن يوضع لها حد فى لحظة واحدة بطلقة طائشة أو ارتفاع أو انخفاض فى درجة الحرارة ، أو نقص فى أكسجين الهواء . وسيضحك بمرارة كل متدين من هذا الدين الذى ينتزع الله من السماء ليضعه فى الورود والأشواك ، والكلاب والبراغيث ، والأمهات البدينات ، والرضع الذين يبللون لفائفهم ، وريتشارد فاجنر أكبر مهرج فى تاريخ الموسيقى .

بول : فلتنس فاجنر ، ولتذكر المسيح . سيكون فى ديني هذان العنصران : الله الحى ، والمسيح الإنسان ؛ لأن المسيح كما فهمه اللاهوت القديم فى صورة الرمز كان أعلى تجسد للإله . وليس أعظم خلق الحياة هو الفكر بل الحب ؛ وليس أعظم نصر للعبقرية الإنسانية تمثيليات شكسبير ولا رخام البارثينون ، بل أخلاق المسيح ، فهى بعد الرعاية الأبوية أبدع قوة للخير ظهرت من قبل فى العالم . إنى لأعرف يا فيليب أنك تعد مذهب المسيح الأخلاقى غير عملى . ومع ذلك فقد سمعتك تنقل مؤيداً آخر سطر من كتاب الأخلاق لسبينوزا : « جميع الأشياء الممتازة صعبة كما هى نادرة » ولا اعتراض لى على القول بأن بعض الأشياء صعبة ، لأن وظيفة المثل الأعلى الأخلاقى أن يسمو بنا عن جميع الغرائز التى زاد كفاح العيش فى ضراوتها إلى آفاق من الاحترام والأدب تصبح معهما الحضارة والحياة المتعاونة ممكنة . وما دامت وصايا المسيح فى حدود طاقتنا المثالية فمن الخير أن تحتفظ لنا بالكمال الذى يجب أن نتجه إليه فى نمائنا ، والذى نستطيع أن نجعله على الدوام نصب أعيننا . ما مذهب المسيح سوى « القاعدة الذهبية » — وهل

القاعدة الذهبية متعذرة تماماً على التحقيق ؟على العكس إنها لب الحكمة فى صلاتنا بالناس . لقد اكتشفت أنى كلما دفعت العدوان بالعدوان ضاعفت المقاومة وخلقت عقبات جديدة ضدى ، وحيثما عملت حسنة جاءنى مئات أمثالها . وحيثما أحببت ظفرت . ولو كان لى أن أعرف الملحد لقلت إنه شخص غير موال للحياة ولا يحترم النماء؛ وكنت أعرف المسيحى بأنه ذلك الذى يقبل أخلاق المسيح و يحاول مخلصاً أن ينسج على منوالها .

فيليب : هذا رائع يا بول . سأنضم إلى كنيستك فى الحال إذا لم تصر على الخلود الشخصى .

بول : لم لا نختلف على بعض الأمور ونعمل معاً حيث نستطيع ؟ وبعد فاختلافنا إنما هو فى ألفاظ . كانت الأجيال السابقة تعنى ما نعنيه — احترام كل حى ، والولاء للمجموع الأكبر . كل ما فى الأمر أن السلف كان يستعمل رموزاً وألفاظاً مختلفة . والآن وقد انتهت المعركة فإننا نرى كم كنا قريبين ،وكيف أننا جميعاً لا نزال أعضاء فى جسم واحد . سترحب كنيستى المثالية بكل من يقبل « القاعدة الذهبية » ، وليس ثمة أى اختبار آخر . كلكم مقبولون ، حتى فيليب الذى يظن المسيح غير عملى ، وأندرو الذى يعد نفسه آلة ، وكلارنس الذى يشك فى كل شىء ولكنه يحب كل شىء . إنى لأتصور كنيسة فى سعة صدرها كمحبة المسيح فتضم الجميع ولا تطرد أحداً . كنيسة تكرم الحق والجمال كما تكرم الخير ، فتغذى كل فن ، وتجعل كل معبد وكاتدرائية حصناً لتعليم الشباب ، وتقدم للكبار الذين لا يحضرون المدارس ويرغبون فى التحصيل العلم والتاريخ والأدب والفلسفة والموسيقى والفن . ولكنها إذا لم ترع حق الأخوة كانت معارفها عقيمة ، فيجب أن تسمح بكل انقسام ، وكل شك ، بشرط أن يكون الحب فى النهاية هو رأس الحكمة .

آرييل : فلنختتم حديثنا عند هذا الحد . فهنا بين هذه الكتب التى انحدرت إلينا من عباقرة مئات من البلاد قد نسلم بأننا إخوان ، وبأن الدين والأخوة يجب أن يكونا شيئاً واحداً ، وأن كونفوشيوس وبوذا ، إشعيا والمسيح ، سبينوزا وهويتمان ، هم أنبياء إيمان واحد . وإذا تيسر لنا أن نتفق على ما اشترك فيه هؤلاء القوم ، فهذا يكفينا .

سير جيمس : سيدتى ، إنى أعرف دينك جيداً ، إذ هنا فى نسخة هويتمان الخاصة بك أجد قصيدة أشرت إليها تصلح أن تكون المرشد لنا وشعارنا جميعاً . إنها تسمى : « إلى ذلك الذى صلب » .

آربيل : اقرأها علينا ، فلعلها تهدىء أعصابنا عقب هـــذه المناقشة . (وهنا يقرأ جيمس) .

آربيل : إنها فى غاية الجمال .

ماتيو : إنها جميلة ، ولكن فيها غروراً وإلحاداً .

فيليب : إذا كانت هذه هى المسيحية ، فأنا مسيحى .

بول : لم ينفذ أحد إلى لب المسيحية بأفضل من هذا .

وليم : إنها ترضينى .

كونج : لقد فهمت الآن مسيحكم أفضل مما كنت أفهمه .

ســيدا : إنى أقبله بسرور كبوذى عظيم .

إســتر : إنى أقبله كيهودى عظيم .

كلارنس : وكمعارض تمام المعارضة للقساوسة (١)

تيودور : سأقبله إذا جعلتم «أوراق الحشائش» جزءاً من الكتاب المقدس .

سير جيمس : إنه أحب الآلهة .

أندرو : أنا واثق أنه كان موجوداً . فلنذهب إلى الفراش .

---

(١) برنارد شو .

الجزء التاسع

خاتمة

الفصل الرابع والعشرون
حول الحياة والموت

أيمكن أن نركّز نظرة شاملة فى فصل واحـــد موجز عن الحياة الإنسانية ؟ هذا شيء مستحيل، لأن الحياة فى أساسها سر ، إنها نهر يتدفق من منبع مجهول ، وهى فى نموها ذات حيل لا حد لها يعجز الفكر لشدة تعقدها عن معرفتها ، وهو فى التعبير عنها بالقول أشد عجزاً . ومع ذلك فإن الظمأ للوحدة يدفعنا إلى هذا البحث . فأن نوضح هذه المجاهل من التجارب والتاريخ ، وأن نصوب إلى المستقبل نور الماضى المنحرف ، وأن نكشف عن اتجاه مجرى الحياة ثم التحكم تبعاً لذلك فى فيضانه ببعض التدابير : هذه الشهوة الميتافيزيقية التى لا تشبع هى مظهر من أنبل مظاهر الجنس البشرى الذى هو موضع بحثنا . وهكذا سنسعى مهما يكن هذا السعى عبثاً إلى رؤية الوجود الإنسانى ككل ، من اللحظة التى قُذِفنا فيهـــا إلى هذا العالم بغير اختيارنا ، إلى أن تُتِم العجلة التى ارتبطنا بها دورتَها بالموت .

١ — الطفولة

يقول والت : « وبعد المناقشة يتدفق جماعة من الأطفال بأساليبهم وأحاديثهم كترقرق الماء اللذيذ على أعصابى الثائرة وبدنى الفائر » .

إننا نحب الأطفال أول كل شيء لأنهم أبناؤنا وامتدادٌ لأنفسنا التى نرى أنها أبدع الأنفس . ولكننا نحبهم كذلك لأنهم يمثلون ما كنا نود أن نكون عليه ولم نستطع . . . حيوانات منسقة الترابط ، تصدر عن تلقاء نفسها فى بساطتها ووحدة عملها ؛ على حين لا يبلغ الفيلسوف هذه البساطة وهذه الوحدة فى العمل إلا بعـــد كفاح وتحكم . نحبهم بسبب هذا الذى فينـــا والذى نسميه الأثرة — اتجاه غرائزهم على فطرتها واستقامتها . نحب صراحتهم البعيدة عن النفاق ، فهم

لا يبتسمون لنا إذا لم يرغبوا فى وجودنا . يقول المثل الألمانى : « الأطفال والمجانين يقولون الحق » Kinder und Narren sprechen die Warheit ومع ذلك يشعرون بالسعادة فى إخلاصهم .

انظر إليه هذا المولود : إنه قذر ولكنه رائع ، مضحك فى الواقع ، لا نهائى فى الإمكان ، قادر على ذلك السر الأقصى . . . النمو . أتستطيع أن تتصور أن هذه الحزمة العجيبة من الصوت والألم ستصل إلى معرفة الحب والقلق والعبادة والعذاب والخلق والفلسفة والموت ؟ إنه يصيح ، لقد طال سباته فى رحم أمه الدافىء الهادىء . وفجأة إنه مضطر الآن إلى التنفس ، وهذا شىء يؤذيه ؛ مضطر أن يرى الضوء الذى يخزه ، وأن يسمع الضوضاء التى تفزعه . ويلفح البرد جلده ، فيبدو وكأنه قطعة من الألم . ولكن ليس الأمر كذلك فالطبيعة تقيه شر هذه الغارة الأولى من العالم بأن تغلفه بغلاف عام من عدم الحساسية . فهو إنما يرى الضوء باهتاً ، ويسمع الأصوات خافتة وكأنها آتية من بعيد . وينام معظم الوقت .

وتسميه أمه القرد الصغير ، وهى على صواب . فإلى أن يمشى فهو كالقرد بل أقل من ذى القدمين ، إذ أن حياته فى الرحم قد أكسبت ساقيه الصغيرتين هيئة الضفدع . ولن يخلف صفة القرد وراءه حتى يتكلم ، ويشرع فى النهوض مخاطراً إلى هيئة الإنسان . راقبه وانظر كيف يتعلم شيئاً فشيئاً طبائع الأشياء بحركات الاستطلاع الجزافية . العالم لغز خفى بالنسبة له ، وهذه الاستجابات العشوائية من القبض باليد ، والعض ، والرمى هى نواة المحاولة التى يقلبها على نار التجربة المجهولة المحظورة . فالاستطلاع يستولى عليه ويساعد على نموه ، لأنه يهوى أن يمدّ يده وأن يتذوق كل شىء من « الشخشيخة » إلى القمر .

وقد يمكن أن نجعل هذا الطفل بدء فلسفتنا ونهايتها . ففى استطلاعه الدائم وفى نموه سر كل فلسفة . فنحن حين نتأمله فى أرجوحته ، أو وهو يحبو على الأرض ، إنما نرى الحياة لا على أنها تجريد بل كحقيقة متدفقة تتخطى جميع مقولاتنا الميكانيكية وجميع قوانيننا الطبيعية . فهنا فى هذه الضرورة النامية ، فى هذا الجهد الصابر والبناء المثابر ، فى هذا النهوض الثابت العزم من العجز إلى القوة ، ومن الطفولة إلى الشباب ، ومن الدهش إلى الحكمة ... هنا نجد « مالا يمكن

معرفته Unknowable » الذى قال به سبنسر ، و « الشيء بالذات Noumenon » فى فلسفة كانط ، « والحقيقة بالذات Ens Realissimum » فى شروح المدرسيين ، و « المحرك الأول Prime Mover » فى فكر أرسطو ، و « الشيء بالذات To ontos on » فى فلسفة أفلاطون . نحن هنا أدنى إلى أساس الأشياء من ثقل المادة وصلابتها ، أو من عجلات الآلة وروافعها . فالحياة هى ذلك الذى لا يرضى ، والذى يكافح ويبحث ، والذى يحارب إلى النهاية . ولن تستطيع أى فكرة ميكانيكية أن تفسرها التفسير الصحيح ، أو أن تفهم نمو الشجرة الساكن وعظمتها الصامتة ، أو أن تقيس شوق الأطفال وحنانهم .

٢ — الشباب

قد يمكن أن نعرف الطفولة بأنها عصر اللعب ، ولذلك فإن بعض الأطفال لا يبلغون أبداً مرحلة الشباب ، وبعض الشباب لا يشيخون أبداً . الشباب انتقال من اللعب إلى العمل ، من الاعتماد على الأسرة إلى الاعتماد على النفس . تمتاز هذه المرحلة بشيء من الفوضى والغرور ، لأن الشاب فى الأسرة كان مجاب الرغبات والنزوات بالحب الأبوى العارم . حتى إذا نزل الشاب إلى معترك العالم ، وقد أصبح لأول مرة حراً بعد أن كان معززاً مدللا سنين طويلة ، غرق فى نشوة الحرية ، ونطق بلهجتها البربرية ، وتقدم لغزو العالم وتعديله .

تتميز الخطابة الحسنة كما قال ديموستين بأمور ثلاثة : الأفعال ، والأفعال ، والأفعـــال . وقد كان يمكن أن يصف بها الشباب كذلك . فالشـــاب واثق بنفسه ومجازف كالإله . يحب الشباب المثيرات والمغامرات أكثر مما يحب الطعام . إنه يحب كل بديع ، ومغالاة ، وإسراف ، لأن طاقته متدفقة وتتحرق إلى تحرير قوتها . يحب الشباب اقتناء كل جديد وركوب كل خطر ، ولذلك يكون الرجل شاباً بمقدار ما يركب من مخاطر .

ويتحمل الشباب القانون والنظام متبرماً . إننا نطلب منه الهدوء ، على حين أن الضوضاء هى مجاله الحيوى . نطلب منه أن يقف سلبياً مع أن رغبته فى الحركة . نطلب منه أن يكون رزيناً عاقلا على حين أن دماءه ذاتها تجعله « فى نشوة

دائمة » (١) . هذه المرحلة هى مرحلة الاندفاع والانطلاق ، وشعارها : « الإسراف سبيل النجاح » Panta agan . إنه لا يتعب أبداً . يعيش فى الحاضر ، ولا يندم على الأمس ، ولا يخشى الغد . يتسلق فى خفة ومرح التل الذى تخفى قمته الجانب الآخر . إنه مرحلة الشعور الحاد والرغبة الجامحة ، فلم تهذبه التجربة بعد بالتكرار ومواجهة الحقائق . أعظم شىء عنده أن يشبع حواسه جميعاً . كل لحظة محبوبة لذاتها ، والعالم عنده منظر جميل ، شىء يمتصه ويستمتع به ، شىء يصلح أن ينظم فيه القصائد ، وأن يشكر من أجله السماء .

والسعادة هى حرية لعب الغرائز ، وهذا هو شأن الشباب . والشباب عند معظم الناس المرحلة الوحيدة فى الحياة التى يعيشون فيها . ليس أغلب الناس فى الأربعين إلا ذكرى ، ورماد تلك الشعلة التى كانت متوهجة ذات يوم . إن مأساة الحياة هى أنها لا تهبنا الحكمة إلا حين تسلب منا الشباب . أو كما يقول المثل الفرنسى :

« أواه لو عرف الشبــــاب وآه لو قدر المشيب »

Si jeunesse savait et vieillesse pouvait.

تقوم الصحة على العمل الذى يجعل الشباب رشيقاً . فأن يشغل المرء نفسه فى العمل هو سر الرشاقة ، ونصف السر فى الرضا . فلنسأل الله أن يهبنا أعمالا نؤديها لا أملاكاً نقتنيها . وقد قال ثورو إن كل إنسان فى المدينة الفاضلة هو الذى يبنى بيته ، وعندئذ يعود الغناء فيغمر قلوب الناس كما يغمر العصفور بعد أن يبنى عشه . فإذا لم نستطع أن نبنى بيوتنا فقد يمكن على الأقل أن نمشى ونرمى ونجرى ، فلا نكون من الشيخوخة بحيث نقف لمشاهدة الألعاب بدلا من المشاركة فيها . فاللعب كالصلاة سواء فى النفع ، ولكن نتائج اللعب مؤكدة .

من أجل ذلك كان الشباب حكيما فى إيثاره ساحات الرياضة على قاعات الدراسة ، وفى رفع منزلة لعبة « البسبول » على الفلسفة . عندما وصف طالب صينى قصير النظر الجامعات الأمريكية بأنها : « مجامع رياضية تهيأ فيها بعض فرص الدراسة لضعاف الأجسام » لم تكن ملاحظته هادمة كما تصور ، بل صورت

---

(١) La Rochefoucauld, Reflections, No. 271.

نفسه أكثر مما صورت الجامعات . فكل فيلسوف يجب أن يكون رياضياً Athlete[1] كأفلاطون ، فإذا لم يكن كذلك فلنشك فى فلسفته . ولقد قال نيتشه : « إن أول ما يحتاج إليه السيد المهذب أن يكون حيواناً كاملا » . وعلى هذا الأساس يجب أن تقوم التربية وتبنى ، ويجب أن يكون تعليم العناية بالبدن مكافئاً تثقيف العقل بالعلوم .

وفى أثناء ذلك يتعلم الشباب القراءة ، وهى كل ما يتعلمه المرء فى المدرسة ؛ كما يتعلم أين وكيف يجد ما يمكن أن يحتاج إلى معرفته فيما بعد — وهذا أعظم فن يكتسبه فى الكلية . لا قيمة لما يتعلمه المرء من الكتب إلا إذا استعمله وتحقق منه فى الحياة ، وعندئذ فقط يبدأ هذا العلم فى التأثير على السلوك والرغبة . فالحياة هى التى تعلم ، ولعل الحب أكثر من أى شىء آخر فى الحياة هو الذى يعلمنا .

وفى أثناء ذلك تحين مرحلة المراهقة ، فإذا بالصبى يفقد فجأة المبادرة والوحدة فى أعماله الخالية من التدبير ، فيغمره ظل من صُفرة التفكير . وتأخذ الفتاة تزين نفسها بعناية أكثر ، وتصفف شعرها بفن أعظم . تنفق عشر ساعات من يومها تفكر فى اللبس ، وتغطى ركبتها بقميصها مائة مرة فى دلال عابث . ويأخذ الصبى ينظف رقبته ويلمع حذاءه ، وينفق نصف مصروفه على الفتاة ، والنصف الآخر على ملابسه . وتتعلم الفتاة صنعة الحياء ، أما الشاب فيخطر فى حضرة الجمال على مهل .

ثم يجىء النمو الفكرى خطوة خطوة مع نمو الشعور الجنسى . فتفسح الغريزة الطريق للفكر ، وتتحول الحركة فتصبح تفتحاً هادئاً . ويأخذ الشباب فى اختبار نفسه والعالم من حوله ، فيطرح أسئلة لا حصر لها ويفترض نظريات ليظفر بمعنى الأشياء . إنه لا يفر من السؤال عن الشر ، وأصول الأشياء ، والتطور ، والمصير ، والنفس ، والله . ويفوز العقل بفقاعات من الأفكار ، وكل لفظة أو فكرة توحى بمئات غيرها . وينتقل الشباب إلى مرحلة يتلاعب فيها

(١) رياضى هنا بمعنى الرياضة البدنية ، وقد اشترط أفلاطون تعليمها فى مدينته الفاضلة كما هو معروف ، كما اشترط تعليم الرياضة أى الحساب والهندسة (المترجم) .

الفتيان بالألفاظ والفتيات بالضحكات . ويزدهر القلب حتى الصميم بالغناء والرقص ، ويتغذى الذوق الفنى بالرغبة الفائضـــة ، ويتولد فيه الشـــعور بالموسيقى والفن .

وحين يكتشف الشباب العالم يكتشف كذلك الشر ، فيفزع حين يطلع على طبيعة الإنسان . كان مبدأ الأسرة المعونة المتبادلة ، ومساعدة القوى للضعيف ، واقتسام المنافع . أما مبدأ المجتمع الذى يكتشف الشباب أمره ، فهو التنافس ، والكفاح فى سبيل الحياة ، وإقصاء الضعيف ، والإبقاء على القوى . ويصدم الشباب فيثور ، ويطلب من العالم أن يصوغ نفسه فى هيئة الأسرة ، وأن يمنح الشباب ما كان يجده فى الأسرة من ترحاب وحماية وأخوة . وهذا هو طريق الاشتراكية . ثم ينزلق الشباب رويداً رويداً إلى مقامرة هذه الحياة الفردية ، فتسرى حماسة اللعبة إلى دمائه ، ويتنبه فى نفسه حب التملك ، فيبسط كلتا يديه للظفر بالمال والسلطان . وتخمد الثورة ، ولكن اللعبة تمضى فى طريقها .

وأخيراً يكتشف الشباب الحب . كان يعرف « حب العجل » [1] تلك المقدمة الأثيرية لسمفونية الجسد والروح المقبلة . وقد عرف ألواناً من الكفاح الوحيد للرغبة الفجة الجاهلة . غير أن ما عرفه لم يكن إلا مقدمة لا ضرر منها قد تعمق الروح وتهيئها للولاء الذى يهجر فيه الإنسان نفسه . أنظر إليهما : هذا الشاب وهذه الفتاة يحبان بعضهما بعضاً ، أيوجد أى شر فى هذه الحياة الدنيا يمكن أن يقابل جلال هذا الخير ؟ وإذا بالفتاة تصبح فجأة هادئة منغمسة فى التفكير كلما ارتفع مجرى الحياة فى نفسها إلى مرتبة الخلق الواعى . أما الشاب فيصبح فى أدب ورقة متحمساً وقلقاً ، عارفاً بجميع ألوان الغزل ، مشرقاً بما فى دمه من جوع ومع ذلك متعالياً إلى منزلة الحنان والولاء . هنا تجد ما قامت به قرون طويلة من الحضارة والثقافة . هنا فى هذا الحب الرومانتيكى تجد ذروة ما بلغه الإنسان أكثر مما تجده فى فتوحات الفكر أو غزوات السلطان .

لو كان الشباب حكيما لأعز الحب فوق كل شىء آخر ، واحتفظ بنظافة البدن والروح لمستقبله ، وأطال أيام الخطوبة ووصلها بالشهور ، ثم يبيحها بزواج

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٧٣ (المترجم) .

تحف به الطقوس الجليلة ، مخضعاً بعد ذلك كل شيء لهذا الزواج . ولو كانت الحكمة شابة لأعزت الحب ، مرضعة إياه بالإخلاص ، معمقة جذوره بالتضحية ، محيية إياه بالأبوة ، مخضعة له كل شيء حتى النهاية . ومع أننا نحترق فى سبيل الحب الذى يغمرنا بالمآسى ، ومع أنه يكسر قلوبنا بزواله ويحنى ظهورنا بهجرانه ، فليكن الحب مع ذلك فى المحل الأول .

٣ — وسط العمر Middle Age

وهكذا يتزوج الشباب ، فينتهى الشباب .

إن الرجل حين يتزوج يزيد عمره فى اليوم الثانى خمس سنوات ، وكذلك الحال فى المرأة التى تتزوج . ومن الناحية البيولوجية يبدأ وسط العمر بالزواج الذى يجعل العمل والمسئولية يحلان محل اللعب الحر ، ويسلم الهوى لقيود النظام الاجتماعى ، وينزل الشعر عن عرشه للنثر . إنه تغيير يختلف باختلاف العادات والأجواء : فالزواج يتأخر اليوم فى مدننا الحديثة ويطول عهد المراهقة . ولكن الزواج بين شعوب الجنوب والشرق يتم فى ذروة الشباب ويشيخ فى أعقاب الأبوة . يقول ستانلى هول : « إن شباب الشرق الذى يمارس الواجبات الزوجية فى الثالثة عشرة من العمر ينهك فى الثلاثين ويلجأ إلى استعمال الأدوية المقوية ... والنساء فى الأجواء الحارة كثيراً ما يكتهلن فى الثلاثين . والراجح — بوجه عام — أن الذين يتأخر بلوغهم تتأخر شيخوختهم » . ولعلنا إذا استطعنا أن نؤخر بلوغنا الجنسى حتى يحين بلوغنا الاقتصادى ، فقد نرتفع بإطالة فترة المراهقة والتعليم إلى مستوى أعلى من الحضارة لم يعرفه الماضى من قبل .

إن كل عمر فى الحياة له فضائله وله عيوبه ، وله مهامه وله مباهجه . وكما أن أرسطو رأى الامتياز والحكمة فى الوسط الذهبى ، كذلك يمكن أن ترتب صفات الشباب والرجولة والشيخوخة ترتيباً يبين وجه العدل فى تقسيم الحياة الإنسانية . مثال ذلك :

الشباب	وسط العمر	الشيخوخة
الغريزة	الاستقراء	القياس
التجديد	العادة	التقاليد
الاختراع	التنفيذ	التعطيل
اللعب	العمل	الراحة
الفن	العلم	الدين
الخيال	الفكر	الذاكرة
النظرية	المعرفة	الحكمة
التفاؤل	التحسين	التشاؤم
التطرف	التحرر	المحافظة
الاستغراق فى المستقبل	الاستغراق فى الحاضر	الاستغراق فى الماضى
الشجاعة	التبصر	الحسن
الحرية	النظام	السلطة
التذبذب	الاستقرار	الركود

مثل هذه القائمة يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية له . مهما يكن من أمر فاننا نخرج منها بهذا العزاء بالنسبة لوسط العمر وهو أنه عصر العمل والبناء . فالحياة تمدم بدلا من ابتهاج الشباب وحماسته الأمن الهادىء والقوة العزيزة والإحساس بالأشياء لا على أنها أمل يرجى بل حقائق تحققت . وفى الخامسة والثلاثين يبلغ الرجل ذروة خطه البيانى (١) ، محتفظاً بما يكفيه من أهواء السنوات الماضية ، وملطفاً إياها بالنظرة الشاملة المستمدة من التجارب الواسعة والإدراك الناضج . ولعلك تجد بعض الاتفاق فى هذا الترتيب مع الدورة الجنسية التى تبلغ ذروتها فى الثانية والثلاثين ، وهى الوسط بين المراهقة وسن الفضيلة . وقد بين « إليس » أن معظم العباقرة رجالا ونساء ولدوا حين كان آباؤهم بين الثلاثين والرابعة والثلاثين (٢) .

وعندما نجد لنا مكاناً فى العالم الاقتصادى تهدأ ثورة الشباب ، فنحن ننكر

(١) نقل هذا الجدول الثلاثى ، مع الكلمات الأولى من الفقرة الرابعة التالية أحد الصحفيين بعنوان : « يجب أن يموت الناس فى الخامسة والثلاثين » وأرسله إلى كل فيلسوف أمريكى ليأخذ رأيه فيه ابتداء من مستر دمبسى إلى مستر كولدج .

(٢) Ellis, H., A Study in British Genius.

الزلازل حين نقف على الأرض . وعندئذ ننسى حريتنا المتطرفة radicalism في حرية liberalism معتدلة — فالحرية المعتدلة هي المتطرفة وقد هذبها الشعور بالمسئولية المالية . وكلما أصبحنا أكثر ملاءمة مع البيئة كلما ازداد خوفنا من ألم معاودة الملاءمة التي لابد أن يحتاج إليها أي تغيير أساسي . فبعد الأربعين نؤثر أن يظل العالم كما هو ، وأن تتجمد صورة الحياة المتحركة إلى لوحة ثابتة .

ويرجع بعض المحافظة المتزايدة في وسط العمر إلى الذكاء الذي يرى تعقد النظم ونقائص الرغبة . ولكن بعضها الآخر هو ثمرة الطاقة الهابطة ، وتتفق مع الأخلاق الطاهرة عند المنهوكين من الناس . وندرك أول الأمر ، دون أن نصدق ثم بعد ذلك يائسين ، أن خزان القوة لا يمتلىء بعد أن نغترف منه ، أو بعبارة شوبنهور أصبحنا نعيش على رأس المال لا على الدخل .وهذا الاكتشاف يجعل الحياة مظلمة عدة سنين ، فنندب قصر الحياة الإنسانية واستحالة الحكمة أو تحقيق الأمل في هذه الدائرة المحدودة . إننا نقف على قمة التل ، ونستطيع أن نرى الموت في أسفله دون أن نجهد أعيننا . لم نكن نسلم بوجود الموت قبل ذلك ، فهو فكرة مجردة أكاديمية لا يمكن أن يفكر فيها الرجل القوى . وفجأة نجدها أمامنا بغير رحمة . ومهما نحاول البعد عنه فإننا نهبط التل ونقترب منه . ونتلفت إلى الوراء في صفحة الذاكرة إلى الأيام التي لم يسودها وجوده ، ونمرح في صحبة الصغار لأنهم يضفون علينا موقتاً وإلى حد ما عدم مبالاتهم بالفناء .

في العمل والأبوة تجد الرجولة كمالها وسعادتها. وكلما تحول الأمل الطموح للشباب إلى عمل وصبر هادىء في وسط العمر ، تحل الحماسة للعمل المؤدى محل الحلم لغزو العالم . ذلك أن البلوغ كالحال في سانكوبانزا يؤثر جزيرة في البحر الأبيض على قارة في الطوبيا .

ووظيفة الشباب أن يكون شديد الحساسية للأفكار الجديدة باعتبار أنها وسائل تمكنه من التقدم في غزو البيئة . ووظيفة الشيخوخة معارضة الجديد في معركة لا ترحم تمتحن فيها قوة الفكرة قبل أن يخضعها المجتمع للتجربة . ووظيفة الرجولة في وسط العمر أن تجعل الفكرة معتدلة وفي حدود الإمكان

العملى والتماس الوسائل لتحقيقها . فالشباب يقترح ، والرجولة تدبر ، والشيخوخة تقاوم . الشباب يسود فى أزمنة الثورة ، والشيخوخة فى عصور التقاليد ، والرجولة فى فترات التعمير . يقول نيتشه : « إن الحال مع الناس كالحال مع غابة تشتعل لتصبح فحماً . فالشباب إنما يصبح نافعاً حين تبرد حرارته ويتفحم كهذه الأكوام . وما دام يشتعل ويتصاعد منه الدخان فقد يكون أكثر متعة ولكنه فى الأغلب أقل نفعاً وأكثر تعباً » (١) .

الشباب رومانتيكى ، وهو على حق فى ذلك لأن الخيال والشعور يتحكمان فيه . والشيخوخة كلاسيكية فى أذواقها ، فهى تحب الترتيب والحواجز أكثر مما تحب الهوى والحرية . والرجولة تتأرجح بين الاثنين ، وتنسج قيمها فى صبر على أنوال العمل . إن سنوات وسط العمر تعطينا آخر الأمر إرادة منظمة ، ووضوح العقل الذى ينسق مطالب الرغبة . إن قاعدة المعرفة كما قال ديكارت هى أن تفكر بوضوح ، وما نفهمه بوضوح هو الحق فقط . وقاعدة السلوك هى فى الأغلب أن ترغب بوضوح ، وبهذا فقط تتحول الرغبات إلى خلق وإرادة .

فالاعتدال moderation هو أعظم صفات الرجولة فى وسط العمر . وأعظم خطر يهددها هو التفاهة mediocrity (٢) . فما أيسر أن يرتد المرء من مشقة المجهود إلى إلف الروتين : من الحياة الرأسية إلى الحياة الأفقية . هذا الخطر موجود دائماً ، ومعظمنا يسلم له ، وقيلولة بعد الظهر رمز لهذا الخطر وبداية له . ومع ذلك فلا ينبغى أن يكون الاعتدال تفاهة أو توسطاً . فقد يكون الاعتدال هو قوة وعمق العقل الذى لا يضطرب بسهولة عند الظروف غير المواتية ، ويكون المرء ثابت العزم فى العمل كما هو مقتصد فى الرغبة والحديث . حتى المتطرف نيتشه كتب يقول : « أى هذين الأمرين العظيمين أفضل : التدبير أم الاعتدال ، هذا شىء يحسن ألا تجيب عنه ، فقليل هم الذين يعرفون قوة كل منهما وأهميتهما » (٣) .

---

(١) Human All Too Human, vol. i, § 585.

(٢) ليست Mediocrity بالضبط التفاهة ، وليست هى التوسط ، وإنما هى صفة الرجل أو الأمر دون المتوسط ، هى أقل من المتوسط . ولكنها أقرب إلى التفاهة منها إلى التوسط (المترجم) .

(٣) Ibid., vol. ii, ? 230. ٣

وبصرف النظر عن مثل هذه النماذج الفلسفية فإن المتساهل Commuter هو صورة للرجل فى وسط العمر . إنه يتناول طعام الإفطار وهو يقرأ عناوين الصحف ويقبل زوجته وأولاده مودعاً إياهم فى سرعة . ثم يندفع إلى المحطة حيث يتبادل مع أمثاله أحاديث تافهة عن الجو على طول الرصيف ، ويعيد قراءة صحيفته ويدخن غليونه فى القطار ، ثم يمشى فى غير ثبات مجتازاً الفاكهة والقاذورات فى « منهاتان » ، ويتعلق كرجل غريق بحزام من الجلد وهو يترنح فى القيام بعمله دون راحة . وبدلا من اتخاذه قرارات خطيرة يجد أمامه غالباً نوعاً من « الروتين » المنوم يشتمل على تفاصيل تافهة ليس هو فيها إلا حملا ثقيلا زائداً على الآلة كاتبة الاختزال . ويظل يكدح فى هذا العمل مخلصاً ، ويتطلع بشغف نحو الساعة التى تحجزه عن بيته ، ويفكر كم يكون ممتعاً أن ينفق مساءه مع أسرته . وفى الساعة الخامسة يركب مرة أخرى قطاره فى نشاط معطل ، ويتبادل بعض الأنخاب مع أمثاله ، ويدخن ثانية فى عظمة فلسفية وهو يتأمل المآسى اليومية فى اللعبة الوطنية . وفى السادسة يكون فى بيته ، حتى إذا كانت الساعة الثامنة تعجب لم أسرع ذلك الإسراع .

ذلك أنه كان حتى ذلك الوقت قد ارتاد خبايا الحب إلى الأعماق ، فاكتشف ما فيه من حرب تختفى تحت قناعه اللطيف . وقد أدى الإلف والكلال إلى تبريد حمى جسده . هذا إلى أنه كيف يمكن أن يحب الإنسان امرأة فى الصباح . فامرأته لا تلبس له ، بل حين يكون قد انصرف ، ولم يعد له فى ذهنها مكان . إنه يراها مهملة منكوشة الشعر على حين يلقى طول النهار نساءاً قد صففن شعورهن ، وتعطرن ، وارتدين ملابس تلفت الأنظار ، حتى إذا وقع بصره على ركبهن المستديرة وفساتينهن المغرية وابتساماتهن المشجعة وعطرهن المحرك للشهوة ، طاف بخياله كل ساعة الانزلاق إلى مهاوى الخيانة الزوجية . ولكنه يحاول جهد طاقته أن يحب زوجته ، فيقبلها بانتظام وكما ينبغى مرتين كل يوم . ويغامر مرة أو مرتين ، ثم يتبين له سخف الفسق ، ويحمد ربه أن أمره لم يكتشف ، وينصرف بعد ذلك إلى نثر الحياة .

وفيما عدا ذلك فإنه ينفق وقته بجز الحشائش فى حديقته ، ويلعب البردج

والحولف ، ويثرثر هاوياً فى السياسة المحلية . ولا يلبث أن يضيق بهذه التسلية الأخيرة ، إذ يكتشف أن آلة السياسة مرتبة ترتيباً يخيف كل شخص أمين فيبتعد عنها ، وأنها تقتص من كل من يبذل جهداً صادقاً للسير فى طريق السياسة الصحيح والكفاية . وعندئذ إما أن يتلاءم عن وعى مع قواعد هذه اللعبة السخيفة ، وإما أن يعود إلى بيته يعيش فيه رجلا أهدأ وأعمق . ويخلص فى آخر الأمر إلى هذه النتيجة وهى أن أحكم ما انطلق به اللسان أو خطه القلم ما قاله الرحالة سكارمنتادو Scarmentado : « وإذ قد رأيت حتى الآن كل نادر وجميل على ظهر الأرض فقد عزمت ألا أرى شيئاً بعد ذلك إلا بيتى . فبنيت على زوجة ، ولم ألبث حتى دخلنى الشك أنها تخوننى . وعلى الرغم من هذا الشك فما زلت أرى أن هذه الحال أسعد ما وجدت فى ظروف الحياة » (١) .

وفى خلال ذلك تكون زوجته قد تعلمت أيضاً شيئاً من الحياة . لقد كانت فى السنوات الرومانتيكية ملاكاً ، أما الآن فهى مدبرة للمنزل . ويثبط هذا الاكتشاف عزمها . ولماذا تحتفظ بمفاتن اللباس والزينة لرجل ينظر إليها بديلا اقتصادياً عن خادمة ؟ أو أنها لا تطهو ولا تنظف ، بل تؤدى لها هذه الأمور والكثير من غيرها . وتترك هى خالية حرة محترمة بلا عمل طول النهار . فتنفق أوقات الصباح تزين نفسها ، وترعى بعد الظهر شئون الطبقة الفقيرة . تقرأ فى كتب الصحة والأمومة ، وتخبر الأمهات البائسات كيف يربين أبناءهن ، وإنما تريد تلك الأمهات أن يتعلمن طريقة لمنع الحمل . وتنزل الزوجة ميادين السياسة وتوزع منشورات ، وتصوت لوغد نكاية فى وغد آخر . وتحضر فصولا دراسية عالية ، وتنظم أندية ، وتصغى فى صبر مدرسى لقصاصين وفلاسفة و « إنجليز » (٢) .

ثم فجأة إذا بها تصبح أماً . إنها تسر وتفزع . لعل حملها يؤدى إلى وفاتها . فلم تتهيأ لها الفرصة الكافية لأداء الواجبات الصحية التى تصلحها جسمانياً لهذه المغامرة الكبرى . ولكنها فخور أيضاً . وتحس بضرب جديد من البلوغ

(١) Voltaire, The Travels of Scarmentado.

(٢) يشير المؤلف إلى ما كان جارياً فى أمريكا من حبهم لسماع الإنجليز لأن لهجتهم صحيحة (المترجم) .

والرشد . إنها الآن امرأة لا فتاة عاطلة ، ولا قطعة من الزينة أو مجرد متعة لتأدية الغرض الجنسى . وتجتاز محنتها بشجاعة وتدعو الله أن يكون المولود ذكراً ، حتى إذا رأته أنثى بكت لحظة ، ثم تعجب لجمال طفلتها الذى ليس له مثيل . وتعمل للمولودة فى شغف تشتغل طول النهار وأطرافاً من الليل دون أن يبقى لها وقت تتطلع فيه إلى « السعادة » ومع ذلك يشع من عينيها بريق جديد من الرضا . ما أروع الطفل وهو مغمور فى أشعة شمس الشتاء . وما هذا الحنان الجديد الذى يشع من عينى زوجها ! وهكذا تعزينا الطبيعة عن عبوديتنا ، وتربط بين تضحيتنا العظمى وبين سعادتنا الكبرى .

٤ — الموت

يقول صديق لا يرحم : « ينبغى أن يموت الناس فى ذروة (١) حياتهم » . ولكنهم لا يموتون . وعندئذ يلتقى كل من الشباب والموت صاحبه وهما يتجولان فى الطريق .

ما الشيخوخة ؟ لا ريب أنها فى أساسها شرط من شروط الجسد ، من البروتوبلازمة التى تبلغ بالضرورة نهـــاية حياتها . إنهـــا تراجع involution . فسيولوجى ونفسانى . إنها تصلب فى الشرايين وفى القوالب العقلية ، وتعطيل فى الفكر والدم . يكون الرجل شيخاً بحسب شرايينه ، وشاباً بحسب أفكاره .

وتتناقص القدرة على الحفظ مع كل عقد من حياتنا ، كما لو كانت ألياف الترابط فى المخ قد تكدست وثقل عليها حمل النماذج . ولا تجد فيما يظهر مكاناً لمادة جديدة ، وتزول الانطباعات الحديثة بسرعة كما تتبخر وعود الساسة أو كما تمحى ذاكرة الشعب . وكلما ازداد الاضمحلال ، فقدت الخيوط وضاعت الوحدة واضطرب التناسق ، ويقع الشيخ فى نوع من الذهول العارض يضطره إلى الرجوع إلى مرضعة جولييت الثائرة ، ثم يعيش فى خيال من القصص كالتى رواها دى كوينسى (٢) De Quincey

---

(١) ذروة الحياة فى نظر المؤلف عندما يبلغ الخامسة والثلاثين ، كما ذكر من قبل (المترجم) .
(٢) دى كوينسى (١٧٨٥ — ١٨٥٩) كاتب إنجليزى ، وأشهر مؤلفاته « اعترافات آكل أفيون » (المترجم) .

ثم كما كان نمو الطفل أسرع فكان أصغر ، كذلك الحال بالشيخ تمر سنواته أسرع كل يوم . وكما كان الطفل تحميه عدم الحساسية عند دخوله إلى الدنيا كذلك الشيخوخة ييسر أمرها فتور فى الإحساس والإرادة ، وتدبر الطبيعة رويداً رويداً نوعاً من التخدير العام قبل أن تسمح لمنجل الزمان بتتمة أعظم عملياته .

وكلما تناقصت حدة الإحساسات اضمحل الإحساس بالحيوية فتفسح الرغبة فى الحياة الطريق لعدم الاكتراث وللانتظار الصابر . ويمتزج الخوف من الموت بالرغبة فى الراحة . ولعله عندئذ إذا كان الإنسان قد عاش عيشة راضية وعرف المعنى الكامل للحب وارتشف كأس التجارب حتى الثمالة فقد يمكن أن يموت الإنسان راضياً مخلياً مكانه فى المسرح لتمثيلية أفضل .

ولكن ما الحال إذا لم تكن التمثيلية أفضل أبداً ، بل تدور على الدوام حول العذاب والموت ، وتقص إلى غير نهاية نفس القصة السخيفة ؟ فهناك المضايقة ، والشك الذى يأكل قلب الحكمة ويسمم العمر . ها هى ذى السيارة التى ذهبنا فيها فى العام الماضى من ولاية كليفلند إلى إلبريا ، ألا ما أغرب أن تتم هذه الرحلة حين لا نكون فى حاجة إليها . سينتهى أمرها سريعاً ، وتحل محلها رحلة أخرى . ويموت الركاب ويحل محلهم آخرون . هنا باستمرار طلاب جدد ، وعربات جديدة ، والنهاية واحدة . هنا فسق بلا حياء ، وقتل مدبر وحشى . نعم لقد كانوا على الدوام كذلك ، ويظهر أنهم سيظلون دائماً كذلك . هنا فيضان يجرف أمامه آلاف الأحياء وعمل أجيال . هنا ثكالى وقلوب محطمة ومرارة الحب الضائع . وهنا لا تزال توجد أثقال المنصب وإهمال القانون . رشوة فى مجالس القضاء ، وعجز فى كراسى الحكم . هنا العبودية ، والعمل الشاق الذى يخرج أجساماً قوية ونفوساً صغيرة . هنا وفى كل مكان كفاح فى سبيل العيش بعد أن تعقدت الحياة بالحروب . هنا التاريخ الذى يبدو دائرة تافهة تتكرر إلى مالانهاية له . وهؤلاء الشباب ذوو العيون المتطلعة سيرتكبون نفس الأخطاء التى ارتكبناها ، ويضلون عن الطريق بنفس الأحلام . سيتعذبون ، ويدهشون ويستسلمون ، ويشيخون .

أعظم مأساة للشيخوخة أن تتلفت إلى الوراء بعين خيالية ، فلا ترى إلا عذاب البشرية . ومن العسير أن نمدح الحياة حين تهجرنا الحياة . وإذا كنا نتكلم عنها بخير حتى عند الموت ، فإنما ذلك لأننا نأمل أننا سنجدها ثانية في ثوب أجمل ، وفي عالم من الأرواح غير المجسدة والباقية .

إن هذه الأبراج التي تتجه في كل مكان إلى أعلى متجاهلة الألم ومقوية الأمل ، وهذه الأبنية الشامخة في المدن أو الكنائس البسيطة في التلال — إنها ترتفع في كل خطوة من الأرض إلى السماء ، ففي كل قرية في أي أمة على ظهر الأرض تجدها تتحدى الشك وتدعو القلوب المنكسرة إلى العزاء . أهذا كله وهم باطل ؟ — ألا يوجد شيء بعد الحياة سوى الموت ، ولا شيء بعد الموت سوى الفنـــاء ؟ لا يمكن أن ندري . ولكن ما دام الناس يتعـــذبون فهذه الأبراج ستظل قائمة .

ومع ذلك فما الحيلة إذا كان لابد لنا من الموت من أجل الحياة ؟ الحق أننا لسنا أفراداً ، ولأننا نظن أنفسنا كذلك يبدو الموت شيئاً لا يغتفر . نحن أعضاء مؤقتون في جسم الجنس ، وخلايا في بدن الحياة . إننا نموت ونختفي لعل الحياة تظل في شبابها وقوتها . ولو أنا عشنا إلى ما شاء الله ، لحمد النماء ولم يجد الشباب له مكاناً على ظهر الأرض . والموت كالأسلوب هو حذف النفاية واستئصال الزائد . ونحن عن طريق الحب نصوغ حيويتنا في صورة جديدة من أنفسنا قبل أن تموت الصورة القديمة . وعن طريق الأبوة نملأ الفجوة بين الأجيال ، ونهرب من عدوان الموت . وهنا ، حتى في فيضان النهر ، تولد الأطفال . وهنا ترضع الأم طفلها منعزلة في شجرة ومحوطة بالماء الفائر . في قلب الموت تجدد الحياة نفسها في خلود .

وهكذا قد تأتي الحكمة كهدية للعمر ، فترى الأشياء في مواضعها ، وترى كل جزء في صلته بالمجموع ، ولعلها تبلغ تلك النظرة الشاملة التي يغفر فيها الإدراك الحسن كل شيء . وإذا كان من وظيفة الفلسفة أن تخلع على الحياة معنى يقلل من قيمة الموت ، فستبين الحكمة أن الفساد إنما يصيب الجزء ، وأن الحياة نفسها لا تموت حين نموت .

ومنذ ثلاثة آلاف سنة مضت ظن رجل أن الإنسان قد يطير ، فصنع لنفسه أجنحة ، وثق بهـا ابنه إيكاروس[1] Icarus وحاول أن يطير فسقط في البحر . وحملت الحياة هذا الحلم ببسالة . ومرت أجيال ثلاثون وجاء ليوناردو دافنشي الذي صنع الجسد بالروح ، فخطط حول رسومه (وهي رسوم تبلغ من الجمال حداً يبهر الأنفاس عند رؤيتها) تصميمات وحسابات لآلة تطير ، وترك في مذكراته عبارة صغيرة يرن جرسها في صفحة الذاكرة ، وقد سمعت : « ستكون أجنحة » . وأخفق ليوناردو ومات ، ولكن الحياة حملت الحلم . ومرت أجيال وقال الناس : لن يطير الإنسان أبداً ، لأن هذه ليست إرادة الله . ثم طار الإنسان . فالحياة هي تلك التي تستطيع أن تتشبث بالغرض ثلاثة آلاف سنة ولا تستسلم أبداً . الفرد يخفق ولكن الحياة تنجح . الفرد يموت ولكن الحياة التي لا تكل ولا تثبط همتها تمضي في سبيلها ، متعجبة ، متطلعة ، مدبرة ، محاولة ، متسلقة ، بالغة ، ثم لا تزال تتطلع .

ها هنا رجل شيخ على فراش الموت يزعجه أصدقاء لا حيلة لهم ، وأقرباء يولولون . ما أفزع هذا المنظر — هذا الهيكل الرفيع وقد اكتسى بلحم رخو معروق ، هذا الفم الأدرد في وجه مصفر ، هذا اللسان العاجز عن الكلام ، وهاتان العينان العاجزتان عن الإبصار . على هذا المعبر مر الشباب بكل آماله ومحاولاته . وعلى هذا المعبر اجتازت الرجولة بكل عذابها وعملها . وعلى هذا المعبر مرت الصحة والقوة والمنافسة البهيجة . هذه الذراع ، لقد أنزلت ضربات عظيمة وحاربت للنصر في ألعاب كبيرة . وعلى هذا المعبر مرت المعرفة والعلم والحكمة . لقد جمع هذا الرجل المعرفة بالألم والمشقة سبعين عاماً . وأصبح مخه مخزناً لتجارب منوعة ، ومركزاً لآلاف الحيل الفكرية والعملية . وتعلم قلبه من العذاب الرقة كما تعلم عقله الإدراك . مرت به سبعون عاماً ، فنما من حيوان إلى إنسان قادر على البحث عن الحقيقة وخلق الجمال . ولكن المنية قد أنشبت فيه أظفارها ، فسممه الموت وخنقه ، وجمد دمه ، وقبض قلبه ، وفجر مخه ، وحشرج حلقه . لقد انتصر الموت .

(١) في الأسطورة الإغريقية أن إيكاروس ابن ديدالوس طار مع أبيه من جزيرة كريت ، ولكن الابن أذاب الشمع الذي يشيل أجنحته فوقع في البحر (المترجم) .

وفى الخارج تزقزق العصافير على فروع الأشجار ، ويغنى الديك للشمس أنشودته . ويفيض النــور على الحقول ، وتتفتح البراعم ، وترفع ســوق النبات رءوسها فى ثقة إلى أعلى . ويتصاعد العصير فى الشجر . هنا أطفال : ماذا يجعلهم بهذا المرح ، يجرون فى جنون فوق الحشائش الندية ، ضاحكين ، صائحين ، مطاردين ، هاربين ، لاهثين ، لا يصيبهم كلال ؟ أى نشاط ، وأى روح ، وأى سعادة . ماذا يعنيهم من الموت ؟ سيتعلمون وينمون ويحبون ويكافحون ويخلقون ، ولعلهم يرفعون الحياة إلى أعلى خطوة صغيرة قبل أن يصيبهم الموت . وحين يموتون سيغشون الموت بالأطفال ، وبهذه العناية الأبوية التى تجعل خلفهم أبدع من أنفسهم . وهناك فى الحدائق يمر المحبون فى غسق الليل وهم يحسبون أن أحداً لايراهم . إن حديثهم الخافت يختلط بهمهمة الحشرات وهى تنادى ذكورها . إن الظمأ القديم ينطق من خلال الشغف والعيون الناعسة ، ويتنقل جنون شريف خلال الأيدى المتعانقة والشفاه المتلامسة .

إنها الحياة تنتصر .

مراجع هذا الكتاب

Books marked with a * are recommended to the reader.

Adams, Brooks, The Law of Civilization and Decay. London, 1895.

* Adams, Henry. The Education of Henry Adams. Boston, 1919.

— Mont St. Michel and Chartres. Boston, 1926.

Adler, Alfred. The Neurotic Constitution. New York, 1917.

Allen, Grant. Evolution of the Idea of God. New York, 1897.

Angell, A.R. Psychology. New York, 1908.

Anon. The Wisdom of Confucius. Harper & Bros., no date.

Babbitt, Irving. Democracy and Leadership. Boston, 1922.

Bacon, Francis. Philosophical works, ed. J.M. Robertson. London, 1905.

Barnes, H.E. The New History and the Social Sciences. New York, 1925.

Beard, Charles. The Economic Basis of Politics. New York, 1923.

* — ed. Whither Mankind? New York, 1928.

Bergson, Henri. Matter and Memory. London, 1911.

Berkman, A. The Bolshevik Myth. New York, 1925.

* Bertaut, J. Napoleon in His Own Words, Chicago, 1916.

Bluntschili, J.K. Theory of the State. Oxford, 1911.

Bolsche, W. Love-Life in Nature. 2 vol. New York, 1926.

Bosanquet, B. History of Aesthetic. London, 1904.

Bradley, F.H. Appearance and Healthy. London, 1920.

— Principles of Logic. London, 1883.

* Brandes, Georg. Main Currents in Nineteenth Century Literature. 6 vol. New York, 1905.

Brousson, J.J. Anatole France en Pantoufles. Paris, 1924.

* — Anatole France Himself. New York, 1926. (Translation of preceding).

Brown, Brian. The Wisdom of the Chinese. New York, 1921.

Buckle, H.T. Introduction to the History of Civilization. 4 vol. New York, 1913.

Burke, Edmund. Reflections on the French Revolution. Everyman Library.

Bury, J.B. The Idea of Progress. London, 1920.
Carlyle, Thomas. Chartism, New York, 1901.
— Heroes and Hero-Warship. New York, 1901.
Carpenter, E. Towards Democracy. London, 1911.
Cassirer, E. Substance and Function. Chicago, 1923.
Chamberlain, H.S. The Foundations of the Nineteenth Century. 2 vol. New York, 1912.
Chesterton, G.K. Short History of England. New York, 1917,
Clemens, S.L. ("Mark Twain"). What is Man ? New York. 1917.
Condorcet, M.J.A., Marquis de. A sketch of a Tableau of the Progress of the Human Spirit. New York, 1796.
Groce, Benedetto. History : Its Theory and Practice. New York, 1921.
Crozier, J.B. Sociology Applied to Practical Politics. London, 1911.

Crozier, J.B. Sociology Applied to Practical Politics. London, 1911.

* Darwin, Charles. The Descent of Man. A.L. Burt, New York, no date.
Dewey, John. Experience and Nature. Chicago, 1925.
Disraeli, Benjamin. Tancred. London, 1924.
Doane, T.W. Bible Myths and Their Parallels in Other Religions. New York, 1882.
Drever, J. Instinct in Man. Cambridge University Press, 1917.
Driesch, Hans. Science and Philosophy or the Organism. University of Edinburgh Press, 1908.
Durant, Will. Philosophy and the Social Problem. New York, 1917
* Eckermann, J. Conversations with Goethe. New York, 1852.
Eddington, A.S. The Nature of the Physical World. New York, 1929
Ellis, Havelock. The Dance of Life. Boston, 1923.
* — Studies in the Psychology of Sex. 6 vol. Philadelphia, 1910-11.
— A Study in British Genius. London, 1904.
Eltzbacher, Paul. Anarchism. New York, 1908.
Emerson, R.W. Representative Men. Philadelphia (McKay), no date.
Encyclopaedia Britannica. 11th ed.
Fisher, I. National Vitality. Government Printing Office, Washington, 1908.
* Flaubert, Gustave. Works, 4th ed. New York (W.J. Black), 1923.

* France, Anatole. The Garden of Epicurus. New York, 1908.
* — M. Bergeret in Paris. New York, 1921.
* — On Life and letters. Four series. New York, 1914-24.
* — Penguin Isle. London, 1924.
* — Thais. London, 1909.
* Frazer, Sir James. The Golden Bough. 4th ed. New York, 1925.

Freud, Sigmund. Interpretation of Dreams. New York, 1913.

— Leonardo da Vinci. New York, 1916.

— Three Contributions to the Theory of Sex. New York, 1918.

Fuller, Sir B. Man as He Is. London, 1916.

Gallichan, W.M. The Great Unmarried. London, no date.

* Gibbon, Edward. Decline and Fall of the Roman Empire. 6 vol. Everyman Library.

Gobineau, Count A. de. The Inequality of Human Races. New York, 1915.

Godwin, W. Political Justice. London, 1890.

* Goethe, J.W. von. Faust. Tr. Martin. New York, 1902.
* — Truth and Fiction. New York, 1902.

Goldberg, I. Havelock Ellis. New York, 1925.

Gomperz, T. Greek Thinkers. 4 vol. New York, 1901.

Gorki, Maxim. Reminiscences of Tolstoi. New York, 1920.

Gourmont, Remy de. The Natural Philosophy of Love. New York, 1922.

Grant, Madison. The Passing of the Great Race. New York, 1916.

Grote, G. History of Greece. 12 vol. Everyman Library.

Haldane, J.B.S., Possible Worlds. New York, 1928.

Haldane, J.S. Mechanism, Life and Personality. London, 1921.

Hall, G.S. Adolescence. 2 vol. New York, 1905.

Hammond, J.L., and B. The Town Labourer, 1760-1832. London, 1917.

* Hardy, Thomas. Tess of the d'Urbervilles. New York, 1892.

— Jude the Obscure. New York, Harper & Bros.

Headlam, J.W. Bismarck. New York, 1899.

Hegel, G.W.F. Philosophy of History. New York, 1910.

Heine, Heinrich. Memoirs. 2 vol. London, 1910.

Herder, J.G. von. Outlines of a Philosophy of the History of Man. London, 1800.

Hobhouse, L.T. Morals in Evolution. London, 1915.

Hoernle, R.F.A. Studies in Contemporary Metaphysics. New York, 1920.

Holmes, S.J. Studies in Evolution and Genetics. New York, 1923.
Holt, E. The Concept of Consciousness. London, 1912.
Howard, C. Sex Worship. Chicago, 1909.
Huxley, H.T. Evolution and Ethics. New York, 1886.

* Inge, Dean R.W. Outspoken Essays. Second Series. New York, Longmans, no date.

James, William. The Meaning of Truth. New York, 1909.
Jennings, H.S. Behavior of the Lower Organisms. New York, 1923.
Johnson, R.M. The Corsican. Boston, 1910.
Jones, Sir E. Papers on Psychoanalysis, London, 1913.
— Analytical Psychology. New York, 1916.
Jung, C.G. Psychology of the Unconscious. New York, 1916.

Kallen, H. Why Religion. New York, 1927.

* Kellogg, J.H. The New Dietetics. Battle Greek, 1927.

* Keyserling, Count Hermann. Europe. New York, 1928.

* — Travel Diary of a Philosopher. New York, 1925.
— The World in the Making. New York, 1927.
Kisch, E.H. The Sexual Life of Woman. New York, 1910.
Klausner, J. Jesus of Nazareth. New York, 1926.
Kihler, W. The Mentality of Apes. New York, 1925.
Krafft-Ebing, R.F. von. Psychopathia Sexualis. New York, 1906.
Kropotkin, P. Mutual Aid as a Factor in Evolution. New York, 1902.
Langdon-Davis, J. The New Age of Faith. New York, 1925.
Lange, F. History of Materialism. New York, 1925.

* La Rochefoucauld, François de. Réflections. London, 1871.

Lea, H.C. History of the Inquisition of Spain. 4 vol. New York, 1922.
Le Bon, G. The Evolution of Forces. New York, 1914.
— The Evolution of Matter. New York, 1914.
Leuba, J.H. Belief in God and Immortality. New York, 1916.
Loeb, J. Comparative Physiology of the Brain. New York, 1900.
— The Organism as a Whole. New York, 1916.
Lubbock, Sir. J. (Lord Avebury). The Origins of Civilization. London, 1870.

* Lucretius. On the Nature of Things. Tr. Munro.
Ludovici, A.M. A Defense of Aristocracy. London, 1915.

Maine, Sir. Henry. Popular Government. London, 1886.
* Mallock, W.H. Lucretius on Life and Death. New York, 1900.
Marshall, H.R. Instinct and Reason. New York, 1898.
* Martin, E.D. The Meaning of a Liberal Education. New York, 1926.
— The Mystery of Religion. New York, 1924.
Marx, Karl. Critique of Political Economy. New York, 1904.
McCabe, J. The Evolution of Mind. London, 1910.
* McCollum, E.V. The Newer Knowledge of Nutrition. New York, 1918.
McDougall, W. Social Psychology. 13th ed.
Mencken, H.L. Prejudices. Four Series. New York, 1919-24.
Merdith, George. Ordeal of Richard Feverel. Boston, 1888.
Mill, J.S. The Subjection of Women. London, 1911.
Moll, A. The Sexual Education of the Child. New York, 1913.
* Montesquieu, C. de. Spirit of Laws, 2 vol. New York, 1900.
* Morley, J. Diderot and the Encyclopedists. 2 vol. London, 1923.
* — Voltaire. London, 1878.
Muirhead, J.H. Contemporary British Philosophy. London, 1924.
Murray, Gilbert. Four Stages of Greek Religion. New York, 1912.
Musset, Alfred de. Confessions of a Child of the Century. New York, 1905.
Nietzsche, Friedrich. Antichrist. New York, 1915.
— Beyond Good and Evil. New York, 1914.
— Dawn of Day. London, 1911.
— Human All Too Human. 2 vol. London, 1911-15.
— The Joyful Wisdom. London, 1910.
* — Thus Spake Zarathustra. New York, 1906.
— The Will to Power. 2 vol. London, 1913-14.
Nordeau, Max. The Interpretation of History. London, 1910.
Paine, Thomas. The Rights of Man.
Pellissier, G. Voltaire Philosophe. Paris, 1908.
Petrie, Flinders. The Revolutions of Civilization. London, no date.
Pirandello, Luigi. Three Plays. New York, 1922.
* Plato. Works. Tr. Jowett. 4 vol. Jefferson Press, New York, no date.
* Plutarch. Lives. New York (Hurst), no date.
Powys, J.C. The Religion of a Sceptic. New York, 1925.
Pringle, H.F. Alfred E. Smith. New York, 1928.

Reinach, S. Orpheus, a History of Religions. New York, 1909.
Renan, E. History of the People of Israel. 5 vol. Boston, 1886-96.
Ribot, T. Psychology of the Emotions. London, 1906.
Ripley, W.Z. The Races of Europe. London (Kegan Paul), no date.
Rivers, W.H. Psychology of Politics. London, 1923.
Rockow, L. Contemporary Political Thought. London. 1925.
Ross, E.A. Changing America. New York, 1912.
Rousseau, J.J. Social Contract ; Discourses. Everyman Library.
Royden, A.M. Woman and the Sovereign State. London, 1917.

Russell, Bertrand. Analysis of Matter. London, 1927.
* — Education and the Good Life. New York, 1926.
— Philosophy,. New York, 1927.
— Sceptical Essays. New York, 1928.
— What I believe. New York, 1925.

* Salter, W. Nietzsche the Thinker. New York, 1917.
* Santayana, George. Reason in Society. New York, 1905.
— The Sense of Beauty. New York, 1896.
Schopenhauer, Arthur. The World as will and Idea. 3 vol. London, 1883.

Sellars, R. The New Step in Democracy. New York, 1916.
Semple, E.C. Influence of Geographic Environment. New York,1911.
Shotwell, J.T. The Religious Revolution of Today. Boston, 1913.
* Siegfried, A. America Comes of Age. New York, 1927.
Simkhovitch, V. Toward the Understanding of Jesus. New York,1921.
Sinclair, May. The New Idealism. New York, 1922.
Smith, Adam. The Wealth of Nations. 3 vol. Everyman Library.
Smith, W.R. The Religion of the Semites. 2 vol. New York, 1889.
Spencer, Herbert. Principles of Biology. 2 vol. New York, 1910.
— Principles of Psychology. 2 vol. New York, 1910.
— Principles of Sociology. 3 vol. New York, 1910.
* Spengler, Oswald. Decline of the West. 2 vol. New York, 1926-8.
* Spinoza, Benedict. Ethics. Everyman Library.
Stirner, Max (Caspar Schmidt). The Ego and His Own. Modern Library.

* Sumner, W.G. Folkways. New York, 1906.
Sutherland, A. Origin and Growth of the Moral Instincts. 2 vol. London, 1898.
* Symonds, J.A. The Renaissance in Italy. 7 vol. New York, 1900.

* Taine, Hippolyte. The French Revolution. 3 vol. New York, 1878-85.
* — History of English Literature. New York (Hurst), no date.
* — The Modern Regime. 2 vol. New York, 1890.
Tarde, G. The Laws of Imitation. New York, 1903.
Thomas, W.I. Sex and Society. Chicago, 1907.
Thompson, F. Shelley. Girard, Kan. Little Blue Book Series.
Thompson, H.B. Mental Traits of Sex. Chicago, 1903.
Thorndike, E.L. Individuality. Boston, 1911.
— The Original Nature of Man. New York, 1913.
Thorndike, L.A. Short History of Civilization. New York, 1926.
Todd, A.J. Theories of Social Progress. New York, 1922.
Tocqueville, Alexis de. Democracy in America. 2 vol. New York, 1912.

Vico, G.B. Principi di Scienza Nuova. Milano, 1831.
* Voltaire, F.M.A. de. General History (Essay on the Morals and Character of the Nations). St. Hubert Guild ed. 22 vol. New York, 1901.

Walsh, J.J. Cures. New York, 1923.
* Watson, J.B. Behavior. New York, 1914.
Weininger, O. Sex and Character. New York (Putnam), no date.
Westermark, E. History of Human Marriage. London, 1894.
Weyl, W. The End of the War. New York, 1918.
Whitehead, A.N. Science and the Modern World. New York, 1926.
Wilde, O. The Soul of Man under Socialism, in Works, 1909.
Williams, E.T. China Yesterday and Today. New York, 1927.
Williams, H.S. The Science of Happiness. New York, 1909.
Willoughby, W.W. Social Justice. New York, 1900.

Xenophon. Memorabilia. Everyman Library.

Zimmern, A. The Greek Commonwealth. Oxford, 1915.

ثبت بالمصطلحات

A

Ability ... ... قدرة
Abiogenesis ... ... التولد الذاتي
Abnormal ... ... شـاذ
Absolute ... ... مطلق
Abstraction ... ... تجريد
Academic ... ... أكاديمي
Accident ... ... عرض
Accidental... ... ... عرضي
Acquired ... ...مكتسب
Acquisition ... ... اكتساب
Adaptation ... ... تكيف — ملاءمة
Adornment ... ... زخرفة
Aesthetics ... ... علم الجمال
Affinity ... ... تآلف
Agnostic ... ... لا أدرى...
Agnosticism ... ... لا أدرية ...
Altruism ... ... إيثار — غيرية
Analysis ... ... تحليـل
Analytical ... ... تحليـلي
Anarchism ... ... الفوضوية
Ancestor-worship ... عبادة الأسـلاف
Animism ... ... أنيمية — أنيمزم...
Animistic ... ... أنيمي
Anthropomorphism ... ... تشبيـه
Appearance ... ... ظـاهر
Appetite... ... ... شـهوة
Apriori ... ... أولى — قبل التجربة
Apriorism ... أولية — المذهب الأولى
Appreciation ... ... تقـدير
Argument ... ... حجة — دليل

Aristocracy ... ... أرسـتقراطية
Art ... ... فن
Artificial ... ... صناعي
Artisan... ... ... صانع — صانع يدوى
Artist ... ... فنـان
Ascetism ... ... زهـد
Aspect ... ... مظهـر
Association ... ... ترابط ...
Association of ideas ترابط المعانى — تداعى المعانى
Associationism ... ... الترابطية
Assumption ... ... افتراض — زعم
Atavism ... ... ارتداد — ردة
Atheîsm ... ... لادينية — إلحاد
Atheist ... ... لاديني — ملحد
Attraction ... ... جاذبية — جذب
Attractiveness ... ... جاذبية...
Attention ... ... انتبـاه
Average ... ... متوسـط
Aversion ... ... نفـور
Authority ... ... سـلطة...
Axiom ... ... بديهية

B

Barbarism... ... ... بربرية — همجية
Beauty ... ... جمـال
Behaviorism السلوكية — المذهب السلوكي
Behaviorist ... ... السلوكي
Being ... ... كائن
Belief... ... ... اعتقـاد
Birth control ... ... تحديد النسل
Blame ... ... لوم
Brain ... ... مخ

C

Category ... ... مقولة – قالب

Cause ... ... سبب – علة ...

Causality ... ... سببية

Censure ... ... ذم

Certain ... ... يقيني ...

Certainty ... ... يقين ...

Chance ... ... صدفة – اتفاق

Change ... ... تغيير ...

Character ... ... خلق ...

Chastity ... ... عفة

Chauvinism ... ... نعرة وطنية ...

Chronology ... ... حوليات

Civilisation ... ... حضارة ...

Clarity ... ... وضوح ...

Classification ... ... تصنيف

Code ... ... قانون – شريعة ...

Coherence ... ... تماسك

Cohesion ... ... التحام

Common sense ... ... العقل السليم ...

Commercialism ... ... المذهب التجارى

Community ... ... جماعة

Companionate marriage ... زواج المتعة

Competition ... ... تنافس

Composite history ... التاريخ المركب

Concept ... ... تصور – مفهوم ...

Conflict ... ... صراع ...

Conscience ... ... ضمير ...

Consciousness ... ... شعور

Conservation of energy ... بقاء الطاقة

Conservatism ... المحافظة – التقليدية

Conservative ... ... محافظ ...

Consistent ... ... متماسك – متين

Consolation ... ... عزاء

Constitution ... ... تأمل

Contemplation ... ... دستور

Continuity ... ... اتصال

Contradiction ... ... تناقض

Convention ... ... اصطلاح – عرف ...

Coordination ... ... تنسيق – توافق

Copulation ... ... نكاح ...

Corporeal ... ... جسمانى

Cosmic ... ... كونى ...

Cosmology ... كسمولوجيا (علم الكوينات) ...

Cosmos ... ... كون ...

Creation ... ... خلق ...

Creative ... ... خالق ...

Criterion ... ... ميزان – معيار

Criticism ... ... نقد

Cubism ... ... التكعيبية (مذهب فى الفن) ...

Culture ... ... ثقافة

Curiosity ... ... استطلاع ...

Custom ... ... عرف – عادة

Cynics ... ... الكلبية

Cynicism ... ... الكلبيون

D

Decoration ... ... زخرفة

Decorative ... ... زخرفى

Deduction استنباط قياسى ، استدلال قياسى

Deductive ... ... قياسى ...

Deferment of marriage تأخير الزواج

Deity ... ... ألوهية – آلهة

Deliberation ... ... روية ...

Delusion ... ... وهم

Democracy ... ... ديمقراطية

Destiny ... ... مصير – قدر

Determinism ... ... حتميـــة

Development ... ... نمـــو

Dialectic ... ... جدل – جدلى

Differentiation ... ... تمايز ...

Discernement ... ... تمييز ...

Discretion ... ... فطنـــة

Disgust ... ... تقزز – نفور

Divine ... ... إلهى

Divine Will ... ... الإرادة الإلهية

Divorce ... ... طـــلاق

Dogma ... ... عقيـــدة

Dogmatic ... ... دجماطيق – (جازم) ...

Dogmatism ...(قطعية – جزمية) – دجماطية

Doubt ... ... شـــك

Doubt (Methodic doubt) ...شك منهجى

Dualism ... ... ثنائيـــة

E

Early marriage ... ... زواج مبكر ...

Ecstasy ... ... نشـــوة

Education ... ... تربيـــة

Ego ... ... الأنا

Egoism ... ... الأنانية – الأثرة ...

Emancipation ... ... تحرير ...

Emancipated woman ... امرأة متحررة

Empiricism ... ... تجريبيـــة

Endogamy ... الزواج من داخل القبيلة

Energy ... ... طاقة

Enlightenment ... ... عصر التنوير

Enslavement ... استعباد – استرقاق

Environment ... ... بيئـــة

Epiphenomenon ... ... ظاهرة ثانوية

Epistemology (نظرية المعرفة) إبستمولوجيا

Epistemdogs أصحاب المعارف – إبستمولوجيون

Equality ... ... مساواة

Eros ... ... الحب (الجنسى) ...

Erotic imagery ... تصورات شهوانية ...

Essence ... ... ماهية – جوهر

Essential ... ... جوهرى

Esoteric ... ... مســـتور

Eternal ... ... أزلا – أبدى

Eternal recurrence(مذهب نيتشه)الدورةالأزلية

Eternity... ... ... الأبدية – الأزلية

Ethics ... ... علم الأخلاق

Event ... ... حادثة

Evidence ... ... الوضـوح

Evolution ... ... تطور

Existence ... ... وجـــود

Exogamy ... الزواج من خارج القبيلة

Exoteric... ... ... منشور

Experience ... ... تجربة ...

Experiment ... ... تجربة علمية...

External world ... ... العالم الخارجى

F

Fact ... ... واقعة – حقيقة

Factor ... ... عامل ...

Faith ... ... إيمـــان

Fallible ... ... غير معصوم – قابل للخطأ

Family ... ... أسرة ...

Fatalism ... الجبرية – القضاء والقدر

Freedom ... ... الحـــرية

Free love ... ... الزواج الحر ...

Feudalism ... ... الإقطاع

Form ... ... صورة – شكل

Formula ... ... صيغة – قانون

Formulation ... ... صيغة ...

Foundation ... ... أساس...

G

General ... ... عـــام...

Generalisation ... ... تعميم ...

Genius ... ... عبقرية
Ghost ... ... شبح
Good ... ... الخير
Group ... ... جماعة
Guilt ... ... ذنب ...
Guilty ... ... مذنب

H

Habit ... ... عادة ...
Harmonious ... ... مؤتلف
Harmony ... ... ائتلاف
Heredity ... ... وراثة ...
Heresy ... ... هرطقة – زندقة
Homosexuality ... ... الشذوذ الجنسى
Hypnotism ... ... تنويم مغناطيسى
Hypothesis ... ... فرض (علمى)
Hypothetical... ... ... فرضى ...

I

Idea ... ...(الأفلاطونى) فكرة – المثال
Idealism ... ... المثالية
Imagination ... ... الخيال
Imaginative ... ... خيالى
Immaterial ... ... لامادى
Immortality ... ... الخلود – خلود النفس
Immortal ... ... خالد
Immorality ... ... اللاأخلاقية
Impulse... ... ... دافع
Indestructivity of matter عدم فناء المادة
Individual ... ... فرد ...
Individualism ... ... الفردية
Industrialisation ... ... تصنيع
Industrial Revolution ... ...
الثورة الصناعية – الانقلاب الصناعى
Inequality ... ... تفاوت
Inert ... ... خامد
Inert matter... ... ... مادة خامدة ...
Infallible ... ... معصوم
Infallibility ... ... عصمة
Inference ... ... استدلال
Infinite ... ... لانهائى
Infinity ... ... اللانهائية ...
Initiative ... ... المبادأة
Insecurity ... ... قلق
Insight ... ... استبصار
Inspiration ... ... إلهام
Instinct ... ... غريزة
Institution ... ... نظام – منظمة
Instruction ... ... تعليم ...
Instrument ... ... أداة – آلة ...
Instrumentalism ... ... الأداتية
Integration ... ... توحيد
Intellect ... ... عقل
Intellectual ... ... فكرى
Intellectualism ... ... المذهب الفكرى
Intelligence ... ... ذكاء ...
Interpretation ... ... تأويل – تفسير
International ... ... دولى ...
Introspection ... تأمل باطنى – استبطان
Intuition ... ... حدس – بصيرة
Intuitionism ... ... الحدسية

J

Justice ... ... العدالة
Justification ... ... تبرير – تسويغ ...

K

Knowledge ... ... معرفة ...

L

Law ... ... قانون...
Leadership ... ... قيادة – رياسة
Legend ... ... أسطورة

Life ... ... حياة

Logic ... ... منطق

Logical ... ... منطقى

Loyalty ... ... ولاء

M

Machine ... آلة — جهاز (معنى سياسى)

Magic ... ... سحر

Magic formulas ... ... عزائم سحرية

Majority ... ... أكثرية

Manipulation التحسس — القبض باليد

Mankind ... ... البشرى

Marriage ... ... الزواج

Material ... ... مادى

Materialism ... ... المادية

Materialist ... ... مادى

Matter ... ... مادة

Mechanic ... ... ميكانيكى — آلى

Mechanism ... ... الميكانيكية — الآلية

Mediocrity ... ... تفاهة — توسط

Mediumistic inspiration وساطة روحية

Mental ... ... عقلى — ذهنى

Mental set ... ... الهيئة الذهنية

Metaphysics ... الميتافيزيقا — مابعد الطبيعة

Method ... ... منهج — طريقة

Scientific method ... منهج علمى

Mind ... ... عقل

Mind-matter ... ... العقلمادة

Minority ... ... أقلية

Modesty ... ... العفة — التواضع

Moderation ... ... الاعتدال

Modernism مذهب التجديد — الروح العصرية

Modernity ... ... التجديد

Monist ... ... واحدى — موحد

Monism ... ... واحدية

Monistic vitalism الحيوية الواحدية (مذهب)

Monogamy ... ... الزواج من واحدة

Morals ... ... الأخلاق

Morality ... ... الأخلاقية

Moira ... ... القضاء

Mystery ... ... سر — لغز

Mysticism ... ... تصوف

Myth ... ... قصة خرافية — خرافة

N

Nationalise ... ... يؤمم

Nationalised machines آلات مؤممة

Natural ... ... طبيعى

Naturalism ... ... المذهب الطبيعى

Nature ... ... طبيعة

Need ... ... حاجة

Negative ... ... سلبى

Negativism ... ... السلبية

Nothing ... ... العدم

Notion ... ... فكرة

Nominalism ... ... الاسمية

Nominalists ... ... الاسميون

Neutral stuff ... ... المادة المحايدة

Nihilism ... ... العدمية

O

Object ... ... موضوع — شىء

Objective ... ... موضوعى

Objectivity ... ... موضوعية

Obsceneness ... ... فحش

Observation ... ... ملاحظة

Obscurantism ... ...
الجهالية (مذهب من يريد البقاء فى الجهل) — مذهب الظلام

Obscurity ... ... الغموض

Obsession ... ... التلبس

Omnipotence ... القدرة على كل شيء

Omniscience ... ... العلم بكل شيء

Opinion... ... ... رأى

Origin ... ... أصـــل

Order ... ... ترتيب – نظام

Organisation ... ... تنظيم – منظمة

P

Pagan ... ... وثنى

Paganism ... ... الوثنية

Painting ... ... النقش

Panpsychism ... مذهب وحدة النفس

Parallelism ... ... مذهب التوازى

Psychological parallelism التوازى النفسى

Perception ... ... إدراك حسى ...

Personality ... ... شخصية

Personification ... ... تشخيص

Perspective ... ... النظرة الشاملة

Physico-chemical ... ... طبعكيمائى

Perversion ... ... انحراف (جنسى)

Pessimism ... ... التشاؤم

Philosophy ... ... فلســفة

Philosophy of history... فلسفة التاريخ

Philosophy of mind ... فلسفة العقل

Philosophy of religion ... فلسفة الدين ...

Plastic ... ... مجسم

Plastic art ... ... فن مجسم

Pleonasm ... ... اللغــو

Pointillism ... النقطية (مذهب فى الفن)

Politician ... ... سـياسى ...

Politics ... ... السياسة

Polygamy ... ... تعدد الزواج ...

Polytheism ... ... تعدد الآلهة ...

Positive... ... ... موجب – إيجابى ...

Positivism ... الوضعية (المذهب الوضعى)

Possibility ... ... امكان – احتمال

Post-marital ... ... بعد الزواج ...

Potency... ... ... قــوة...

Potential ... ... بالقـــوة

Power ... ... سلطة – قوة...

Practice ... ... العمـــل

Pragmatism ... البرجماتية – البراجماتزم

Praise ... ... مـــدح

Predestination ... ... العناية الأزلية

Preestablished harmony ... ...
التناسق الأزلى (مذهب ليبنتز)

Prejudice ... ... تحـيز

Premarital ... ... قبل الزواج ...

Premise ... ... مقدمة (فى المنطق)

Primitive ... ... بدائى ...

Principle ... ... مبـــدأ

Probability ... ... رجحان – احتمال

Problem ... ... مشكلة

Profane ... ... دنيوى

Progress ... ... تقـــدم

Progressive ... ... متقـــدم

Proletariat ... طبقة عاملة – برو ليتاريا

Proportion ... ... نسبة – تناسب

Proposition ... ... قضية (فى المنطق)

Promiscuity ... ... إباحية

Professional promiscuity ... بغـــاء

Providence ... ... العناية الإلهية

Provincialism ... ... النزعة الإقليمية

Psychology ... ... علم النفس

Psycho-physical ... ... نفسطبعى

Puritanism ... ... التطهيرية (التزمت)

Puritan ... ... بيوريتان (متطهر)

Q

Quantity ... ... كم
Quality ... ... كيف...
Quantum الكويمية – الكويمة (كوانتوم)

R

Rational animal ... ... حيوان ناطق
Rationalisation ... ... تعقيل...
Rationalism ... ... المذهب العقلى
Rationality ... ... التعقل
Reaction ... ... رد فعـــل
Reactionary ... ... رجعى
Real ... ... واقع – حقيق
Realisation ... ... تحقيق...
Realism ... ... الواقعيـــة
Realist ... ... الواقعى
Reality ... ... حقيقة – الواقع
Reason ... ... عقـــل
Reasonable ... ... عاقل – معقول
Reasoning ... ... اســـتدلال ...
Reflection ... ... تفكر – تأمل
Reformation ... ... الإصلاح الدينى
Regularity ... ... انتظام
Relativity ... ... النسبية
Reliability ... ... صالح للاعتماد عليه
Religion... ... ... دين
Religious ... ... متدين – دينى
Renaissance ... ... عصر النهضة
Reproduction ... ... تناســـل
Restraint ... ... حرمان
Resurrection ... ... بعث
Response ... ... استجابة
Rites ... ... طقوس – شعائر
Right ... ... حق
Rule ... ... قاعدة – حكم (فى السياسة)...
Rythm ... ... وزن ...
Rythmic ... ... موزون

S

Sacred ... ... مقدس
Sanction ... ... جزاء
Savagery ... ... همجية – توحش
Scarification ... ... تنديب
Scatophilia ... ... عشق القذارة
Sculpture ... ... النحت
Scepticism ... مذهب الشك – الشكية...
Sceptic ... ... شـــاك
Science ... ... عـــلم ...
Scholastic ... ... مدرسى
Scholasticism ... ... المدرســـية
Secondary ... ... ثانوى
Sect ... ... فرقة – شيعة...
Security ... ... أمن
Sensation ... ... إحساس
Sense of beauty ... ... حاسة الجمال
Separation... ... ... انفصال
Sex ... ... جنس...
Sexual ... ... جنسى...
Sensitivity ... ... حساسية
Social order ... ... نظام اجتماعى
Socialism ... ... اشتراكية
Society ... ... مجتمع ...
Soul ... ... نفس ...
Solidarity ... ... تضامن
Solitude ... ... عزلة
Spatial ... ... متحيز
Space ... ... مكان ...
Space-time ... ... زمكان
Spirit ... ... روح ...

Spiritualism ... ... الروحية
Spontaneity ... ... تلقائية
Speculation ... ... النظر ...
Stage ... ... مرحلة ...
Static ... ... ساكن
Statesman ... ... رجل حكم ...
Statesmanship ... ... فن الحكم
Statistics ... ... إحصائيات ...
Standardeiation ... ... توحيد
Stimulus ... ... مؤثر ...
Structure ... ... تركيب – هيئة
Stock ... ... سلالة
Stoics ... ... الرواقيون
Stoicism ... ... الرواقية
Subject ... ... ذات – شخصي
Subjective ... ... ذاتي – شخصي
Subjectivity ... ... الذاتية – الشخصية
Sublime ... ... رائع – جليل
Submission ... ... خضوع
Substance ... ... جوهر – مادة
Substantial ... ... جوهري
Suggestion ... ... إيحاء
Superficial ... ... سطحي
Superfluous ... ... زائد
Superman ... ... إنسان أعلى
Supernatural... ... ... علوي...
Supernaturalism ... ... الغيبية...
Superstitions... ... ... خرافات
Syllogism ... ... قياس (فى المنطق)
Symmetry ... ... تماثل
Synthesis ... ... تركيب
Synthetic ... ... تركيبي

T

Taste ... ... ذوق

Taboo ... ... محرم
Technical ... ... فني
Technology ... ... صنعة – تكنولوجيا
Temperament ... ... مزاج
Tension... ... ... توتر
Test ... ... معيار – اختبار
Tender emotion ... ... انفعال الحنان
Theology ... ... لاهوت
Theologist ... ... لاهوتي
Theory ... ... نظرية
Theoretical ... ... نظري...
Thing-In-Itself ... ...
الشيء بالذات (فى فلسفة كانط)
Thinker ... ... مفكر
Thought ... ... فكر
Time ... ... الزمان
Truth ... ... الحق
Total ... ... كلي
Totem ... ... طوطم
Traditions ... ... التقاليد
Traditional ... ... تقليدي
Transcendent ... ... متعالي...
Transcendental ... ... أولي شرطي...
Tyranny ... ... استبداد

U

Ugly ... ... قبيح
Ultimate ... ... نهائي – أقصى
Ultimate good ... ... الخير الأقصى
Unconsciousness ... ... اللاشعور
Unknowable ... ...
ما لا يمكن معرفته (فى فلسفة سبنسر)
Unit ... ... وحدة
— Social unit ... وحدة اجتماعية...

Unity ... وحــدة

Universe ... كون

Universals ... الكليات

Unreality ... اللاحقيقة

Unrealiability ... اللاثقة

Utility ... منفعة

Utopia ... مدينة فاضلة – طوبيا

V

Vacuum ... الخــلاء

Validity ... ثقــة

Value ... قيمــة

Vice ... رذيلة

Virtue ... فضيلة

Vision ... رؤية

Vitalism ... الحيوية (المذهب الحيوى)

Vitality ... حيــوية

Veracity ... صــدق

Voluntary ... اردى

W

Whole ... كل

Will ... إرادى

Wisdom ... حكمة

Worship ... عبــادة

كانت الفلسفة لغة الخاصة وشُغْل فريق من الناس، وعُدت زمناً بين التعاليم السرية والمضنون بها على غير أهلها... ويُراد بها اليوم أن تنزل من سمائها وتعيش مع عامة الناس على أرضهم، وتنتقل من أرستقراطية الفكر إلى ديمقرطية البحث السهل الطليق... وقد اضطلع ديورانت بهذا العبء وشاء أن يقيم فلسفة متماسكة للحياة... فجاء عرضه شيقاً جذاباً، يؤذن باطلاع واسع، وإلمام تام بالفلسفة والتاريخ والعلم والأدب...

من مقدمة الدكتور إبراهيم مدكور

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن